جامعة القاهرة
كلية الآداب



المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

٤

يوليو ١٩٨٩

يصدرها قسم التاريخ

محتوى العدد

المراجعات وعرض الكتب :

دليل الرسائل الجامعية :



المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العـــدد الرابع — يوليو ١٩٨٩

المراسلات :

ترسـل البحوث والمقـالات باسم السـيد الاسـتاذ الدكتور / **حامد زيان غانم** على العنوان التالى :

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

بكل اعتزاز نقدم هذا العدد الجديد من « المؤرخ المصرى » ، متضمنا عددا من الموضوعات التى تبحث فى تاريخ وحضارة العصور المختلفة .

وتؤكد « المؤرخ المصرى » فى كل عدد يصدر عنها ما وصلت اليه من مكانة مرموقة فى الأوساط العلمية سواء داخل مصر أو خارجها ، فقد حازت على ثقة الباحثين ، وأحرزت تفوقا كبيرا فى ميدان البحث التاريخى . فأقبل عليها جمع كبير من المؤرخين سواء بنشر أبحاثهم على صفحاتها أو متابعة ما تنشره من بحوث ودراسات .

و « المؤرخ المصرى » اذ تشكر جميع المساهمين فى صدورها فانها فى ذات الوقت تعاهدهم على المضى قدما من أجل تحقيق أهدافها فى العمل على نشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الاكاديمى الجاد .

والله الموفق ،،،

الدكتور حامد زيان غانم

رئيس قسم التاريخ
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة
ورئيس تحرير « المؤرخ المصرى »





الأبحـاث والدراسـات



شرق الدلتـــا

منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى

دكتور / بــدر عبد الرحمن محمد
كلية الآداب ــ جامعة بنها

(أ) القبائل العربية التى استوطنت نواحى شرق الدلتا :

كان يعقب مراحل الفتح العربى لمصر اسـتيطان العرب فى أقاليمها ، ثم اعمار تلك المناطق . حتى يستوثق العرب الفاتحون من استيعاب أهالى تلك البلاد للدين الاسـلامى .

ولما كان جيش المسلمين يضم مختلف عناصر القبائل العربية ، فان تلك القبائل حرصت عقب استقرار الفتح أن تقيم فى مناطق شبيهة بتلك التى كانت تعيش فيها بالجزيرة العربية . ولذا فاننا عندما نتكلم عن انتشار القبائل العربية فى شرق الدلتا نوجه النظر الى أن تلك المناطق كانت تحوى عناصر سكانية من أقباط مصر ، وجنسـيات أخرى . عاش العرب الى جوارهم فى ظل النظــام القبلى الذى ألفوه فى الجــزيرة العربيــة .

تعددت الهجرات العربية الى مصر منذ الفتح العربى ، وحتى نهاية العصر الفاطمى . وكانت منطقــة شرق الدلتا بحــكم موقعها الجغرافى بمثابة الباب الطبيعى لدخول هذه القبائل ، ولذا كانت أكثر الأقاليم ازدحاما بالقبائل العربية ، ويرجع الســبب فى تفضيلهم البقاء والاقامة بتلك المنطقة الى أنها قريبــة الشبه بالبيئــة التى اعتادوا المعيشة فيها(١) .

---

(١) مثل منطقة فاقوس التى توجد بها الجزر الرملية :
Abbas Ammar : The people of Sharquiya. Vol. 1, p. 2629.
ومحمد فتحى الشاعر : اقليم الشرقية فى عصر ســلاطين الأيوبيين والمماليك ص ٩٢ ، رسـالة ماجستير ــ كلية الآداب / جامعة القاهرة .

ومن القبائل العربية التى هاجرت الى مصر واستقرت فى الحوف الشرقى قبيلة قيس • وقد تعددت الآراء فى أسباب هجرة قيس الى مصر . فابن عبد الحكم يذكر هجرتها الى مصر كفريضة(٢) من الخليفة هشـام بن عبد الملك لعبيد الله بن الحبحاب — صاحب خراج مصر (١٠٣ — ١١٦ هـ / ٧٢١ — ٧٣٤ م) « فجعل ابن الحبحاب الفريضة فى قيس وقدم بهم فأنزلهم بمصر الحوف الشرقى »(٣) • أما الكندى فيقول « ••• فوفد ابن الحبحاب على هشام فسأله أن ينقل اليه منهم أبياتا فأذن له هشام فى الحاق ثلاثة آلاف منهم . وتحـويل ديوانهم الى مصر على الا ينزلهم الفسطاط »(٤) • ويذكر المقريزى : « ••• أن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام بن عبد الملك خراج مصر قال : ما أرى لقيس فيها حظا الا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان وفيها « مصر » كور ليس فيها أحد وليس يضير بأهلها نزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجا وهى بلبيس »(٥) •

أما ستنلى لين بول فيقول أن الهدف من هذه الهجرة هو نشر الاسلام فى الدلتا(٦) . ولم ينتشر الاسلام فى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسا

---

(٢) يبدو أن المقصود بفريضة هنا هو المعونة والمساعدة ، والفريضة هى الحصة المفروضة . انظر جبران مسعود الرائد ص ١١٧ وهى التقدير. المقرى : المصباح المنير ج ٢ ص ٦٤١ وافرضه اى اعطاه وجعل له فريضة . طاهر الزاوى : ترتيب القاموس المحيط ج ٣ ص ٤١٧ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٤٣ (ولم تكن قيس بالحوف الشرقى قديما وانما الذى انزلهم به ابن الحبحاب ، وذلك انه وفد الى هشام ابن عبد الملك فأمر له بفريضة خمسة آلاف رجل او ثلاثة آلاف رجل » .

(٤) الكندى : كتاب الولاة ص ٧٦ ، المقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ص ٦٥ — ٦٦ ، جمال الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ج ١ ص ٨٣ ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٤٩ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٠ طبعة النيل ١٩٢٤ م .

(٦) Lane Poole : A History of Egyjte in the middle Ages P. 28 - 29.

الحوف الشرقى . واستمر تزايد قيس فى الحوف(٧) حتى كانت فى القرن الثالث الهجرى من أظهر قبائل حوف مصر(٨) .

أما الحوف فموقعه كامتداد غربى لشبه جزيرة سيناء . وكمعبر للقبائل الوافدة الى مصر من شبه الجزيرة العربية أو من الشام يجعله من أقدم ما عرف العرب من أرض مصر . والمقريزى يذكر أن قبيلة جذام(٩) كانت من أقدم القبائل التى نزلت الحوف(١٠) .

أما عن جذام فقد اشترك أفراد هذه القبيلة مع عمرو بن العاص فى فتح مصر وكانت هذه القبيلة تحتل الصحارى الواقعة فيما بين الحجاز والشام ومصر . وتعمل على ارشاد القوافل التجارية قبل انضمامها الى قوات عمرو بن العاص(١١) .

وفى أوائل القرن الثانى الهجرى أنزلت قيس الى الحوف ، ومنذ هذا التاريخ نجد أن قوة القيسية والجذاميين تكاد تكون متكافئة وكثيرا ما اتحدتا فى الثورة ضد الولاة .

وفى العصر الفاطمى منحت قبيلة جذام اقطاعات فى عدة جهات بمنطقة شرق الدلتا منها هربيط(١٢) . وتل بسطة(١٣) ونوب

---

(٧) بلغ عددهم سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٤ م الفا وخمسمائة اهل بيت .
المقريزى : البيان والاعراب ص ٦٧ .

(٨) انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ٧١٢ وما يذكره عن شعر المتنبى فى قيس .

(٩) تنسب هذه القبيلة الى جذام بن عدى الذى ينتهى نسبه الى يعرب بن قحطان .
محمد عزة دروزة : عروبة مصر ص ١٠٤ .

(١٠) المقريزى : البيان والاعراب ص ٢٣ .

(١١) عبد الله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ص ١٥٩ .

(١٢) هربيط : بلدة قديمة وردت على انها من أعمال الشرقية . انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٩٧ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٢٠ ، البغدادى مراصد الاطلاع جـ ٣ ص ١٠٢٢ ، ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار جـ ٥ ص ٤٨ ، ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ص ٤٥ .

(١٣) نوب : كانت فى عصرى سلاطين الأيوبيين والمماليك ضمن اقليم =

وأم رماد(١٤) . كما كانت قبيلة جذام ترتبع(١٥) فى عدة مناطق منها طرابية(١٦) وصان وابليل(١٧) . أى أن معظم مناطق الارتباع تحولت الى مناطق اقامة دائمة .

ومنذ الفتح العربى وحتى نهاية القرن الثالث الهجرى كان لجذام ثلاثة بطون فقط باقليم شرق الدلتا . وهى جرى وسعد (الذى عرف بسعوده الخمسة فى عصرى سلاطين الأيوبيين والمماليك) والبطن الثالث هم بنو وائل(١٨) من بنى جذام(١٩) . وقسم القلقشندى(٢٠)

= الشرقية ، وفى عصر ابن مماتى كان اسمها « نوب نزل بنى مطرود » وفى عصر ابن دقماق وردت باسم نوب ومضاف معها منية غراب والقطط كوحدة مالية واحدة ، وفى عصر ابن الجيعان وردت باسم نوب طريف وهو الاسم الذى ما زالت تعرف به حتى الآن واصبحت جزءا من السنبلاوين — دقهلية . انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٩٤ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٥ ص ٦٨ ، ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٤٥ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ج ١ قسم ٢ ص ٨٣ .

(١٤) أم رماد : كانت ضمن اقليم الشرقية وما زالت موجودة وتابعة لمركز الزقازيق .

انظر ابن دقماق : الانتصار ج ٥ ص ٥٧ ، ابن الجيعان ص ٢٣ محمد رمزى : ج ١ قسم ٢ ص ٨٣ .

(١٥) اعتادت القبائل العربية منذ الفتح العربى الانتقال فى فصل الربيع الى المناطق الخصبة المتاخمة للصحراء من اقليم شرق الدلتا حتى يتهيأ لهم الصيد وترويض خيولهم وتدريبها والاقامة فى جو قريب الشبه بجو البادية . انظر عبد الله خورشيد القبائل العربية فى مصر ص ٤٥ — ٤٦ .

(١٦) طرابية : كورة قديمة وكانت قسم ادارى ناحيته مدينة فاقوس .

انظر معجم البلدان ج ٤ ص ٢٤ ، البغدادى : مراصد ج ٢ ص ٨٨٢ ، ومحمد رمزى : ج ١ قسم ٢ ص ١١٦ — ١١٧ .

(١٧) صان وابليل : كورة واحدة : (انظر معجم البلدان ج ١ ص ٨٧ ، البغدادى : مراصد الاطلاع ج ١ ص ١٩ .

(١٨) ينسب الى بنى وائل بلدة « بنى وائل » التى كانت ضمن اقليم الشرقية واسمها الحالى « الوايلى الكبير » وكانت من توابع ناحية منية السيرج وهى من ضواحى القاهرة (انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٠٩ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ج ١ قسم ٢ ص ١٦ .

(١٩) عبد الله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ص ١٦١ — ١٦٢

(٢٠) القلقشندى : نهاية الأرب ص ١١٥

بطون جذام(٢١) باقليم شرق الدلتا الى خمسة بطون فالبطن الأول هم بنو زيد بن حرام بن جذام . وأما هلبا سويد(٢٢) فهى فخذ لبنى زيد . ويتفرع من هذا الفخذ خمسة فصائل . وهم سويد وبعجة ونائل ورفاعة وبردعة(٢٣) .

وأما البطن الثانى لقبيلة جذام بمنطقة شرق الدلتا فهو بنو مجربة بن حرام بن جذام . وهو أخو زيد بن حرام . ومن بنى مجربة الشواكرة . ولهم شنبارة بنى خصيب(٢٤) واليهم يرجع أولاد العجار . أدلاء الحاج (منذ عصر صلاح الدين الى عصر القلقشندى(٢٥)) وأما البطن الثالث فهو بنو سعد . وقد اجتمع بشرق الدلتا خمسة سعود من جذام . واختلط بعضهم ببعض : واحدهم بنو سعد بن اياس بن حرام ابن جذام والثانى : سعد بن مالك بن زيد بن سعد بن اياس ابن حرام ابن جذام . واليه ينسب أكثر السعديين . والثالث : سعد بن مالك بن حرام بن جذام . والرابع : سعد بن اسامة بن عبيس بن غطفان بن سعد بن مالك ابن حرام بن جذام . والخامس : سعد بن مالك بن سعد

---

(٢١) طبقات أنساب العرب هى : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة . والبطن ، والفخذ ، والفصيلة . (انظر القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٠٨) .

(٢٢) تنسب الى هلبا سويد بلدة « هلبلسويد » التى اندثرت ومكانها اليوم كفر السويدة مركز ابو حماد شرقية . (انظر على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٧ ص ٢٠ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى البلاد المندرسة ص ٤٧١) .

(٢٣) ينسب الى بردعة بلدة « البردعى » التى كانت ضمن اقليم شرق الدلتا . انظر ابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٥٢ ، ابن الجيعان : التحفة السنية ص ١٦ .

(٢٤) كان اسمها شنبارة منقلا وتعرف بشنبارة بنى خصيب من أعمال الشرقية ، واسمها الحالى شنبارة منقلا — مركز السنبلاوين دقهلية (انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٥٢ ابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٦٣ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى جـ ١ قسم ٢ ص ١٩١ .

(٢٥) القلقشندى : قلائد الجمان ص ٦١ — ٦٢ ، نهاية الارب ص ١٤٠ ، صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٢٣ .

ابن أياس بن حرام بن جذام . وأكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها ومنهم بنو صبرة(٣٦) وإليهم درك بركة الحاج(٣٧) . ومنهم شاس . وجيوش . وعلان . وفزارة ولها من تل طنبول(٣٨) الى نوب طريف . ويوجدون أيضـــا فى دنـــدوس(٢٩) . وعمـــريط(٣٠) . وأوليـــلة(٣١)

---

(٣٦) تنسب اليه ناحية قديمة فى العصر الايوبى تعرف باسم القصير . انظر ابن مماتى قوانين الدواوين ص ٨٦ ، وقال عنها من أعمال الشرقية . ثم وردت عند ابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٤٨ : باسم القصير من أعمال القليوبية . وأما ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٩ فذكر ما يلى : القصير ويعرف ببنى صبرة ضمن الاعمال القليوبية وقال محمد رمزى فى القاموس الجغرافى جـ ١ قسم ٢ ص ٢١٠ أن اسمها تحول من القصير الى « أبى زعبل » منذ سنة ١٢٢٨ هـ وهو الذى تعرف به الآن وتتبع مركز شبين القناطر قليوبيـــة .

(٣٧) كانت بركة الحاج جزءا من الاعمال الشرقية فى عصر الايوبيين . فقد وردت عند ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١١٠ باسم « بركة الجب » ثم وردت عند ابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٤٥ باسم « بركة الجب وهى بركة الحجاج من ضواحى القاهرة » .

(٣٨) كانت طنبول تابعة للاعمال الشرقية فى عصرى سلاطين الايوبيين والمماليك . انظر ابن مماتى : ص ١٦٠ . وابن دقماق : جـ ٥ ص ٦٤ . ابن الجيعان ص ٢٦ . وذكر محمد رمزى جـ ١ قسم ٢ ص ١٧٤ أن اسمها الحالى « طنبول الكبرى » وتتبع مركز أجا دقهلية .

(٢٩) كانـــت دندوس تابعـــة لاقليم الشرقية فى عصرى الايوبيين والمماليك ، كما ذكر ابن مماتى ص ١٣٢ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٥٨ ، البغدادى : مراصد الاطلاع جـ ٢ ص ٥٣ ، ابن الجيعان ص ٢٧ ، انظر على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١١ ص ١٧ وتتبع الآن مركز ميت غمر دقهلية . القاموس الجغرافى جـ ١ قسم ٢ ص ٢٥٥ .

(٣٠) عمريط : بلدة قديمة وردت عند ابن مماتى ص ١٦٤ ، وابن دقماق جـ ٥ ص ٦٤ . وابن الجيعان ص ٣٧ ، السخاوى : الضوء اللامع جـ ٧ ص ١٣٩ . وهى تتبع الآن مركز أبى حماد شرقية .

(٣١) كانت أوليلة تابعة لاقليم الشرقية فى عصرى السلاطين الايوبيين والمماليك . انظر ابن مماتى : ص ٨٥ وابن دقماق : الانتصـــار جـ ٥ ، ص ٥٨ ، ابن الجيعان : ص ٢٢ وذكر محمد رمزى فى القاموس الجغرافى جـ ١ قسم ٢ ص ٢٥٢ أنها تتبع مركز ميت غمر دقهلية .

وبرهمتوش(٣٢) ومنية غمر(٣٣) وريفها(٣٤) .

وأما البطن الرابع من جـذام فهم بنو زهير(٣٥) . ويقال لهم الزهور أيضا . ويلاحظ امتزاجهم مع بنى زيد بن حرام بن جذام . ومنهم بنو عرين(٣٦) . وبنو شبيب وبنو عبد الرحمن . وبنو هالك . وبنو عبيد . وبنو عبد القوى . وبنو شاكر . وبنو شماس . ومنهم أيضا البميلية . والمنيعية والمسـمارية . والحواتـفة . والحبارى والبشاشفة والطواعن والجوابر . والخضرة(٣٧) .

---

(٣٢) برهمتوش : بلدة قديمة وردت عند ابن مماتى ص ١١٠ ، وابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٥٨ ، ابن الجيعان ص ٣٥ وذكر محمد رمزى : القاموس الجغراف جـ ١ قسم ٢ ص ١٥٤ ان اسمها الحالى هو « كفـر الغنلية » وتتبع بلدة الرحمانية مركز ههيا شرقية .

(٣٣) منية غمر قديما كانت تابعة لاقليم الشرقية فى عصر الايوبيين والمماليك . كما وردت عند ابن مماتى : ص ١٧٦ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٢١٨ — ٢١٩ ، البغدادى : مراصد الاطلاع حـ ٣ ص ١٣٣٨ ، ابن دقماق : جـ ٥ ص ٦٧ ، وابن الجيعان : ص ٤٣ وذكر محمد رمزى : القاموس الجغرافى جـ ١ قسم ٢ ص ٢٦٣ انها قاعدة مركز ميت غمر دقهلية .

(٣٤) انظر القلقشندى : قلائد الجمان ص ٦٢ — ٦٣ ، نهاية الارب ص ٢٨٦ — ص ٢٨٩ ، صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٣٣ ، المقريزى : البيان والاعراب ص ٢٠ — ٢١ .

(٣٥) تنسب اليهم طماى الزهايرة وهى قرية قديمة كانت تعرف فى العصر الايوبى باسم « طماى » فقط ، وهذه البلدة تتبع مركز السنبلاوين دقهليـة .

محمد رمزى : القاموس الجغرافى جـ ١ قسم ٢ ص ١٩٢ .

(٣٦) تنسب اليهم بلدة « العارين » ويبدو انها نشأت فى عصر المماليك لم يرد ذكرها عند ابن مماتى وياقوت والبغدادى وانما وردت عند ابن دقماق : جـ ٥ ص ٥٦ وابن الجيعان ص ٢٠ ، وذكر على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ٤٨ انها قاعدة العرين شرقية ، والعارين تابعة لمركز فاقوس حاليـا .

(٣٧) والى الخضرة ينسب الامير احمد بن بقر بن خضر ، الذى كان احد امراء جذام فى عهد السلطان شعبان بن حسين (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ / ١٣٦٢ — ١٣٧٦ م) واستمرت الامرة لاولاد بقر حيث استقر الامير بيبرس =

أما قبيلة العايد فكانت هى البطــن الخامس(٣٨) لقبيلة جذام وعليهم تقع مسئولية درك الحاج الى العقبة(٣٩) . وكانوا يقطنون المنطقة الممتدة من بلبيس الى عقبة أيلة(٤٠) بالاضافة الى الكرك بفلسطين(٤١) .

وشاركت قبيلة لخم قيس وجــذام فى الحوف(٤٢) ، وهى من القبائل التى صاحبت عمرو بن العاص بعد دخوله الفرما(٤٣) ، ومنهم بنو سماك ، واليهم تنسب بلدتا سماكين الشرق وسماكين الغرب بمركز فاقوس شرقية(٤٤) ، وكانتا بلدة واحدة(٤٥) .

= ابن بقر فى مشيخة العربان سنة ٨٥١ هـ/١٤٤٧ م الى ان توفى سنة ٨٦٦ هـ
القلقشندى : قلائد الجمان ص ٦٤ — ص ٦٥ ، ضوء الصبح المسفر ص ٧٦ ، الخالدى : المقصد الرفيع ق ١٤٤ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٧٥ ، جـ ١٦ ص ٣١٥ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ١٧٥ .

(٣٨) القلقشندى : نهاية الارب ص ١١٥

(٣٩) القلقشندى : قلائد الجمان ص ٦٥ .

(٤٠) ايلة هى التى يطلق عليها العقبة حاليا ، وكانت ملتقى حجاج مصر والشام كما ينسب اليها خليج العقبة (انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٩٢ ، البغدادى : مراصد الاطلاع جـ ١ ص ١٤٤) .

(٤١) ابن خلدون : العبر جـ ٢ ص ٢٥٧ ، القلقشندى : قلائد الجمان ص ٦٥ ، وفى عصر الايوبيين كانت الامرة فيهم للامير عيسى بن يوسف ، وظلت لهذه القبيلة الامرة فى عصر المماليك حيث كلف الامير محمد بن عيسى سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م بكشــف الجســور بالشرقية ، وانعم عليه بامرة طبلخانا ، هــذا بالاضافة الى كونه رئيسا لعرب العايد ، ثم اصبح واليا للشرقية سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٧ م .
ابن الصيرفى : نزهة النفوس والابدان جـ ١ ص ١٣١ ، ص ١٧٨ ، ابن حجر : انباء الغمر بانباء العمر جـ ١ ص ٢٥٤ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٥٨٥ ، القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٢٧٦ .

(٤٢) الكندى : الولاة ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٥ .

(٤٣) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٥

(٤٤) القلقشندى : قلائد الجمان ص ٦٩ — ص ٧٠ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى جـ ١ قسم ٢ ص ١١٥ ، ص ١٢٢

(٤٥) كان اسمها فى العصر الايوبى « بركة السماقى » .
ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١١٠ .

ومن القبائل التى قدمت الى شرق الدلتا قبيلة بنى عدى . وهم رهط الخليفة عمر بن الخطاب وعشيرته . وهم من قريش(٤٦) . وتنسب اليهم بلدة بنى عدى وتتبع مركز فاقوس شرقية(٤٧) . وفى القرن الثانى الهجرى وفدت الى مصر فى ولاية بشر بن صفوان الكلبى (١٠١ — ١٠٢ هـ / ٧١٩ — ٧٢١ م) وكان لهم بطن بمصر وتنسب اليهم بلدة بنى كليب(٤٨) . التى نسبت فيما بعد الى بنى عامر وتتبع مركز منيا القمح شرقية(٤٩) .

وفى سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م أرسلت الخلافة العباسية جيشا أكثره من ربيعة(٥٠) يقوده خالد بن مزيد الشيبانى(٥١) . لمواجهة ثورة يمنية قادها عبد العزيز الجروى وامتدت من الدلتا الى الاسكندرية . ورغم أن قبيلة ربيعة فشلت فى مهمتها(٥٢) الا أن كثيرين من ربيعة استقروا فى الحوف(٥٣) .

---

(٤٦) عبد الله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ص ٦٩ ، ص ٧٧

(٤٧) بلدة بنى عدى قديمة وردت على انها من الاعمال الشرقية عند كل من ابن مماتى ص ١١١ ، وابن دقماق جـ ٥ ص ٥٩ ، وابن الجيعان ص ٢٦ ؛ وذكر محمد رمزى فى قاموسه جـ ١ قسم ٢ ص ١١٥ أن اسمها اليوم هو كفر اولاد العدوى .

(٤٨) وردت باسم « بيشة بنى كليب » عند ابن مماتى ص ١١١ ؛ وعرفت فى عصر المماليك باسم « بيشة بنى عامر » كما وردت عند ابن دقماق : جـ ٥ ص ٥٩ ، وابن الجيعان ص ٢٧ وذكر محمد رمزى : جـ ١ قسم ٢ ص ١٤١ انها تعرف حاليا « بيشة بنى عامر » وكان اسمها الاصلى « بيشة بنى كليب » .

(٤٩) عبد الله خورشيد : القبائل العربية ص ١٨٩ — ص ١٩٠ .

(٥٠) نسبة الى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان . القلقشندى : قلائد الجمان ص ١٢٩ .

(٥١) الكندى : الولاة ص ١٧٤ ؛ ص ١٧٦ .

(٥٢) نفس المصدر والصفحات .

(٥٣) نقلت ربيعة الى اقصى جنوب مصر اواخر عصر الخليفة المتوكل العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ — ٨٦١ م) للتصدى لخطر البجة ؛ وبعد ان نجحت فى صد عدوانهم استقرت ربيعة فى تلك المنطقة .

كذلك قدمت قبيلة طيىء(٥٤) الى مصر . وزادت هجرتها فى العصر الفاطمى . وكانت بعض بطون منها قد شاركت فى فتح مصر ، وكان حميد بن قحطبة الطائى واليا على مصر فى القرن الثانى للهجرة ، وكانت هذه القبيلة ممثلة فى جيشه الذى يبلغ عدده حوالى عشرين ألف جندى(٥٥) . كما ولى الشرطة فى مصر فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى أحد أبنائها . فى سنة ١٦٥ هـ / ٧٨٢ م وهو عمار بن مسلم الطائى ، والذى تولى المنصب نفسه سنة ١٧٣ هـ / ٧٩٠ م(٥٦) .

ولما دخل الفاطميون مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م حدث تطور فى هجرة طيىء لمصر ، ذلك أن بعض بطون القبيلة فى الشام انضمت الى جيوش القرامطة التى قدمت لمهاجمة الفاطميين فى مصر فى الفترة من سنة ٣٦١ هـ / ٩٧٠ م حتى سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م . وفى تلك الحروب تقدمت جيوش القرامطة من القلزم ، ثم عن طريق الحوف حتى مشارف القاهرة ، ولقد استطاع كل من جوهر الصقلى والخليفة الفاطمى المعز لدين الله استمالة بنى طيىء واغرائهم للتخلص من القرامطة(٥٧) .

كان انضمام طيىء للقرامطة بدافع الحصول على الغنائم والمكاسب ، كما أن تخليهم عن القرامطة كان بدافع الحصول على المنح والأموال من الفاطميين . ولاشك فى أن الكثيرين من قبيلة طيىء وجدوا أن الاستقرار فى مصر يحقق لهم الكسب . وليس ببعيد أن يكون الخليفة المعز نفسه قد شجعهم على الاقامة فى مصر ليصرفهم كلية عن الانضمام للقرامطة ، فانتشرت طيىء فى المنطقة الممتدة من حدود مصر

---

(٥٤) نسبة الى طيىء بن أود بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد ابن كهلان .
القلقشندى : نهاية الارب فى معرفة انساب العرب ص ٣٢٦ .
(٥٥) عبد الله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ص ١٨١ .
(٥٦) الكندى : الولاة ص ١٢٢ ، ص ١٢٤ ، ص ١٣٣ .
(٥٧) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٣٨ .

مع الشام حتى الحوف غربا(٥٨) .

ومن القبائل التى ارتبطت هجرتها الى مصر بالصراع بين الفاطميين والقرامطة هلال وسليم . ويبدو أن كلا من هلال وسليم قد دخلتا مصر فى هجرة قيس الكبرى سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٨ م اذ يقول المقريزى(٥٩) : فقدم عليه (ابن الحبحاب) مائة أهل بيت من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن . ومائة أهل بيت من بنى عامر ابن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان ابن مضر البطن المشهورة التى منها بنو كلاب وجعدة وعقيل وقشير والبكاء وعجلان وعبد الله وربيعة وسوادة وهلال ونصير ومائة أهل بيت من سليم فأنزلهم بلبيس وقدم لهم المساعدات اللازمة حيث اشتروا ابلا ، وعمل بعضهم فى حمل الماء الى القلزم ، فتحسن حالهم واشتروا الخيول وفى سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م قدمت اليهم خمسمائة أسرة من القيسية كمستوطنين جدد ، ثم توالت هجرة قيس فوصل عددهم الى ثلاثة آلاف أسرة بعد عشرين عاما ، ثم وصلوا الى حوالى نصف مليون فى عهد والى الخراج محمد بن سعيد (١٤٢ — ١٥٢ هـ / ٧٥٩ — ٧٦٩ م) (٦٠) .

لم يقتصر وجود قيس فى بلبيس وما حولها فحسب ، وانما امتدوا الى ما هو معروف حاليا باقليم القليوبية ، حيث كان هناك من أعقابهم فى عصرى الأيوبيين والمماليك ممن تركوا بلدا باسمهم وهم بنو فزارة(٦١) ، وبلدتهم عرفت باسم « خراب فزارة » ومن أعقابهم

---

(٥٨) القلقشندى : نهاية الارب ص ١٤١ ، ١٥٦ .
وقلائد الجمان ص ٨٦ ، السويدى : سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب ص ٥٩ ، عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب جـ ٢ ص ٨٢٠ ، جـ ٣ ص ٩٣٣ .

(٥٩) البيان والاعراب ص ٦٧ .

(٦٠) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٥١ .
Abbas Ammar : The people of Shasquiya Vol, 1, P. 31.

(٦١) خراب فزارة وردت عند ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٧٦ =

بنو مازن . الذين انتشروا حول قليوب بأطراف الشرقية . ولهم بلاد تخصهم مثل زفتى وسندبيس(٦٢) .

ويبدو أن الهلاليين أصبحوا منذ أوائل القرن الثالث الهجرى من مضون قيس الكبيرة فى الحوف . ففى سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م أرسل والى مصر عبد الله بن حليس الهلالى لمحاربة الثائرين فى الحوف . ولكن هذا الهلالى ما لبث أن انضم الى الثائرين وأصبح قائدا لهم(٦٣) .

ومن القبائل العربية التى وفدت الى مصر واستقرت بمنطقة شرق الدلتا واندمجوا فى أهلها الأصليين قبيلة بنى تميم . وهى من القبائل العدنانية التى دخلت مصر عام ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م مع قيام الدولة العباسية(٦٤) . وينتسب اليهم تل بنى تميم(٦٥) .

قدمت الى مصر قبيلة كنانة . وبصحبتها عدة بطون فى فترات متفاوتة واستمرت هجرتها الى مصر حتى بعد قيام الدولة الفاطمية(٦٦)

= باسم منية الفزارى من اعمال الشرقية ووردت باسم خراب فزارة عند ابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٦١ ، وكانت من اعمال الشرقية فى عصره ولكنها فى عصر ابن الجيعان : التحفة السنية ص ١٠ اصبحت من اعمال القليوبية ، وذكر محمد رمزى : القاموس الجغرافى جـ ١ قسم ٢ ص ٦ ان خراب فزارة أضيف زمامها الى بلدة بيت العطار مركز بنها قليوبية .

(٦٢) ومنهم بنو بدر وهم قبيلة القلقشندى المؤرخ . انظر القلقشندى : قلائد الجمان ص ١١٤ .

(٦٣) الكندى : الولاة ص ١٨٥ .

(٦٤) عبد الله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ص ٦٢ ، ص ٩٩

(٦٥) كان من اعمال الشرقية فى العصر الايوبى ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٢١ ، ثم صار من توابع اقليم القليوبية فى عصر المماليك ، ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٩ وهو حاليا يتبع مركز شبين القناطر قليوبيـة .

محمد رمزى : القاموس الجغرافى جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥ .

(٦٦) عبد الله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ص ٦٦ .

فى مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م وتنسب اليهم بلدة منية كنانة(٦٧) .

كانت قبيلة عك من القبائل العربية التى دخلت مصر عند الفتح العربى ، واستقرت بمنطقة شرق الدلتا . وعك من الازد من بنى مالك من قبائل كهلان ، وكانوا يمثلون غالبية الجند الذين سار بهم عمرو بن العاص الى مصر(٦٨) ، كما قدمت قبيلة عباد وهم بطن من تجيب من الازد من قبائل كهلان وينسب اليهم بنو عباد(٦٩) ، حيث استقروا بها وأيضا قبيلة بنى خيثم(٧٠) من بنى مالك من قبائل كهلان ، وتنسب اليهم بلدة بنى خيثم وهى تتبع ناحية الفدادنة مركز فاقوس شرقية(٧١) .

أما عن قبيلة ثعلبة فيرجع دخول بعض بطونها الى مصر منذ الفتح الاسلامى ، ولكن كان جميع اقطاع ثعلبة فى مناشير جذام منذ زمن عمرو بن العاص(٧٢) ، وأما بطون ثعلبة التى كانت تعيش فى بلاد

---

(٦٧) كانت ضمن اقليم الشرقية فى العصر الايوبى ، ابن مماتى : ص ١٧٦ ، ثم صارت تابعة للقليوبية فى عصر المماليك . ابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٥٠ ، ابن الجيعان ص ١٣ وتعرف اليوم باسم ميت كنانة مركز طوخ قليوبية . محمد رمزى : القاموس الجغراق جـ ١ قسم ٢ ص ٤٨ .

(٦٨) وكانوا يرتبعون فى سنديس واتريب ثم استقروا بها . عبد الله خورشيد : القبائل العربية ص ١٣٠ .

(٦٩) ظلت بنو عباد تابعة للشرقية طوال عصرى الايوبيين والمماليك . انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ١٢١ ، ابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٥٨ ، ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٢٦ وذكر محمد رمزى : القاموس الجغراق جـ ١ قسم ٢ ص ٢٥٤ انها حاليا تتبع مركز ميت غمر دقهلية .

(٧٠) بلدة بنى خيثم قديمة ورد ذكرها على انها من اعمال الشرقية عند كل من ابن مماتى ص ١٠٩ ، ابن دقماق جـ ٥ ص ٥٨ ، ابن الجيعان ص ٢٥ وذكر محمد رمزى القاموس الجغراق البلاد المندرسة ص ١٧٢ .

(٧١) فتحى الشاعر : اقليم الشرقية ص ١٠٦ — ص ١٠٧ رسالة ماجستير .

(٧٢) القلقشندى : قلائد الجمان ص ٥٧ ، المقريزى : البيان والاعراب ص ٢٣ .

الشام . وفى الطريق الى مصر حتى قطيا فكانت تتعاون مع الصليبيين فى العصر الفاطمى(٧٣) . وفى عصر صلاح الدين الأيوبى وبعد استيلائه على غزة قام بنقل بعض بطون قبيلة ثعلبة بالشام الى منطقة شرق الدلتا . وأقطعهم بعض اقطاعات جذام . وذلك بعد أن لمس منهم ميلا للبغى والعدوان(٧٤) .

ظل العرب المقيمون بمصر يتمسكون بالانتساب الى قبائلهم طوال القرنين الأول والثانى الهجرى . ولكن تلك القبائل كانت — ومنذ القرن الثانى الهجرى — قد أخذت تستقر فى بعض مناطق مصر . فأوراق البردى تشير الى اقامة العرب فى قرى مصر فى ذلك الوقت(٧٥) . كما انه بعد سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ واستتباب الأمر لبنى العباس نلمح مظاهر استقرار العرب فى مصر من خلال المبايعة للعباسيين . ففى الحوف بايع لهم مزيلفة الكلبى الزهيرى(٧٦) .

ولا شك أن شرق الدلتا (الحوف) يعتبر جغرافيا امتدادا طبيعيا للجزيرة العربية . وحلقة وصل بين الوطن الأول للعرب ومهجرهم الجديد . لذا كان من أكثر مناطق مصر اتصالا بالعرب المهاجرين . فقد

---

(٧٣) القلقشندى : قلائد الجمان ص ٨٥ — ص ٨٨ ، نهاية الارب ص ٩٥ .

(٧٤) المقريزى : البيان والاعراب ص ٦ . القلقشندى : نهاية الارب ص ١٩٥ ، صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٢٢ ، عباس عمار : المدخل الشرقى ص ١٠٩ وفى العصر الايوبى كانت الامرة فيهم فى شعير بن جرجى من المصالة من بنى زريق وتنسب اليهم صفط زريق التى وردت على انها من اعمال الشرقية عند كل من ابن مماتى : قوانين الدووابن ص ٤٥ ، ابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٦٢ ، ابن الجيعان : ص ٣١ وذكر محمد رمزى : القاموس الجغرافى جـ ١ قسم ٢ ص ١٩١ انها تتبع مركز السنبلاوين دقهلية .

(٧٥) جروهمان : اوراق البردى العربية جـ ٢ ص ٧٩ ، ص ٨٩ ، ص ٩٠ ، ص ٩٢ .

(٧٦) الكندى : الولاة ص ٩٥ ، ص ٩٦ والزهيرى نسبة الى زهرة من قريش .

كن طريقهم الذى سلكوه عند الفتح(٧٧) •

الدور السياسى للقبائل العربية فى شرق الدلتا فى القرنين الثانى والثالث الهجـرى :

منذ أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى الهجـرى أخذت عوامل ضعف الدولة الأموية فى الظهور . واستغل العباسيون تلك الظروف . فعملوا على نشر دعوتهم فى مصر ويذكر أبو المحاسن(٧٨) أن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ / ٧٢٣ — ٧٤٣ م) عزل عبد الرحمن بن خالد عن ولاية مصر سنة ١١٩ هـ / ٧٣٨ م لما بلغه انه اتصل سرا بالعباسيين ورحب بدعاتهم •

ومنذ خلافة مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ هـ / ٧٤٦ — ٧٥١ م) بدأت الاضطرابات تمتد الى مصر • وكانت سياسة موالاة القيسية قد أثارت القبائل اليمنية ضده(٧٩) . فثارت اليمنية ضد واليه حسان بن ثابت وعامل الخراج عيسى بن أبى عطاء ؛ وأعادوا الوالى السابق حفص بن الوليد الحضرمى(٨٠) . الا أن مروان بن محمد لم يرهب اليمنية بل عزل حفص وعين حوثرة بن سهيل الباهلى . الذى نجح فى ضرب زعماء اليمنية والقضاء على ثورتهم(٨١) •

وزادت الاضطرابات باشتراك الأقباط فى الثورة . كما اشترك

---

(٧٧) رضوان الجنانى : القبائل العربية فى مصر فى القرنين الثالث والرابع الهجرى ص ٢٤ رسالة ماجستير كلية الآداب / جامعة القاهرة .

(٧٨) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ص ٢٧٨

(٧٩) اتخذ الخلفاء الامويون سياسة مفادها احداث التوازن بين عرب الجنوب اليمنية وعرب الشمال القيسية . وذلك بأن يقربوا اليمنية حتى يعلو قدرها ، ثم يضربونها بتقريب القيسية منهم . فينحط قدرها ، الا انه كان لهذه السياسة اثرها السيىء فى قيام الحرب بين القيسية واليمنية ، والتى تمثلت فى موقعة مرج راهط بالشام سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م والتى راح ضحيتها اعدادا كثيرة من عرب القيسية واليمنية .

(٨٠) **الكندى : الولاة** ص ٨٤

(٨١) نفس المصدر : ص ٨٨ ، ص ٩٤

الموالى الذين نقموا على الخلافة الأموية تفضيلها العرب عليهم ، وأكثر من هذا أن أبناء الأمويين أنفسهم ثاروا ضد الخلافة الأموية ، فقد ثار عمرو بن سهل بن عبد العزيز بن مروان وأيدته القبـائل القيسية فى الحوف(٨٢) •

وما كاد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يدخل مصر فارا أمام ثوات العباسيين حتى وجد أن كثيرا من القبـائل قيسـية ويمنية قد « سودت »(٨٣) وأعلنت تأييدها للعباسيين . وفى الحوف تزعم القيسية مزيلفة الكلبى وعياض بن حريبة الكلبى(٨٤) •

لم تكن ثورة القبائل العربية ضد الأمويين بسبب ولائهم للعباسيين، وانما ترجع الى اعتماد العباسيين على العناصر غير العربية فى ادارة الولاية ، كما أنهم كانوا يثورون كلما زاد الخراج عليهم •

تعددت ثورات القبائل فى الحوف، ففى سنة ١٦٧ هـ / ٨٧٤ م ثارت القيسية واليمنية ضد والى مصر — موسى بن مصعب — وعماله ، وامتدت ثورتهم الى الفسطاط وكذلك فى عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ / ٧٨٧ — ٨٠٨ م) تجددت الثورة عندما زاد الوالى — أسحق بن سليمان — الخراج ، وفى سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٩ م حاول الوالى مسح الأراضى الزراعية فى الحوف ، فقامت قبيلة قيس على رأس عرب الحوف بشن هجوم على الوالى فى الفسطاط وامتنع عرب الحوف جميعا عن دفع الخراج • وعندما نجحت قوات الخلافة العباسية فى ضرب الثورة فى الحوف قال الشاعر أبو عثمان السكرى :

قـد جبينـا قيسـا ولم تك تجبى
وقتلنـا أبا النـدى وابن عبـاس

---

(٨٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٠٤ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة : جـ ١ ص ٢١٦ .

(٨٣) سودت : اى رفعت اللون الاسود شعار العباسيين .

(٨٤) بنو كلاب من قيس . المقريزى : البيان والاعراب ص ٦٧ .

وتركنـا لخمـا وحى جـذام
لا يطيقـون رفـع كـف تلامس

يا قيس عيلان انى ناصـح لـكم
أدوا الخراج وخافوا القتل والحرب

وتوضح هذه الأبيات اشتراك القيسية واليمنية ضد زيادة الخراج وعلى أن القبائل اليمانية نزحت الى الحوف وشاركت قيس(٨٥) .

تأثرت القبائل العربية فى مصر من جراء النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون حينما حاول الأمين أن يرغم أخاه المأمون على التنزول عن ولاية العهد لابن الأمين . وقد حاول كل من الأمين والمأمون استمالة بعض القبائل اليه لضرب خصمه .

غضب الجند فى مصر لمحاولة الامين اقصاء أخيه المأمون عن ولاية العهد ونادوا بخلع الامين . وانضم اليهم من أبناء القبائل زراعة بن معاوية الخولانى وابنه الحارث . وهاشم بن عبد الله بن حديج وابنه هبيرة ، وطردوا جابر بن الأشعث والى مصر من قبل الامين . ولما كان أنصار المأمون من اليمنية . فقد اتصـل الامين بالقيسية فى الحوف . واختار ربيعة بن قيس الحرشى — وهو رئيس قبيلة قيس بالحوف — وعينه واليا على مصر ، وقد شهدت الفسطاط كما شهد الحوف صراعا كبيرا بين الفريقين لم ينته الا بورود الخبر بقتل الامين(٨٦) .

أما اليمنية من قبيلتى لخم وجذام فقد وجدوا فى هـذا النزاع فرصة لنيل نصيب من السلطة . فحرضوا أحد أبنائهم — عبد العزيز ابن الوزير الجروى — ليدعو الى نفسه ووجدت تلك الدعوة صدى فى نفس الجروى . فاتخذ بلبيس مركزا له وأرسل عماله لجمع الخراج(٨٧).

---

(٨٥) الكندى : الولاة ص ١٤٢ ، ١٤٥ .
(٨٦) الكندى : الولاة ص ١١٨ ، ص ١٤٩ ، ص ١٥٢ .
والمقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٧٨ .
(٨٧) الكندى : الولاة ص ١٤٩ ، ص ١٥٢ .

أخذ عبد العزيز فى ارسال عماله الى قرى ريف الدلتا لتجمع له الخراج . وجعل مدينة تنيس مركزا له . وساعدت أحداث الخلافة على نجاح الجروى فى ثورته ولما أقدم المأمون على مبايعة على بن موسى الرضا بولاية العهد . كان الجروى ومعه لخم وجذام يسيطرون على أجزاء كبيرة من الدلتا . وامتد نفوذه الى الاسكندرية ثم أمدته بعض القبائل اليمنية فى الصعيد وعلى رأسهم سلامة بن عبد الملك الأزدى الطحاوى(٨٨) .

حاولت الخلافة العباسية ضرب القبائل اليمنية المؤيدة للجروى بجيش من قبيلة ربيعة العدنانية أرسلته من بغداد تحت قيادة خالد بن مزيد الشيبانى(٨٩) . غير أن هذا الجيش لم ينجح فى تحقيق مهمته . وأمام تزايد اضطراب الامور فى مصر أرسلت الخلافة جيشا آخر يقوده عبد الله بن طاهر . نجح فى اعادة الأمن والاستقرار الى الولاية(٩٠) .

كانت قبيلة قيس من القبائل العربية التى مارست الزراعة فى الحوف ؛ لذلك تاثرت من جراء زيادة الخراج . ففى سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م تزعمت الثورة ضد عامل الخراج صالح بن شيرزاد فى الحوف ، ثم ما لبثت اليمنية أن انضموا اليها ، واستطاعت أن تهزم جيش الوالى عند بلبيس التى كانت تعتبر مركزا لقبيلة قيس(٩١) .

لم تلبث ان عادت قيس للثورة سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م وانضم اليها المصريون(٩٢) ثم ما لبثت الثورة أن امتدت الى الاسكندرية حيث

---

(٨٨) الكندى : الولاة : ص ١٧٩ .

(٨٩) شيبان من ربيعة .

(٩٠) اليعقوبى : تاريخه ج ٢ ص ٥٥٥ ، ص ٥٥٦ ، الكندى : الولاة ص ١٧٤ ، ص ١٧٨ .

(٩١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٠ ، ص ٨١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٩٢) ارشيبالدلويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ١٤٤ حيث يذكر ان اكثر ثورات الاقباط المصريين بسبب الخراج .

انضمت اليها القبائل اليمنية . وأمام هذا الخطر اتجه الخليفة المأمون بنفسه على رأس جيش حيث قضى على الثورة والمتزعمين لها(٩٣) •

العلويون والقبائل العربية فى شرق الدلتا :

استفاد العلويون — وهم أتباع على بن أبى طالب رضى الله عنه — من ظروف الاضطرابات والثورات التى قامت بها القبائل ضد سيطرة العناصر التركية . وكانت الدعوة العلوية قد ظهرت فى مصر منذ عهد الخليفة أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ ﻫ / ٧٥٤ — ٧٧٥ م) عندما دخل مصر على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن واتهم والى مصر — حميد بن قحطبة — بالتواطؤ مع العلويين . فعزله المنصور وعين مكانه يزيد بن حاتم . ولكن الدعـوة العلوية ازدادت انتشارا وكثر المبايعون لبنى الحسن . الا أن نجاح المنصور فى القضاء على العلويين فى المدينة المنورة والبصرة أخمد هذه الدعوة(٩٤) •

وتجلى اضطهاد العلويين فى عهد الخليفة المتوكل على الله العباسى . ففى سنة ٢٤٨ ﻫ / ٨٦٢ م كشف أمر ابن الخزرى العلوى ، وألقى والى مصر آنذاك — يزيد بن عبد الله — القبض عليه وعلى مؤيديه(٩٥)، الا أن هذه السياسة لم تمنع العلويين من استمالة القبائل اليهم . أو انضمامهم هم الى القبائل فى ثوراتها ضد الخلافة وقد اتخذت القبائل العربية فى الحوف من زيادة الخـراج وعسـف جباتها بهم دافعا لمقاومتهم •

دور عرب بنى سعد فى الصراع بين الوزيرين شاور وضرغام :

كانت بعض القبائل العربية تتدخل فى الصراع الداخلى على السلطة

---

(٩٣) الكندى : الولاة ص ١٩٠ ، ص ١٩١ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢١٥ ، ص ٢١٦

(٩٤) الكندى : الولاة ص ١١١ ، المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٣٨ ، ابو المحاسن النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٤٩ ، ج ٢ ص ١ ، ٢ .

(٩٥) الكندى : الولاة ص ٢٠٣ ، ص ٢٠٤

فى مصر . وتجلى ذلك فيما حدث بين شاور السعدى(٩٦) فى نزاعه مع ضرغام أواخر العصر الفاطمى . فقد كان شاور من بنى سعد(٩٧) . فأرسل اليهم ما أخذه من أموال بعض الوزراء وأودعه(٩٨) عندهم . ولما ولى الوزارة سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م فى عهد الخليفة العاضد بالله الفاطمى . التف حوله العرب . وصاروا لا يفارقون باب الفتوح وباب النصر . ونهبوا غلات الحوف الشرقى . واستخفوا بالمقطعين . فلم ينكر ذلك عليهم . وأراد بذلك أن يكونوا له عضد ورداء(٩٩) .

علاقة القبائل العربية بالمصريين :

شهد القرنان الثالث والرابع الهجرى تطورا كبيرا فى علاقة القبائل العربية بالمصريين . فخلال القرنين الأول والثانى الهجرى كان الجفاء يسود تلك العلاقة فقد ابتعد العرب عن المصريين وانعزلوا عن مجتمعهم(١٠٠) .

وظل العرب فى اقليم شرق الدلتا خاصة وفى مصر عامة منذ الفتح العربى وحتى عام ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م يمثلون مجتمعا شبه مغلق . يتمسكون باسلوبهم فى الحياة ويمتنعون عن الاختلاط مع بقية السكان فى البلاد . وأسقط العرب من ديوان الجند عام ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م فى عهد والى مصر كيدر نصر بن عبد الله (٢١٨ — ٢١٩ هـ) بأمر من الخليفة العباسى

---

(٩٦) كان من عرب ميث غمر .

(٩٧) بنى سعد : فخذ من جذام وديارهم فاقوس .

(٩٨) من بنى رزيك وهو ما يزيد على نصف مليون دينار عينا سوى السلاح والكراع وغيره .

(٩٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفاء ج ٣ ص ٢٥٤ ، تحقيق / محمد حلمى محمد احمد . المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ١٩٧٤ م .

(١٠٠) يشير آدم متزالى الى أن المسيحيين فى مصر بشخصيتهم المتمثلة فى الكنيسة ولغتهم الخاصة يكونون قوة اخرى الى جانب العرب الفاتحين .
انظر : تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٩٢ ترجمة : محمد عبد الهادى ابو ريدة .

المعتصم(١٠١) . فعمدوا الى الاشتغال بالزراعة والاندماج بأهل البلاد الأصليين(١٠٢) .

استمرت ثورات القبط فى مصر وانتشرت حتى أوائل القرن الثالث الهجرى حيث عملت الخلافة العباسية على اخمادها . وبعد أن فقد العرب ما كانوا يتمتعون به من مميزات باسقاطهم من ديوان العطاء . نزحوا من الفسطاط الى الريف حيث خالطوا المصريين . فكان طبيعيا أن تتبدل العلاقة من جفاء وعداوة الى مشاركة وتعاون فعمل العربى فى الزراعة وانتسب الى المدن والقرى كما ينتسب الى قبيلته .

وتتضح لنا مظاهر تلك العلاقة الجديدة فى أوراق البردى التى تشير الى نمو وقوة العلاقة بين العرب والمصريين منذ الربع الأول من القرن الثالث الهجرى فالعربى يوقع كشاهد على عقود البيع والزواج(١٠٣) . بل أن هذه الأوراق توضح أن الزواج بين المسلمين والقبط يتم بصورة واضحة(١٠٤) .

وقد عبر ابن حوقل عما رآه من تكافل بين القبط والمسلمين فى مصر بقوله : « ومعظم رساتيق مصر وقراها فى الحوف والريف وأهلها نصارى قبط . ولهم البيع (الكنائس) الكثيرة الغزيرة الواسعة . وقد خرب منها الكثير العظيم فهم قلة شر الا مع عمالهم والمتقبلين لنواحيهم . وكان فيهم أهل يسار وذخائر وأموال واسعة وصدقات ومعروف . وأدركت من اليسار فيهم والمعروف منهم على المسلمين ما يطول شرحه . ولم يك بشىء من البلدان ما يقاربه أو يدانيه »(١٠٥) .

---

(١٠١) الكندى : الولاة ص ١٩٤ وكانت ام المعتصم تركية .

(١٠٢) فتحى الشاعر : اقليم الشرقية ص ٩٣ . رسالة ماجستير .

(١٠٣) جروهمان : اوراق البردى العربية ج ١ ص ١٤٦ — ص ١٤٨ ، ص ١٠٦ ، ص ١٠٧ ، ج ٢ ص ١٧٢ ، ص ١٧٥ .

(١٠٤) أوراق البردى : ج ١ لوثيقة ٤٨ لوحة ٧ ص ١٠٥ ، ١٠٦

(١٠٥) صورة الارض ص ١٥٠ منشورات مكتبة الحياة — بيروت لبنان.

الطـرق التجـارية :

(أ) الطرق النهرية التي تربط داخل البلاد المصرية بشرق الدلتا :

لعبت المواصلات دورا هاما في تسهيل حركة التجارة من داخـل البلاد الى شرق الدلتا • ولاشك أن طبيعة مصر الزراعية وامتداد النيل من شـمال الوادي الى جنوبه والفروع والخلجان التي تخـرج منه والفيضان الذي يعمر الارض في فترة معينة من السنة كان لكل ذلك تأثير كبير في وسائل النقل داخل مصر . فالنيل وفروعه أيسر وسيلة للنقل فتسـير المراكب الكبيرة والصـغيرة في مجراه حاملة المنتجات الزراعية من أسوان الى الفسطاط والقاهرة ومنها الى شرق الدلتا •

خليج القاهرة (خليج امير المؤمنين) :

وكان هذا الخليج يربط النيل بالبحر الأحمر . وهو بظاهر القاهرة من جانبها الغربي فيما بينها وبين المقس • وتسميه العامة « الخليـج الحاكمي » و « خليج اللؤلؤة » وكان قبل أن ينشيء جوهر الصقلي مدينة القاهرة يسمى « خليج مصر » وقد سمي بعد ذلك بالخليج الكبير تمييزا له عن الخلجان الاخرى(١) •

وكانت السفن النيلية تقطع المسافة ما بين الفسطاط والقلزم في خمسة أيام . ثم تفرغ حمولتها في القلزم . وتعود الى الفسطاط بما يرد الى القلزم من بضائع(٢) •

---

(١) أمر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص بحفر هذا الخليج بعد فتح مصر سنة ٢٣ هـ / ٦٤٣ م وسمى خليج أمير المؤمنين . الحسن بن زولاق : فضائل مصر واخبارها ص ١٩ ، ص ٢١ ، مخطوط بدار الكتب رقم ٢٥٩١ تاريخ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ص ١٦٢ ، المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٢١ ، جـ ٢ ص ١٣٩ ، ص ١٤٣ ، ص ١٤٤ ، ص ١٤٦ ، بولاق ١٢٧٠ هـ .

(٢) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ١٤٣ .

خليج دمياط ــ تنيس :

اتصلت تنيس بالفسطاط بخليج دمياط الذى ينقسم عند طلخا الى خليجين أحدهما يسير غربا الى دمياط والآخر يتجه شرقا نحو تنيس(٣) .

(ب) الطــرق البرية :

الطريق البرى من القلزم الى مكة :

كان هذا الطريق يمر بالطور الى الحجاز(٤) . وكان أهل مصر الذين يريدون التوجه الى مكة . يتجهون الى القلزم(٥) ومنها الى ايلة (ايلات) ومنها الى حجز بحر القلزم(٦) . ثم الى حقل « بئر ماء » الى بر مدين الى عيون القصب الى المويلح(٧) . ثم الى الأزلم ومنها الى الوجه (على ساحل البحر) الى الحوراء ومنها الى نبط(٨) : فالدهناء ومنها الى بــدر وبها الجار (ميناء المدينة) ثم الى رابغ (ميناء على ساحل البحر) الى مليص(٩) الى بطون مر(١٠) ومنها الى

---

(٣) Quatremere : Memoires Geographiques et Historiques sur l' Egypte et sur quelque contrees voisines. Tom 1, P. 297.

(٤) بعد الفتح الاسلامى قام منها « طريق الحج » يخترق التيه الى الحجــاز .

سعاد ماهر : محافظات الجمهورية فى العصر الاسلامى ص ٨٤ فصلة من مجلة كلية الآداب .

(٥) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٤٥

(٦) حجز بحر القلزم : هى جبال الحجاز ، سميت بذلك لانها حجزت بين الشام ونجد . ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٢ ص ٢١٨ .

(٧) المويلح : وتقع حاليا على شاطىء البحر الاحمر الى الشــمال من جــدة .

(٨) نبط : جبل بطريق مــكة .

(٩) مليص : موضع فى ديار بكر بلفظ التصــغير (اسما لروض) ياقوت : جـ ٨ ص ١٥٧ .

(١٠) بطن مر : من نواحى مكة . ياقوت : جـ ٢ ص ٢٢٠ .

مكة(١١) • ويبلغ طول هذا الطريق ثلاثمائة فرسخ [تسعمائة ميل](١٢) •

كان هناك طريق برى آخر من القلزم الى ايلة (ايلات) ثم من أيلة الى أواسط الجزيرة العربية . وقد جدد أحمد بن طولون هذا الطريق ومهده للقوافل(١٣) •

الطريق البرى بين مصر والشام والعراق من شرق الدلتا :

يبدأ الطريق البرى الى فلسطين من الفسطاط مارا بقطية وفاقوس والفرما والعريش ورفح وغزة . أما الطريق الى دمشق فيبدأ من الفسطاط الى بلبيس ثم الى الفرما فالرملة . ومنها الى طبرية فدمشق(١٤) . وعن طريق بادية الشام تصل القوافل الى بغداد(١٥) •

(جـ) الطريق البحرى من غرب أوربا الى المشرق مارا بشرق الدلتا :

كان يستغل هذا الطريق تجار اليهود الذين يأتون من مقاطعة بروفانس (بلاد الغال) ويسميهم المسلمون فى ذلك الوقت « تجار

---

(١١) السيوطى : حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة جـ ٢ ص ٢١٩ — ص ٢٢٠ .

(١٢) قطعها الرحالة الفارسى ناصر خسرو فى خمسة عشر يوما . سفر نامة ص ٤٥ . وكان الحجاج يفضلون السفر بطريق البر تجنبا لاخطار البحر الاحمر الذى يصفه الكتاب العرب بأنه ملىء بشعاب المرجان ، عنيف الرياح ، شواطئه مجدبة ، وتحتاج الملاحة فيه الى دليل محنك ، ولابد من القاء المراسى فى الليل . جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ص ٢٣٤ ، ص ٢٣٥ ترجمة / السيد يعقوب بكر .

(١٣) ابن خر داذبة : المسالك والممالك ص ١٤٩ .

دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثالث ص ٢٠٦ ، ص ٢٠٧ .

(١٤) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٢٢٧ (كان فى سيناء منذ أمد بعيد طريقان تجاريان وحربيان يصلان بينها وبين الشام وجزيرة العرب ، وهما طريق الفرما على شاطىء البحر المتوسط الى الشام فالعراق وطريق العريش مارا بقطية والعريش الى الشام فالعراق .

سعاد ماهر : محافظات الجمهورية فى العصر الاسلامى ص ١٨٤ .

(١٥) الادريسى : نزهة المشتاق ص ١٢٣ والمسافة من القلزم الى أرض العراق فى البرية نحو من شهر . الاصطخرى : مسالك الممالك ص ٦

البحر »(١٦) وكانوا يتكلمون العربية والفارسية واللاتينية والصقلية ، ويجلبون من الغرب الديباج والفراء والسيوف . ويبدأ هؤلاء رحلتهم من بروفانس (غالة) وترسو سفنهم عند الفرما . ثم يحملون تجارتهم على الدواب الى القلزم (وهى ميناء السويس الحالية)(١٧) ومن القلزم تنتقل عبر البحر الأحمر مارة بموانيه الهامة مثل جدة . ثم يمضون الى السند والهند والصين . ويحمل التجار فى عودتهم سلع المشرق • كالمسك والعود والكافور وغير ذلك • فاذا وصلوا الى القلزم اتجهوا الى الفرما ومنها الى بروفانس(١٨) •

---

(١٦) ابن الفقيه الهمذانى : كتاب البلدان ص ٢٧٠ .

(١٧) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٤٨ ، ص ١٤٩ .

(١٨) Heyd : Histoire du commerce du levant au Moyen Age. Tome, 1 P. 41.

أهم مدن شرق الدلتا ومدى ازدهار أحوالها الاقتصادية :

اكتسبت بعض المدن فى شرق الدلتا أهمية عظمى بعد أن غدت مراكز للتجارة الداخلية والخارجية ؛ ومن العوامل التى جعلتها تتخذ هذه الصفة : شغلها موقعا متوسطا بين المناطق التى تتبادل التجارة(١) ، فاما أن تكون قريبة من مجرى مائى أو تطل عليه ؛ بحيث تصل اليها البضائع لتصرف فى أسواقها ، أو أن تكون هى ذاتها مركزا لانتاج أنواع معينة من السلع . ومن هذه المدن :

— الفرما :

كانت الفرما(٢) أو الفرماء(٣) مدينة على شط بحيرة تنيس ، بينها وبين مدينة تنيس أقل من ثلاثة فراسخ(٤) ، وهى من موانى الساحل الشمالى لمصر ، وكان لها شأن كبير فى العصر الفاطمى ، فكانت محطة لتجارة أوربا ، ومنها كانوا يتوجهون الى القلزم لركوب البحر ، وقال عنها المقدسى : « كانت عامرة آهلة ، ولها أسواق حسنة ، وحولها مصايد السلوى(٥) ، معدن الأسماك الجيدة ، وكان ما يصاد منها يرسل الى الفسطاط ، وهى مجمع الطرق(٦) ، كذلك كانت تجارة الشرق التى

---

(١) شيشولم (ج.ح) الجغرافيا التجارية جـ ١ ص ٩٥ (مترجم من الانجليزية) .

(٢) كان اسمها « برامن » أى بمدينة الاله آمون ، ومنها اسمها العربى « برمون » والقبطى برما ومنه اسمها العربى الفرما ، وتعرف اليوم بتل الفرما على بعد ثلاثة كيلومترات من ساحل البحر المتوسط . محمد رمزى : القاموس الجغرافى جـ ١ ص ٩١ — ص ٩٢ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٧ دار صادر — بيروت .

(٤) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٤٩ بيروت .

(٥) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ١٩٥ ليدن ١٩٦٧ .

والسلوى : السمان وهو من الطيور المهاجرة من اوربا فى الفرما بكثرة فى الخريف .

(٦) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٩٥ ، ص ٢٠٢ ، ويذكر اهل مصر انه كان يخرج منها طريق الى جزيرة قبرص فى البر تغلب عليها البحر . الكندى : فضائل مصر ص ٥٢ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٥٦ بيروت .

تصل الى القلزم تحمل منها الى الفرما . حيث تنقلها سفن البحر المتوسط الى سواحل الشام وآسيا الصغرى(٧) •

وبالفرما نخلها العجيب الذى يثمر حين ينقطع البسر (تمر النخيل قبل أن يرطب) والرطب من سائر الدنيا . فيبتدىء هذا الرطب حين يلد النخل فى الكوانين فلا ينقطع أربعة أشهر حتى يجىء البلح فى الربيع ؛ ويكون فى هذا البسر ما يزن البسرة منه عشرون درهما وأكثر وفيه ما يكون البسرة منه قريبا من فتر(٨) •

تمر بالفرما القوافل والعساكر . وأهلها نحاف الأجسام ، متغيروا الألوان وهم من القبط وبعضهم من العرب من بنى جرى وسائر جذام ، ويقال أن أحمد بن المدبر (الذى ولى خراج مصر سنة ٢٥٠ هـ) أراد هدم أبوابها ، ولكن أهلها منعوه وقالوا له : « ان هذه الأبواب التى ذكرت فى كتاب الله عز وجل : (قال يعقوب لبنيه يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة)[٩] فتركها ابن المدبر(١٠) •

ومما يجدر ذكره أن الفرما تأثرت من جراء اعمال الطريق بين البحر المتوسط والبحر الأحمر عبر برزخ السويس . وقد استمرت هذه المدينة قائمة حتى منتصف القرن الثامن الهجرى(١١) •

القلــزم(١٢) :

تقع عند الطرف الشرقى للبحر الاحمــر . وهى بلد كما يذكر

---

(٧) جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٨ .

(٨) الكندى : فضائل مصر ص ٥٣ .

(٩) سورة يوسف : آية ٦٧

(١٠) الكندى : فضائل مصر ص ٥٢ ، المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٤١ ، طبعة النيل سنة ١٣٢٤ هـ .

(١١) Maspero et Wiet : Materiaux pour sirvir a la Geographie de l' Egypte. P. 134.

(١٢) ذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو : سفر نامه ص ٤٥ بأنها مدينة على شاطىء البحر بينها وبين مصر ثلاثون فرسخا ، وهى مدينة =

المقدسى . ليست بذات كلا ولا ضرع ولا حطب ولا شجر . ولكنها تعيش على تجارة البحر الاحمر حتى أصبحت خزانة مصر وفرضة الحجاز ومعونة الحاج(١٣) . وكانت تعتمد فى ميرة أهلها (أى اطعامهم) على ما ينقل اليها من بلبيس من الدقيق والقمح . وتنقل اليها المياه من السويس(١٤) .

وكان لهذا الميناء أهمية كبرى بالنسبة لحركة التجارة بين أوربا والشرق ويذكر ابن خرداذبة(١٥) أن « التجار اليهود كانوا يأتون من بلاد الفرنج قاصدين مصر . فينزلون الفرما . ثم يعبرون برزخ السويس(١٦) الى القلزم(١٧) . ومنها يركبون البحر الى الجار (ميناء المدينة وقتئذ) وتبلغها السفينة فى عشرين يوما(١٨) . ثم الى جدة ومنها الى عدن فى طريقهم الى سواحل الهند .

كانت ترسو بالقلزم السفن الكبيرة . ومعظم سكانه من أثرياء

السويس حاليا وهو اسم اطلقه العرب على مدينة قديمة اسمها كليسما وفى القرن العاشر الميلادى نشأت مدينة « سويس » جنوب القلزم ، وسبب ذلك انسحاب البحر الاحمر جنوبا وانفصاله عن البحيرات المرة واصبحت سويس هى الميناء بدلا من القلزم . انظر ياقوت الحموى ج ٣ ص ٢٨٦ ، ج ٤ ص ٣٨٧ — ص ٣٨٨ ، البغدادى : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٧٥٨ ، ج ٣ ص ١١١٦ — ص ١١١٧ ابن دقماق : الانتصار ج ٥ ص ٥٣ ، ٥٤ .

(١٣) أحسن التقاسيم ص ١٩٦ .

(١٤) نفس المصدر والصفحة ويقول المقدسى انه جاء فى الامثال : « ميرة أهل القلزم من بلبيس وشربهم من سويس » .

(١٥) المسالك والممالك ص ١٥٤ — ص ١٥٥ .

(١٦) السويس : بصيغة التصغير كما وردت فى الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٦٩ ، مدينة على الجانب الغربى لخليج السويس ، وثغر من ثغور مصر وفرضة لتجارات جزيرة العرب والهند والسودان واقعة فى شرق القاهرة .

(١٧) القلزم : ذكر معناها ابو صالح الارمنى فى كنائس واديرة مصر ص ٨٨ « الحبل الذى يستخدم فى ربط الملابس » وعرفها المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦ « الدواهى المضلقة » .

(١٨) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٤٥ .

التجار(١٩) . وكان يرسل منه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف حمل جمل من القمح والدقيق كل أسبوع الى بلاد الحجاز وقد وصفها ابن حوقل بقوله : « تامة العمارة . بها فرضة مصر والشام ومنها تحمل حمولات الشام ومصر الى الحجاز »(٢٠) وتعود السفن بعطور وجواهر السند والهند والصين وسرنديت (سريلانكا) وغيرها(٢١) .

وكان بالقلزم دار للصناعة(٢٢) وليس أدل على عظم التجارة وكثرة المكوس بها ما سامح به الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله أهل مدينة القلزم ما كان يؤخذ من المكوس على المراكب سنة ٣٨٧ هـ / ٩٧٦ م (٢٣) تشجيعا لحركة التجارة بالمدينة . هذا وقد استمرت أهمية القلزم قائمة حتى أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)(٢٤) .

بلبيس :

كانت قصبة الحوف الشرقى ، اشتهرت بكثرة القرى والمزارع والطواحين ، ففى أوائل القرن الثانى الهجرى ، أخذت الخلافة الأموية تشجع العرب . وتسمح لهم بمزاولة الزراعة . ففى سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٨ م سمح الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك بنقل بعض بطون قيس من الشام الى منطقة شرق الدلتا ، وقد سهل لهم عامل خراج مصر آنذاك عبيد الله بن الحبحاب كل الوسائل للعمل بالزراعة ، فمنحهم الأراضى لزراعتها وكان ذلك دافعا لقدوم بطون قيسية أخرى(٢٥) .

---

(١٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٤ — ص ١٥٥ ، اليعقوبى : البلدان ص ١٩٩ طبعة نبيت ، القاهرة ١٩٣٧ م .

(٢٠) صورة الارض ص ٩٧ — ص ٩٨ ليدن ١٩٦٧ م .

(٢١) الكندى : فضائل مصر ص ٧٠

(٢٢) الادريسى : صفة المغرب وارض السودان ومصر (مأخوذ من نزهة المشتاق) ص ١٢٤ — ص ١٢٥ .

(٢٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢١٣ طبعة النيل .

(٢٤) فى نص أورده ابن زولاق اشار فيه أن القلزم ميناء هام فى أيامه : Maspero et Wiet : Materiaux. p. 149.

(٢٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٢٨ ، ص ١٢٩ .

وفى أوائل القرن الثالث الهجرى كانت المنطقة المحيطة ببلبيس تعرف ببلاد قيس(٢٦) .

وكان العرب يثورون بسبب عسف الولاة وزيادة الخراج(٢٧) . مما يؤكد استقرارهم ومزاولتهم للزراعة . وأوراق البردى تشير الى امتلاك العرب للاراضى الزراعية فى القرن الثالث الهجرى(٢٨) . فكانت بلبيس تمير (تزود) أهل الحجاز بالدقيق والكعك . وقد أحصى المقدسى ما حمل(٢٩) منها فى أسبوع واحد ثلاثة آلاف حمل جمل من الحبوب والدقيق(٣٠) .

كانت بلبيس ممرا تجاريا بين الشام ومصر . وبها كثير من الاسواق والفنادق وكان يلحق بهذه الفنادق كثير من الحوانيت(٣١) . وأصاب أهل بلبيس من ذلك ثراء كبيرا وعاشوا فى « رغد من العيش »(٣٢) .

وبأسواق بلبيس جمهور من الباعة(٣٣) . والسقايين والمكاريين . شأنها فى ذلك شأن أى مدينة كبيرة فى مصر . كما كان بها عدد وافر من الصناع وأرباب الحرف أسوة بباقى المدن المصرية(٣٤) .

---

(٢٦) الكندى : الولاة ص ١٧٥ .
(٢٧) نفس المصدر : ص ١٢٥ ، ص ١٨٥ ، ص ١٩٠ ، ص ١٩٢ .
(٢٨) جروهمان : اوراق البردى جـ ٢ ص ٩٩ ، جـ ٣ ص ٢٠ ، جـ ٥ ص ١٦٢ .
(٢٩) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٥ .
(٣٠) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٦٢ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ١١٨ — ص ١١٩ .
(٣١) بلغ عددها فى الفندق الواحد ستة عشر حانوتا .
ابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٥١
(٣٢) العبدرى : رحلة العبدرى ص ٢٢٤ .
(٣٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ قسم ٣٢ ص ٧٧٨ .
(٣٤) أحسن التقاسيم : ص ١٩٥
وابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان جـ ٢ ص ٩٥

تنيس :

وهى جزيرة ومدينة بعيدة عن الساحل(٣٥) . بينها وبين دمياط مسيرة نصف نهار(٣٦) وكان اتصالها سهل بشرق الدلتا . ويبلغ طولها من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع ومائتى ذراع . وعرضها من المشرق ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانين ذراعا . ولها تسعة عشر بابا مصفحا بالحديد . وبها نحو مائة وستين مسجداً . وستة وثلاثون حماما . ومائة معصرة للزيت السيرج والقصب . فضلا عن مائة وستين طاحونا . وعدد كبير من الحوانيت(٣٧) .

اقيم بجزيرة تنيس ومدينتها صهاريج عظيمة تحت الأرض تسمى المصانع . فعندما يزداد ماء النيل ويطرد الماء الملح من هناك ، تملأ هذه المصانع من ماء النيل الذى يجرى اليها . ويستعمل السكان هذا الماء حتى السنة التالية . وكل من لديه ماء فوق حاجته يبيع الفائض لغيره(٣٨) .

اشتهرت تنيس بصناعة الحلل (الثياب) التنيسية(٣٩) من الكتان ، وكان يبلغ ثمن الحلة منها مائتى دينار . وكانوا ينسجون بها أثوابا تسمى البدنة . تنسج بالذهب صناعة محكمة . يباع الثوب منها بمائة دينار . وكان يحمل من انتاج تنيس الى العراق حتى سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م ما كان قيمته من عشرين الى ثلاثين ألف دينار(٤٠) .

وينسج بتنيس القصب الملون من عمامات ودفايات وملابس

---

(٣٥) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٣٨

(٣٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٦

(٣٧) ابن بسام التنيسى : الانيس الجليس فى اخبار تنيس ورقة ٧١ ب ، ٧٢ أ ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٨٥٢ ادب ، ٤(١١٤٥ عمومية .

(٣٨) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٣٩

(٣٩) يشيد الكندى : بما وصلت اليه تنيس فى مجال صناعة النسيج بقوله : « وليس فى الدنيا منزل الا وفيه ثوب من تنيس » فضائل مصر ص ٦٧

(٤٠) ابن حوقل : صورة الارض ص ٣٨ .

النساء • ولا ينسج مثل هذا القصب فى جهة ما غير تنيس • وما ينسج فى مصانع السلطان (الخليفة الفاطمى) لا يباع ولا يعطى لأحد • وقد سمعت أن ملك فارس أرسل رسله الى تنيس بعشرين ألف دينار ليشترى له بها حلة من كسوة السلطان . وبقى رسله هناك عدة سنين . ولم يستطيعوا شرائها • وبتنيس صناع مختصون بنسيج ملابس السلطان وسمعت أن عاملا نسج عمامة السلطان فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى . ورأيت هذه العمامة . ويقال أنها تساوى أربعة آلاف دينار مغربى(٤١) •

وينسجون فى مدينة تنيس البوقلمون . الذى لا ينسج فى مكان آخر من جميع العالم وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، وتحمل أثوابه من تنيس الى المشرق والمغرب وسمعت أن سلطان الروم (الامبراطور البيزنطى) كان قد أوفد رسولا يعرض على سلطان مصر (الخليفة الفاطمى) أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان وكان قصده من هذه المدينة القصب البوقلمون • وسمعت من الثقات انه يحصل منها لخزانة سلطان مصر يوميا ألف دينار مغربى ، ويحصل ذلك المقدار مرة واحدة يحصله شخص واحد يسلمه أهل المدينة اليه فى وقت معين ، وهو يسلم للخزانة فلا يتأخر منه شىء • وما ينسج للسلطان من القصب والبوقلمون يدفع ثمنه كاملا • ويصنعون بتنيس أيضا آلات الحديد كالمقراض والسكين وغيرهما ، وقد رأيت مقراضا فى مصر صنع فى تنيس ثمنه خمسة دنانير مغربية يفتح اذا رفع مسماره ويقص اذا نزل(٤٢) •

ولاشك أن عوامل مختلفة ساعدت على علو شأن تنيس بين المدن

---

(٤١) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٣٨ . من الجدير بالذكر ان ناصر خسرو رحالة فارسى زار مصر عدة مرات خلال العصر الفاطمى وفى خلافة المستنصر بالله الفاطمى ، ولذلك فان كتاباته تعبر عما كانت عليه مصر ومدنها التجارية والصناعية من تقدم وازدهار ، خاصة انه كان شيعى المذهب بمذهب الدولة الفاطمية .

(٤٢) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٣٨ ، ص ٤٠

المصرية منها مهارة أهلها . وقربها من المناطق الشهيرة بزراعة أجود أنواع الكتان . وسهولة اتصالها بداخل البلاد عن طريق بحيرة المنزلة . لكنها تعرضت لهجوم الفرنج سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م اذ هجموا فى خمسين مركبا وأخذوا جميع ما كان فيها . وغنموا من الأموال ما لا يحصى(٤٣) .

دبيق :

من البلاد المندرسة . ويعرف مكانها اليوم بتل دبقو أو دبجو بالقرب من شاطىء بحيرة المنزلة فى الشمال الشرقى لصان الحجر بمحافظة الشرقية(٤٤) . وتنسب اليها العمائم الشرب(٤٥) والدبيقى من الثياب(٤٦) المعلمة والمذهبة حيث كانت تجارة الدبيقى رائجة فى القطر المصرى . ويبدو أن دبيق كانت تمتاز على دمياط وتنيس بجودة نسيجها ومتانته ولهذا أطلق العراقيون على احدى قرى بغداد اسم دبقية(٤٧) وكانوا يبيعون منسوجاتها على أنها دبيقية لتروج فى السوق رواج منسوجات دبيق المشهورة بالجودة والمتانة(٤٨) .

دمياط(٤٩) :

تقع دمياط على الشاطىء الشرقى لفرع النيل المعروف بفرع

---

(٤٣) الدوادارى (ابن ايبك) : كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٦ ص ٥٦٣ ولم تزل تنيس مدينة عامرة الى سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م حين حاصرها الفرنجة وعاثوا فيها نهبا وسلبا وحرقا وظلت على هذا الحال حتى عهد الكامل محمد بن ايوب عامر سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م بهدم ما بقى من سورها وبيوتها .. ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ١ ص ٤٩ — ص ٥٠ ؛ جمال سرور تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٣٦ هامش (٤) .

(٤٤) محمد رمزى : القاموس الجغراف جـ ١ ص ٢٤٣ .

(٤٥) الأزدى : اخبار الدول المنقطعة ص ٥٢ مخطوط بدار الكتب .

(٤٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٣٦٢ ؛ بولاق ١٢٩٣ هـ .

(٤٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٤ .

(٤٨) جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٧٣ .

(٤٩) دمياط : مدينة قديمة عرفها اليونان باسم تامياتس ، وفى العصر =

دمياط(٥٠) . وتعد من المدن ذات الأهمية الاقتصادية حيث أخذت تبرز فى ميدان التجارة والصناعة(٥١) . وقد تفوقت فى شهرتها على كل من تنيس والفرما . ومما زاد من أهمية دمياط فى العصر الفاطمى أنها أضحت مركزا هاما لصناعة النسيج(٥٢) . وقد ساعد على رواج هذه الصناعة وفرة الكتان بمنطقة دمياط وشرق الدلتا(٥٣) .

اختصت دمياط بانتاج المنسوجات البيضاء وحدها . ويبلغ الثوب الأبيض بدمياط وليس فيه ذهب ثلثمائة دينار(٥٤) . وتنسب اليها الثياب الدمياطية . وقد بيعت حلتان دمياطيتان سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م بثلاثة آلاف دينار(٥٥) . كما يعمل بها القصب البلخى(٥٦) [نسبة الى مدينة بلخ ببلاد الفرس] وكان يقيم بها كثير من الحاكة لعمل الثياب الشرب(٥٧) . وبلغت منسوجاتها شهرة عظيمة فى بلاد فارس ، حتى أن أكبر مدينة فارسية لصناعة النسيج وهى — كازرون — كانت تسمى دمياط الأعاجم(٥٨) . وقد زارها الرحالة المقدسى (خلال القرن الرابع الهجرى) فوصفها قائلا : « أطيب وأرحب وأكثر فواكه ، وأحسن بناء وأوسع ماء ، وأحذق صناعا ، وأرفع بزا ، وأنظف عملا ، وأجود

= القبطى باسم تاميات ويقال ان معنى هذا اللفظ فى اللغة المصرية القديمة الارض الشمالية او الارض التى تنبت الكتان . جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٨

(٥٠) سعاد ماهر : محافظات الجمهورية فى العصر الاسلامى ص ١٥٧ ، ودمياط القديمة الى الشمال من دمياط الحالية التى نقلت اليه منذ سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م .

(٥١) جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٦٦ ، ص ٦٧

(٥٢) نفس المرجع : ص ١٢

(٥٣) نفس المرجع : ص ٧٠

(٥٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٦

(٥٥) نفس المصدر والصفحة .

(٥٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٦

(٥٧) نفس المصدر والصفحة .

(٥٨) جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٧٣

حمامات »(٥٩) .

وكان لدمياط وتنيس صلات ببلاد الشام والقسطنطينية وجزيرة قبرص . وقد ساعد موقع دمياط على شاطىء البحر المتوسط فى العصر الفاطمى على تسهيل ابحار السفن التجارية من داخل البلاد عبر نهر النيل الى موانىء هذا البحر ، وكانت ترد اليها السلع من تجار الروم . حيث تفرض عليها المكوس طبقا لـ كان متبعا فى الاسكندرية مع فارق بسيط فى بعض الضرائب(٦٠) .

أخذت دمياط مكان الصدارة بين موانىء مصر الشرقية فى العصر الفاطمى . بسبب ضيق الفرع البيلوزى وطمر الرمال له . مما جعله يفقد أهميته . بينما أخذ فرع دمياط يتسع وينطلق الى البحر وتزيد أهميته ويكثر استعماله(٦١) .

ومن الأسباب التى حملت الفاطميين على العناية بثغر دمياط انه كان مركزا هاما لصناعة النسيج . وقد أصاب أهلها من ذلك ثروة عظيمة ، وليس أدل على مبلغ ثرائهم أن بدر الجمالى اقترض من تجارها بعض الأموال عندما نزل بها ، بعد أن استدعاه الخليفة المستنصر بالله الفاطمى لتولى الوزارة سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م (٦٢) .

كانت دمياط محصنة بالأسوار . وعلى مدخل مينائها البحرى أقيم من الجانبين برجان بينهما سلسلة سميكة من الحديد ، لا تسمح بمرور

---

(٥٩) احسن التقاسيم ص ٢٠٢ .

(٦٠) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٥ ، ص ٣٢٧ ، تحقيق / عزيز سوريال عطية .

(٦١) جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ١٣

(٦٢) ابن ميسر : اخبار مصر ص ٢٣ طبعة هنرى ماسيه . القاهرة ١٩١٨ م .

السفن الا باذن . فلا تخرج مركب الى البحر المتوسط ولا يدخل مركب اليها الا بتصريح خاص حماية للمدينة ودفاعا عن أهلها(٦٣) .

على أن موقع دمياط المتميز على سواحل مصر الشرقية جعلها هدفا للحملات الصليبية التى كثيرا ما أغارت عليها . مما ألحق بها وبتجارتها وصناعتها وزراعتها الكثير من الدمار والخراب .

(٦٣) وكان ذلك خلال العصرين الايوبى والمملوكى .

المصـــادر والمـراجع

— — ابن الأثير (٦٤٠ هـ / ١٣٣٨ م) على بن أحمد بن أبى الكرم :
الكامل فى التاريخ ــ بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٣ م .

— — الادريسى (٥٤٩ هـ / ١٣٥١ م) محمد بن عبد العزيز الشريف :
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . ليدن ١٨٦٦ م .

— — الازدى (٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) العلامة جمال الدين أبو الحسن على
أخبار الدول المنقطعة ــ مخطوط بدار الكتب المصرية
رقم ٨٩٠ تاريخ

— — الاصطخرى (ت ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م) أبو اسحق ابراهيم بن محمد
الفارسى . المسالك والممالك ــ ليدن ١٨٧٠ ــ ١٨٩٣ م

— — آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى
ترجمة : محمد عبد الهادى أبو ريدة ــ القاهـرة
١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .

— — بتلر (الفرد . ج) : فتح العرب لمصر
عربه / محمد فريد أبو حديد . مطبعـة دار الكتب
المصرية ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م .

— — ابن بسام التنيسى : محمد بن أحمـد
الأنيس الجليس فى أخبار تنيس .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٨٥٢ أدب : ٤١١٤٥
عمومية .

— — البلاذرى : (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) أحمد بن يحيى بن جابر
فتـوح البـلدان
نشر وتحقيق / صلاح الدين المنجد ــ مكتبة النهضة
المصرية .

— جروهمان (أدولف) :
أوراق البردى العربية فى دار الكتب المصرية
الأجزاء من الأول الى الرابع — ترجمة الدكتور /
حسن ابراهيم حسن — دار الكتب ١٩٥٥ م •

— جمال الدين الشيال :
مجمل تاريخ دمياط ١٩٤٩ م •

— جورج فضلو حورانى :
العرب والملاحة فى المحيط الهندى
ترجمة / السيد يعقوب بكر — مكتبة الأنجلو المصرية

— ابن الجيعان (ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م) شرف الدين يحيى علم
الدين شاكر — التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية
نشر موريتز (القاهرة ١٨٩٨ م) •

— الحسن بن زولاق (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) أبو محمد الحسن بن
ابراهيم — فضائل مصر وأخبارها وخواصها
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥٩١ تاريخ

— ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ ، ١٤٤٨ م) شهاب الدين أحمد بن على
انباء الغمر بأبناء العمر
٣ أجزاء ، تحقيق د• حسن حبشى (القاهرة ١٩٧١ م)

— ابن حوقل (٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) أبو القاسم محمد البغدادى الموصلى
صورة الأرض — منشورات مكتبة الحياة — بيروت •

— ابن خر داذبة (توفى فى حدود سنة ٣٠٠ هـ) أبو القاسم عبد الله
ابن أحمد — المسالك والممالك
ومعه نبذة من كتاب الخراج وصنعته الكتابة لقدامة
ابن جعفر — ليدن ١٨٨٩ م ، ١٩٦٧ •

— دائرة المعارف الاسلامية

— — ابن دقماق (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) محمد بن ايدمر العلائى :
الانتصار لواسطة عقد الأمصار .
الجزء الرابع والخامس بولاق ١٣٠٩ هـ

— — الدواداري (ألفه سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٠ م) أبو بكر عبد الله بن أيبك — كنز الدرر وجامع الغرر
الجزء السادس : الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية
تحقيق / صلاح الدين المنجد — القاهرة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .

— — رضوان الجنانى :
القبائل العربية فى مصر فى القرنين الثالث والرابع الهجرى — رسالة ماجستير / كلية الآداب — جامعة القاهرة .

— — السخاوى (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) محمد بن عبد الرحمن :
— الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٢ جزءا القاهرة ١٩٣٣ .
— التبر المسبوك فى ذيل السلوك . القاهرة ١٨٩٦ م

— — سرور : الدكتور محمد جمال الدين
تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق — دار الفكر العربى ١٩٦٧ م .

— — سعاد ماهر :
محافظات الجمهورية فى العصر الاسلامى
فصلة من مجلة كلية الآداب / جامعة القاهرة . المجلد ٢١ العدد الأول ١٩٥٩ م .

— — سيدة كاشف :
مصر فى فجر الاسلام (القاهرة ١٩٤٧ م) .

— السيوطى : (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن أبى بكر
جمال الدين — حسن المحاضرة فى أخبار مصر
والقاهرة — مطبعة الوطن ١٢٩٩ هـ .

— شيشولم (ج. ح)
الجغرافيا التجارية (مترجم عن الانجليزية) مطبعة
المعارف ١٩١٢ م .

— أبو صالح الارمنى (٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) أبو المكارم جرجس بن
مسعود . تاريخ الشيخ أبى صالح الارمنى المعروف
بكنائس وأديرة مصر . نشر وترجمة / ايفتس
أوكسفورد ١٨٩٥ م .

— ابن الصيرفى (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م) على بن داود :
نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان — القاهرة
١٩٧٢ م — جزءان — تحقيق د. حسن حبشى .

— الطبرى (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى
تاريخ الأمم والملوك . تحقيق محمد أبو الفضل —
دار سويدان ١٩٨٢ م .

— ابن عبد الحق (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) صفى الدين عبد المؤمن
البغدادى : مراصد الاطلاع فى الأمكنة والبقاع
٣ أجزاء — تحقيق / على محمد البجاوى — القاهرة
١٩٥٤ .

— ابن عبد الحكم (٢٥٧ هـ / ٨٧١ م) عبد الرحمن بن عبد الله
فتوح مصر وأخبارها — ليدن ١٩٢٠ م .

— ابن عبد ربه (٣٤٩ هـ / ٩٤٠ م) شهاب الدين أحمد
العقد الفريد — بولاق ١٢٩٣ هـ .

— — عبد الله خورشـيد :
القبـائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة (القاهرة ١٩٦٧ م) .

— — على مبـارك :
الخطوط التوفيقية لمصر والقـاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة — عشرون جزءا — القاهرة ١٨٨٥ م

— — عمر رضا كحـالة :
معجم قبائل العرب — دمشق ١٩٤٩ .

— — أبو الفدا (٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) عماد الدين اسماعيل بن محمـد
تقويم البلدان — باريس ١٨٣٠ م .

— — القلقشندى (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد :
١) صبح الأعشى فى صناعة الانشا (١٤ جـزءا)
القاهرة ١٩١٤ — ١٩٢٢ م .
٢) ضوء الصـبح والمسفر وجنى الدوح المثمر —
القاهرة ١٩٠٦ م .
٣) قلائـد الجمان فى التعريف بقبـائل عرب الزمان
تحقيق / ابراهيم الابيارى — طبعة أولى سنة ١٩٦٣ م .
٤) نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب
تحقيق/ ابراهيم الابيارى — طبعة أولى ١٩٥٩ م

— — الكندى (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف :
١) كتاب الولاة وكتاب القضاة — ليدن ١٩٠٨ هـ —
وبيروت ١٩١٢ م
٢) فضـائل مصر
تحقيق/ ابراهيم العدوى ، على محمد عمر ؛
القاهرة ١٩٧١ م .

— لويس ارشيبالد :
القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط
ترجمة/ أحمد محمد عيسى — مكتبة النهضة المصرية

— أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٩٦ م) جمال الدين يوسف بن
تغرى بردى — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر
والقاهرة — دار الكتب المصرية ١٩٢٩ — ١٩٣٠ م .

— محمد رمزى : القاموس الجغرافى
الجزء الاول — القسم الثانى — القاهرة ١٩٥٥ م .
البلاد المندرسة — القاهرة ١٩٥٤ م .

— محمد مختار : التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية
بالسنين الافرنجية والقبطية
المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

— محمد فتحى الشاعر :
اقليم الشرقية فى عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك
رسالة ماجستير / كلية الآداب / جامعة القاهرة .

— محمد عزة دروزة :
عروبة مصر فى القديم والحديث (صيدا — لبنان
١٩٦٣ م) .

— المقدسى : (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبد الله
محمد الشافعى
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم — ليدن ١٩٦٧ م .

— المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد بن على :
١ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
بولاق ١٢٧٠ هـ ، طبعة النيل ١٣٢٤ هـ
٢ — البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب
تحقيق عبد المجيد عابدين ١٩٦١ م .

٣ — السلوك لمعرفة دول الملوك :
الجزء الأول والثانى تحقيق / محمد مصطفى زيادة — القاهرة ١٩٣٩ م .
والجزء الثالث والرابع تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور — القاهرة ١٩٧٢ م .
٤ — اتعاظ الحنفاء بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء :
تحقيق / محمد حلمى محمد أحمد — المجلس الأعلى للشئون الاسلامية — القاهرة ١٩٧٤ م .

— — ابن مماتى : قوانين الدواوين
تحقيق / عزيز سوريال عطية

— — ناصر خسرو (٤٨١ هـ / ١٠٠٨ م) :
سفر نامه — ترجمة : يحيى الخشاب — القاهرة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤٥ م .

— — ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله
معجم البلدان
مطبعة السعادة ١٩٠٦ م ، طبعة بيروت — دار احياء التراث العربى ١٣٩٩ / ١٩٧٩ م .

— — اليعقوبى : (٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب :
١ — تاريخ اليعقوبى
٢ — البلدان — طبعة فييت — القاهرة ١٩٣٧ م .

المراجـع الأجنبيـة

— Abbas Ammar : The people of sharquiya. Vol 1.

— Heyd (W) : Histore du commerce du levant au Moyen Age (leipzig 1923).

— Lane poole (stanley) : A History of Egypt in the middle Ages. (London 1901).

— Maspero et wiet : Materiaux pour sirvire a La geographie de L' Egypt (Le Cairo 1919).

— Quatremere : Memoires Geographiques sur L' Egypt et sur quelque contrees Voisines. tom. 1.

فتح اقليم السند
وانتشار الثقافة العربية الاسلامية

الدكتور/ النـوم الطالب محمد يوسف
كلية الآداب – جامعة الامارات العربية المتحدة

تمهيـــد :

لقد اعتنق العرب الاسلام وآمنوا به على اعتبار أنه خير الديانات قاطبة وأن الناس من حولهم في ضلال مبين وأنهم حماة الاسلام والذائدين عن حياضه ، وأن عليهم دعوة النـاس كافة كي يصل هـذا الدين الى أبعـد مدى حسـبما أمر الله دعـوة وجهـاد(١) .

وبنـاءاً على هذا التصـور بدأت حركة انتشار الاسـلام في آسيا عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك حين حمل عبء الجهاد والفتح خارج الجزيرة العربية خليفته أبو بكر الصديق ، محققا بذلك لمبـدأ عالمية الرسالة المحمدية حيث أخذت الفتوحات الاسلامية تجتاح العـراق والشام في وقت واحد ، واستطاعت بتوفيق الله – أن تحقق انتصارات رائعة كان لها أعمق الأثر في حركة انتشار الاسلام في آسـيا فيما بعد .

ففي هذه المرحلة أرسل أبو بكر جيشا الى أطراف العـراق بقيادة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة فحققا عدة انتصارات على الفرس فاستوليا على الحيرة والأنبار(٢) وعقدا صلحا مع أهلها غير أن الفرس شعروا بخطورة التقدم الاسلامي في بلادهم فاعـدوا

---

(١) عمر كحالة : دراسات في العصر الاسلامي ، ص ٩ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، القسم الثالث ، ص ٢٩٩ .

جيشا لمحاربة المسلمين الأمر الذى دفعهم الى أطراف الصحراء(٣) .

وبعد وفاة أبى بكر تابع عمر بن الخطاب سياسته وفق وصيته والتى أمره فيها بأن يولى العراق عناية خاصة بأن يعيد خالد اليه بعد انجاز مهمته فى الشام(٤) . فأرسل عمر أبا عبيد بن مسعود الثقفى لنجدة المثنى وأمره بالسمع والطاعة له(٥) .

وعلى هذا المنوال حقق المسلمون انتصارات رائعة فى مصر والشام والعراق والجزيرة وخوزستان وازربيجان والجبال دون أن يطيش لهم سهم أو تنكس لهم راية . ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى شتت عمر شمل المملكتين المجاورتين للدولة الاسلامية وكان سر هذا التفوق العظيم بعد نظره وقوة عزمه والأخذ بمشورة أهل الرأى وحسن اختيار العمال والعمل بكل نافع والانتفاع بكل قوة(٦) .

وتجىء موقعة القادسية(٧) فى مقدمة هذه الانتصارات التى حققها عمر وبعدها توقف التقدم الاسلامى فى بلاد الفرس حتى لا تأخذ المسلمين نشوة النصر فيخسروا كلما كسبوا فكتب عمر الى سعد بن أبى وقاص بأن يتوقف(٨) .

---

(٣) طلب أبو بكر من خالد بن الوليد ان يلحق بالشام لمساعدة المسلمين بها ضد الروم .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(٥) صرف عمر النظر عن ارجاع خالد للعراق مرة ثانية — ابن طباطا : الفخرى فى الآداب السلطانية — ص ١٨ .

(٦) عمر كحالة : مباحث اجتماعية ، ص ٩ .

(٧) تعد القادسية فى سنة ١٦ هـ — المقدمة لفتح بلاد العراق — الفخرى : المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٨) كتب عمر لسعد قائلا « قف مكانك ولا تتبعهم واقنع بهذا واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها ولا تجعل بينى وبينهم بحرا » . البلخى : البدء والتاريخ ، جـ ٥ ، ص ١٧٧ .

لم يمض الا وقت قصير حتى جدد المسلمون حركة انتشار الاسلام فى آسيا فاستولوا على عاصمة الفرس عام ١٦ هـ وبعدها موقعة نهاوند سنة ٢١ هـ وفر يزدجرد ملك الفرس أمام الجيوش الاسلامية الى حلوان لاجئا وراء الملاذ حين عز النصير(٩) • وغدت نهاوند الجسر الذى عبر عليه المسلمون الى كافة بلاد آسيا حاملة راية الاسلام وحضارته الى تلك البلاد •

ثم أخذ المسلمون فى السعى لاتخاذ منطقة استراتيجية ينطلقون منها لتأمين المناطق التى تم فتحها ولمطاردة ملك الفرس الهارب الذى كان يعترض التقدم الاسلامى كلما أتيحت له فرصة سانحة بهدف استرداد ملكه الضائع(١٠) •

وجد عمر بن الخطاب ضالته فى خراسان لتحقيق هذه الاستراتيجية العسكرية فأرسل الاحنف بن قيس فى أهل البصرة فاستولى على معظم المناطق التابعة لخراسان وأخذ يطارد يزدجرد من مكان الى آخر حتى حاصره فى بلخ مما اضطره لعبور نهر جيحون لاحقا فى محاولة يائسة — بخاقان الترك(١١) •

ولما بسط الأحنف سيطرته على خراسان كتب الى عمر يزف له بشرى النصر وعلى الرغم من أن هذه الأخبار قد وقعت على الخليفة عمر بردا وسلاما الا أنه حذر الأحنف من مغبة اجتياز النهر(١٢) •

---

(٩) كانت نهاوند نهاية حقيقية للامبراطورية الفارسية ولذا فقد سميت بفتح الفتوح ، البلخى ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١١٧ . ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٣ ص ١٤ .

(١٠) البلخى : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١٧٧ .

(١١) استولى المسلمون على هراة ونيسابور وسرخس ومرو الشاهجان حيث كان يقيم يزدجرد . الطبرى : الامم والملوك ، جـ ٤ ص ١٦٧ .

(١٢) المصدر السابق جـ ٤ ، ص ١٦٧ .

ولما آلت الخلافة الى عثمان بن عفان سار بسيرة عمر فى الاهتمام بأمر انتشار الاسلام وجد فى مد جسوره فى آسيا وشجعه على ذلك عدم استقرار النفوذ الاسلامى فى أراضى الدولة الفارسية — على الرغم من الجهود التى بذلت فى عهد عمر — وذلك عندما ثارت بلاد فارس بعد وفاة عمر مباشرة .

أخذ عثمان بن عفان يرسل الحملات الى المناطق التى شقت عصا الطاعة فبعث بالوليد بن عقبة بن أبى معيط الى اذربيجان التى امتنعت عن دفع الجزية فغزاها وأجبرها على أدائها(١٣) . وفتحت طبرستان على يد سعيد بن أبى العاص(١٤) ، وهكذا كثف المسلمون جهودهم فى اعادة سيطرتهم على معظم بلاد فارس خلال خلافة عثمان التى كانت نهاية يزدجرد فيها حيث انتهت دولة الأكاسرة بموت ملكهم سنة ٣١ هـ(١٥) .

ثم جاءت خلافة على بن أبى طالب فى وسط فتنة عمياء فى وقت كان فيه على جند الشام رجل شديد الدهاء قوى المراس هو معاوية ابن أبى سفيان الذى شعر بتقلب الاحوال فى عاصمة الخلافة فدعى الناس للمطالبة بدم عثمان بن عفان . وكان فيه من صفات السياسة والادارة مقدرة لما ندب نفسه اليه . واستطاع معاوية منازعة على بن أبى طالب طوال فترة خلافته(١٦) مما أوقف حركة انتشار الاسلام الا فى حدود ضيقة حيث انها لم تستأنف بتلك القوة الا فى عهد معاوية بن أبى سفيان سنة ٤٠ هـ (١٧) .

---

(١٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٤ .

(١٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٥ .

(١٥) مات يزدجرد فى شط المرغاب فى ظروف غامضة ، الطبرى : الامم والملوك ، ج ٤ ، ص ٩٢٣ .

(١٦) عمر كحالة : مباحث اجتماعية ، ص ٤٤ .

(١٧) عمر كحالة : مباحث اجتماعية ، ص ٤٤ .

قبل الحديث عن فتح اقليم السند وانتشار الثقافة العربية الاسلامية فيه ينبغى تحديد اقليم السند والمناطق التى يتضمنها عشية انتشار الاسلام فيه مع الاشارة الى مصدر تسمية السند بهذا الاسم .

موقع اقليم السند وتحديد اقاليمه وتسميته :

كانت شبه القارة الهندية فى القديم تنقسم الى قسمين جغرافيين الجزء الأكبر يسمى بلاد الهند والأصغر يسمى بلاد السند والبنجاب(١٨) وقد حدد معالم بلاد السند بصورة واضحة ابن حوقل حيث قال :(١٩) « وأما بلاد السند وما يصاقبها للاسلام مما جمعته فى صورة واحدة فهى بلاد السند وشىء من بلاد الهند ومكران وطوران والبدهة — وشرقى ذلك كله بحر فارس وغربيها كرمان ومفازة سجستان وأعمالها . وشماليها بلاد الهند وجنوبيها مفازة ما بين مكران والقفص ومن ورائها بحر فارس . وانما صار بحر فارس يحيط بشرقى هذه البلاد والجنوبى من وراء هذه المفازة من أجل أن البحر يمتد من صيمور على الشرقى من تيز مكران ثم ينعطف على هذه المفازة الى أن يتقوس على بلاد كرمان وفارس .

والواضح أن هذا التحديد الجغرافى الذى أورده ابن حوقل يؤكد ما ذهب اليه العرب من أن السند والهند اقليمين منفصلين بعضهما عن بعض ولكنهم فى بعض الاحيان أطلقوا على سكان الاقليمين (هندى) على وجه التغليب كما أطلقوا على أهل السند « سندى » وعلى أهل الهند « هندى »(٢٠) .

وبناءا على ما ذكره ابن حوقل فان اقليم السند يقع ضمن الاقاليم السبعة وقد أشار الى ذلك ابن رسته بقوله(٢١) « الاقليم

---

(١٨) تعرف الآن بباكستان .
(١٩) ابن حول : صورة الأرض ، ص ٢٧٤ .
(٢٠) ثلثى الظهر المبارك : من النارجيل الى النخيل ص ٥٧٥ .
(٢١) الاعلاق النفيسة ، ص ٩٩ .

الأول يبتدىء من المشرق الى أقاصى بلاد الصين ويمر على الصين ثم يمر على ساحل البحر فى جنوب بلاد السند »(٢٢) .

وهو خمس كور يجعل البعض مكران منها وفيها شىء من بلاد الهند حسبما أورده ابن حوقل(٢٣) . يمكن القول بأن التحديد الجغرافى كان يخضع دائما للظروف السياسية وقوة السلطة الحاكمة فيه ولذلك كان اتساع الاقليم أو تضاؤل مساحته يتغير من وقت لآخر . واستمر الحال على ذلك بعد الفتح الاسلامى لاقليم السند(٢٤) . وقد أكد على ذلك ياقوت الحموى حيث قال(٢٥) « فأولها من قبل مكران وكرمان ثم طوران ثم الهند ثم الملتان » فيضيف لها مكران وكرمان والهند فى حين أن ابن الفقيه يجعل كلا من السند والهند اقليما قائما بذاته منفصلا عن الآخر له حدوده وأشار الى ذلك بقوله(٢٦) : « فيما بين الهند والسند أرض يقال لها كنام » اما أبو الفداء فانه يرى أن هناك أرضا تابعة ـ فى الاصل ـ للهند فأخذت منها ثم ضمت للسند حيث يقول :(٢٣) « أما البلاد التى ضمت الى السند ودخلت فى تحديدها فمنها مكران وطوران والبدهة » وقد أحصى ابن خرداذبة مدن السند بقوله(٢٨) « قيعان (كيكان) ونيه « بريدنيون » ومكران وميد وقندرهار وقصدار وبوقان وقنداميل وقنزبور وارامابيل وديبل وقنبلى وكنبايا وسهبان وسدو وسان ارسك والردر وسادندرى وملتان وسندان ومندل وبيلمان وسرست وكبرخ ومرق وقالم وهج وبروص » .

---

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(٢٣) لاعلاق النفيسة ، ص ٩٩ .

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(٢٥) اطلق العرب على اقليم السند فى بعض الاحيان اسم الهند ثم عرف كذلك باسم هندستان ـ قاضى اطهر المبارك : من النارجيل الى النخيل ، ص ٤٣٢ .

(٢٦) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٢٧) كتاب البلدان ، ص ١٥ .

(٢٨) تقويم البلدان ، ص ٤٤٦ .

فمن هذه القائمة التى أوردها ابن خرداذبة نرى أن الجغرافيين لم يتفقوا على رأى واحد فى تحديد المدن التى يشتمل عليها اقليم السند . ومهما يكن من أمر فان هذا الاقليم قد انتشرت به العديد من المدن والقرى لخصوبة التربة وصلاحيتها للزراعة ثم كثرة المراعى فيها(٢٩) وبالاضافة الى ذلك فقد اشتغل أهلها بالتجارة وذلك لتوفر أسبابها(٣٠) مما أغرى الناس بالاستقرار والتوطن فيها .

وسنتناول بعض المدن التى كونت اقليم السند بالدراسة الموجزة وذلك نسبة لأهميتها التاريخية .

١ — مدينة المنصورة :

تعد المنصورة من أشهر مدن بلاد السند وهى قصبة الاقليم واسمها بالسندية « باميرامان »(٣١) وقد ذكر أبو الفداء(٣٢) أن اسمها القديم بمنهوا وسميت المنصورة لأن المسلمين حين فتحوها قالوا نصرنا . وقال المهلبى(٣٣) انما سميت بهذا الاسم لأن عمر بن حفص المعروف (بهزارمرد) المهلبى قد بناها فى خلافة المنصور العباسى ثم أطلق عليها اسمه . وقد وصفها ابن حوقل بقوله :(٣٤) « المنصورة مدينة مقدارها فى الطول والعرض نحو ميل ويحيط بها خليج من نهر مهران وهى فى شبه جزيرة » وهى بلدة شديدة الحرارة وليس بها سوى النخيل شىء يذكر .وقد أطنب فى وصفها ياقوت

---

(٢٩) المسالك والممالك ، ص ٥٧ .

(٣٠) توفرت بعض عروض التجارة مثل الجواهر والطيب والكركدن والاحجار الكريمة والعنبر والقرنفل والدارصينى والنارجيل والصندل والخولجان وغيرها . ابن الفقيه : كتاب البلدان ، ص ٢٥١ . المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٢٥١ .

(٣١) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢٧٦ .

(٣٢) تقويم البلدان ، ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٣٣) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٦٨ ٠٣ .

(٣٤) صورة الارض ، ص ٢٧٧ .

الحموى فقال :(٣٥) انها كثيرة الخيرات وكان اسمها قبل ذلك همنآباذ .
وقال المسعودى : سميت المنصورة بمنصور بن جمهور عامل بنى أمية .
وهى فى الاقليم الثالث فى حين أن هشام قال :(٣٦) سميت المنصورة
لأن منصور بن جمهور الكلبى بناها فسميت به وكان خرج مخالف لهارون
وأقام بالسند . والرأى الثانى هو الذى تميل اليه وهو أن اسـمها
المنصورة حسب رواية المهلبى نسبة للخليفة المنصور وأنها بنيت فى
خلافتـه .

مدينـة الديبـل :

من أهم مدن الســند مدينة الديبل وهى تقع شرق نهر مهران
على البحر وقد اشتهرت بالتجارة والزراعة(٣٧) نسبة لتجمع المياه العذبة
عندها من بلاد كثيرة مثل الملتان ولوهور وكشمير وغيرها ثم تصب فى
النهر الكبير . وقد ذكر السمعانى(٣٨) انها بلدة على ساحل البحر
تتبع للهند وتقع على مقربة من السند فى حين أن ياقوت يرى أنها من
مدن المنصورة ويؤيد قوله هذا البكرى . حيث يقول(٣٩) « والديبـل
مدينة معروفة فى أرض السند يقال لها الديبلان » وقد أنشد أبو عمر عن
ثلب عن الاعرابى فقال مؤكدا لهذا المعنى :

كأن ذراعـه الـمشــكول منــه
ســليب من رجــال الديبـــلان

ويقول عنها القلقشندى أنها من أكبر فرض السند وأشـــهرها
وأهمها(٤٠) ويظهر أنها قد اكتسبت أهمية خاصة لأنها كانت من أهم

(٣٥) معجم البلدان — احياء التراث ، ج ٥ ، ص ٢١٠ .
(٣٦) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢١٠ .
(٣٧) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٤٩٧ .
(٣٨) الانساب : ج ٥ ، ص ٣٩٣ .
(٣٩) معجم البلدان : ج ٢ ، ص ٢٦٧ .
(٤٠) صبح الاعشى : ج ٥ ، ص ٦٤ .

مراكز القيادة فى اقليم السند . ويقول البلاذرى فى ذلك :(٤١) « وكان بالديبل بد عظيم على دقل طويل وعلى الدقل راية اذا أهبت بها الريح أطفأت بالمدينة » .

٣ — مدينة الملتان :

وتلى هذه المدينة المنصورة فى الأهمية وتسمى فرج بيت الذهب(٤٢) ووجد بها صنم كبير عرف بالبد يقدره الهنود ويحجون اليه من أقاصى بلادهم ويتقربون اليه فى كل عام بالاموال الطائلة لتنفق على القائمين بأمره من سدنته ويرى ابن حوقل بأن المدينة سميت باسم البد الذى يطلق عليه « الملتان »(٤٣) ويقول أهل هذه البلاد الملتان الملطان لما فيهم من العجمى(٤٤) وقد اشتهرت بكثرة القرى وقد أشار الى ذلك القلقشندى بقوله : « ان قرى الملتان مائة ألف قرية وعشرون ألف » .

وما تجدر الاشارة اليه أن ابن حوقل قد ذكر أن هذه المدينة تابعة للهند فى حين أن البيرونى خالفه فى ذلك وقال انها من مدن السند وربما كان رأى البيرونى هو الصائب لما له من معرفة بهذه البلاد فهو أدرى بذلك من غيره . ويقول عنها ياقوت :(٤٥) « أنها تكتب بصورتين ملتان ومولتان وهى الأكثر وهى مدينة من نواحى الهند قرب غزنه » . ويظهر أنها قد تمتعت برخاء نسبى على عهد الدولة الاسلامية فيروى المقدسى(٤٦) أن بها رخص فى الاسعار فقد بلغ سعر الخبز

---

(٤١) ويعنى البد عند أهل السند كل شيء عظيم عن طريق العبادة — فتوح البلدان ، ص ٥٣٥ .

(٤٢) سميت بهذا الاسم لانها فتحت فى اول الاسلام وكان بالمسلمين قحط شديد فوجدوا فيها ذهب كثير فانتسموا بما وجدوه — ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢٧٨ .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٤٤) أبو الفداء : تقويم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٦٥ .

(٤٥) معجم البلدان : جـ ٥ ، ص ١٨٩ .

(٤٦) احسن التقاسيم ، ص ٤٨٠ .

ثلاثون منا بدرهم • ثم أن سكانها قد اعتموا بقيم الدين الاسلامى وأخلاقه الرفيعة وكان معظمهم من العرب وعلى حد قول المقدسى أنهم كانوا(٤٧) « لا يكذبون ولا يبخسون فى كيل ولا يخسرون فى وزن وأنه ليس عندهم زناة ولا شراب خمر ومن فعل ذلك حدوه » •

٤ — مكــران :

أما مدينة مكران فهى من المدن الواسعة وبها كثير من النخيل وتشتمل على العديد من القرى والمدن وأكبر مدنها التيز . (ويعرف بتيز مكران) والفنجبور وبه وبند وقصرقند وودزك وجميعها مدن متقاربة فى الناحية الاقتصادية غير أن مكران يغلب عليها القحط والضيق فى كثير من الاوقات(٤٨) •

وقد فتحها الحكم بن عمرو التغلبى فى أيام عمر . وقد قال فى ذلك شعرا جاء فيه(٤٩) :

لقد سبع الارامل غير فخر
بفىء جاءهم من مكران

أتاهم بعد مسبغة وجهد
وقد صفر الشتاء من الدخان

فانى لا يذم الجيش فعلى
ولا سيفى يذم ولا سنانى

غداة أرفع الأوباش رفعا
الى الهند العريضة والمدان

ومهران لنا فى أردنا
مطيع غير مسترض الهوان

---

(٤٧) المصدر السابق ، ص ٤٨٠ .
(٤٨) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢٨١ .
(٤٩) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٧٩ .

وقد ذكر أهل السير أنها سميت مكران بمكران بن فارك بن سلم ابن نوح عليه السلام أخ كرمان لأنه نزلها واستوطنها لما تبلبلت الالسن في بابل وقد وصفها ياقوت بقوله :(٥٠) « وهى ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى وهى معدن الفانيز ومنها نقل الى جميع البلدان وأجوده الماسكانى . أحد مدنها وهذه الولاية بين كرمان من غربيها وسجستان شماليها والبحر جنوبها والهند في شرقها . ويظهر أنها كانت بلدا ما حلا فيه شظف عيش وعوز حياة(٥١) وقد صور ذلك أعشى همدان حيث قال :(٥٢)

وأنت تسير على مكران
فقد شحط الورد والمصدر
ولم تكن من حاجتى مكران
ولا الغزو فيها ولا المتجر
وحدث عنها لم آتها
فما زلت من ذكرها أوجز
بأن الكثير بها جائع
وأن القليل بها معوز

وبجانب هذه المدن فقد انتشرت العديد من المدن الصغيرة والقرى وقد أشار الى ذلك ابن خرداذبة حيث ذكر(٥٣) أن ببلاد السند أكثر من ثلاثين مدينة ذات شأن ومكانة مثل مدينة قصدار وهى عبارة عن قلعة صغيرة كالقرية تقع على تل مرتفع وقد قال ابن حوقل(٥٤) عنها أنها قصبة طوران في حين أن أبا الفداء يرى(٥٥) أن قندابيل هى قصبة

---

(٥٠) معجم البلدان : ج ٥ ، ص ١٨٠ .
(٥١) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج د ، ص ٦٦ .
(٥٢) البلاذرى : فتوح البلدان — القسم الثالث ، ص ٥٣٢ .
(٥٣) المسالك والممالك ، ص ٥٦ — ٥٨ .
(٥٤) صورة الارض : ص ٢٨٢ .
(٥٥) تقويم البلدان : ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

طوران وتسمى قندار وقال ابن حوقل(٥٦) « قندار قصبة طوران » ، ومن هذه المدن الصغيرة البتم وهى حصن من حصون السند وقد فتح على يد يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وقد مدح الكميت المهلب أثر هذا الفتح بقوله(٥٨) :

كم من منعة الحجـــــاب رددتهـا
أمـة من صــــنم هنـــاك محـرق

ويمكن القول بأن ظاهرة الاكتظاظ السكانى باقليم السند لأكبـر دليل على وجود العديد من المدن والقرى الآهلة بالسكان — والتى يضيق المجـال بذكرها •

أما فيما يتعلق بتسمية اقليم السند بهذا الاسم فقد أوردت المصادر التاريخية العديد من الأسماء نشير الى أشهرها . فقد كانت شبه القارة الهندية فى القديم تنقسم الى قسمين جغرافيين . الجزء الأكبر يسمى بلاد الهند والأصغر يسمى بلاد السند والبنجاب . وقد كانت هــــذه البلاد ولاية من الولايات التابعة للخلافة الأموية والعباسية(٥٨) •

ونلاحظ أن المؤرخين قد اختلفوا فى اسم بلاد السند فقد ذكر لامبريك بأن الاسم القديم لبلاد السند هو « سندهو » وقد أطلقه أهل هذه البلاد فى أول الأمر على نهر السند(٥٩) ثم فيما بعد أطلق الاسم « سنده » على المنطقة التى يجرى فيها الجز ءالاسفل من نهر السند •

فى حين أن أبت يرى أن اسم « سندهو » كان أسما سنسكريتيا

---

(٥٦) ابو الفداء : المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٥٧) البكرى : معجم ما استعجم : ج ٥ ، ص ٢٢٤ .
(٥٨) تعرف الآن ببلاد باكستان — عبد الله الطرازى : موسوعة التاريخ الاسلامى ، ج ١ ، ص ٤٥ .
(59) Sind. A Ceneval introuduction, by. H. I — Lambrick. Hydsrabac sind, 1964. vol I. p I.

لنهر السند والمنطقة معا(٦٠) • ويذهب بعض المؤرخين الى أن اليونانيين قد بدلوا لفظ « سندهو » الى لفظ « أندس » واسبوه على نهر السند ثم نقلوه الى شعوب أوروبابمعرفته بهذا الاسم منهم • بينما يرى أيت أن اليونانيين أخذوا الاسم « أندس » من الفرس وأعطوه للروم ثم أن الروم قدموه للعالم الاوربى على أنه ليس اسما يونانى التكوين للاسم « سندهو » انما هو اسم فارسى الأصل مستقل بذاته محتفظا بكيانه دون أن يحدث عليه أى تغير(٦١) •

ويرى ايتكين بأن « سندهو » كان اسما قديما لنهر السند معناه فى اللغة السنسكريتية « البحر » كما كان المقصود بكلمة السند فى قديم الزمان وادى بالسند(٦٢) •

ويروى ياقوت(٦٣) بأن السنكر والهند كانا أخوين من ولد بوفير ابن يقطن بن حام بن نوح يقال للواحد من أهلها سندى والجمع سند مثل زنجى وزنج • ويرى عبد الله الطرازى(٦٤) أن هذه الرواية لا يمكن الاعتماد عليها لعدم وجود دليل تاريخى يعتمد عليه فى اثباتها •

وبالاضافة الى ذلك فان كلمة السند تطلق على الاقليم ثم على الجبل الذى يسكنه أهل تلك البلاد وتجمع على (السنود والاسناد) كالهنود والأهناد ؛ وتضاف اليها ياء النسب للافراد فيقال للواحد سندى وقد جاء فى لسان العرب(٦٥) «والسند جبل معروف والجمع أسناد وسنود وسند بلاد تقول للواحد سندى وللجماعة سند مثل زنج وزنجى » •

ومهما تعددت الآراء واختلفت التسميات لاقليم السند فاننا

---

(60) Sind Are — Interpretation of The UN Happy Valley by O. Abbott, London 1924, p. 23.

(٦١) عبد الله الطرازى : موسوعة التاريخ الاسلامى ، جـ ١ ، ص ٤٦
Gazatteer of sind, by E. H. Aitken 1907, p. 9 Cahp. 1.

(٦٢) معجم البلدان : جـ ٣ ، ص ٢٦٧ .

(٦٤) عبد الله الطرازى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٤ .

(٦٥) لسان العرب : طبعة بيروت الجديدة ، جـ ٣ ، ص ٢٢٢ .

نرجح بأن أقدم اسم لبلاد السند هو « سندهو » بمعنى وادى السند ثم خفف هذا الاسم بعد ذلك فى اللغة السندية ليصبح « سنده » وكتب فى اللغة الاردية « سند » وأضيف اليه الألف واللام للتعريف فسميت البلاد عند العرب ببلاد السند ونهرها نهر السند(٦٦) .

علاقة السند بالعرب قبل الاسلام :

تحدثنا كتب التاريخ عن العلاقات القديمة بين العرب وسكان سواحل جنوب الهند والتى كانت قائمة منذ آلاف السنين قبل الاسلام حيث أن الأسر والجاليات العربية كانت تنتقل فى تلك تارة بغرض التجارة البرية والبحرية وتقيم أخرى اذا ما وجدت مندوحة للاقامة والاستقرار(٦٧) فقد كان العرب يقصدون تلك الجهات وكانوا ملمين بكثير من محصولاتها ورجالها الماما صحيحا وكذلك سكان هذه الجهات أيضا كانوا يعرفون عن العرب الشىء الكثير اما مباشرة أو عن طريق الاخبار التى كانت ترد اليوم عن العرب(٦٨) .

مما يؤكد وجود هذه العلاقة بين العرب والسند قديما وجود مستعمرة عربية على نهر السند يمتد تاريخها الى ما قبل الاسلام بكثير ، وقد أشار الى ذلك أحد المؤرخين الغربيين حين ذكر(٦٩) أن « نيارك » قائد أسطول الاسكندر المقدونى لما أبحر لاستكشاف بحر الهند وجد آثارا كثيرة على سواحل الهند تدل على عظمة العرب ونفوذهم البرى والبحرى فى تلك الجهات .

وتذكر بعض الروايات التاريخية بجانب ذلك الى أن الذين كانوا يسيرون بالقوافل التجارية فى الشرق كانوا عربا من ذرية ابراهيم

---

(٦٦) عبد الله الطرازى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٧ .
(٦٧) عبد الله الطرازى : موسوعة التاريخ ، ج ١ ، ص ٣٣٨ .
(٦٨) تاشى اظهر المبارك : من التارجيل الى النخيل ، ص ٤٢٩ .
(٦٩) محمد عالم الافغانى : مجلة المنهل ، سبتمبر ١٩٤٠ ، ص ٣٢ — ٣٤ .

عليه السلام ويوسف من بعده الى عهد ماركو بولو(٧٠) — وكانت بلاد العرب سوقا رائجة لمنتجات بلاد الهند والسند على أيدى هؤلاء العرب(٧١) • ومما يدعم هذا القول وجود اشارات تدل على أن هناك نفر من العرب كانوا يمتلكون سفنا بحرية تجوب البحار ناقلة التجارة بين الخليج العربى والهند مما ورد ذكره فى معلقة طرفة بن العبد الشاعر الجاهلى الذى نشأ فى البحرين وفيها يقول :(٧٢)

كأن حدوج المالكية غدوة
خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن
يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها
كما قسم الترب المفايل باليد

كما تحدثنا المصادر التاريخية كذلك أن الازد قد اشتغلوا بالملاحة متاجرين تارة وشانين حملاتهم البحرية ضد الفرس فى السواحل الشرقية والممتدة من الخليج العربى حتى السند ويروى البلاذرى(٧٣) أن الاسطول الفارسى قد انسحب أثر هجمات الأزد الى مكران بالسند ثم الهند باللاجئين من الفرس •

ويضاف الى تلك الاشارات الى أن الشاعر التغلبى عمر بن كلثوم يشير الى السفن التغلبية التى كانت تمخر عباب الخليج فى حركة

---

(٧٠) عبد الله الطرازى ، مجلة الفيصل ، ص ٦٩ •

(٧١) مثل العطور وخشب الصندل والعود والكافور والقرنفل والنارجيل والقنب والعاج والفلفل الاسود وانواع اخرى ادوية والعقاقير وغيرها . محمد غانم الافغانى : مجلة المنهل ، ص ٣٣ •

(٧٢) النوم الطالب : تاريخ الخليج الاسلامى ، ص ٢٣٦ •

(73) Hadi Hassan — History of persian Navigation — London 1928.

البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٩٢ •

متصلة بين الهند والسند حيث يقول :(٧٤)

ملأنا البر حتى ضاق عنا
ونحن البحر نملؤه سفينا

وهذا شاعر آخر يؤيد هذا الاهتمام بالملاحة وتغلغلها فى حياة العرب قائلا(٧٥) :

اذا ازديه ولدت غلاما
فبشر بملاح مجيد

وقد ساعد فى دفع علاقات العرب بالسند — قبل الاسلام قيام كل من الغساسنة والمناذرة بتجارة الوساطة بين موانىء الشام والمحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى حيث حمل اليمنيون من أبناء سبأ القديمة هذه التجارة الى قريش عندما كانت تقوم برحلتها الشتوية(٧٦) .

وكان أمام هذه التجارة طريقان أحدهما عبر الخليج العربى من سيراف شمالا ثم صحار ومسقط فى ساحل عمان(٧٧) ومنها الى الهند والسند مباشرة الى « كولم ملى » فى جنوب الملبار بعد أن تمر طول السواحل مارة بجزيرة قيس وهرمز القديمة وتيز ومكران والديبل وغيرها من موانىء السند(٧٨) .

أما الطريق الثانى فهو الطريق البرى عبر بلاد فارس وقد أشار

---

(٧٤) معلقة عمر بن كلثوم البيت السابع والتسعين ، انظر صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية فى البصرة ، ص ٢٧٦ .

(٧٥) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

(٧٦) محمود السادانى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ، ص ٥١ .

(٧٧) لعبت مدينة الجرهاء على ساحل الاحساء دورا مقدرا فى هذه التجارة التى كان معظم القائمين بها من العرب . جورج حورانى : العرب والملاحة ، ص ٤٣ .

(٧٨) القلقشندى : صبح الاعشى — ج ٥ ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

اليه القلقشـــندى بقوله :(٧٩) « فمن أراد طريق البر الى السند جاز هذا البحر الى هرمز ـ فمدينة كرمان ومنها يتوصل الى السند » .

هذا فيما يتعلق ـ باختصار ـ عن علاقة العرب قبل الاسلام ـ باقليم السند . أما فيما يتعلق بعلاقة السند بالعرب فقد كانت عن طريق ايران التى سبق لها ـ فى العهود القديمة ـ أن احتل بهـرام ابن يزدجرد أحد ملوك الفرس بلاد السند وبلاد بلوجستان : وقـد خضعت هذه البلاد لسلطان الفرس حقبة من الزمان فكانوا يأخذون منها الضرائب ويستقدمون رجال السند لتجنيـدهم فى الجيش كلما دعت الحاجة الى ذلك وخاصة قبيلتى جات « الزط »(٨٠) و« الميد » وكان ملك الفرس يخلع على حكام الفرس شتى الالقاب مثل تقمص شاه وقيعان شاه .

ومن ثم فقد تسربت أعداد كبيرة من الزط والميد الى الجزيرة العربية وربما دفعهم الى ذلك وجود بعض التشابه فى نظام حياتهم والبدو من العرب من حيث تتبع الكلا والتنقل وراء الخصب حيثما وجوده على طفوف (سواحل) بلاد العرب .

وقد كتب البلاذرى عن تاريخ قدوم الزط الى جزيرة العرب بواسطة الفرس واستيطانهم لها بقوله(٨١) : « وأما السيابجة والزط والاندغار فانهم كانوا فى جند الفرس ممن سبوه وفرضوا له من أهل السند ومن كان سبيا من أولى الغزاة فلما سمعوا بما كان من أمـر الاساورة أسـلموا وأتوا أبا موسى فأنزلهـم البصرة كما أنـزل الاساورة » .

---

(٧٩) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٨٠) لقد اختلف المؤرخون العرب فى اصلهم ، فالمدائنى يقول انهـم كانوا فى الطفوف (السـواحل) يتتبعون الكلأ ، اما ابن عوانه فيقول انهم كانوا من جند الفرس ممن سبوه وفرضوا له من اهل السند . انظـر البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٢٨ .

(٨١) فتوح البلدان ، ص ٣٦٨ .

ويظهر أن هؤلاء القوم قد اندمجوا في العرب — بعد الاسلام — بصورة واضحة وخاصة مع بني سعد وبني حنظلة(٨٢) وأخذت بعض عاداتهم ومنتجاتهم المقبولة سبيلها الى العرب فنالت حظا من الرواج والشهرة فيهم . فمنها أن الزط كانوا يحلقون رؤوسهم على طريقة خاصة تعرف بـ (تلى) وقد أعجب بها بعض العرب فاستخدموها بين حين وآخر وقد جاء في لسان العرب « وفي بعض الأخبار : فحلق رأسه زطية (أى على طريقة زطيل) قيل وهو مثل الصليب كأنه فعل الزط »(٨٣) .

وبناء على هذا يمكن القول بأن علاقة العرب باقليم السند قبل الاسلام كانت عن طريق التجارة العربية حيث نزل العرب في هذه البلاد واختلطوا بأهلها فوجدوا حفاوة بالغة لدى حكامها وعرفوا أحوالها عن كثب مما مهد لهم نقل ما وجدوه من ثراء طائل وعادات عريقة وعلوم نافعة حيث وقف العرب على حضارة السند وما بها من ثقافات عن طريق الاحتكاك التجاري والمدارس العلمية في العراق(٨٤) .

وتجدر الاشارة الى أن معظم كتب التاريخ لم تتحدث عن قيام أهل السند بالتجارة مع العرب وقد علل ذلك المؤرخ ألفنستن بقوله :(٨٥) ان أهل السند لم تكن لهم خبرة بالملاحة ولذلك لم تحدثهم أنفسهم بركوب البحار انما كانوا يتنقلون من ميناء لآخر طلبا لارزاقهم . غير

---

(٨٢) المصدر السابق ، ص ٣٧٧ .

(٨٣) انظر : ثناني ظهر المبارك : من النارجيل الى النخيل ، ص ١٠٥٦ .

(٨٤) تخرج على يد الهنود فريق من العرب في مدرسة جنديسابور الساسانية بالعراق وكان في مقدمتهم الحارث بن كلدة بن عمرو الثقفي طبيب العرب المشهور وقد عالج الناس بفارس فأعطوه مالا وجارية . ابن حزم الاندلسي : جمهرة انساب العرب ، ص ٢٦٨ . — احمد امين : ضحى الاسلام ، ص ١٣٢ .

(٨٥) اظهر المبارك : المرجع السابق ، ص ٥٧٤ .

أن سليمان ندى يرى غير ذلك . حيث أنه يقول أن أهل السند كان لهم نشاطا تجاريا كبيرا واستدل على ذلك بما ذكره بذرك بن شهريار فى مواضع كثيرة من كتابة أسماء بعض الملاحين ورجال الأعمال من أهل السند .

ونؤيد هذا الرأى اعتمادا على وجود بعض العناصر السندية فى الجزيرة العربية منذ وقت مبكر . وأشار الى ذلك البلاذرى :(٨٦) عن تاريخ قدوم الزط الهنود الى جزيرة العرب بواسطة الفرس واستيطانهم فيها بعنوان أمر الاساورة والزط « أما "سيابجة والزط والاندغار فانهم كانوا فى جند الفرس ممن سبوه وفرضوا له من أهل السند وممن كانوا سببا » .

وتذكر المصادر التاريخية وجود أعداد كبيرة من أهل السند فى اليمن حتى أنهم كادوا أن يغلبوا عليها . وقد أشار « ابن هشام »(٨٧) انه لما أغار مسروق بن أبرهة الحبشى على أرض اليمن وغلب عليها هرب سيف بن ذى يزن الى كسرى انور شروان وقال له : « أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة . فقال كسرى : أى الأغربة الحبشة أم السند . هذه الاشارة فيها دلالة واضحة على وجود أقوام كثر من أهل السند فى أرض اليمن .

وقد كانت من أهل السند فى منطقة الخليج(٨٨) أعداد كثيرة . وكانت لهم علاقات بالقبائل العربية مثل عبد القيس وربيعة وبكر بن وائل وغيرها . وقد أشار الى ذلك عبد الله بن عوهم بقوله :

---

(٨٦) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٦٨ .

(٨٧) سيرة ابن هشام : جـ ١ ، ص ٦٢ — الطبرى : الامم والملوك ، جـ ٢ ، ص ٨٨ .

(٨٨) وتشمل هذه المنطقة البحرين (ويقصد بها شرق الجزيرة العربية فى الوقت الحاضر وعمان) . انظر القاضى ابو المعالى ، العقد الثمين ، ص ١٤ .

ويغنى الزط عبد القيس عنا
وتكفينا الأساورة والزوندا

وقال شاعرهم :

فجئنا بحى وائل وبلغها
وجاءت تميم زطها والأساورة

وبالاضافة الى ذلك فانه قد وردت بعض الأحاديث النبوية الشريفة التى تؤكد معرفة المسلمين بأهل السند فقد جاء فى الاصابة وحكى بن الكلبى أن جماعة من بنى الحارث مروا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : من هؤلاء الذين كأنهم من الهند ، وقال ابن هشام وابن سعد والطبرى : ولما قدم خالد بن الوليد من نجران ومعه بنى الحارث بن كعب سنة عشرة من الهجرة فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ فقيل يا رسول الله هؤلاء رجال من بنى الحارث بن كعب(٨٩) .

وخلاصة القول أن أهل السند كانت لهم صلات عميقة بالجزيرة العربية فقد سكنوا فى اليمن والحجاز وعمان والبحرين والبصرة وأثروا فى الحياة السياسية والاجتماعية بشتى الطرق وكافة الوسائل مما لا يتسع المجال لذكره .

---

(٨٩) انظر القاضى ابو المعالى ، العقد الثمين ، ص ١٧ .

الفتـح الاسـلامى لاقليم السـند

١ ــ الفتـوح فى العهد الراشـدى :

يرجع اهتمام المسلمين باقليم السند منذ العهد الراشـدى . وذلك حين بعث عمر بن الخطاب ــ قبل فتح فارس ــ بحملات حقيقية من البحرين وعمان(١) الى بعض سواحل السـند وذلك حين أشار الى عامله عليهما عثمان بن أبى العاص الثقفى(٢) للقيام بهذه المهمة فوجه عثمان أخاه الحكم بن أبى العاص(٣) ليقوم بفتح اقليم السند . وذلك فى سنة خمس عشرة من الهجرة .

وقد كانت السند تحكم قبل الاسلام ذهاء قرن من الزمـان بواسطة أسرة مالكة تعرف فى التاريخ بأسرة « سهاسى » بوذية المذهب . وفى صدر الاسلام انتقل حكم السند الى رجل يسمى جج ، وكان برهمى المذهب(٤) .

خرج الحكم بن العاص فى جيش عظيم ــ لفتح السند ــ سكتت النصوص التاريخية عن ذكر عدده وأسماء المجاهدين فيه ولكنها أشارت الى بعض القبائل العربية التى انتظمت مثل عبد القيس والأزد وتميم

---

(١) محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ، ص ٥٢ .

(٢) له صحبة قدم الى الرسول صلى الله عليه وسلم فى وفد ثقيف واسلم فى سنة ٩ هـ وأمره الرسول على قومه لما رأى فيه من رجاحة عقل وحرص على الخير والدين برغم صغر سنه ثم اقره ابو بكر على الطائف واستعمله عمر على البحرين وعمان . ابن الاثير : اسد الغابة ، جـ ٢ ، ص ٣٨ .

(٣) يكنى أبا عثمان وهو رجلا مجاهدا شارك فى فتوحات كثيرة بالعراق وهو معدود من البصريين ، المصدر السابق ، ص ٣٧٢ .

(٤) عبد الله الطرازى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٣٣ .

وبنى ناجية وبكر بن وائل وهى بطبيعة الحال القبائل التى كانت تسكن البحرين وعمان(٥) فتقدم جيش الحكم من البحرين صوب السند فاستولى على « اير كاون » فى الجنوب الشرقى من بلاد فارس ثم على التوج التى اتخذها قاعدة عسكرية لينطلق منها الى بلاد السند(٦) فغزا ثلاثة غزوات ركز هجماته فيها على ثلاثة مناطق هى تانة وبروص والديبل ثم قفل راجعا دون أن يحقق هدفا يذكر فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بذلك .

فرد عليه الخليفة عمر بن الخطاب قائلا(٧) : « يا أخى ثقيف حملت دودا على عود — وانى احلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم » .

لقد شجعت هذه المحاولة الجريئة الحكم — رغم تهديد الخليفة له — أن أرسل أخاه المغيرة الى خور الديبل فقام ببعض المناوشات واضعا بذلك اللبنة الاولى للفتوحات الاسلامية فى اقليم السند .

يروى البلاذرى أن عثمان قد أرسل حملتين فى وقت واحد الى بلاد السند احداهما قادها أخاه الحكم الى تانه وبروص والأخرى قادها أخاه المغيرة الى خور الديبل فلقى العدو وظفر فى حين أن ياقوت الحموى يرى أن الحكم نفسه هو الذى توجه الى الديبل . ويؤيده فى ذلك ابن حزم والرأى الذى نميل اليه هو ما ذكره البلاذرى(٨) • ويرى السيد أحمد على ، أن عثمان بن أبى العاص قد جهز اسطولا عربيا من مياه الخليج الفارسى تحت قيادة أخويه الحكم والمغيرة الى سواحل بروج وديبل(٩) ، وكان فى مساعدتها

---

(٥) ناجى حسن : القبائل العربية فى المشرق ، ص ١٦٢ .
(٦) ناجى حسن : القبائل العربية فى المشرق ، ص ١٦٣ .
(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ، القسم الثالث ، ص ٥٣٠ .
(٨) المرجع السابق ، ص ٥٣٠ .
(٩) مجلة معهد الدراسات الاسلامية المنهل ، العدد الاول ١٩٧٠ ، الصلات بين العرب والهند ، ص ٣٤ .

شهاب بن المخارق بن شهاب وقد حققت هذه الحملة انتصارات كبيرة رغنم المسلمون غنائم ثمينة فكتب الحكم الى الخليفة عمر بن الخطاب بالنصر وبعث له بالاخماس مع صحار العبدى(١٠) ، وقد قال الحكم فى ذلك شعرا جاء فيه :(١١)

لقد شبع الارامل غير فخر
بفىء جاءهم من مكران

أتاهم بعد مسغبة وجهد
وقد صفر الشتاء من الدخان

فانى لا يزم الجيش فعلى
ولا سيفى يذم ولا سنان

غداة ادفع الاوباش دفعا
الى السند العريضة والمدانى

ومهران لنا فيما أردنا
مطيع غير مسترخى العنان

فلولا ما نهى عنه أميرى
قطعناه الى البرد الزوانى

وحين بلغ الخليفة عمر خبر فتح مكران من صحار العبدى وعرف صعوبة ما لقيه الجيش الاسلامى من عنت ومشقة كتب الى الحكم الثقفى وسهيل بن عدى بأن لا يتجاوز مكران أحد من جنودهما(١٢) — ومهما يكن من فان هذه المحاولة قد لفتت أنظار المسلمين لهذه البلاد .

---

(١٠) هو عبد الرحمن بن صحار من عبد اليس كان ضمن وفد عبد القيس الى الرسول صلى الله عليه وسلم وكان خطيبا مصقعا وله من الكتب كتاب الامثال : العقد الثمين ، المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(١١) الطبرى : الامم والملوك ، جـ ٥ ، ص ٧ — ٨ .

(١٢) الطبرى : الامم والملوك ، جـ ٥ ، ص ٧ — ٨ .

أما فى خلافة عثمان الذى عقد أمر ولاية العراق الى عبد الله بن عامر بن كريز فقد أرسل اليه يأمره بأن يرسل الى ثغر السند من يعلم علمه ثم ينصرف اليه بخبره(١٣) فلم يتوانى عبد الله فى طلب الخليفة فأرسل حكيم بن جبلة العبدى(١٤) فى حملة استكشافية الى اليم السند فأتي مكران ثم عاد الى العراق بعد ما عرف بعض أخبار السند(١٥) فأوفده عبد الله بن كريز الى الخليفة عثمان يروى البلاذرى أن الخليفة سأله عن حال البلاد فقال(١٦) : « يا أمير المؤمنين قد عرفتها وتنحرتها . قال : فصفها لى . فقال : ماؤها وشل . ثمرها دقل ولصها بطل ان قل الجيش فيها ضاعوا وان كثروا جاعوا . فقال عثمان : أخبر أم ساجع ؟ قال : بل خابر . فلم يقربها أحد » .

وبناءا على رواية البلاذرى هذه فان الخليفة عثمان رضى الله عنه لم يرسل أحد الى السند — بعد ذلك — حتى قتل غير أن بعض الروايات التاريخية تقول أن عثمان قد بعث بأميرين — من قبله الى مكران — فأقاما فيها وضبطا أمرها وهما عمير بن عثمان بن سعد وسعيد القشيرى . وأصبحت بلاد السند فى سنة ٣١ هـ فى خلافة عثمان ضمن بلاد الاسلام والمسلمين فقطع المسلمون القطائع وبنوا المنازل وعمروا الارض وحفروا القنوات وأدوا العشر الى الخلافة الراشدة(١٧) . فان صح هذا الرأى فيكون دخول الاسلام فى السند فى خلافة عثمان رضى الله عنه — والرأى الراجح الذى نميل اليه هو ما أورده الطبرى من أن فتح بلاد السند كان فى خلافة عمر بن الخطاب(١٨) .

---

(١٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٣٠ .

(١٤) هو الحكيم بن جبلة بن حصين بن اسود بن عبد القيس ادرك النبى صلى الله عليه وسلم وكان رجلا صالحا مطاعا فى قومه — عبد الحى الحسنى : نزهة الخواطر ، ج ١ ، ص ٥ .

(١٥) فتوح البلدان : ج ٣ ، ص ٥٣٠ .

(١٦) ابن الخياط : التاريخ ، ص ١٨٠ .

(١٧) القاضى أبو المعالى : العقد الثمين ، ص ٣٠ — ٤٨ .

(١٨) الامم والملوك : ج ٥ ، ص ٧ — ٨ .

ثم ترقفت حركة الفتوح الاسلامية فى بلاد السند فى أواخر خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه على يد الحارث بن مرة العبدى(١٩) الذى تطوع للقيام بنشر الدعوة الاسلامية فى بلاد الهند وما جاورها من بلاد السند بعد استئذان الخليفة فى ذلك .

لقد حقق الحارث انتصارات باهرة حفزته أن يقيم هو وجنوده فى بلاد السند زهاء الأربع سنوات فى جهاد مستمر دون أن يطرف له جفن أو يكل له ساعد فأصاب فى خلالها مغانم كثيرة وسبيا عظيما(٢٠) كلفه حياته هو ومن معه حيث استشهد بأرض القيقان فى بلاد السند سنة ٤٢ هـ(٢١) .

ويظهر أن هناك أسباب قوية دفعت بالمسلمين لفتح بلاد السند فى هذه الفترة المبكرة من تاريخ الدولة الاسلامية ويجىء فى مقدمتها اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بغزو الهند ولتبشيره بالعتق من النار للغازين لها فقد روى النسائى فى سننه عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عصابتان من أمتى أحرزهما الله النار ، عصابة تغزو الهند وعصابة تكون مع عيسى بن مريم عليهما السلام »(٢٢) .

وبالاضافة الى هذا فان الزط والسبابجة الذين كانوا يعيشون فى الجزيرة العربية وخاصة فى البحرين وعمان(٢٣) قد ناصروا المرتدين

---

(١٩) هو من قبيلة عبد القيس وكان فى خراسان مع على بن أبى طالب وقواده وهو من كبار التابعين ، فتح السند فى سنة ٣٩ هـ . البلاذرى : فتوح البلدان ، جـ ٣ ، ص ٥٣٠ .

(٢٠) يقول البلاذرى « انه قسم فى يوم واحد الف راس » . المصدر السابق ، ص ٥٣٠ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٥٣٠ .

(٢٢) نقلا عن العقد الثمين ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٢٣) سكن هؤلاء القوم فى انحاء كثيرة من الجزيرة العربية وخاصة فى البحرين (شرق الجزيرة العربية) وعمان ونجران واليمامة والأبلة ومكة والمدينة — انظر البلاذرى : فتوح البلدان ، طبعة دى غوى ، هامش ٢ ، ص ٣٧٣ .

فى خلافة أبى بكر وحين لحقت بهم الهزيمة فى أعقاب حروب الردة فعادوا الى بلادهم الأصلية خوفا من قبضة المسلمين التى أطاحت بكل مرتد ومارق على الاسلام .

وفوق هذا وذاك فان أهل الهند عامة والسند بصفة خاصة قد ساعدوا الفرس فى حروبهم ضد المسلمين بمالهم وعتادهم فمنهم من كان طايعا مختارا ومنهم من كان مقهورا بحكم سيطرة الفرس عليهم .

ولهذه الأسباب وغيرها فان المصادر التاريخية تنقل لنا أن بعضا من أهل السند (الزط والسيابجة) ظل وفيا على عهده محافظا على اسلامه واقفا مع المسلمين فى جهادهم ضد المرتدين والمشركين حيث

بذلوا جهدهم فى غزوات فارس وخراسان وسجستان وكرمان والسند والهند مع الجيوش الاسلامية جنبا الى جنب وصفا بصف ونال منهم مناصب كثيرة فى خلافة على بن أبى طالب(٢٤) .

---

(٢٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٦٨ .

قائمة بقواد الحملات الاسلامية لمحاولة فتح المدن الساحلية ببلاد السند فى عهد الخلفاء الراشدين فى الفترة التاريخية من ١١ — ٤٠ هـ(٢٥)

م	اسم قائد الحملة	نوع الحملة	المنطقة التى فتحها	السنة هـ	عهد الخليفة الاسلامى	نتيجة الحملة
١	المغيرة بن ابى العاص الثقفى	بحرية	مدينة الديبل	١٠	عمر بن الخطاب	عودة الحملة
٢	الحكم بن عمرو التغلبى	برية	اقليم مكران	١٢	عمر بن الخطاب	فتح اقليم مكران
٣	عبد الله بن معمر التميمى	برية	اقليم مكران	٢٩	عثمان بن عفان	اعادة فتح اقليم مكران
٤	الحارث بن مرة العبدى	برية	اقليم مكران	٣٩	على بن ابى طالب	اقليم مكران

(٢٥) انظر عبد الله مبشر الطرازى : مجلة الفيصل ، العدد ٨٤ ، ص ٧٥ .

٢ ــ فتوح السند فى عهد الدولة الأمــوية :

لقد سبقت الاشارة الى أن اهتمام المسلمين ببلاد السند يرجع لعهد الخلافة الراشدة وذلك حين شنت الحملات العديدة على أطراف هذه البلاد واضعة بذلك بواكير دخول الاسلام فى الهند عامة وأقليم السند بصفة خاصة .

ومن الملاحظ أن بعض المؤرخين قد أسهب بصورة مملة فى ذكر دقائق فتح المسلمين لبلاد السند دون مراعاة وتتبع للحقائق بصورة موضوعية . ولذا سنحاول الاعتماد فى هذه الدراسة على المصادر التى تناولت فتح المسلمين للسند من غير غلو ولا مبالغة(٢٦) .

بدأت الفتوحات الاسلامية فى بلاد السند فى عصر الدولة الأموية منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان من سنة ٤٠ الى سنة ٦٠ هـ ويظهر أن معاوية لم تغب عن باله هزيمة المسلمين فى القيقان على عهد خلافة على بن أبى طالب ولذا فانه قد بعث بنحو سبع غزوات لتلك البلاد ، كان من أبرزها تلك التى قادها المهلب بن أبى صفرة الازدى سنة ٤٤ هـ(٢٧) حيث اتجه الى بلاد السند فأتى بنة والاهوار(٢٨) .

اشتبك المهلب فى جسارة وعزيمة مع جيش العدو ببلاد القيقان فاستطاع أن يحقق النصر بعد أن حذف الخيل من المسلمين (٢٩) ويورد

---

(٢٦) يعد البلاذرى صاحب كتاب فتوح البلدان فى مقدمة هــؤلاء المؤرخين لقربه الى ذلك الفتح ــ انظر محمد عالم الافغانى : مجلة المنهل ، فتوح السند ، ص ٧ .

(٢٧) كان ذا دراية تامة بمكيدة الحرب وقد اشتهر فى حروبه ضـد الخوارج ببلاد فارس وامتاز بحبه للجماعة وبرفضه للفتن والثورات . محمد الخضرى : تاريخ الامم ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ .

(٢٨) بين الملتان وكابل : البلاذرى ــ المصدر السابق ، ص ٥٣١ .

(٢٩) وجد المهلب ثمانية عشر فارسا من الترك على خيل محذوفة فقاتلوه بشجاعة حتى قتلوا فقال ما جعل هؤلاء الاعاجم اولى بالتشمير فحذف الخيل وكان اول من حذفها ــ المصدر السابق ، ص ٥٣١ . ابن الخياط ، ص ٢٠٦ .

البلاذرى أن النصر الذى أحرزه المهلب فى بنة ما كان ليكون لولا ثبات الازد ويقول الازد فى ذلك :(٣٠)

ألـم تـر أن الازد ليـلة بيتـــوا
بينـة كانــوا خــير جيــش المهـلب

ثم رجع المهلب بعد هذه الحملة التأديبية الى دمشق .

وفى سنة ٤٧ هـ أرسل معـاوية عبد الله بن عامر بن عامر ابن سوار العبدى(٣١) الى مكران جيشا قوامه أربعة آلاف حتى أتى مكران فمكث بها شهورا ثم بعد ذلك ذهب الى القيقان غازيا فأصاب مغانم كثيرة ثم عاد الى معاوية يحمل فى وطابه نشوة النصر وخيلا قيقانية أهداها لمعاوية ويبدو أن معاوية قد أعجب بما حققه ابن سوار من نصر فأعاده مرة ثانية الى السند ، ويقول البلاذرى فى ذلك :(٣٢) « ثم رجع الى القيقان فاستجاش الترك فقتلوه » .

وتروى المصادر التاريخية أن ابن سوار حرض المسلمين على القتال وحثهم بقوله : « يا أبناء المهاجرين والانصار دونكم الشهادة » فاجتمع المسلمون حول راية ابن سوار فى صبر ومجاهدة حتى هزموا أهل القيقان وقد استشهد ابن سوار فى هذه الغزوة فى سجستان بالسند سنة ٤٩ هـ وقد صور عبد الله بن عبد الرحمن العبدى عند معاوية هذه المعركة بقوله :(٣٣)

أبـلغ ربيعـة أعـلاها وأســـفلها
انا وجـــدنا ابن ســـوار كســوار

---

(٣٠) نفس المصدر والصفحة .
(٣١) كان رجلا كريما وقد قال فيه الشاعر :
ابن ســــوار عـلى عــــلاته
موقـــد النـــار وقتــــال الســغب
(٣٢) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٣٥١ .
(٣٣) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٣٥١ .

لا يسمن الخيل الا ريث يمهلها
وما سواه فتردى طول أعصار

لم يعق استشهاد ابن سوار من مواصلة فتح المسلمين لبلاد السند ففى خلافة معاوية عمل زياد بن أبى سفيان والى العراق على تكليل هذه الجهود بالنجاح عندماكتب اليه معاوية قائلا :(٣٤) « أنظر رجلا يصلح لثغر الهند فوجهه » • فلم يتوانى زياد فى الاستجابة لهذا الأمر فأرسل سنان بن سلمة بن محيق الهذلى وقد وصفه البلاذرى بالفضل وقوة العزيمة وشدة الحرص على انجاز مهمة فتح بلاد السند حيث قال :(٣٥) « وكان فاضلا لا متألها • وهو أول من أحلف الجند بالطلاق . فأتى الثغر ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها وضبط البلاد » • وفيه يقول الشاعر :(٣٦)

رأيت هذيلا أحدث فى يمينها
طلاق نساء ما تسوق لها مهرا

لهان على حلفة ابن محبق
اذا رفعت أعناقها حلقا صفرا

ثم واصل سنان فتوحه فى السند حتى أتى الى ثغر القيقان ثم أتى ناحية البدهة فغدروا به واستشهد فيها ، فقال ابن خلاص البكرى(٣٧) •

أبلغ سنان بن منصور واخوته
أغنى هذيلا كراما غير أغمار

أنا عتبنا عليكم فى امارتكم
والدهر ذا قلل فى الناس دوار

---

(٣٤) استخلف حزاز بن كراز العبدى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .
(٣٥) ابن الخياط : التاريخ ، ص ٢٠٩ .
(٣٦) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٣٢ .
(٣٧) العقد الثمين : القاضى ابو المعالى ، ص ١١٩ .

يعطى الجزيل وينشر غير مستتر
ولا يزيد شرى من بعد اقتار
ولم ينزل القوم اذ حنت قناتهم
كابن المعلى ولا مثل بن سوار
ولابن مرة اذ أودى الزمان به
كم فلل الدهر من ناب وأظفار

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ ولاية سنان لاقليم السند فمنهم من قال انها كانت مرتين احداهما فى سنة ٤٢ هـ بعد شهادة راشد بن عمر والازدى وكان زياد قد ولاه الثغر فأتى مكران ثم غزا القيقان فقتل فى الميد فخلفه سنان والاخرى فى سنة ٤٨ هـ وبعد شهادة عبد الله بن سوار . ومنهم من قال ان غزوته كانت فى ولايته الاولى وفيها استشهد فى حين أن ابن الخياط تفرد بالقول(٣٨) بأن شهادة راشد ابن عمرو وولاية سنان كانتا فى سنة ٥٠ هـ . وذكر بعض المؤرخين من أن زياد صرف سنان فى المرة الاولى عن ثغر السند ثم ولى مكانه المنذر بن الجارود العبدى ثم اعاده للمرة الثانية وفيها استشهد(٣٩) .

والرأى الذى نميل اليه هو ما أورده البلاذرى حيث قال :(٤٠) ان زياد قد استعمل على ثغر السند راشد بن عمرو الجديدى الازدى ثم ما لبث أن قتل بها ، ثم قام بالأمر من بعده — لمدة عامين — سنان ابن سلمة ثم بعده ولى زياد أمر السند للمنذر بن الجارود العبدى الذى قام بغزوات عديدة فى البوقان والقيقان وتمكن من فتح قصدار التى ارتد أهلها بعد موت سنان بن سلمة التى كان فتحها على يديه ثم مات المنذر بن الجارود بقصدار وقد رثاه أحد الشعراء بقوله(٤٥) :

---

(٣٨) التاريخ : ص ٢١٢ .
(٣٩) العقد الثمين : القاضى ابو المعالى ، ص ١١٩ .
(٤٠) فتوح البلدان : القسم الثالث ، ص ٥٣٢ .
(٤١) المصدر السابق ، ص ٥٣٢ .

حل بقصدار فأضحى بها
في القبر ولم يقفل مع القافلين
لله قصدار وأعنابها
أى فتى دنيا أجنت ودين

ثم واصل الأمويون فتوحاتهم فى أقليم السند على عهد معاوية ففى سنة ٥٣ هـ ولى أمرها عباد بن زياد بن حرى الباهلى بعد أن خلفه عبيد الله بن أبى بكرة فى ولاية سجستان فأخذ يغزو السند فى جد وصبر فاجتاح القندهار حتى بلغ بيت الذهب وجمع له خلق عظيم أعانه الله بالانتصار عليهم ثم فتح البوقان(٤٢) وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن عباد الباهلى لم يكن ذهب للسند فاتحا بمفرده انما كان ضمن سرايا سنان ابن سلمة وربما استدلوا على ذلك بقول الشاعر :(٤٣)

لولا طعانى بالبوقان ما رجعت
منه سرايا ابن حرى بأسلاب

ثم أن عباد أقام فى اقليم السند سبع سنين قدم فيها للاسلام خدمات جليلة وظل واليا على سجستان حتى وفاة معاوية(٤٤) .

وهكذا استطاع الأمويون فى خلافة معاوية أن يبذلوا جهودا موفقة فى نشر الاسلام فى السند وعقب وفاته أعطى والى العراق الحجاج بن يوسف الثقفى(٤٥) اقليم السند عناية خاصة فأرسل عدة حملات لم تصل كلها الى نتيجة حاسمة .

---

(٤٢) ابن الخياط : التاريخ ، ص ٢١٩ .
(٤٣) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٥٣٣ .
(٤٤) ابن الخياط : التاريخ ، ص ٢١٩ .
(٤٥) ولى الحجاج سعيد بن زرعة الكلابى مكران ، فخرج عليه معاوية ومحمد ابناء الحارث والعلافيان فقتلاه واستوليا على السند فبعث الحجاج لهما مجاعة بن سعر التميمى الذى أعاد الامور الى نصابها ، البلاذرى : ص ٥٣٣ .

يظهر أن أول حملة نظامية الى اقليم السند ــ بعد ذلك ــ كانت في خلافة الوليد بن عبد الملك حيث اذن لعامله الحجاج بن يوسف الثقفى بأن يضع حدا لفتح هذا الاقليم الذى كلف الدولة جهدا ووقتا كبيرين فأذعن الحجاج لذلك فجهز حملة ذات بأس لفتح السند وضمها للدولة الاسلامية .

لقد اختلفت الروايات التاريخية في الاسباب الحقيقية التى دفعت للقيام بهذه الحملة ونضيف الى ما سبق أن ذكرنا هذه الاسباب :

١ ــ أن ملك جزيرة الياقوت(٤٦) قد أهدى الى الحجاج الثقفى نسوة ــ مسلمات ــ ولدن في بلاده مات آباؤهن وكانوا تجارا فأراد أن يتقرب للحجاج بهن فتعرض للسفينة التى كن فيها قوم من ميد الديبل فأخذوا السفينة بما فيها فنادت أمراة منهن وكانت من بنى يربوع : يا حجاج . وبلغ ذلك الحجاج فقال : « يا لبيك » فما كان منه الا وأن أرسل الى داهر ملك السند يسأله تخلية سبيلهن . فقال (الملك) انما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم » ، يرى محمد عالم الافغانى(٤٧) أن في الرد من ملك السند داهر للحجاج استخفافا به اذ أنه في الوقت الذى تسلم فيه داهر خطاب الحجاج ، كانت النسوة في سجن عاصمته « الور » ويؤيد الافغانى رأيه هذا بما أورده فرشته الذى قال : أن داهرا أراد أن يتحدى الحجاج حين كتب في رده له هذه العبارة « هذا العمل الذى أتاه قوم ذو بأس وشكيمة تستحيل عقوبتهم مهما بذلت من جهود »(٤٨) وذهب آخرون بأن داهر كان صادقا فيما ذهب اليه وقد رد أكبر شاه خان النجيب أبادى على من قال بصدق داهر من أن القرصان هم الذين نهبوا النسوة

---

(٤٦) يقول البلاذرى : (سميت هذه الجزيرة جزيرة الياقوت لحسن وجوه نسائها) انما اسمها الحقيقى (سرنديب) ، المصدر السابق ، ص ٥٣٤ .

(٤٧) مجلة المنهل : فتوح السند ، ص ٢٨ .

(٤٨) محمد الافغانى : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

المسلمات فقال : « لم يعرف عن وجود القرصان قبل تجول البرتغاليين فى المحيط الهندى ولم يسمع شىء عن لصوص البحر فى بحر العرب فى القرن الأول ولم يكن القرصان يستطيعون التجوال فى البحار فى ذلك الوقت ونهب ثمان سفن الا اذا كانوا على اتفاق تام مع احدى الممالك الكبرى(٤٩) .

ونرى أن داهر ملك السند لم يكن يريد برده على الحجاج الثقفى أن يستنفذه لأنه ليس فى حاجة الى أن يستعدى الدولة الاسلامية والدخول معها فى حروب يعلم هو دون غيره مخاطرها فى عهد الخليفة القوى عبد الملك بن مروان تأييدا لما ذهب اليه البلاذرى(٥٠) من أن داهر أراد بارسال النسوة للحجاج موادانه والتقرب اليه .

أما فيما يتعلق برأى أكبر شاه من عدم وجود قراصنة فى البحر الهندى قبل مجىء البرتغاليين فان المصادر التاريخية تؤكد وجود قراصنة من السند كان فى مقدمتهم جالية الميد التى كانت تغير على السفن وتنهبها فى البحار وكانت مساكنها تمتد من حوض نهر السند الى منطقة أوتكين احدى تخوم الهند ومن المناطق الساحلية الواقعة على حوض نهر السند الى الملتان(٥١) .

٢ ــ أما السبب الثانى لفتح بلاد السند فقد أشار اليه عدد من المؤرخين حيث ذكروا أن الحجاج الثقفى قد ولى على السند (مكران) سعيد بن أسلم بن زرعة فخرج عليه معاوية بن الحارث الكلابى العلاقى وأخوه محمد فغلب على البلاد وقتلا سعيد فأرسل

---

(٤٩) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٥٠) فتوح البلدان جـ ٣ ، ص ٥٣٤ ــ عبد المنعم النمر : الاسلام فى الهند ، ص ١٠٤ .

(٥١) كانت توجد لقطاع الطرق المائية ملاجىء واوكار فى سواحل كجرات وكوكن بكثرة وكان الملوك الهنود قد ضاقوا بهم ذرعا ولم ينالوا منهم شيئا حتى اخضعهم المسلمون فيما بعد : انظر قاضى اطهر : من التارجيل الى النخيل ، ص ٥٧٦ .

الحجاج مجاعة بن سعيد التميمي فأعاد الأمور الى نصابها ثم مات بعد سنة من ولايته(٥٢) وقد قيل فيه :(٥٣)

ما مشـــاهد كالتي شـــاهدتها
الا يزينـــك ذكـــرمن مجـــاعا

ثم ولى الحجاج السند بعد مجاعة لمحمد بن هارون بن زراع النمري الذي أخذ يتتبع — لمدة خمس سنوات — العلافيين فقبض على معاوية بن الحارث العلافي فاحتز رأسه وبعث به الى الحجاج في حين أن أخاه محمد أفلت من قبضته ثم التجأ في خمسمائة مقاتل الى داهر ملك السند الذي استقبله استقبالا حافلا فلما علم الحجاج بذلك كتب الى الخليفة يستأذنه في فتح السند غير أن الخليفة توفى قبل أن يوافق على اقتراح الحجاج(٥٤) .

يرى محمد الافغاني مما سبق أن الحجاج اضطر اضطرارا الى فتح السند حسب النصوص السابقة لكي يضع حدا لهذه المؤامرات التي كان يدبرها داهر في الخفاء ويخطىء من يظن أن السند انما فتحت لمـآرب أخرى والحال انها بلاد جدبة لا يرجى خير جزيل من وراء استعمار أراضيها(٥٥) .

ونختلف مع هذا الرأى من حيث أن المسلمين لم يكن يدور بخلدهم عبر حركة الفتوحات الاسلامية البحث عن مغنم أو الجـرى وراء استعمار أرض انما كان هدفهم الاساسى وشغلهم الشاغل هو تحقيق أمر الله تعالى بنشر دينه القويم واعلاء لكلمته وتحريرا للشعوب من جور واستبداد ملوكها وهذا هو في نظرى السبب الرئيسى من فتح المسلمين للسند .

(٥٢) عبد الرحمن بن خلدون : العبر ج ٣ ، ص ٤٢ .
(٥٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ، ص ١٤٧ .
(٥٤) محمد الافغاني : مجلة المنهل المرجع السابق ، ص ٢٩ .
(٥٥)

ومهما يكن من أمر فان الحجاج بن يوسف الثقفى أعد جيشا كبيرا أسند قيادته لابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى سنة ٩٢ هـ . وكان شابا لم يطرأ شاربه اذ كان لم يتجاوز من العمر سبع عشرة سنة وقد قال الشاعر حمزة بن بيض الحنفى فى ذلك :(٥٦)

ان السماحة والمروءة والندى
لمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة
يا قرب ذلك سوددا من مولد

يقول البلاذرى :(٥٧) « ان محمد بن القاسم كان بفارس فامره الحجاج الثقفى أن يسير الرى وعلى مقدمته أبو الأسود جهم بن زحر الجعفى • فرد اليه وعد له على ثغر السند وضم اليه ستة آلاف من جند الشام وخلقا من غيرهم وجهزه بكل ما احتاج اليه حتى الخيوط والمال وأمره أن يقيم بشيراز يتتام اليه أصحابه ويوافيه ما أعد له » •

ويظهر من هذا النص اهتمام الحجاج بهذه الحملة ومدى عنايته بها اذ وفر لها كل ما تحتاجه(٥٨) . فسار محمد الى مكران فأقام بها أياما ثم أتى قنزبور ففتحها(٥٩) ثم أتى أرمائيل ففتحها وكان محمد

---

(٥٦) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن ابى عقيل الثقفى كان من بنى اعمام الحجاج وكان حتنة وقد ولاه الحجاج اول الامر قتال الاكراد فاباد منهم — انظر ابن قتيبة الدنورى : عيون الاخبار ، طبعة دار التراث ج ١ ، ص ٢٢٩ — انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤، ص ٢٢٤ .

(٥٧) وقد رثاه شاعر آخر يؤكدا هذا العمر بقوله :
ساس الرجال لسبع عشر حجة
ولداته عن ذلك فى اشغال
انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ، ص ٢٢٤ — ابن قتيبة : المصدر السابق ج ١ ، ص ٢٢٩ .

(٥٨) فتوح البلدان : ج ٣ ، ص ٥٣٤ .

(٥٩) يروى البلاذرى انه زودهم بالقطن المنقوع فى خل الخمر الحاذق ثم جففه فى الظل ليطبخوا به فى السند — المصدر السابق ، ص ٥٣٤ .

بن هارون بن ذراع قد لقيه فانضم اليه وسار معه(٦٠) ثم بعد ذلك سار محمد بن القاسم ومعه جهم ابن زحر الجعفى حتى وصل الى الديبل فى يوم الجمعة وضرب حولها حصارا محكما فانضم اليه جمع من المهد والزط فقوى المسلمون بهاتين القبيلتين ثم استخدم المسلمون أسلحة قوية من بينها منجنيقا يسمى العروس يديره خمسمائة جندى . وبعدها أخذ محمد بن القاسم يقتل من بالمدينة ثلاثة أيام فهرب عامل داهر ملك السند عنها وقتل سادن بيت آلهتهم وبهذا حقق المسلمون نصرا باهرا ثم استولوا على الديبل وأقام بها محمد بن القاسم مسجدا لاقامة شعائر الصلاة وترك بها حامية قوامها أربعة آلاف جندى(٦١) وغدت الديبل أول مدينة اسلامية فى الهند(٦٢) .

ثم سار بعد ذلك الى بلدة البيرون وكان أهلها قد بعثوا الى الحجاج مصالحين فاستقبلوا محمد الثقفى بالميرة وفتحوا له الطريق للدخول فيها بعد أن خرجوا منها(٦٣) وهكذا حسب رواية ابن الاثير أن محمد الثقفى أخذ يستقطع مدن السند المدينة تلو الأخرى تارة بالصلح وأخرى بالخراج حتى عبر نهر أدون مهران فنزل فى وسطه فلما بلغ خبره ملك السند داهر استعد لمحاربة المسلمين(٦٤) ظنا منه أن النهر يعرقل عبورهم(٦٥) غير أن المسلمين استطاعوا عبور

---

(٦٠) تروى بعض المصادر انه محمد بن القاسم حين قصد السند كان له قوتان احداهما برية قوامها عشرين الف مقاتل واخرى بحرية تحمل جنود الاسطول وعتاده ومؤونة الجيش المهيأة لحصار الحصون . القاضى أبو المعالى : العقد الثمين : ص ١٨٢ .

(٦١) القاضى ابو المعالى : العقد الثمين ، ص ٥٣٥ . الكامل : المصدر السابق ، ص ١١١/٤ .

(٦٢) عصام عبد الرؤوف : بلاد الهند فى العصر الاسلامى ، ص ١٠.

(٦٣) ابن الاثير : الكامل جـ ٤ ، ص ١١١ .

(٦٤) المصدر السابق ، ص ١١١ .

بعث محمد جيشا الى سدو وستان فطلب اهلها الصلح والامان فأمنهم وصف لهم الخراج ، المصدر السابق ، ص ١١١ .

(٦٥) عصام عبد الرؤوف : بلاد لهند فى العصر الاسلامى ، ص ١٠.

النهر على الزوارق ولما شعر باقتراب المسلمين لجأ الى حصن الرور فباغته المسلمون على الرغم من استخدامه الفيلة والنبال والنفط فانهزموا شر هزيمة ثم استولى المسلمون على الرور وفى هذه المعركة الحاسمة قتل داهر ملك السند وحسب رواية المدائنى أن الذى قتل داهر رجل من بنى كلاب(٦٦) فى حين أن ابن الكلبى يرى أن قاتل داهر القاسم بن ثعلبة بن عبد الله بن حصن الطائى(٦٧) .

ثم أخذ محمد القاسم يطارد فلول جيش داهر حتى فتح راور التى كانت بها زوجة لداهر فلما خشيت على نفسها من أن تقع فى قبضة المسلمين حرقت نفسها وجواريها وجميع ما لها ثم توجه الى برهمناباد وقد اعتصم بها فلول جيش داهر . يقول البلاذرى :(٦٨) « ففتحها محمد عنوة وقتل بها ثمانية آلاف وقيل ستة وعشرين ألف » .

أخذ محمد ابن القاسم الثقفى يفتح بلاد السند مدينة مدينة ناشرا العدل الاسلامى بحسن خلقه وطيب سيرته فاجتذب القلوب بعدالة الحكم ورفق السياسة مما جعل أهل السند يتعلقون به ويرحبون به أجمل ترحيب حيث أنه خلصهم من جور ملوك الهندوس .

ويوضح لنا هذه السياسة المنشور الذى جعله دستورا يسوس به بلاد السند اذ يقول فيه :(٦٩) « أنصفوا الناس من أنفسكم واذا

---

(٦٦) وقد قال فى ذلك شعرا جاء فيه :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمد

انى فرجت الجمع غير معرد ... حتى علوت عظيمهم بمهند

فتركته تحت العجاج ... متعفر الخدين غير مؤسد

البلاذرى : فتوح البلدان — القسم الثالث ، ص ٥٧٣ .

(٦٧) البلاذرى : فتوح البلدان : جـ ٢ ، ص ٥٣٧ .

(٦٨) المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

(٦٩) القاضى ابو المعالى : القصد الثمين ، ص ١٨٢ .

كانت قسمة فاقتسموا بالسوية وراعوا فى فرض الخراج مقدرة الناس على أدائه ا لاتختلفوا ولا تنازعوا فتشقى بكم البلاد » .

توج المسلمون انتصاراتهم تلك بالاستيلاء على الملتان تلك المدينة المقدسة (٧٠) التى يحج اليها الهنود حيث أنهم يقدمون الهدايا ويحلقون رؤوسهم ويقدمون النزور لاصنامهم الكثيرة الموجودة بها وبسقوط هذه المدينة أصبح وادى السند باكمله فى حوزة المسلمين ويقول البلاذرى فى ذلك :(٧١) « وكان بالملتان بدا عظيما تهدى اليه الأموال ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبى صلى الله عليه وسلم » .

لم يمض على هذا النصر الحاسم الذى حققه محمد بن القاسم الثقفى فى بلاد السند الا فترة وجيزة حتى جاز الحجاج بن يوسف الثقفى الى ربه وقبل أن يسعد بثمرة ما كسبه من الحملة مقابل ما أنفقه عليها . حيث أنه أنفق عليها ستين ألف ألف درهم . وبعد النصر حمل له محمد بن القاسم عشرين ومائة ألف ألف . فقال الحجاج فى ذلك : « شفينا غيظا وأدركنا ثأرنا وزدنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر »(٧٢) .

وفى سنة ٩٦ هـ لحق الوليد بن عبد الملك بالحجاج فبويع سليمان ابن عبد الملك بالخلافة — فاستعمل صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق وولى يزيد بن أبى كبشة السكسكى السند . فحمل محمد بن القاسم الثقفى — بايعاز من صالح بن عبد الرحمن مقيدا مع معاوية ابن المهلب ، فقال محمد متمثلا قول الشاعر :

---

(٧٠) يمثل استيلاء المسلمين على الملتان اهمية كبيرة اذ يوجد بها المعابد الدينية الكبيرة ويهدون لصنمها الذهب حتى سميت بفرج بيت الذهب .

المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٤٨٢ .

(٧١) فتوح البلدان : المصدر السابق ، القسم الثالث ، ص ٥٣٨ .

(٧٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، القسم الثالث ، ص ٥٣٨ .

أضاعوني وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكى أهل السند عليه دمعا سخينا وحبسه صالح بن عبد الرحمن فى مدينة واسط بعد أن عذبه ومعه رجال من آل بنى عقيل ثم قتله(٧٣) وقد أورد البلاذرى أن سبب ذلك أن الحجاج كان قد قتل آدم أخا صالح الذى كان على مذهب الخوارج انتقاما لأخيه • ونرى أن هذا السبب لا يمكن أن يكون كافيا فى قتل محمد بن القاسم •

والواقع أن محمد بن القاسم قد مات ضحية العداوة بين الحجاج وسليمان بن عبد الملك لأن الأول أشار الى عبد الملك أن يعهد بالملك بعهده الى ابنه الاكبر ويحرم سليمان منه ، فحفظ الأخير العداوة فى قلبه . ولما آلت اليه الخلافة كان الحجاج قد توفى فانتقم سليمان من جميع أقربائه وأصدقائه حتى كتابه(٧٤) •

لم تدم ولاية يزيد بن أبى كبشة على السند طويلا حيث وافته المنية بعد ثمانية عشر يوما من قدومه اليها فانتهز ملوك السند الفرصة وعادوا الى ممالكهم من جديد وقد بعث سليمان بن عبد الملك على الهند حبيب بن المهلب لرد الأمور الى ما كانت عليه ولكنه وجد الأمر قد استفحل حيث رجع جليشة بن داهر الى برهمناباذ وأخذ محاولا استرداد ملك أجداده وقبل أن يعيد حبيب بن المهلب السيطرة على اقليم السند توفى سليمان بن عبد الملك وتولى الخلافة عمر بن

---

(٧٣) وقد قال محمد بن القاسم حين أخذ فى الحديد الى واسط شعر جاء فيه :

فلئن ثويت بواسط وبارضها
رهن الحديد مكبلا ومغلولا
فلرب فتية فارس قد رعتها
ولرب قرن قد تركت قتيلا

البلاذرى : فتوح البلدان ، القسم الثالث ، ص ٥٣٩ .

(٧٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، القسم الثالث ، ص ٥٤٠ .
انظر الطبرى : الامم والملوك ، دار سويدان ، بيروت جـ ٥ ، ص ٤٩٩.

عبد العزيز سنة ٩٩ هـ فعلم بأحوال السند وانتفاضة أهلها فكتب الى الملوك يدعوهم الى الاسلام والدخول فيه . على أن يملكهم ما هم عليه ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

ثم أرسل اليهم عمرو بن مسلم الباهلى عاملا من قبله . فلما علم ملوك السند عن سيرة عمر بن عبد الله وحسن خلقه(٧٥) دخلوا فى الاسلام دون تردد فأصبح جليشة بن داهر ملكا على السند من قبل الدولة الاسلامية(٧٦) .

وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز تولى أمر الخلافة يزيد بن عبد الملك الذى أخذ يبعث بالولاة الواحد تلو الآخر لامارة السند فأخذت السند تضطرب أحوالها من جراء المعاملة التى انتهجها ولاة الامويين عقب خلافة عمر بن عبد العزيز الأمر الذى جعل جليشة ابن داهر ملك السند يشق عصا الطاعة أولا ثم يرفض النزول عن حكم بلاده بقوله :(٧٧) للجنيد بن عبد الرحمن الذى تولى أمر السند من قبل عمر بن هبيرةالفزازى — « انى أسلمت وقد ولانى الرجل الصالح بلادى ولست آمنك » .

لقد راهنه الجنيد على أن يدفع جليشة الخراج دون المساس بحرماته ويروى البلاذرى أن الجنيد قد نكث على عهده وتجنى على جليشة مما جعله يرتد عن الاسلام ويعود الى ديانته السابقة ودخل فى مواجهة عسكرية مع الجيوش الاسلامية انتهت بالقضاء على جليشة وأخيه صصه بن داهر الذى حاول الهرب الى العراق ليشكو الجنيد للخليفة العباسى .

---

(٧٥) يصور حسن سياسة كتابه الى عبد الرحمن بن ابراهيم والذى قال فيه : (لا تهدموا كنيسة ولا بيت نار صولحتم عليه ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار ولا تجر الشاة الى مذبحها ولا تحدوا الشفرة على راس الذبيحة ولا تجمعوا بين الصلاتين الا عن عذر).
الطبرى : الرسل والملوك ، جـ ٦ ، ص ٥٧٢ .

(٧٦) البلاذرى : فتوح البلدان ، القسم الثالث ، ص ٥٤٠ .

(٧٧) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٥٤٠ .

ويظهر لنا مما سبق أن الاسلام لم يتمكن من قلوب ملوك السند انما كان دخول أبناء داهر فى الدين الاسلامى عقب ولاية عمر بن عبد العزيز كان مجرد مناورة سياسية الهدف منها اعادة ملك أجدادهم والدليل على ذلك ردتهم فى أول مواجهة من امارة الدولة الأموية . وعليه نرى أن معاملة الجند مهما كانت لا تصل الى حد الردة عن الاسلام . الا اذا كان التهور هنا والايمان ضعيفا .

وخلاصة القول أن عزل محمد بن القاسم الثقفى عن اقليم السند قد مثل خسارة كبيرة بالنسبة لحركة الفتح الاسلامى فى اقليم السند فى عصر الدولة الأموية حيث أن العديد من الولايات قد انتقض على الحكم الاسلامى وأخذ الولاة الأمويون يبذلون جهودهم فى الحفاظ على ممتلكاتهم فى بلاد السند دون أن يفكروا فى اضافة مناطق جديدة تعزز من موقفهم وتمكن الاسلام فى تلك البلاد .

ولولا المحاولات الجبارة التى بذلها الحكم بن عوانة(٧٨) لضاعت هيبة الاسلام والمسلمين فى بلاد السند حيث أنه كان من خيرة الولاة الذين ساعدوا فى تثبيت دعائم الاسلام فى شواطىء نهر السند وذلك حين بنى مدينتى المنصورة والمحفوظة ، وقد أصبحت المنصورة فيما بعد عاصمة الدولة الاسلامية ببلاد السند وقد سار فى الناس سيرة عطرة وأطلق لأهل السند الحرية الدينية(٧٩) .

وعندما سقط الدولة الأموية وحلت محلها الدولة العباسية حافظ العباسيون بكل ما عندهم من امكانات على بلاد السند الاسلامية واجتهدوا فى توسيع دائرة الفتوحات فى تلك البلاد ففى خلافة المنصور

---

(٧٨) هو الحكم بن عوانة بن عياض بن وزن بن عبد الحارث . لقد قال للبراهمة وغيرهم : عمروا معابدكم واعبدوا أصنامكم وعاملوا المسلمين فى البيع والشراء واجتهدوا فى اصرحكم وتعاهدوا فقراء البراهمة ، واسمعوا واطيعوا امرائكم ولكم الامان .
العقد الثمين : المرجع السابق ، ص ١٩٩ .
(٧٩) عصام عبد الرؤوف : الهند فى العصر الاسلامى ، ص ١١ .

دخلت كشمير فى حوزة العباسيين وأكدوا نفوذهم على الملتان . وتوالت سيطرتهم على الكثير من المدن ، ففى عهد الخليفة المهدى سنة ١٥٩ هـ استولى المسلمون على مدينة باريد ثم أحرقوا تمثال بوذا وهكذا أخذت فتوحات المسلمين فى العصر العباسى تجتاح الكثير من المدن فى عهد المأمون والمعتصم حتى سيطروا على كافة المناطق الواقعة بين كابل وكشمير والملتان(٨٠) .

ولما ضعفت الدولة العباسية وعجزت الحكومة المركزية عن السيطرة على جميع البلاد استقل حكام الاقاليم بولاياتهم عن عاصمة الخلافة بغداد وقامت فى بلاد السند امارتان مستقلتان عن سيطرة الدولة العباسية ، احداهما فى الشمال وعاصمتها الملتان والثانية فى الجنوب وعاصمتها المنصورة ، وقد استقرت أحوال هاتين الامارتين نتيجة لتحسن الاحوال الاقتصادية وازدهار النشاط التجارى فى بلاد السند وبلاد الشرق والغرب وبالتالى فقد ازدهرت فيهما العلوم والحضارة نتيجة لهذا الاستقرار ، الأمر الذى جعلهما ملجأ للفارين من بطش الدولة العباسية .

---

(٨٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٥٠ .
محمود الساداتى : المرجع السابق ، ص ٧٥ .

قائمة بأسماء الحملات الاسلامية لاقليم السند في الدولة الاسلامية

م	اسم قائد الحملة	اسم المنطقة	عهد الخليفة الاموى	نتيجة الحملة
١	عبد الله بن نبهان السلمى	مدينة الديبل ببلاد السند	الوليد بن عبد الملك	استشهد في المعركة سنة ٩٠ وفشلت الحملة .
٢	بديل بن طهفة البجلى	مدينة الديبل ببلاد السند	الوليد بن عبد الملك	استشهد في المعركة سنة ٩٠ وفشلت الحملة .

م	اسم الوالى الاسلامى	السنة الهجرية	عهد الخليفة الاسلامى	مصير الحملة ببلاد السند
١	محمد بن القاسم الثقفى	٩٢ — ٩٦ هـ	الوليد بن عبد الملك	عزل وقتل بسجن واسط
٢	يزيد بن ابى كبشة	٩٦ — ٩٦ هـ	سليمان بن عبد الملك	مات ببلاد السند بعد ١٨ يوما
٣	حبيب بن المهلب	٩٧ — ٩٩ هـ	سليمان بن عبد الملك	عزل بتهمة الخيانة ضد الدولة
٤	عمرو بن مسلم الباهلى	٩٩ — ١٠١ هـ	عمر بن عبد العزيز	عزل ونقل الى دمشق
٥	هلال بن احوز التميمى	١٠١ — ١٠٧ هـ	يزيد بن عبد عبد الملك	عزل ونقل الى دمشق
٦	الجنيد بن عبد الرحمن الحرمى	١٠٧ — ١١١ هـ	هشام بن عبد الملك	نقل الى بلاد خراسان
٧	تميم بن زيد العتبى	١١١ — ١١٢ هـ	هشام بن عبد الملك	مات في مدينة الديبل
٨	الحكم بن عوانة الكلبى	١١٣ — ١٢١ هـ	هشام بن عبد الملك	استشهد في بلاد السند
٩	عمرو بن محمد بن القاسم	١٢١ — ١٢٥ هـ	هشام بن عبد الملك	انتحر بمدينة المنصور بالسند
١٠	يزيد بن عرار الكلى	١٢٥ — ١٢٩ هـ	الوليد بن يزيد	قتل بمدينة المنصورة بالسند

انتشار الثقافة العربية الاسلامية فى السند :

بعد هذا العرض لفتوح المسلمين لبلاد السند نشير بايجاز الى دور هذه الفتوح فى نشر الثقافة العربية الاسلامية . لقد قدم العرب لأهل السند فى فترة حكمهم التى استمرت أكثر من ثلاثة قرون (٩٠ — ٤١٦ هـ) وفى أثناء الحكم الاسلامى الكثير من الخدمات فى كافة المجالات السياسية والثقافية والدينية والاجتماعية فمن الناحية السياسية فقد ظهر الاستقرار السياسى فى بلاد السند حين جاء الاسلام بعد أن كان عدم الاستقرار السياسى هو السمة الغالبة على هذه البلاد نتيجة الغزو والسيطرة الاجنبية بعد أن كانت السند صاحبة حضارة قديمة لها المجد والسؤدد وهى حضارة (موهنجودارو) ، فلما جاء الاسلام أدخل المساواة والعدالة الاجتماعية فقضى على التفرقة العنصرية وأعطى الفرصة للجميع فى حرية تامة وأصبح لبلاد السند مكانة مرموقة وشأن عظيم(٨١) .

أما من الناحية الدينية فقد كانت السند قبل مجىء الاسلام مقسمة الى عدة مذاهب دينية مختلفة مما ساعد على نشوب الخلافات المذهبية الحادة التى دفعت الى قيام حروب دينية دامية وخاصة بين البراهمة والبوذيين(٨٢) . وقد كانت العناصر السياسية مقسمة

---

(٨١) عبد الله مبشر الطرازى : موسوعة التاريخ الاسلامى ، جـ ١ ، ص ٢٥١ .

(٨٢) اهم المذاهب التى كانت موجود بالسند قبل الفتح الاسلامى هى :

(ا) **البرهمية** : ليس لها مؤسس معروف وليس فيها توحيد فى العقيدة ولا المذهب وتؤمن بفكرة التناسخ والحلول .

(ب) **البوذية** : تدور حول تطهير النفس من شهواتها وتحليها بالاخلاق الفاضلة وتنظيم الامور الاجتماعية والقضاء على نظام الطبقات .

(جـ) **الجينيه** : وتمتى فى ابرز معتقداتها بقهر النفس واعتبار الحياة لعنة يجب التخلص منها بنعمة الانتحار البطىء جوعا ليبلغ سر الوجود .

انظر عبد الله الطرازى : الموسوعة ، جـ ١ ، ص ٣٢٠ — ٣٢٤ — ٣٢٩ .

بناء على التقسيم الديني المذهبي فلم تكن هناك حرية لدين أو مذهب انما السيادة للغالب ، وظلت الحالة كهذه حتى جاء الاسلام فانقلبت الاحوال رأسا على عقب حيث انتهت الخلافات المذهبية والحروب الدينية وعاش أهل السند فى ظل الاسلام آمنين ترفرف فوقهم راية الحرية الدينية وأصبح لكل فرد مذهبه ودينه الذى يختاره حيث أن الاسلام لم يفرض على أحد اعتناقه انما أصبحت الدعوة له والدخول فيه عن طريق الاقناع والاقتناع .

وبناء على هذا الطرح الهادف فقد اتضح لأهل السند عظمة الاسلام وحسن مبادئه العظيمة التى تدعو الى الاخاء والمساواة والعدالة الاجتماعية فانخرطوا فى سلكه والدخول فيه باعداد كبيرة وبدخول أهل السند فى الاسلام فقد تخلصوا من مساوىء دياناتهم السابقة وصلف رجالاتهم وظلمهم الذى أذاقهم مرارة الحياة ونكد العيش .

ومن هذا المنطلق فقد اهتم المسلمون منذ أول وهلة حين دخلوا بلاد السند — وخاصة فى عصر الدولة الاموية والعباسية — بالعلم ايمانا منهم بأنه هو الطريق الوحيد لنشر الدين الاسلامى وبه يتقدم الفكر وتنتشر الثقافة ، ولما كانت العلوم عند المسلمين تنقسم الى علوم نقلية وعقلية فقد اهتم المسلمون فى بلاد السند بنشر العلوم النقلية ، أما العلوم العقلية فقد كانت منتشرة فى بلاد السند فاستفاد المسلمون منها ثم أضافوا اليها من معارفهم العقلية الكثير وخاصة فى العصر العباسى الثانى(٨٣) .

وقد ظهر اهتمام المسلمين بنشر الثقافة العربية الاسلامية فى

---

(٨٣) تنقسم العلوم عند المسلمين الى قسمين : اللعوم النقلية وهى القرآن الكريم والحديث الشريف والتفسير واللغة والادب والعلوم العقلية : كالطب والهندسة والرياضيات والكيمياء والفلك والفلسفة والتاريخ والجغرافيا وغيرها .

السند منذ دخولهم فيها فقد شيدوا المساجد فى كافة البلاد التى فتحوها وغدت هذه المساجد معاهد للعلم ومنارة للثقافة وأنشأوا بها المكتبات العامة لقاصدى المعرفة فى كافة العلوم يرتادها كل من تهفوا نفسه للمعرفة • وبجانب المساجد فقد أقيمت المجالس العلمية فى قصور الحكام والولاة والاعيان العرب وفى منازل العلماء المسلمين وشيد بعض القضاة والعلماء مدارس خاصة لنشر العلم والثقافة الاسلامية(٨٤) •

لقد ساعدت هذه الحركة العلمية فى السند — بعد الفتح الاسلامى — على ظهور العديد من العلماء السنود الذين تخصصوا فى العلوم الاسلامية المختلفة وخرجوا من بلادهم الى مختلف آفاق الدولة الاسلامية لينشروا ما تعلموه فى بلادهم ويتعلموا ما لم يتعلموه من علماء تلك البلاد فوصلوا الى مكة وبغداد ودمشق والمدينة ومصر وغيرها وساهموا مع علماء تلك البلاد فى بناء صرح الدولة الاسلامية •

ولم تمض فترة من الزمان الا وأصبح منهم علماء كبار فى تفسير القرآن الكريم وتدريس الحديث الشريف وعلم المغازى والأدب والشعر واللغة . كما أن تعلمهم تجاوز هذه المجالات وظهر على المسرح السياسى — لسعة علمهم وعلو مكانتهم عند المسلمين فصار منهم المستشار عند الخلفاء وقائد الجيش ووالى الاقليم ، وهذا كله بفضل الاسلام الذى بسط العدالة بين الناس دون النظر الى أعراقهم(٨٥) •

مما تجدر الاشارة اليه ان هذه الحركة الثقافية التى غرست جذورها فى بلاد السند كانت قد نمت وترعرعت على أيدى بعض المجاهدين من الصحابة والتابعين الذين كانوا فى جند الفاتحين لبلاد

---

(٨٤) عبد الله مبشر الطرازى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .
(٨٥) عبد الله الطرازى : الموسوعة الناصضة ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

السند فقد ذكر ابن كثير(٨٦) حين تحدث عن فتوح محمد بن القاسم فقال : وكان فى عسكرهم وجيوشهم الصالحون الاولياء من العلماء من كبار التابعين •

ونلاحظ أن الحملات التى كانت تخرج الى بلاد السند كان يقودها القضاة من أهل الصدق والدين من أمثال حكيم بن جبلة العبدى وسعيد بن أسلم الكلابى ومجاعة بن سعد التميمى ومحمد بن هارون النميرى وغير هؤلاء القضاة ممن كانوا علماء بالكتاب والسنة وأحكام الاسلام فكانوا بجانب ما يقومون به فى اشاعة العدل ينشرون علوم الاسلام ومبادئه فى بلاد السند •

ولم تمض فترة وجيزة حتى أصبحت هذه البلاد معقلا للرواة والمحدثين ، وقد أشار الى ذلك ياقوت الحموى حين ذكر لاهور فقال . خرج منها جماعة من أهل العلم •

ويظهر أن بلاد السند قد أصبحت مقصدا لارباب الحجا وطلاب العلم من كافة بلاد الاسلام وتحدثنا كتب التاريخ أن أبا العباس الأصم كان من الذين يتقاطر اليهم الباحثون عن العلوم وقد قال الحاكم أبو عبد الحافظ فى ذلك : « فقد رأيت جماعة من أهل الاندلس والقيروان وبلاد المغرب على بابه وكذلك رأيت جماعة من أهل الحراز وأهل المشرق على بابه وكذلك رأيت فى عرض الدنيا من أهل المنصورة وملتان وبلاد بست • •كذلك رأيت جماعة من أهل فارس وشيراز وخوزستان(٨٧) •

من الملاحظ أن الفتح الاسلامى لبلاد السند قد تسبب وبشكل ملحوظ فى عملية مزج بين العرب الفاتحين وبين شعوب تلك البلاد ، شملت جميع مناحى الحياة •

---

(٨٦) البداية والنهاية ، جـ ٩ ، ص ٨٧ .

(٨٧) السمعانى : الانساب ، جـ ١ ، ص ٢٩١ .

(88) Havall : The History of Aryan Rule — in India. p. 151, London. N. 6.

ومن عوامل هذا الامتزاج وانتشار الاسلام ، دخول شعوب أهل السند فى الاسلام وامتزاجهم بالعرب كانهم منهم بعد الفتح(٨٨) وقدموا للاسلام خدمات جليلة فى هذا المضمار .

وقد ساعد فى انتشار الاسلام والثقافة العربية الاسلامية فى بلاد السند الاختلاط فى السكن والعمل دون تفرقة فى العنصر أو الدين ، حيث اشترك أهل السند مع المسلمين فى تنمية الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية مما كان له أبلغ الأثر فى تحقيق عملية الامتزاج الذى ساعد الى حد كبير على انتشار الثقافة العربية الاسلامية فى بلاد السند .

ولعله من المناسب هنا أن نشير الى دور المساجد التى أقامها المسلمون فى بلاد السند فى انتشار الثقافة العربية الاسلامية ويتضح ذلك حين نرى أن المسلمين بمجرد فتح المدينة كانوا يقيمون المسجد فيها لاقامة الشعائر الدينية وتدريس العلوم الاسلامية(٨٩) .

وكان من أشهر هذه المساجد ما بناه محمد بن القاسم الثقفى مدينة الديبل سنة ٩٢ ﻫ(٩٠) والمسجد الذى بناه فى مدينة النيرون سنة ٩٢ ﻫ ثم المسجد الذى بناه عقب سقوط مدينة (أرور) بعد مقتل داهر ملك السند سنة ٩٣ﻫ وعين عليه اماما ومؤذنا وبعض العلماء وقاضيا على المدينة هو القاضى موسى بن يعقوب الثقفى الذى كان من أشهر علماء عصره ثم مسجد الملتان سنة ٩٤ ﻫ ومسجد مدينة الفتوح(٩١) .

وهكذا تتابعت عملية تشييد المساجد فى بلاد السند على عهد

---

(٨٩) كان يقوم بامر هذه المساجد الائمة والعلماء والقضاة داعين للاسلام وناشرين لتعاليمه . انظر عبد الله مبشر الطرازى : موسوعة التاريخ الاسلامى ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

(٩٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٣٧ .

(٩١) نفس المرجع السابق .

الدولة الأموية وكان من أهمها ذلك المسجد الذى بناه الحكم بن عوانه الكلبى بمدينة المحفوظة التى أسسها فى سنة ١١٢ هـ وكذلك مسجد مدينة المنصورة التى شيدها عمرو بن محمد بن القاسم واتخذها عاصمة للدولة الاسلامية فى بلاد السند سنة ١٢١ هـ والذى قام بتوسيعه فى العصر العباسى موسى بن كعب التميمى سنة ١٣٤ هـ(٩٢) •

مما لا شك فيه فان هذه المساجد قد لعبت أكبر الادوار فى مجال نشر الثقافة العربية الاسلامية فى بلاد السند كما كان للائمة والعلماء والقضاة القائمين بمهمة الدعوة الى الاسلام وتدريس علوم الدين واللغة أثرهم الذى لا يقدر فى هذا المجال •

ومن مظاهر انتشار الثقافة العربية الاسلامية فى بلاد السند تعلم أهل تلك البلاد للغة العربية التى هى لغة القرآن الكريم دستور المسلمين • ويرجع بعض الباحثين الفضل فى انتشار اللغة العربية بين شعوب تلك البلاد المفتوحة الى اخلاق المسلمين وحسن تعاملهم مع شعوب البلاد المفتوحة • زيادة على ما تمتعت به هذه اللغة من جزالة فى اللفظ ومرونة فى التعبير فقد تعلمها من السند العديد من العلماء مثل أبو معشر نجيح السندى (المتوفى سنة ١٧٠ هـ) صاحب كتاب فن المغازى وأبو عطاء أفلح بن يسار المتوفى فى سنة ١٨٠ هـ •

لقد كانت اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى دوائر الحكومة فى اقليم السند الأمر الذى شجع العديد من أبناء تلك البلاد — وخاصه الطبقة العالية المتعاونة مع الحكام المسلمين فى تعلم اللغـة العربية وزيادة على ذلك فقد رغب فى تعلم اللغة العربية العديد من سكان السند بعد دخولهم فى الاسلام حتى يستطيعوا معرفة تعاليم الدين الاسلامى • ثم أن حركة الامتزاج والمشاركة اليومية بين المسلمين العرب وأهـل السند — كالعمل فى الجيش والزراعة اقتضت تعلم أهل السند للغة

---

(٩٢) انظر تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ •

العربية حتى يتمكنوا من القيام بدورهم الفعال فى بناء الدولة مع العرب وبهذه الطرق وغيرها فقد انتشرت اللغة العربية بين السنود مجانب لهجاتهم المحلية التى كانت سائدة فى بلادهم قبل دخول الاسلام فى هذه البلاد .

ويظهر أن انتشار اللغة العربية قد ساعد فيه وبشكل فعال اهتمام علماء الدين واللغة العارفين باللغتين العربية والسندية فقد كانت لهم مجالس علمية لتدريس اللغة العربية والعلوم الاسلامية(٩٣) .

ولقد أشار الى اهتمام أهل السند باللغة العربية العديد من المؤرخين والرحالة المسلمين فها هو المسعودى يشير الى العلماء والخطباء الذين يبذلون جهودا مقدرة لخدمة اللغة العربية وأن أهل السند يقدسونها وكثير منهم يتحدثون بها(٩٤) .

ويضيف ابن حوقل الذى زار بلاد الملتان سنة ٣٤٠ ھ قائلا بأن اللغة المستعملة فى الدوائر الحكومية ودور القضاة والاسواق والتجارة كما كانت هى اللغة المفضلة عند الخواص . أما العلوم فى بلاد السند فقد كانوا يتكلمون باللغة السندية واللهجات المحلية الأخرى فى حياتهم العامة(٩٥) . يؤكد الاصطخرى توسع انتشار اللغة العربية فى السند بصورة واضحة حين يقول : وأهل الملتان وأكثريتهم من العرب والمسلمين والاقلية من الكفار يتحدثون بالعربية الى جانب لغتهم المحلية(٩٦) كل هذه اشارات تؤكد أن اللغة العربية أصبحت هى اللغة الرسمية فى بلاد السند طوال حكم الدولة الاسلامية .

---

(٩٣) انظر عبد الله الطرازى : المجلة العربية — انتشار اللغة العربية فى الهند وباكستان ، ص ٢٠ — ٢١ .

(٩٤) زار المسعودى بلاد السند سنة ٣٠٣ ھ ، المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٩٥) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٩٦) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

مساهمة أهل السند في نشر الثقافة العربية الاسلامية :

ما هو معروف أن حركة الترجمة من اليونانية قد بدأت في أواخر العصر الأموي الى اللغة العربية ولكنها نشطت بصورة ملحوظة في العصر العباسي حيث ترجمت آلاف من الكتب من اللغات اليونانية والفارسية والهندية الى اللغة العربية وقد عرفت هذه بترجمة العلوم العقلية . مثل الرياضيات والطب والكيمياء والفلك وغيرها وقد كانت معرفة العرب في الاهتمام بهذه العلوم وصول العديد من الوفود العلمية للاشتراك في تحقيق هذه الثروة العلمية وقد كان في مقدمة هؤلاء العلماء بعض علماء السند المتخصصين في هذه العلوم(٩٧) .

وكان الخليفة المنصور أول من فتح باب الصلات العلمية بين المسلمين والسنود وذلك عندما استقبل رجل هندوكى متخصص في الفلك والرياضيات يحمل كتبا كثيرة في الرياضيات من بينها كتاب « سدهانت » فأمر الخليفة بترجمته بمساعدة ابراهيم بن حبيب الفزارى فقد ساعد هذا الكتاب المسلمين في تحديد القبلة(٩٨) ، وكذلك لما مرض الرشيد جىء له بطبيب من الهند اسمه « مانك » وأسند اليه بجانب مهمة علاج الخليفة ترجمة عدد من الكتب الهندية الى العربية من بينها كتاب « سأسروس » لطبيب هندوكى ، وقد وسع دائرة هذه الصلات بين بلاد السند والدولة الاسلامية البرامكة حيث قاموا بترجمة العديد من الكتب من اللغة الهندية واللغات الاخرى الى العربية .

واخذت هذه الصلات تزداد بين بلاد الهند والدولة الاسلامية ــ وبخاصة ــ في عهد المأمون الذى أقام دارا للترجمة أوكل أمرها للاكفاء والمختصين من الرجال أطلق عليها (بيت الحكمة) وقد كان

(٩٧) عبد الله الطرازى : المجلة العربية ، ص ٢٢ .

(٩٨) سيد احمد على : الصلات بين العرب والهند ، مجلة المنهل ، ص ٣٦ .

لأبى الريحان البيرونى القدح المعلى فى الدراسات الهندية العربية لمعرفته باللغة السنسكريتية السندية — علاوة على عيشه زمنا طويلا فى تلك البلاد . ثم تأليفه العديد من الكتب أشهرها « تحقيق ما للهند من مقولة » بمجهودات البيرونى فى مجال التأليف والترجمة فقد خدم الثقافة العربية الاسلامية وساعد فى انتشارها وأسدى الهنــــود أيادى بيضاء بشرحه لهم الطرق المستقيمة فى الفلك والحساب(٩٩) .

أما فيما يتعلق بدور علماء السند فى نقل التراث النقلى فقد انقسموا قسمين أحدهما من أبناء الموالى الذين جلبهم المسلمون من الهند الى بلاد العرب والحقوهم بهم والقسم الآخر من أبنـاء المجاهدين والمسلمين الذين قدموا الى الهند وسكنوا فيها .

ومن هؤلاء العلماء مكحول بن عبد الله الامام السندى الشامى ويعد من التابعين فقد روى عن أنس بن مالك وأبى أمامة ووائلة وغيرهم ، وأيضا أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندى المــدنى وهو من أتباع التابعين ويعد من الفقهاء الذين لهم باع طويل فى العلم ودراية بالمغازى . وكذلك أبو عطاء السندى الشاعر المشهور وهو مولى أسد ثم مولى عمرو بن السماك واسمه أفلح بن مرزوق وهناك الربيع بن صبيح السعدى وهو من العلماء الاجلاء الذين ذهبوا الى بلاد السند فساهموا فى نشر الثقافة العربية الاسلامية .

وعليه نكتفى بذكر هذه الكوكبة من العلماء الذين أثروا الحياة الثقافية الاسلامية من أهل السند وغيرهم لأن حركة انتشار الثقافة العربية الاسلامية فى تلك البلاد قد شارك فيها العديد من العلماء الاجلاء سواء من أهل السند أو من المسلمين الذين ذهبوا اليها فى بنائها دافعهم الى ذلك الايمان بالله تعالى وحبهم للاسلام وأهله ، زيادة على تشجيع ولاة السند لهذه الحركة العلمية الناشئة فى كافة عصور الدولة الاسلامية وخاصة فى العصر العباسى .

---

(٩٩) أحمد على : مجلة المنهل ، ص ٣٨ .

وفى ختام هذا البحث المتواضع أتقدم بوافر الشكر والعرفان لكلية الآداب بجامعة القاهرة وخاصة قسم التاريخ فيها لاتاحة هذه الفرصة النادرة لى بالمشاركة فى هذا السمنار .. ولا يفوتنى أن أشير الى أن هذا الموضوع يحتاج الى دراسة أعمق وجهد أكبر وذلك نسبة لاهميته التاريخية ولاتساع أبعاده — فهذا الجهد الذى بذلته فيه هو جهد المقل فان وفقت فيه فهذا من عند الله وان أخفقت فمن عندى والله من وراء القصد .

القسطنطينية فى ضــوء كتابات الجغرافيين والرحــالة المســلمين

تتمة المقــال(*)

دكتورة/ ليلى عبد الجواد اسماعيل
كلية الآداب ـــ جامعة القاهرة

الأســواق وحركة التجارة بالقسطنطينية :

نظرا لموقع مدينة القسطنطينية الممتاز(١) فقد نشــطت حركة التجارة داخل المدينة وخارجها على حد سواء ، وأطال الجغرافيــون والرحالة المسلمون الحديث حول النشاط التجارى فى القسطنطينية ، فتحدثوا عن شوارعها التجارية ، وتنوع أسواقها ، ونظام البيــع فى تلك الاسواق ، والأحياء التجارية التى تقيم بها جاليــات أجنبية ، وأسواق تلك الاحياء وحركة التجارة النشطة بها .

فوصف (هارون بن يحيى) ومن بعده ابن خرداذبة شــوارع القسطنطينية التجارية وأهمها الشارع الأوسط أو Mèse بقوله :

« وفيما بين باب الذهب(٢) الى باب الملك .. سوق ممتدة من الشرق الى الغرب بثلاث اسطوانات ، وحنيتا الوسطى منها بعمــد نحاس أصفر رومى ، وقصبة العمود منها وقاعدته ورأســه مفرغة ، وفيه حوانيت التجار ، وسمك الاعمدة ثلاثون ذراعا ، ومقدم هــذه الأعمدة والحوانيت نقير لنهر من نحاس أصفر من شرقيها الى غربيها ، يجرى فيه لسان من البحر ، وتجرى السفن فى هذا النقير بحمولتها ،

(*) انظر الجزء الاول من هذا المقال فى المؤرخ المصرى ، العدد الثالث ، يناير ١٩٨٩ ، ص ١٥١ ـــ ٢٠٢ .

(١) عن موقع القسطنطينية انظر المؤرخ المصرى ، العدد الثالث ، يناير ١٩٨٩ م ، ص ١٦٢ .

(٢) عن البوابة الذهبية انظر المؤرخ المصرى ، العدد الثالث ، يناير ١٩٨٩ م ، ص ١٧٢ ـــ ١٧٣ .

فتجيء السفينة بما تحمله حتى تقف على حانوت الرجل الذى يبتاع منها »(٣) •

يتضح مما سبق أن الشارع الاوسط — كما وصفه هارون ثم ابن خرداذبة — كان عبارة عن طريق طويل يمتد من الشرق الى الغرب ، ويتفرع فى النهاية الى فرعين رئيسيين أحدهما يتجه الى البوابة الذهبية والآخر الى القصر الامبراطورى وعلى جانبى الشارع أعمدة تعطى للمدينة طابعا شرقيا . وتحف بالشارع من جانبيه العقود والبواكى . وتقوم عليها أهم حوانيت المدينة مرتبة فى مجاميع تبعا لما تبيع من سلع . فصاغة الذهب ثم يليهم صاغة الفضة ثم البزازين (باعة الأقمشة) فصناع الاثاث وهكذا(٤) •

أما عن أسواق القسطنطينية فوصفها (هارون بن يحيى) بقوله : « وفيها أسواق عظام . وفى كل سوق قناتان عظيمتان من ماء . وأسواقها كلها مبلطة برخام أبيض »(٥) • أما الرحالة ابن بطوطة فقد وصف أسواق المدينة بقوله : « وأسواقها مفروشة بالصفاح (وهى حجارة عراض رقاق) : متسعة •• وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل »(٦) • وهذا يعنى أن كل سوق كان يغلق أبوابه ليلا مخافة اللصوص •

وكان لكل حرفة أو صنعة سوق خاص بها ولكنها كلها تركزت فى منطقة واحدة فيذكر ابن بطوطة : « وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم »(٧) •

---

(٣) ابن رسته : الاعلاق النفيسه . ص ١٣١ ، وانظر أيضا : ابن خرذاذبة : المسالك والممالك ، ص ١١٤ .

(٤) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٢٢١ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية ، الترجمة العربية ، ص ١٤ .

(٥) ابن رسته ، الأعلاق النفيسه ، ص ١٣١ ، وانظر أيضا ابن خرداذبة ، المسالك ، ص ١١٥ .

(٦) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٢٣٣ .

(٧) ابن بطوطة ، نفس المصدر والصفحة وانظر ايضا :
Ebersolt. Constantinople Byzantine. p. 62.

وعدد هارون أسواق القسطنطينية فذكر : « وفيها مجامع أسواق يقام فيها التجارات خمسة وتسعون موضعا »(٨) .

ومن بين الأسواق التى ذكرها الجغرافيون والرحالة المسلمون : سوق الطير ويقدر هارون بن يحيى مساحته بقوله : « وسوق الطير بها فرسخ »(٩) .

وسوق العطارين ويحدد ابن بطوطة موقعه بقوله : « وعن يسار القبة التى على باب هذا المشور سوق العطارين »(١٠) أى أنه يقع بجوار كنيسة آيا صوفيا .

ثم سوق الكتاب وذكر ابن بطوطة أيضا انه دخل هذه السوق بقوله : « ولما فارقت الملك المترهب دخلت سوق الكتاب .. »(١١) .

أما عن الباعة فى هذه الاسواق ونظام البيع فيها فيذكر ابن بطوطة : « وأكثر الباعة بها النساء »(١٢) . أما عن نظام البيع فقد كانت هناك أوقات محددة تتم فيها عملية البيع والشراء فى مدينة القسطنطينية . كما كانت هناك أوقات أخرى يتوقف فيها البيع والشراء فى الاسواق وهى أوقات تأدية الصلوات فيذكر (هارون بن يحيى) : « وليس فيها من تسع ساعات من يوم السبت حتى تغيب الشمس من يوم الأحد شراء ولا بيع ، وهم كلهم فى الصلاة الا ساعتين بعد أخذهم القربان للطعام ، ثم ينصرفون اليها »(١٣) .

أما عن أسعار السلع بأسواق القسطنطينية فيذكر المقدسى :

---

(٨) ابن رسته ، الاعلاق ، ص ١٣١ ، وابن خرداذبة ، المسالك ، ص ١١٥ .

(٩) ابن رسته ، نفس المصدر والصفحة ، ابن خرداذبة ، نفس المصدر ، ص ١١٤ .

(١٠) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٢٣٤ .

(١١) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٣٦ .

(١٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٣٣ .

(١٣) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص ١٢١ .

« الاسعار بها رخيصة والفواكه كثيرة »(١٤) • وقد أرجع الشيخ (حيدر العريان الرومى) رخص الاسعار فى مدينة القسطنطينية لاسباب من بينها : قلة المكوس . وكثرة المراعى . واتساع أسباب التجارة ، واكتناف البحر لها من كل جانب بحيث يحمل اليها على ظهره كل شىء مما لا يوجد فيها »(١٥) •

وضرب الشيخ حيدر العريان أمثلة على رخص تلك الاسعار بقوله : « والاغنام غاية الرخص حتى أن الرأس الغنم الجيد لا يجاوز اثنى عشر درهما من دراهمهم ••• ويترتب على ذلك رخص اللحم واللبن »(١٦) • وذكر كذلك « أن العسل لا يتجاوز الرطل منه ثلاثة دراهم برطلهم ودرهمهم »(١٧) •

وذكر أيضا أن الفواكه رخيصة فى الربيع وعلل ذلك « بعدم وجود من يشتريها لكثرتها »(١٨) •

وتحدث ابن بطوطة عن أسواق ضواحى مدينة القسطنطينية وعن حركة التجارة بها • ومن أشهر تلك الضواحى ضاحية غلطة — وهى قسم من أقسام القسطنطينية . تطل على القرن الذهبى وتقع جنوب بيرا ، وأقام فيها الجنوية مستوطنة منذ عام ١٢٦١ م(١٩) •

وعن غلطة يذكر ابن بطوطة : « واما القسم الثانى (من مدينة القسطنطينية) فيسمى الغلطة •• وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه وهم أصناف الجنويون ، والبنادقة ، وأهل رومية ،

---

(١٤) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ١٤٨ .
(١٥) انظر القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٣٥٧ .
(١٦) القلقشندى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(١٧) نفسه .
(١٨) نفسه .
(١٩) خصص الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن هذه المستوطنة للجنوية فى عام ١٢٦١ م وظلت هذه المستوطنة قائمة حتى سقوط القسطنطينية فى ايدى العثمانيين عام ١٤٥٣ م . لمزيد من التفاصيل انظر : عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية ، ص ١٢٢ — ١٢٤ .

وأهل افرنسة . وحكمهم الى ملك القسطنطينية .. وجميعهم أهل تجارة »(٢٠) . يتضح من ذلك أن مستوطنة غلطة لم تكن مغلقة على نفسها . وانها ضمت عناصر أخرى غير جنوية منها البنادقة وأهل روما وفرنسا وغيرها على نحو ما ذكر ابن بطوطة .

ووصف ابن بطوطة أسواق غلطة بقوله : « وأسواق هذا القسم حسنة . الا أن الاقذار غالبة عليها ، ويشقها نهر صغير قذر نجس »(٢١) .

ثم أشار ابن بطوطة الى حركة التجارة النشطة فى هذه الضاحية بقوله : « ومرساهم من أعظم المراسى ، رأيت به نحو مائة جفن »(٢٢) من القراقر(٢٣) وسواها من الكبار . وأما الصغار فلا تحصى »(٢٤) .

واذا كانت حركة التجارة قد نشطت فى ضاحية غلطة فانها كانت نشطة أيضا فى « خليج القسطنطينية » فيذكر المسعودى : « وعلى حافتى هذا الخليج الضياع والعمائر ، والمراكب تختلف ، والقوارب بأنواع المتاع والاقوات الى القسطنطينية . وهذه المراكب لا تحصى فى هذا الخليج كثرة »(٢٥) .

كذلك يذكر الحميرى : « والى ذلك الخليج يصل التجار المختلفون من العراق والشام وغيرها الى القسطنطينية ويعبرونه فى السفن الى العدوة الثانية »(٢٦) . مما يدل على نشاط حركة التجارة بالقسطنطينية .

---

(٢٠) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٢٣٤ .
(٢١) ابن بطوطة : نفس المصدر والصفحة .
(٢٢) الجفن وجمعها جفون واجفان وهى سفن بطيئة الحركة لكبر حجمها وعنها انظر : سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٣٣٦ .
(٢٣) القراقر وهى من سفن العصور الوسطى المتعددة الصوارى والشرع . ولمزيد من التفاصيل انظر : سعاد ماهر : البحرية ، ص ٣٦٢ — ٣٦٤ .
(٢٤) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٢٣٤ .
(٢٥) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢١٧ — ٢١٨ .
(٢٦) الحميرى : الروض المعطار ، ص ٤٨١ .

الحياة الاجتماعية فى القسطنطينية :

ارتبطت الحياة الاجتماعية فى القسطنطينية بثلاث مراكز رئيسية هى القصر الامبراطورى ، وكنيسة آيا صوفيا ، وميدان السباق (الهيدروم Hippodrome)(٢٧) . واذا كانت كنيسة آيا صوفيا لله ، والقصر للامبراطور ، فان الهيدروم كان ملكا للشعب(٢٨) .

أما كنيسة آيا صوفيا فكانت بمثابة بيتا يؤدى فيه أهل القسطنطينية صلواتهم وطقوسهم الدينية . ويذهبون اليه ليشاهدوا عظمة هذه الطقوس فيذكر ابن بطوطة : « ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس أن يأتوا كل يوم صباحا الى زيارة هذه الكنيسة »(٢٩) .

أما عن نوعية الطقوس الدينية التى كانت تتم داخل الكنيسة فلم يتسن لأى من الرحالة الذين زاروا القسطنطينية أن يصفوها ، اذ لم تتاح لهم فرصة دخول هذه الكنيسة ويرجع السبب فى ذلك كما يذكر الرحالة ابن بطوطة الى : « انه كان على باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها .. ولا يدعون أحدا يدخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم ، وهو على باب الكنيسة محمول فى جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع وقد غرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبا »(٣٠) .

ومارس عدد من أهل القسطنطينية حياة الرهبنة داخل كنيسة آيا صوفيا فيذكر ابن بطوطة : « وذكر لى أن عدد من بهذه الكنيسة

---

(٢٧) الهيدروم Hippodrome كلمة مشتقة من Hippos اليونانية وتعنى حصان و dromos، وتعنى الميدان وهو حلبة سباق الخيل والالعاب فى المدن اليونانية والرومانية . انظر بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢ ، حاشية ١ .

(٢٨) بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٦ .

(٢٩) ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ص ٢٣٥ .

(٣٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٣٤ .

من الرهبان والقسيسين ينتهي الى آلاف . وان بعضهم من ذرية الحواريين »(٣١) . كذلك انقطعت النساء داخل هذه الكنيسة للعبادة فيذكر ابن بطوطة كذلك : « ان بداخلها كنيسة مختصة بالنساء . فيها من الابكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف . أما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله »(٣٢) . وعلى هذا فقد كانت هناك أماكن مخصصة لمن أرادت من النساء الخلوة والتعبد والانقطاع داخل كنيسة آيا صوفيا .

أما القصر فكان سرة مدينة القسطنطينية . وسكن الامبراطور وحاشيته ، ومركز الحكم . ومن داخل جدرانه وجنباته تدار دفة شئون الامبراطورية بأكملها . وكان القصر يشغل رقعة واسعة من الارض على شفاف بحر مرمرة ، ويقع بين ميدان السباق وكنيسة آيا صوفيا ، وكان يشغل الركن الجنوبي الشرقي من المدينة . وكانت مبانيه تمتد ما يداني الميل طولا ، وقد حدد (هارون بن يحيى) موقع القصر ومساحته فذكر : « على قصر الملك سور واحد(٣٣) يحيط بجميع القصر ، ودورانه فرسخ ، أحد جنباته مما يلي المغرب متصل بالبحر »(٣٤) .

ويتحدث الادريسي عن اتساع هذا القصر فيقول : « وبها (أي بالقسطنطينية) القصر الشائع ذكره شماخة بناء واتساع قطر وحسن ترتيب »(٣٥) .

---

(٣١) ابن بطوطة : نفس المصدر والصفحة .

(٣٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٣٣) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٠ .

(٣٤) يبدأ هذا السور من نقطة تلاقي البسفور مع بحر مرمرة ، ويتجه الى الداخل ويسير بمحاذاة الساحل ما يقرب من ميل ليفصل المنطقة الامبراطورية عن المدينة . انظر اومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٨ .

(٣٥) الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ٨٠١ — ٨٠٢ .

وقد احتوى القصر الامبراطورى من الداخل على بيت مال الامبراطور ومجلس طعامه وبهو المآدب الرسمية ، وقاعات الاجتماعات ، وصالات لاستقبال السفراء فيذكر (هارون بن يحيى) : « وعلى اليمنى من داخل الدار بيت مال الملك .. وعلى شمال الداخل مجلس طوله مائتى خطوة فى عرض خمسين خطوة . وفى المجلس مائدة من خلنج(٣٦) ومائدة من عاج ، وفى صدر المجلس مائدة من ذهب يجلس عليها الملك .. »(٣٧) .

وكانت الحياة اليومية داخل القصر الامبراطورى تبدأ فى السابعة صباحا فى كل يوم حيث يقوم كبير الحجاب وبصحبته ضباط الحرس بفتح باب المدخل الرئيسى للقصر ، ثم يبارح الامبراطور حجرته الخاصة يحيط به خدمه ويتجه نحو الكنيسة الملحقة بالقصر والخاصة به ليتلو فيها صلواته(٣٨) ، وتحدث (هارون بن يحيى) عن موقع هذه الكنيسة بالنسبة للقصر فذكر : « وعلى يسرة الداخل (الى القصر) كنيسة الملك ولها عشرة أبواب أربعة منها ذهب وستة فضة »(٣٩) . وبهذه الكنيسة مقصورة للامبراطور يؤدى فيها صلاته وهى كما وصفها (هارون بن يحيى) « موضع أربعة أذرع فى أربعة أذرع ، مرصع ذلك الموضع بالدر والياقوت وكذا مسنده ، الذى يستند اليه مرصع بالدر والياقوت »(٤٠) .

وبعد أن ينتهى الامبراطور من أداء صلوات الصباح فى كنيسته يستوى على عرشه استعدادا لاستقبال أشراف بلاده وكبار موظفيه

---

(٣٦) خلنج شجر فارسى معرب تتخذ من خشبه الاوانى ، وقيل هو كل جفنة وصحفة وآنية صنعت من خشب ذى طرائق وأساريع موشاة . انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٤ ، ص ١٢٥٤ .

(٣٧) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٢ .

(٣٨) بريس : القسطنطينية فى عصر جستنيان ، ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٣٩) ابن رسته : الاعلاق ، ص ١٢١ .

(٤٠) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢١ .

وغيرهم ممن يريدون المثول بين يديه ، كذلك يقوم الامبراطور باستقبال السفراء . وكانت هناك مراسم خاصة لدخول القصر والمثول بحضرة الامبراطور يأتي على رأسها :

الحصول على الاذن :

فيذكر ابن بطوطة : « انه لما وصلنا الباب الاول من أبواب مقر الملك ، وجدنا مائة رجل معهم قائد لهم .. وهؤلاء حرس الباب على ما يبدو .. فمنعونا من الدخول .. وقالوا : لا يدخلون الا بأذن . فأقمنا بالباب .. الى أن أمر بدخولنا »(٤١) .

واذا ما دخل الشخص من باب القصر الخارجي كان عليه أن يحصل على اذن آخر بالسماح له بالدخول الى دار الامبراطور فيذكر ابن فقيه على لسان أحد سفراء الخلفاء العباسيين ويدعى عمارة بن حمزة : « فانتهيت الى مكان يحجبعنه الرجل على مسافة بعيدة ، فجلست حتى أتى الاذن ، فسرت الى مكان آخر فجلست حتى أتى الاذن ثلاث مرات ثم وصلت الى داره »(٤٢) .

وبعد الحصول على الاذن يأتي **التفتيش** اذ كان لابد من تفتيش كل من يدخل الى القصر للتأكد من انه لا يحمل معه سلاحا وذلك حرصا على سلامة الامبراطور ويذكر ابن بطوطه فى هذا الصدد : « ... ودخلنا الى القصر ، فجزنا أربعة أبواب ... فلما وصلنا الى الباب الخامس ... أتى أربعة من الفتيان الروميين ففتشوني لئلا يكون معي سكين . وكانت هذه عادة البيزنطيين ، أى لابد من تفتيش كل من يدخل على الامبراطور من خاص أو عام ، غريب أو من أهل البلد(٤٣) .

وبعد التفتيش يأتي **المرور بين صفوف الحرس** ، اذ يفتح الباب

---

(٤١) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٢٣٢ .
(٤٢) ابن فقيه الهمذاني : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٣٧ .
(٤٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٢٣٢ .

للشخص فيحيط به أربعة من الرجال . يمسك اثنان بكمه . واثنان من ورائيه . ثم يدخلوا به شوار كبير حيطانه مغطاه بالفسيفساء . والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم • وفي وسط المشوار ثلاثة رجال وقوف يتسلمون الشخص من أولئك الأربعة . ويمسكون بثياب الشخص كما فعل الآخرون . ثم يتقدمون به نحو الامبراطور »(٤٤) •

وقبل أن يصل الشخص الى عرش الامبراطور ويسمح له بالجلوس في حضرته كان لابد من اثارته وابهاره فيذكر عمارة بن حمزة انه وجد في طريقه الى الامبراطور « أسدين على جنبي الطريق . وطريقي عليها لا أجد من ذلك بدا ••• فحطت نفسي . فلما صرت بينهما سكتا فجزت . ••• واذا سيفان يختلفان على طريقي ••• لو مرت بينهما ذبابة لقطعاها ••• فاستخرت الله ومضيت فلما صرت بينهما سكتا »(٤٥) وكان الأسدان والسيفان حيلة يحتال بها الروم لمن يرد عليهم من الرسل لتروعهم فاذا اقترب منها الرجل سكنت(٤٦) •

ثم يصل الشخص بعد ذلك الى بهو الامبراطور . « وهو بهو فسيح ــ كما يذكر عمارة ــ أكاد لا أبصره لبعد مسافة البصر بيني وبينه . فمشيت حتى انتهيت الى قدر ثلثه فغشيتني سحابة حمراء لم أبصر شيئا فجلست مكاني •• ثم تجلت عني . فقمت فمشيت . فلما بلغت نحو الثلثين غشيتني سحابة خضراء . فغشي بصري منها . فجلست حتى تجلت ثم قمت فمشيت . فانتهيت الى الملك »(٤٧) •

وكانت هذه الاضواء تنبعث في حقيقة الأمر من قطعة ياقوت أحمر وأخرى من زمرد أخضر توجد في ثني فراش الامبراطور ليبهر

---

(٤٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .
(٤٥) ابن فقيه الهمذاني : مختصر كتاب البلدان ، ١٣٧ .
(٤٦) ابن فقيه : نفس المصدر ، ص ١٣٨ .
(٤٧) ابن فقيه : نفس المصدر ، ص ١٣٧ — ١٣٨ .

بها أبصار رسل الملوك والداخلين الى حضرته(٤٨) .

وما أن يصل المرء الى الامبراطور حتى يجده قد جلس على سريره وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح(٤٩) . وهكذا كان على الشخص أن يمر فى متاهة من الدهاليز والغرف الغنية بالفسيفساء والاردية الذهبية . بين صفوف حرس القصر ، يحف به النبلاء والقادة حتى يصل الى عرش الامبراطور(٥٠) .

ويرتبط بحياة الامبراطور اليومية داخل القصر حياته اليومية خارجه ، فقد كان على الامبراطور أن يخرج الى ميدان السباق (الهيدروم) لمشاهدة ما يجرى فيه من استعراضات(٥١) . كذلك كان عليه أن يخرج الى الكنيسة العظمى أى كنيسة آياصوفيا لتأدية الطقوس والصلوات وسط موكب كبير من كبار رجال دولته ، وقد وصف هذا الموكب وصفا دقيقا « هارون بن يحيى » فذكر : « كان يفرش له فى طريقه من باب القصر الى الكنيسة حصر . ويطرح فوقها رياحين خضرة ... ويخرج بين يديه عشرة آلاف شيخ عليهم ديباج أحمر .. ثم يجىء خلفهم عشرة آلاف شاب عليهم ديباج أبيض مشاة كلهم ، ثم يجىء عشرة آلاف غلام عليهم ديباج أخضر ، ثم يجىء عشرة آلاف خادم عليهم ديباج لون السماء فى أيديهم الطبرزينات(٥٢) الملبسة ذهبا ، ثم يجىء بعدهم خمسة آلاف خصى أواسط ... بأيديهم صلبان ذهبا ، ثم يجىء بعدهم عشرة آلاف غلام أتراك وخزر .. بأيديهم رماح وأترسة ملبسة كلها ذهبا . ثم يجىء مائة بطريق من الكبار عليهم ثياب الديباج الملون بأيديهم مجامر من ذهب يبخرون

---

(٤٨) ابن فقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٣٨ .
(٤٩) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٢٣٣ .
(٥٠) بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٩١ — ٩٢ .
(٥١) انظر ما يلى ص ١٢٢ — ١٢٣
(٥٢) الطبرزينات مفردها الطبرزين وهو الفاس . انظر البكرى : جغرافية الاندلس واوربا ، ص ١٩٦ ، حاشية ٣ .

بالعود القماري . ثم يجيء اثنا عشر بطريقا من رؤساء البطارقة عليهم ثياب منسوجة بالذهب . في يد كل واحد قضيب من ذهب . ثم يجيء مائة غلام عليهم ثياب مرصعة باللؤلؤ يحملون تابوتا من ذهب فيه كسوة الملك لحلاته ... ثم يخرج الملك ماشيا وعليه ثياب الاكسيمون وهي ثياب من الابريسيم منسوجة كلها بالجوهر . وعلى رأسه تاج . وعليه خذف أحدهما أسود والآخر أحمر »(٥٣) . ويخلع الامبراطور هذه الثياب ويرتدى الثياب التي يدخل بها الكنيسة : ثم يؤدى شعائر الصلاة(٥٤) : « فاذا انقضت نواميس شرعهم عاد على الهيئة الأولى الى مقره وانصرف من الكنيسة »(٥٥) .

أما عن ميدان السباق (الهيدروم Hippodrome) (٥٦) فكان محور الحياة الاجتماعية بمدينة القسطنطينية . تقام فيه الألعاب الرياضية والاحتفالات . وهو مقر لهو أهالى المدينة ووسيلة تسليتهم وندوة اجتماعاتهم .

وضع أساس ميدان السباق على يد سبتميوس سفيروس Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١ م) . وعندما شيد قسطنطين عاصمته القسطنطينية أمر باعادة بناء ميدان السباق في وسطها(٥٧) .

---

(٥٣) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٣ — ١٢٥ وانظر ايضا البكرى : جغرافية الاندلس واوربا ، ص ١٩٦ — ١٩٧ .

(٥٤) عن دخول الامبراطور لصحن الكنيسة وتاديته الشعائر انظر :
Ebersolt, Sainte Sophie de Constantinople, pp. 1 21.

(٥٥) ابن رسته : الاعلاق ، ص ١٢٥ ، البكرى : جغرافية الاندلس واوربا ، ص ١٩٧ .

(٥٦) موقعه اليوم الساحة المعروفة في استانبول باسم (ات ميدان At Meidan) وساحة السلطان احمد ويستخدم لتدريب الخيل انظر : جيبون : اضمحلال الامبراطورية ، ج ١ ، ص ٥٠٢ ، بريس ، القسطنطينية ، ص ٣٢٠ . Diehl, Constantinople, p. 41.

(٥٧) لمزيد من التفاصيل انظر :
Vogt, " L'Hippodrome de Constantinople " dans Byzantion (1935), p. 472, Elersolt, Constantinople Byzantine, pp. 19 20., Van Millingen Byzantine Const. p. 13.

وحدد المقدسى موقع الهيــدروم بين دار البلاط(٥٨) وبين دار الملك وذلك بقوله : « والبحر من جانب على حائطه الميــدان . ودار البلاط ودار الملك على صف . والميدان بين الدارين »(٥٩) .

ويعتبر ميدان السباق من أكبر منشآت القسطنطينية لذلك جذب أنظار الرحالة والجغرافيين المسلمين . فيطلق عليه (هارون بن يحيى) « البذرون » ويقول عنه انه « يشبه الميدان »(٦٠) أما الادريسى فيسميه (الايبوذرون) ويقول عنه : « وهو من عجائب الدنيا المفتعلة . وذلك انه طعب وزقــاق »(٦١) والأدريسى دقيــق فى تعبيره هذا اذ تكدست حول ميدان السباق مبانى بها اصطبلات جميع الحيوانات التى تقوم بالاستعراضات فى الميدان . وكذلك البيوت الحقيرة للعدد الذى لا يحصى من خدم الســيرك(٦٢) . أما الهروى فيطلق عليه اســم (البضرم) وهو الميدان(٦٣) .

وميدان الســباق عبارة عن ساحة واسعة ، تصطف على جانبيها تماثيل لرجال ونساء وجياد وأسود وغيرها من أنواع الحيوانات وفى ذلك يذكر الادريسى : « ويمشى منه بين سطرين من صور مفرغة من النحاس البديع الصناعات منها على صور الآدميين ، وصور الخيل والسباع الى سوى ذلك مما يقر له الصانعون بالعجز ، وهى أشكال أكبر من الاشكال المخلوقة »(٦٤) .

ويؤكد دقة وصف الادريسى لميدان الســباق ما ذكره روبرت كلارى الذى زار القسطنطينية فى بدايات القرن الثالث عشر الميلادى

---

(٥٨) انظر ما يلى ص ١٢٩ — ١٣٠ .
(٥٩) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ١٤٧ .
(٦٠) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٠ .
(٦١) الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ٨٠٢ .
(٦٢) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٢٢٩ .
(٦٣) الهروى : الاشارات لمعرفة الزيارات ، ص ٤٩ .
(٦٤) الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ٨٠٢ .

بصحبة الحملة الصليبية الرابعة اذ ذكر : « وعلى طول الساحة المكشوفة حائط ... عليه تهاويل رجال ونساء وجياد وثيران وجمال ودببة وأسود وشتى أنواع الحيوانات الاخرى . وكلها مصنوعة من النحاس الاحمر . وقد أبدعتها يد مبدع صناع فلا يفرقها الناظر عن نظائرها الحية حتى ليعجز مهرة الصناع ... ان ياتوا لها بضريب ف الدقة »(٦٥) .

وكان بوسط الميدان — كما يذكر المقدسى — دكة بدرج(٦٦) ويبدو انه يقصد بهذه الدكة هنا ما عرف باسم (الحاجز أو Spina) الذى كان يقوم فى وسط الميدان . والذى كان يرى فى كل ملعب ، وكان هذا الحاجز يزدان بثلاثة نصب أثرية أولها وأقدمها مسلة أحضرت من مصر . وكانت تغطيها النقوش الهيروغليفية . وقد اعتبرها الهروى من المنارات العجيبة فى مدينة القسطنطينية ويصفها بقوله وهى « منارة موثوقة بالرصاص والحديد — فى البضرم وهو الميدان — اذا ذهبت الرياح تميلها شرقا وغربا وقبلة وشمالا من أصل كرسيها »(٦٧) . أما النصب الثانى الذى يزين الحاجز فكان ثعبان نحاسى ذو ثلاثة رءوس ، أما الأثر الثالث فكان عمودا برونزيا مربعا(٦٨) .

أما عن ألوان الاستعراضات والسباقات التى كانت تجرى فى ميدان السباق فمن أهمها سباق العربات التى تجرها الخيول وقد وصف هارون بن يحيى هذا السباق بقوله : —

---

(٦٥) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ، الترجمة العربية ، ص ١٢٠ .

(٦٦) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ١٤٨ .

(٦٧) الهروى : الاشارات ، ص ٤٩ .

(٦٨) لمزيد من التفاصيل انظر : اومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢١ — ٢٢ ، جيبون : اضمحلال الامبراطورية ، ج ١ ، ص ٥٠١ — ٥٠٢ ، بريس ، القسطنطينية ، ص ٢٢١ ،
Voget, L'Hippodrome, p. 473., Ebersolt, Constantinople Byzantine p. 20. Diehl, Constantinople, pp. 42 - 44.

« كان على غربى الميدان مما يلى باب الذهب(٦٩) بابان ، ويسوقون الى هذين البابين ثمانية من الخيل . وهناك عجلتان من ذهب يشد كل عجلة على أربعة من الخيل ، ويركب فوق العجلة رجلان . قد البسا ثيابا منسوجة بالذهب . ويتركها تجرى بما ينط اليها من العجل حتى تخرج من تلك الأبواب . فتدور على تلك الاصنام (أى الصور والتماثيل الموجودة بالميدان) ثلاث دورات . فأيها سبق صاحبها ألقى اليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب »(٧٠) .

وهناك لون آخر من السباق يذكره المقدسى فيقول : « ولهم أوقات يجتمعون فيها للعب ... فاذا أرادوا أن يتفاءلوا فى لعبهم صاروا حزبين حزب الملك وحزب الوزير ، وأرسلوا الخيل حول الدكة التى فى وسط الميدان) فاما أن تغلب خيل حزب الملك أو خيل حزب الوزير »(٧١) .

وهناك لون ثالث من ألوان السباقات كان يجرى بين خيل الامبراطور وخيل امرائه وقد ذكره ابن خرداذبه وحدد موعده بقوله : « وحلبتهم غرة آذار يجرى الملك خيله وخيل امرائه بباب الذهب . وهى خيل من فرسين عجلة عليها الغلمان الوصفاء قيام بالسماط »(٧٢) .

وخلال سباق العربات كانت تعرض ألعاب يقوم بها المهرجون والبهلوانات فمنهم من يمشى على الحبل ، ومنهم من يضع عمودا على جبهته ويتسلقه الأطفال ويجلسون على قمته(٧٣) . كما كانت تقام فى الميدان المصارعة بين ضروب الحيوان من ضوارى وسباع ودببة وحمر

---

(٦٩) عن البوابة الذهبية انظر ما سبق ص ١٠٩ حاشية ٢ .
(٧٠) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٠ .
(٧١) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ١٤٨ .
(٧٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١١٢ .
ولمزيد من التفاصيل حول سباق العربات وسائقيها انظر :
Voget (de) Constantin VII Porphyrogenete, Le Livre des Ceremonies Livre II, ch. 78 pp. 143 stq.
(٧٣) بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٦ .

وحشية وطيور جارحة مدربة وغيرها(٧٤) .

وكانت هذه الاستعراضات والسباقات تتم تحت سمع الامبراطور وبصره فيذكر هارون بن يحيى : « ان البطارقة كانوا يجتمعون فى هذا الميدان فيشرف عليهم الملك من قصره فى وسط المدينة »(٧٥) .

وكان للامبراطور مقصورة خاصة يجلس فيها لمشاهدة السباقات ، وتسمى Kathisma . وكانت هذه المقصورة متصلة بالقصر ومنفصلة عن ميدان السباق . تشرف عليه من عال . وتحتوى على مئات المقاعد للحاشية الامبراطورية ، وفى وسطها عرش خاص بالامبراطور(٧٦) . ويصف روبرت كلارى هذه المقصورة بقوله : « وتعلو المكان مقصورة كبيرة شديدة الاناقة والفخامة حيث يجلس الامبراطور والامبراطورة وكبار القوم ونساؤهم اذا عقدت حلقات اللعب »(٧٧) .

وكان يشاهد الاستعراضات والسباقات أيضا جميع أهل القسطنطينية فيذكر هارون بن يحيى : « وكل من فى القسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ويبصرون »(٧٨) . وقد كان بالميدان ما يقرب من ثلاثين أو أربعين صفا من المقاعد يجلس عليها أهل القسطنطينية لمشاهدة الألعاب والسباقات(٧٩) .

أما عن ألوان طعام أهل القسطنطينية فقد عددها المسعودى

---

(٧٤) بنيامين التطيلى : الرحلة ، ص ٧٩ — ٨٠ .
(٧٥) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٠ .
(٧٦) لمزيد من التفاصيل انظر : أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٠ — ٢١ ،
Voget, L'hippodrome, pp. 474 - 76.
بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٠ ، حاشية ١ .
(٧٧) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ، ص ١٣٠ .
(٧٨) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٠ .
(٧٩) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٢٢٩ ، روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ، ص ١٣٠ .

بقوله : « وأكثر طعامهم الكردياذات(٨٠) والمرققات(٨١) والاستبدناجات والسكباجات »(٨٢) .

ولاحظ الرحالة ابن بطوطة أن أهل القسطنطينية يرتدون جميعا غطاء للرأس وان اختلف بالنسبة للرجال عنه بالنسبة للنساء ، فيذكر « وأهل المدينة من جندى وغيره . صغير وكبير يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا . أما النساء فلهن عمائم كبار »(٨٣) .

كذلك كان أهل القسطنطينية يستخدمون أنواعا معينة من العطور من بينها « الميعة(٨٤) والمصطكى(٨٥) » على نحو ما يذكر ابن فقيه(٨٦) .

واحتفل أهل القسطنطينية بعدد من الأعياد الدينية ومن بينها « عيد الشعانين »(٨٧) وكانوا يخرجون فى هذا العيد وهم يحملون

---

(٨٠) الكرديانات ومفردها كردية ومن مقاديرها ومكوناتها وطريقة طهيها انظر : الكاتب البغدادى : كتاب الطبيخ ، ص ٤٩ — ٥٠ .

(٨١) المرققات ربما يقصد بها المدققات ومنها حمضية وساذجة وغيرها انظر : البغدادى : كتاب الطبيخ ، ص ٣٨ ، ٤٦ .

(٨٢) السكباجات ومفردها السكباج وهو مرق يصنع من اللحم والخل ومواد اخرى .وعن مقاديره وطريقة طهيه انظر البغدادى : كتاب الطبيخ ، ص ٩ — ١٠ ، ١٣ .

(٨٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٢٣٦ .

(٨٤) الميعة ضرب من العطر ، والميعة صمغ يسيل من شجر ببلاد الروم يؤخذ فيطبخ فما صفا منه فهو الميعة السائلة ، وما بقى منه فهو الميعة اليابسة . انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج ٤٨ ، ص ٤٣٠٩ .

(٨٥) المصطكى هو العلك الرومى . انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج ٤٧ ، ص ٤٢١٨ .

(٨٦) ابن فقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٤٨ .

(٨٧) عيد الشعانين وتفسيره التسبيح ، يخرجون فيه بسعف النخيل من الكنيسة ، ويزعمون انه يوم ركوب المسيح الحمار ودخوله صهيون وهو راكب والناس يسبحون بين يديه . انظر النويرى : نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٨٣ .

الصلبان فيذكر هارون بن يحيى : « انه فى هذا العيد يظهرون من صلب الذهب واحد وعشرون ألف صليب . ومن صلب الفضة والحديد والنحاس المنقوشة المموه بالذهب عشرة آلاف صليب » . كما يذكر القزوينى أن من « عاداتهم الخروج فى أعيادهم بالزينة للهو والطرب والمأكول والمشروب . صغيرهم وكبيرهم . وفقيرهم وغنيهم على قدر مكنته وقدرته »(٨٨) .

ومن بين الأعياد الدينية التى احتفل بها أهل القسطنطينية أيضا « عيد الميلاد » ويحضر هذا الاحتفال الامبراطور والحاشية وكافة رجال الكنيسة . ويذكر هارون بن يحيى مظاهر الاحتفال بهذا العيد ومنها أنه كان : « يملىء الصهريج الموجود فى دائرة القصر بمقدار عشرة آلاف دورق نبيذ . وألف دورق عسل أبيض . ويطرح على ذلك الشراب فيطيب بالسنبل والقرنفل والدارصينى مقدار حمل ؛ ويغطى ذلك الصهريج الا شيئا منه ... فاذا دخل الملك الكنيسة ... وخرج . يسقى كل من خرج معه من حشمه — الى العيد — كل واحد شربة »(٨٩) .

ثم يدخل الامبراطور بهو المآدب الرسمية حيث تقام مأدبة فخمة بمناسبة هذا الاحتفال يجلس الامبراطور فى صدرها .. ويحمل اليه عند قعوده فى الصدر أربع موائد من ذهب تحمل كل مائدة على عجلة ... فتوضع بين يديه ولا يؤكل عليها انما تترك ما دام الملك على مائدته فاذا قام رفعت(٩٠) .

وكانت الموسيقى تعزف أثناء تناول الامبراطور وكبار رجال دولته وحاشيته الطعام فيذكر هارون بن يحيى : « وبينما القوم كلهم جلوس

---

(٨٨) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٣٢ ، القزوينى : آثار البلاد ، ص ٣٩٤ .

(٨٩) ابن رسته : نفس المصدر : ص ١٢٢ ، وانظر ايضا القزوينى : آثار البلاد ، ص ٤٠٧ .

(٩٠) ابن رسته : نفس المصدر ، ص ١٢٢ — ١٢٣ .

على الموائد . يدخل عشرون رجلا بأيديهم الدابقات والحلباق والقنبج يضربون فيها ماداموا يأكلون »(٩١) .

ويستمر الاحتفال على هذا المنوال لمدة اثنى عشر يوما فيذكر هارون : « ويطعمون على هذه الصفة اثنى عشر يوما »(٩٢) .

ومن الجدير بالذكر أن أسرى المسلمين فى مدينة القسطنطينية كانوا يشاركون أهلها الاحتفال بهذا العيد فيذكر هارون بن يحيى أن الامبراطور كان يأمر « فيؤتى بالمسلمين . وعلى تلك الموائد من الحار والبارد أمر عظيم : ثم ينادى منادى الملك فيقول : وحياة رأس الملك ما فى هذه الأطعمة شىء من لحم الخنزير ، وينقل اليهم تلك الأطعمة فى صحاف الذهب والفضة »(٩٣) .

وحرص أباطرة القسطنطينية على تزويد مدينتهم بحاجتها من المياه ، وكان الماء يجلب فى الأحوال العادية فى سقايا من غابة بغراد فى شمال القسطنطينية فيذكر هارون بن يحيى « ولقسطنطينية قناة ماء يدخل اليها من بلد يقال له بلغر يجرى اليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوما . فينقسم اذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث فثلث يذهب الى دار الملك ، وثلث يذهب الى جيوش المسلمين . والثلث الثالث يذهب الى حمامات البطارقة ، وسائر أهل المدينة فانهم يشربون الماء الذى بين العذب والمالح »(٩٤) .

وهكذا يتم تغذية المدينة بالمياه عن طريق تلك القنوات والمجارى المائية ، ونظرا لأنه كان فى مقدور أى عدو أن يدمر هذه القنوات والمجارى المائية خاصة فى وقت الحرب فقد أقيمت فى جوف الارض صهاريج للماء داخل حدود المدينة ، وقد بنى جستنيان عددا من هذه

---

(٩١) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٣ .
(٩٢) ابن رسته : نفس المصدر والصفحة .
(٩٣) ابن رسته : نفس المصدر والصفحة .
وانظر ايضا حامد زيان : الاسرى المسلمون ، ص ٢٢ .
(٩٤) ابن رسته : نفس المصدر ، ص ١٢٦ .

الصهاريج . وأحدها هو المعروف « بقصر المياه » وهذا الصهريج عبارة عن بهو شيد تحت سطح الارض . وقام سقفه على عدد كبير من الاعمدة انتظمت فى صفوف(٩٥) • وعن هذا الصهريج يذكر هارون بن يحيى : « انه كان هناك جرن محفور من رخام •• عقد على قبة من رصاص ••• وبالقرب من هذه القبة على مائتى خطوة صهريج قد أجرى منه الماء »(٩٦) •

الحيـــاة العلميـــة :

أما عن الحياة العلمية فى القسطنطينية فقد كثرت بها دور العلم والحكمة فيذكر هارون بن يحيى : « وفيها مجامع لمن يلتمس صنوف العلم والحكمة من الرجال مائة وعشرون مجمعا »(٩٧) •

ومن بين العلوم التى برع فيها أهل القسطنطينية الطب فيذكر ابن فقيه : « أما الطب فمعرفتهم بالطبائع والجواهر ، وعلاج الحرارة والبرودة وفضول المرة والبلغم بالعقاقير المسماة لهم »(٩٨) •

كذلك كان لأهل القسطنطينية معرفة بالكيمياء فيذكر ابن فقيه : « ولهم معرفة بصيغة الذهب والفضة والأصباغ التى يصبغ بها الجوهر فينقل الى غير طبائعه »(٩٩) • وقد أظهر أمبراطور القسطنطينية نفسه براعة فائقة فى هذا المجال أمام عمارة بن حمزة رسول الخليفة العباسى المنصور اليه ، اذ قام بتحويل الرصاص والنحاس الى فضة وذهب فيروى عمارة : « وانصرف الى القصر . فدعا (أى الامبراطور) بكير

---

(٩٥) لمزيد من التفاصيل انظر : بريس : القسطنطينية فى عصر جستنيان ، ص ٣٢٧ ، وسام عبد العزيز : دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٧ ،
Ebersolt, Constantinople Byzantine, p. 23.

(٩٦) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٩٧) ابن رسته : نفس المصدر ، ص ١٣٢ .

(٩٨) ابن فقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٤٤ .

(٩٩) ابن فقيه : نفس المصدر والصفحة .

ومنفاخ ورطل نحاس ورطل رصاص . فأمر بأحدهما فأذيب ، وأمر أن يلقى عليه من الدواء الأبيض ما يحمل ظفر الابهام ثم أفرغه فخرج فضة بيضاء . ثم أذيب النحاس وألقى عليه من الاحمر مثل ذلك فخرج ذهبا أحمر »(١٠٠) .

حبوس القسطنطينية :

تحدث الجغرافيون عن حبوس القسطنطينية وسجونها سواء كانت فى داخل القصر الامبراطورى أم فى خارجه . فأما عن الحبوس التى توجد داخل القصر الامبراطورى فيذكر « هارون بن يحيى » انه من بين دهاليز القصر الامبراطورى دهليز طوله مقدار مائتى خطوة فى عرض خمسين خطوة مفروش بالرخام ... وفى الدهليز أربعة حبوس : حبس منها للمسلمين ، وحبس لأهل طرسوس ، وحبس للعامة ، وحبس لصاحب الشرطة »(١٠١) .

أما الحبوس التى تقع خارج القصر الامبراطورى فمن أهمها : « دار البلاط » وهى التى يحبس بها الوجوه والأشراف من المسلمين اذا أسروا ، كذلك كان ينزل بها سفراء المسلمين وقد أشار المقدسى الى ذلك بقوله : « ولا يسكن دار البلاط من المسلمين الا وجيه فى اجراء وتعاهد وتنزه »(١٠٢) .

ويتحدث المقدسى عن سبب بناء هذه الدار فيقول : « أعلم أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم . ودخل المصر شرط على كلب الروم(١٠٣) بناء دار بازاء قصره فى الميدان . ينزلها الوجوه والأشراف ،

---

(١٠٠) ابن فقيه : نفس المصدر ، ص ١٣٩ .

(١٠١) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٠ — ١٢١ .

(١٠٢) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ١٤٨ .

(١٠٣) يقصد به هنا الامبراطور البيزنطى ليو الثالث الايسورى (٧١٧ — ٧٤٠ م) .

اذا أسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده ، فأجابه الى ذلك ، وبنى دار البلاط »(١٠٤) .

وكانت دار البلاط تقع بالقرب من القصر الامبراطوري وقد أشار المقدسي الى ذلك في قوله : « كان بين القصر الامبراطوري وبين دار البلاط حبل ممدود فيه صورة فرس من نحاس »(١٠٥) .

وقد ذكر أبو فراس الحمداني وغيره دار البلاط في أشعارهم ، لأنها كانت مجلس الاسراء أيام سيف الدولة بن حمدان . وقد ذكرها أبو العباس الصفري شاعر سيف الدولة وكان محبوسا اذ قال :

أراني في حبـس مقيمـا كأنني
ولم أغـز في دار البـلاط مقيم(١٠٦)

العمـارة والفنـون :

كان أهم ما ميز القسطنطينية وزادها جمالا تفوق أهلها في الفنون المختلفة والبراعة في تلك الفنون ، فقد امتلأت شوارعها وقصورها وميادينها بالتماثيل والتحف الفنية الرائعة ، ومن أهم الفنون التي برع فيها أهل القسطنطينية (فن التصوير) فيذكر ابن فقيه : « انهم أحذق الأمة بالتصاوير يصور مصورهم الانسان حتى لا يغادر منه شيئا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصيره شابا ، وان شاء كهلا ، وان شاء شيخا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يجعله جميلا ثم يجعله حلوا ، ثم لا يرضى حتى يصيره ضاحكا وباكيا ، ثم يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل ، وبين المستغرق والمبتسم والمسرور وضحك الهاذي ، ويركب صورة في صورة »(١٠٧) .

كذلك برع أهـل القسطنطينية في (فن النحت) ولعل مخارات

---

(١٠٤) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٤٧ .
(١٠٥) المقدسي : نفس المصدر ، ص ١٤٨ .
(١٠٦) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .
(١٠٧) ابن فقيه الهمذاني : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٣٧ .

القسطنطينية العجيبة التى ذكرها الهروى لأصدق دليل على ذلك ، فقد ذكر أن هناك منارتين فى ميدان السباق أحدهما « موثوقة بالرصاص والحديد .. اذا هبت الرياح تميلها شرقا وغربا قبلة وشمالا من أصل كرسيها .. أما المنارة الثانية فهى من النحاس قد قلبت قطعة واحدة الا أنه لا يدخل اليها »(١٠٨) . كذلك ذكر الهروى منارة ثالثة وقد ألبست النحاس جميعها ، وعليها قبر قسطنطين . وعلى قبره صورة فرس من النحاس . وعلى الفرس صورته . وهو راكب على الفرس ، وقوائم الفرس محكمة بالرصاص على الصخر ما عدا يده اليمنى فانها سائبة فى الهواء كأنه سائر . وقسطنطين على ظهره ويده اليمنى مرتفعة فى الجو ، وقد فتح كفه . وهو يشير نحو بلاد الاسلام . ويده اليسرى فيها كرة »(١٠٩) . أما المنارة الرابعة فهى من الرخام الابيض . ومن أرضها الى رأسها صورة مثبتة ثابتة من جسمها أعجب صنعة تكون ، ودرابزينها من النحاس قطعة واحدة . وبها طلسم . اذا طلع الانسان عليها يقع نظره على المدينة بأسرها(١١٠) .

أما عن فن العمارة فقد ظهر بجلاء فى القصر الامبراطورى وكنيسة آياصوفيا وغيرها من كنائس القسطنطينية وأديرتها . فأما القصر الامبراطورى فقد وصفه الرحالة والجغرافيون المسلمون فيذكر هارون ابن يحيى : « وعلى قصر الملك سور واحد يحيط بجميع القصر ... وله ثلاثة أبواب من حديد يقال لاحدهما باب البيدرون ، والآخر باب

---

(١٠٨) الهرى : الاشارات إلى معرفة الزيارات ، ص ٤٩ . وانظر ايضـا :

القزوينى : آثار البلاد ، ص ٤٠٧ ، ابن الوردى : خريدة العجايب ، ص ٧٧ .

(١٠٩) الهروى : الاشارات ، ص ٤٩ وانظر ايضا : القزوينى : آثار البلاد ، ص ٤٠٧ ، ابن الوردى : خريدة العجايب ، ص ٧٧ ،

Vasiliev, « Les Voyageurs du Moyen Age à Constantinople » dans Melanges ch. Diehl Vol. 1, pp. 295 - 96.

(١١٠) الهروى : الاشارات ، ص ٤٩ ، وانظر ايضا ابن الوردى : خريدة العجايب ، ص ٧٧ .

المنكتا والثالث باب البحر »(١١٢) ثم فصل هارون بن يحيى ما اشتملت عليه أبواب القصر ومداخله من طرق ودهاليز فذكر : « ان الباب الاول وهو باب البيدرون(١١٢) فتدخل منه الى دهليز مقدار مائة خطوة فى عرض خمسين خطوة . وعلى الجانبين من الدهليز أسرة موضوعة عليها فرش من ديباج ومضربات (المساند) ووسائد وقد خصصت هذه الأسرة لحرس هذا الباب وهم قوم من السودان(١١٣) .

أما الباب الثانى وهو باب المنكتا فتدخل الى دهليز طوله مقدار مائتى خطوة فى عرض خمسين خطوة مفروش بالرخام وأسرة موضوعة فى جانبى الدهليز خصصت لحرس هذا الباب وهم قوم من الخزر(١١٤) .

أما الباب الثالث وهو باب البحر فتدخل فى دهليز طوله ثلثمائة خطوة فى عرض خمسين خطوة . وهو مفروش بآجر أحمر ، وفى الدهليز أسرة يمنة ويسرة عليها فرش نو خصصت لحرس هذا الباب وهم قوم من الأتراك(١١٥) .

ويذكر هارون بن يحيى أنه كان على « باب الملك ثلاثة تماثيل على هيئة الفرس منصوبة على باب الملك ، عملها بلونيوس الحكيم طلسما للدواب ألا تصهل ولا تشغب بعضها على بعض . وعلى باب الملك أيضا أربع حيات معمولة من صفر (أى نحاس) أذنابها فى أفواهها طلسما للحيات ألا تضر »(١١٦) .

وعن القصر من الداخل يذكر هارون بن يحيى « وأما الدار من الداخل فهى عبارة عن صحن عظيم طوله أربعمائة خطوة فى مثلها ،

---

(١١١) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٠ .
(١١٢) يبدو أنه سمى بهذا الاسم لأنه الباب الذى كان يتصل بميدان السباق .
(١١٣) ابن رسته : الاعلاق ، ص ١٢٠
(١١٤) ابن رسته : نفس المصدر ، ص ١٢٠ — ١٢١ .
(١١٥) ابن رسته : نفس المصدر ، ص ١٢١ .
(١١٦) ابن رسته : نفس المصدر ، ص ١٢٦ .

مفروش بالرخام الأخضر مزوق الحيطان بالفسيفساء والوان التراويق ••• »(١١٧) •

أما عن كنائس القسطنطينية وعلى رأسها كنيسة آياصوفيا(١١٨) فهى تقدم صورة حية وناطقة لما وصل اليه فن العمارة من رقى وتقدم ، وقد ظهر ذلك بوضوح من خلال وصف الرحالة ابن بطوطة لهذه الكنيسة اذ ذكر : « وهى من أعظم كنائس الروم ، عليها سور يطيف بها فكأنها مدينة . وأبوابها ثلاثة عشر بابا »(١١٩) كما ذكر ابن بطوطه : « ان لها حرم نحو ميل . وعليه باب كبير . لا يمنع أحد من دخوله . وهذا الحرم أشبه بمشور مصطح بالرخام ، تشقه ساقية تخرج من باب الكنيسة •• ومن باب الكنيسة الى باب هذا المشور معرش بالخشب المرتفع عليه دوالى العنب ، وفى أسفله الياسمين والرياحين •• وفى خارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات (يبدو مصاطب) خشب يجلس عليها خدام ذلك الباب »(١٢٠) •

ثم يصف ابن بطوطة باب الكنيسة الرئيسى وما عليه من خدم وقوامه فيقول : « وهو باب مصفح بصفائح الفضة والذهب ، وحلقتاه من الذهب الخالص » ويذكر فى موضع آخر : « ان عليه سقائف يجلس بها خدام الكنيسة الذين يقيمون طرقها ، ويوقدون سرجها ، ويغلقون أبوابها ، ولا يدعون أحدا يدخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم وهو على باب الكنيسة »(١٢١) •

وكان على أحد أبواب هذه الكنيسة ما يشبه الساعة اذ يذكر هارون بن يحيى : « وعلى الباب الغربى من الكنيسة مجلس فيه أربعة وعشرون بابا صغارا كل باب شبر فى شبر ، معمولة على ساعات الليل

---

(١١٧) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٢ .
(١١٨) عن كنيسة آيا صوفيا انظر ما سبق ص ١١٤ — ١١٥ .
(١١٩) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٢٣٤ .
(١٢٠) ابن بطوطة : نفس المصدر والصفحة .
(١٢١) ابن بطوطة : نفس المصدر والصفحة .

والنهار . فكلما انقضت ساعة انفتحت منها باب من ذات نفسها . واذا انغلقت انغلقت من ذات نفسها »(١٣٢) .

ومن بين كنائس القسطنطينية الاخرى كنيسة « الرسل المقدسين »(١٣٣) وتحدث ابن خرداذبة عن عمارة هذه الكنيسة فذكر : « ان طول هذه الكنيسة ثلثمائة ذراع . وعرضها مائتا ذراع . وسمكها ثمانون ذراعا . مبنية بقناطر نحاس أصفر . وأركان نحاس أصفر مفرغة . وسقف هذه الكنيسة وحيطانها من نحاس أصفر رومى »(١٣٤) .

وكان ابن خرداذبه دقيقا فى وصفه لعمارة هذه الكنيسة . اذ جاء وصفه متفقا الى حد كبير مع وصف يوسابيوس Eusebius لهذه الكنيسة فى كتابه عن « حياة قسطنطين » اذ يذكر يوسابيوس : « ان قسطنطين رفع الكنيسة الى ارتفاع شاهق .. وغطى السقف من الداخل بصناعة دقيقة ... أما السقف الخارجى فعمله من النحاس وزينه بالذهب بشكل رائع جدا . وأما القبة فكانت تحيط بها مشبكية دقيقة الصنع مصنوعة من النحاس والذهب »(١٣٥) .

قبر ابى أيوب الانصارى وجامع القسطنطينية :

تحدث الجغرافيون والرحالة المسلمون عن بعض الآثار التى تركها المسلمون على أرض القسطنطينية ومن أهمها : —

قبر الصاحبى الجليل أبى أيوب الأنصارى . وجامع القسطنطينية

أما عن قبر أبى أيوب الأنصارى فيذكر الهروى : « وفى جانب سورها

---

(١٣٢) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(١٣٣) عن هذه الكنيسة انظر ما سبق فى مجلة المؤرخ المصرى ، العدد الثالث ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(١٣٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١١٥ ، وانظر ايضا ابن الوردى : خريدة العجائب ، ص ٧٨ .

(١٣٥) يوسابيوس : حياة قسطنطين ، الترجمة العربية ، ص ١٢٩ . وانظر ايضا :

Van Millingen, Byzantine Constantinople, p. 35 stq.

Vasiliev, Les Voyageurs, p. 294, Diehl, Constantinople, pp. 69 - 88.

(أى سور القسطنطينية) قبر أبى أيوب الأنصارى . صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . واسمه خالد بن زيد »(١٣٦) •

ويذكر المسعودى أن أبا أيوب الانصارى مات فى سنة احدى وخمسين غازيا مع يزيد »(١٢٧) • ويذكر الحميرى : « أن يزيد بن معاوية ذهب الى أبى أيوب — عند وفاته — وسأله : هل لك حاجة ؟ فقال ... ان شئت أن تجعل قبرى مما يلى العدو فى غير ما يشق على أحد من المسلمين ، فلما قبض أبو أيوب رضى الله عنه قبر على سور القسطنطينية »(١٢٩) • وأمر يزيد بن معاوية بأن يتخذ له مشهد ، ويذكر القزوينى : ان صاحب الروم قال : ما أقل عقل هذا الصبى . دفن صاحبه ههنا وبنى له مشهدا ما تفكر فى انه اذا مشى نبشناه ورميناه الى الكلاب ، فبلغ هذا القول يزيد فقال ما رأيت أحمق من هذا . ما تفكر فى انه ان فعل ذلك ما نترك قبرا من قبور النصارى فى بلادنا الا نبشناه ، ولا كنيسة الا خربناها . فعند ذلك قال صاحب الروم : « ما رأينا أعقل منه ولا ممن أرسله »(١٣٠) •

وظل الروم يتعاهدون قبر أبى أيوب الانصارى ويرقبونه . ويستسقون به اذا قحطوا(١٣١) •

---

(١٢٦) الهروى : الاشارات ، ص ٥٦ وانظر ايضا ابو طالب الدمشقى نخبة الدهر ، ص ٢٢٧ ،

(١٢٧) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٣ .

(١٢٨) الهروى : الاشارات ، ص ٥٦ .

وانظر ايضا : ابو طالب الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٢٧ .

(١٢٩) الحميرى : الروض المعطار ، ص ٤٠٠ .

(١٣٠) القزوينى : آثار البلاد ، ص ٤٠٨ . وانظر ايضا الهروى : الاشارات ، ص ٥٦ ، الحميرى ، الروض ص ٤٠٠ .

(١٣١) القزوينى : آثار البلاد ص ٤٠٨ ، الحميرى :: الروض المعطار ، ص ٤٠٠ .

لمزيد من التفاصيل انظر : شبندر : قبور الصحابة فى القسطنطينية ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

وانظر ايضا حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٨٨ .

والى جانب قبر أبى أيوب الأنصارى كان بالقسطنطينية ذلك الجامع الذى بناه مسلمة بن عبد الملك عندما حاصر القسطنطينية(١٣٢) . ويفصل المسعودى هذا الحصار بقوله : « بعث سليمان أخاه مسلمة لغزو القسطنطينية برا وبحرا فى سنة ٩٧ هـ ... وانضم الى مسلمة بطريق يعرف بأليون بن قسطنطين المرعشى ... وعبر مسلمة الخليج وحصر القسطنطينية ... فمكر به اليون ... ودعا أهل القسطنطينية أن يملكوه عليهم ليقوم بأمرهم ويصرف مسلمة عنهم .. فأجابوه الى ذلك . وعاد الى مسلمة فأخبره أنهم قد دخلوا فى طاعته . وسأله التبعد عنهم قليلا وترك حصارهم ليطمئنوا اليه . ففعل ذلك . فدخل اليون القسطنطينية فملك ونصب التاج على رأسه وأمر بنقل ما كان مسلمة أعده من الأقوات لعسكره .. وبلغ مسلمة ذلك فعلم أنه ممكور به فرجع الى حصارهم وعاودهم الحرب . وعظم البلاء على من مع مسلمة لذهاب أقواتهم .. فكتب اليه عمر بن عبد العزيز يأمره بالقفول .. ففعل عن كره شديد »(١٣٣) .

هذا فى حين يذكر ابن كثير : « ان مسلمة حلف أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعا كبيرا بالقسطنطينية . فبنوا له جامعا ومنارة فهو بها الى الآن يصلى فيه المسلمون الجمعة والجماعة »(١٣٤) . ويذكر ابن كثير فى موضع آخر : « أن مسلمة لم يرجع حتى بنى مسجدا بالقسطنطينية شديد البناء محكما . رحب الفناء ، شاهقا فى السماء »(١٣٥) .

ويؤكد وجود هذا الجامع بالقسطنطينية ما ذكره الامبراطور

---

(١٣٢) الهروى : الاشارات ، ص ٥٦ .
أبو طالب الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٢٧ .
(١٣٣) المسعودى : التنبيه ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .
ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة انظر : وسام عبد العزيز : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية ، ص ١٢١ — ١٧٢ .
(١٣٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٩ ، ص ٢٢٨ .
(١٣٥) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٧٤ .

قسطنطين السابع من أن « حفيد معاوية وهو مسلمة الذى قاد حملة على القسطنطينية . هو الذى أمر ببناء مسجد للمسلمين فى المعسكر الامبراطورى »(١٣٦) .

وهكذا ألقت كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين أضواء ساطعة على القسطنطينية تأسيسها . جغرافيتها . أسوارها وأبوابها ، نظامها الادارى والمالى . حياة أهلها الاجتماعية والدينية والعلمية هذا الى جانب عمارتها وفنونها .

---

(١٣٦) قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس ، ادارة الامبراطورية البيزنطية ، الترجمة العربية ، ص ٨٣ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا — المصـــادر :

(أ) المصـادر العربيـة :

ابن بطـوطـة : « محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى »
ت (٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م)
تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار .
دار الكتاب اللبنانى . بدون تاريخ .

ابن حـــوقل : « أبو القاسم بن حوقل النصيبى » ت فى النصف
الثانى من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .
صـورة الارض
بيروت ١٩٧٩ م

ابن خرداذبه : « أبو القاسم عبيد الله بن عبـد الله » ت حوالى
٣٠٠ هـ / ٩١٢ م
المســالك والممالك
ويليـه
نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، لأبى الفرج
قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ت ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م
ليـدن ١٣٠٦ هـ ، بريل ١٨٨٩ م .

ابن رســته : « أبو على أحمد بن عمر » ت بين عامى ٣١٠ — ٣٣٧ هـ
٩٢٢ — ٩٤٨ م
كتاب الاعلاق النفيســة
المجلد السابع ، ليدن ١٨٩١ م .

ابن سعيد المغربى « أبو الحسن على بن موسى » ت ٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م
كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض
تحقيق خوان فرنيط خينيس
تطـوان ١٩٥٨ م

ابن فقيه الهمذانى : « أبو بكر أحمـــد بن محمـــد الهمـذانى »
ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م •
مختصر كتاب البلدان
ليـدن ١٣٠٢ هـ

ابن الوردى : « سراج الدين أبى حفص عمر » ت ٨٦١ هـ / ١٤٥٧ م
خريدة العجايب وفريدة الغرايب
مصر ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩ م •

أبو طالب الدمشقى : « شـمس الدين بن أبى عبد اللـه محمـد »
ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م
نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر
لبيزج ١٩٢٣ م

أبو الفـــدا : « عماد الدين اسـماعيل بن محمـد بن عمـر »
ت (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)
تقـويم البـلدان
صححه رينود وماك كوكين ديسلان
باريس ١٨٤٠ م •

الأدريسى : « أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الحموى »
ت (٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م)
نزهة المشـتاق فى اختراق الآفاق
روما ١٩٧٧ م

الاصطخرى : « أبو اسحاق ابراهيم بن محمد » ت ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م
كتاب مسـالك الممالك
ليـدن ١٩٦٧ م

البغدادى (الكاتب) : « محمد بن الحسن بن محمد »
كتـاب الطبيخ
الموصـل ١٩٣٤ م

البكرى : « أبو عبيد البكرى » ت (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م)
جغرافية الأندلس وأوربا
من كتاب المسالك والممالك
تحقيق عبد الرحمن على الحجى
بيروت ١٩٦٨ م

الحميرى : « أبو عبد الله محمد بن محمد عبد المنعم »
ت (٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م)
الروض المعطار فى خبر الاقطار
تحقيق احسان عباس
بيروت ١٩٧٥ م

القزوينى : « زكريا بن محمد » ت (٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م)
كتاب آثار البلاد وأخبار العباد
جوتين ١٨٤٨ م

القلقشندى : « أبو العباس أحمد بن على » ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م
صبح الأعشى فى صناعة الانشا
الجزء الخامس / القاهرة ١٩١٥ م

المسعودى : « أبو الحسن على بن الحسين بن على »
ت (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)
— أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان
تحقيق عبد الحميد أحمد حنفى
القاهرة ١٩٣٨ م
— التنبيه والاشراف — ليدن ١٩٦٧ م
— مروج الذهب ومعادن الجوهر
أربعة أجزاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد
بيروت ١٩٨٢ م

المقدسى : « شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد »
ت (٣٨٨ / ٩٩٨ م)

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم
ليدن ١٩٦٧ م
النويرى : « شهاب الدين عبد الوهاب » ت (٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م)
نهاية الارب فى فنون الأدب
الجزء الأول ، القاهرة ١٩٢٩ م
الهروى : « أبو الحسن على بن بكر » ت (٦١١ هـ / ١٢١٤ م)
كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات
تحقيق جانين سورديل — طومين —
دمشق ١٩٥٣ م
ياقوت الحموى : « ابن عبد الله الحموى الرومى البغدادى »
ت (٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م)
معجم البلدان
٨ مجلدات ، القاهرة ١٩٠٨ م .

(ب) مصادر معربة :

بنيامين التطيلى ، ابن يونة التطيلى النبارى الأندلسى
رحلة بنيامين (٥٦١ — ٥٦٩ هـ / ١١٦٥ — ١١٧٣ م)
ترجمها عن الاصل العبرى عزرا حداد
بغداد ١٩٤٥ م .
روبرت كلارى : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين
ترجمة حسن حبشى
القاهرة ١٩٦٤ م .
قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس
ادارة الامبراطورية البيزنطية
ترجمة محمود سعيد عمران ، بيروت ١٩٨٠ م .
يوسابيوس القيصرى : حياة قسطنطين العظيم
تعريب القمص مرقس داود
القاهرة ١٩٧٥ م .

ثانيا — المراجــع :

(أ) المراجع العربية والمعربة :

— ابراهيم أحمد العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية
القاهرة ١٩٥١ م .
— أحمــد زكى : قاموس الجغرافية القديمة
مصر ١٨٩٩ م .
— أســد رستم : كنيسة أنطاكية مدينة الله
ثلاثة أجزاء ، بيروت ١٩٥٨ م .
— أومــان : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة مصطفى طه بــدر
القاهرة ١٩٥٣ م .
— بريس ف-ون : « القسطنطينية فى عصر جستنيان »
مقــال بموســوعة تاريخ العــالم ، المجــلد الرابع
ص ٣١١ — ٣٣٣
ترجمة عبد الفتاح صدقى ، القاهرة د-ت
— بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية
ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد
القاهرة ١٩٥٧ م .
— بلاشـــر : منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى
بيروت — باريس ١٩٣٢ م .
— جيبون (ادوارد) : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها
الجزء الأول ، ترجمة محمد على أبو درة
القاهرة ١٩٦٩ م .
— حامد زيان غانم : الأسرى المسلمون فى بلاد الروم
القاهرة ١٩٨٩ م .
— حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية
القاهرة ١٩٨٣ م .

– حنانيا الياس كساب : مجموعة الشرع الكنسى
أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة
بيروت ١٩٧٥ م .

– رنسيمان : الحضارة البيزنطية
ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد . القاهرة ١٩٦١ م .

– زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى
القاهرة ١٩٤٥ م .

– السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية . القاهرة ١٩٦٥ م .

– شوقى ضيف : الرحلات . القاهرة ١٩٨٧ م .

– صلاح الدين المنجد : المنتقى من دراسات المستشرقين
وبه مقال لشنيدر بعنوان :
« قبور الصحابة فى القسطنطينية » ص ١٥٣ – ١٥٩
القاهرة ١٩٥٥ م .

– عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور
الوسطى ، دمشق ١٩٨٠ م .

– فتحى عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى
والاتصال الحضارى ، الكتاب الثالث ، القاهرة ١٩٦٦ م

– كراتشكوفسكى : تاريخ الادب الجغرافى العربى
ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم
الخرطوم ١٩٦١ م .

– ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام
« المآصر البحرية ، مآصر خليج القسطنطينية »
مجلة المقتطف ، يونيو ١٩٤٤ (ص ٤٨ – ٥١) .

– نقولا زيادة : الرحالة العرب ، بيروت ١٩٥٦ م .

– الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٦٢ م

وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى
الاسكندرية ١٩٨١ م .
— دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية
الاسكندرية ١٩٨٣ م .
— « أضواء على مجتمع القسطنطينية »
دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر . مقال منشور فى « دراسات فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى العصور الوسطى » . الاسكندرية ١٩٨٠ م .

— يوحنا دولبانى (الراهب) : المثال الربانى فى ترجمة وأخبار القديس مارى يعقوب البرادعى
(بونيس ايرس — الأرجنتين ١٩٤٢ م) .

— يوسف دريان (المطران) : لباب البراهين الجلية . القاهرة ب.ت.

(ب) المــراجع الأجنبيــة :

— Brian E. Daley, « Christian Councils »
dans the Encyclopedia of Religion, Vol. 4, pp. 125-29
(ed) Mircea Eliade, New York, London 1987.

— Diehl, ch., Constantinople, Paris 1924.
— « The Government and Administration of the Byzantine Empire », In Cambridge Medieval History Vol. 4, pp. 726-41.
Oxford 1936.

— Ebersolt (Jean), Sainte — Sophie de Constantinople Etude de Topographie d'apres Les Ceremonies Paris 1910.
— Constantinople Byzantine, et les Voyageurs du Levant, Paris 1918.
— Constantinople, Paris 1951.

— Janin, « Constantinople » Dans Dictionnaire d'histoire et de Geographie Ecclesiastiques, T. 13, Paris 1956.

— Mordtmann J. H. « Constantinople » dans Encylopedie de L' Islam T. I. Brill 1913.

— Van Millingen (Alexander), Byzantine Constantinople The Walls of the City and adjoining Historical sites.
London 1899.

— Vasiliev, History of the Byzantine Empire Tr. by Ragozin.
Madison 1928.

— « Les Voyageurs du Móyen Ages á Constantinople » dans Mélanges ch. Diehl, Vol. I, pp. 293-98 , Paris 1930.

— Vogt, « L' Hippodrome de Constantinople » Dans Byzantion T. X. (1935) pp. 471 488.



الجهود العربية المضادة للنفوذ البرتغالى فى المحيط الهندى
(١٤٩٨ ــ ١٧٣٠)

للدكتور
تمام همام تمام
بجامعة البحرين

تمهيد :

القضية التى تدور حولها الدراسة جديرة بالاهتمام لأنها تشكل بداية الاستعمار الاوربى الحديث فى المحيط الهندى وثانيا لأن هذا المحيط كان أو على الاقل الجزء الغربى منه بحيرة عربية اسلامية منذ العصور الوسطى ؛ وثالثا كان وصول البرتغاليين الى المحيط فى وقت يشهد فيه حوض البحر المتوسط صراعات بين القوى العربية الاسلامية وبين القوى الاوربية . وهذا كله يشكل علامة استفهام .

ورغم أن مسالة الوجود البرتغالى فى المحيط الهندى تناولتها أقلام عديدة ومعظمها أقلام أجنبية . فهناك بعض الجوانب منها لم تعالج أكاديميا فى وحدة متكاملة أو عولجت بوجهات نظر غير محايدة ومن بينها تلك القضية التى أمامنا .

وقد رأى الباحث قبل أن يدخل فى جوهر القضية أن يلقى نظرة سريعة على بعض عناصر مقدماتها . حتى تخرج مكتملة البناء : مثل معرفة الدوافع التى حركت البرتغاليين والبدء فورا فى تنفيذ أهدافهم فى ذلك المحيط ، ثم معالجة الجهود المبذولة من جانب القوى العربية ضدهم منذ وصولهم وحتى حصارهم فى جيوب صغيرة متناثرة على سواحل المحيط الهندى كما هو موضح بالدراسة .

ويرجو الباحث أن يكون قد كشف عن حقائق كانت مطموسة تنسب الى البرتغاليين أو الى القوى العربية الاسلامية بروح محايدة ، وفى

ذات الوقت تصحيح لمغالطات وردت بأقلام أخرى ، وصولا للحقيقة التاريخية المجردة من أى عاطفة ، وأن يكون هذا البحث اضافة برؤية جديدة للدراسات التاريخية فى المكتبة العربية .

دوافع ابحار البرتغاليين الى المحيط الهندى :

منذ البداية هناك سؤال يطرح نفسه بنفسه لماذا يندفع البرتغاليون الى المحيط الهندى رغم صغر مساحة البرتغال نفسها وقلة سكانها وبعدها الجغرافى عن تلك الجهات وعدم معرفتهم المسالك المؤدية اليها ولماذا لم يكن البحر المتوسط مثلا مجال نشاطهم البحرى لقربه من بلادهم .

ونظرا لخطورة القضية فان الاجابة عليها أخطر لأنها لا زالت ترهق الباحثين .

فالمعروف أن البرتغال تشكل أقصى الركن الجنوبى الغربى للقارة الأوروبية الذى يطل على المحيط الأطلسى ، وتكون هى وأسبانيا شبه جزيرة أيبيريا التى خضعت للحكم العربى الاسلامى فترة من الزمن امتدت من القرن الثامن الميلادى حتى نهايات القرن الخامس عشر ، تمكنت الحضارة العربية الاسلامية خلالها من أن تشع على غرب أوربا وتساعده على بناء نهضته الحديثة .

وقد جرت فى أواخر تلك الحقبة ما يعرف بالحروب الصليبية بين الأوربيين والمسلمين فى المشرق — تجاوزا — العربى الى أن تمكن الأشرف خليل بن المنصور قلاوون فى عام ١٢٩١ من انهاء الوجود الصليبى من المشرق(١) .

وكان العرب المسلمون فى ايبيريا (الأندلس) يتصارعون مع الممالك المسيحية التى نشأت فيها وظلت تقوى على حساب الخصومات التى كانت تدب بين الحكام العرب هناك :

---

(١) ابن الأثير (عز الدين ابى الحسن على الشيبانى) : الكامل فى التاريخ ج ١٢ (القاهرة ١٩٥٨) ص ١٨٧ وما بعدها .

فقد تمكن الفونسو الأول (١١١٢ — ١١٨٥) من أن ينزل ضربات صاعقة ضدهم ويؤسس مملكة البرتغال الحديثة التى اكتمل نموها على عهد الملك الأفيزى يوحنا الأول (١٣٨٣ — ١٤٣٣) (٢) .

ودفع الحماس الدينى البرتغاليين أن يتعقبوا المسلمين الفارين الى شواطىء المغرب ، فيقول ابن الأثير .. ان الروح الصليبية كانت تضطرم فى الغرب ويغلى مرجلها يريد أن ينفجر فى وجه المسلمين الذين لم يزالوا حتى ذلك الحين فى الأندلس . وبدأت جيوش النصارى تتصيد المسلمين مما قيض للبرتغاليين على وجه الخصوص أن يكون تاريخهم سلسلة غير منفصمة من الحروب الصليبية الطويلة ضد المسلمين ، وقضى تناحر المسلمين وتحزبهم وتفرقهم باضعافهم ثم دحرهم الى الشمال الأفريقى حيث لاحقهم البرتغاليون فاستولوا على سبتة (٨١٨ هـ — ١٤١٥ م) بعد قتال مرير(٣) .

وكان الملك يوحنا قد صرح بأن الميدان الحقيقى الذى يكسب فيه أفراد البيت المالك الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين وانه سيمنح أكبر وسام فى بلاده وهو (وسام السيد الأعظم) لمن يجاهد فى هذا الميدان ، وكان هذا الشرف من نصيب ابنه الثالث (هنرى الملاح) الذى تصدى لهذه المهمة فى المغرب وعينه الملك حاكما على سبتة(٤) .

كما أن أسبانيا سرعان ما ظهرت هى الأخرى كدولة أوربية حديثة بعد أن ربط الزواج بين فردناند ملك أرغونة (١٤٧٩ — ١٥١٦) وايزابلا ملكة قشتالة (١٤٧٤ — ١٥٠٤) وأخذت تلك الدولة تضيق الخناق على ما تبقى من أملاك العرب التى انحصرت فى مملكة غرناطة ، دون أن يتحرك سلاطين مصر أو سلاطين الدولة العثمانية ، وانتهى الأمر بأن

---

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : اوربا العصور الوسطى ، الجزء الاول ، (التاريخ السياسى) — (القاهرة ١٩٧٨) ص ٥٥٣ وما بعدها .

(٣) ابن الأثير : مصدر سابق ج ١٢ ص ١٨٧ ، وتقع سبتة على الساحل المغربى المطل على البحر المتوسط .

(٤) د. شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها — (القاهرة ١٩٧١) ص ١٥٣ .

سقطت مدينة غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس فى ٢ يناير ١٤٩٢ . وهو تاريخ حاسم فى تاريخ الاسلام والغرب الأوربى . وقد احتفلت به كل الدول المسيحية وأمرت البابوية بأن تدق كل الكنائس أجراسها احتفالا بتلك المناسبة(٥) . والتى اعتبرها البعض ردا على سقوط القسطنطينية على أيدى الأتراك العثمانيين فى الشرق .

فقد كان العثمانيون يضربون بعنف ضد الامبراطوريه الرومانية الشرقية لدرجة أن الامبراطور استصرخ ملوك أوربا والاعتراف بسلطة بابا روما الروحية(٦) .

وبسبب الضغط العثمانى . عقد مؤتمر فلورنسا فى عام ١٤٤١ دعا فيه البابا ملوك أوربا الى القيام بحملة صليبية لانقاذ القسطنطينية من خطر سقوطها فى أيدى المسلمين . ولكن العثمانيين تمكنوا من أن يفتحوا تلك العاصمة فى عام ١٤٥٣ ويزيلوا الى الأبد الامبراطورية الرومانية فى الشرق(٨) . وواصلوا فتوحاتهم فى أوربا الشرقية .

وقد ترتب على سقوط الامبراطورية الرومانية أن ساد الفرح العالم الاسلامى الذى اعتبر أن انتصار العثمانيين على الرومان المسيحيين هو انتصار لكل المسلمين .

اذن حتى نهايات القرن الخامس عشر كانت هناك مواجهات ساخنة وعنيفة بين القوى الاسلامية ممثلة فى الدولة العثمانية الفتية ومسلمى الأندلس وبين القوى المسيحية ممثلة فى امبراطورية الهابسبورج ومملكتى أسبانيا والبرتغال محصورة فى نطاق حوض البحر المتوسط .

---

(٥) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس (القاهرة ١٩٨٠) ص ٣٦٢ .

(٦) كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) تعتنق المسيحية على المذهب الاريوسى ، بينما كانت البابوية تعتنق المذهب الاثناسيوى (الكاثوليكى) .

(٧) سقطت الامبراطورية الرومانية فى الغرب عام ٤٧٦ ثم جاء شرلمان واسس الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ٨٠٠ م .

وكان فى الامكان اذا لم يكن مفر من استمرار الصراع أن يظل فى ذلك الحوض ، كما حدث فى القرون السابقة (الحروب الصليبية) ولكن البرتغاليين نقلوا جزءا من ذلك الصراع الى المحيط الهندى الذى كان شبه بحيرة اسلامية تكاد تكون احتكارا للعرب والمسلمين ، تجارة وسيادة منذ ظهور الاسلام .

فقد كان استيلاء « هنرى الملاح » فى عام ١٤١٥ على سبتة للتشفى من المسلمين الفارين اليها من الأندلس(٩) دافعا لينفس عن تعصبه الدينى الأعمى . خاصة وانه كان رئيسا لجماعة اليسوعيين (الجزويت) وذلك بضرب أى وجود اسلامى وفى أى مكان على اعتبار أن محاربة المسلمين (ضرورة) يحتمها الدين والوطن(١٠) .

لذا اتجه تفكيره الى أن يحتل الشواطىء المراكشية على المحيط الأطلسى وأن يتصل بملك غانا الذى يسمع عنه أنه يجلس على عرش من الذهب وينشر الكاثوليكية بين مواطنيه وينتزع تجارة تلك البلاد من يد المغاربة المسلمين ، ومنذ ذلك الوقت أخذ يعد لارسال حملات استكشافية مستفيدا من تراث المسلمين فى الأندلس فى الملاحة والفلك وأيضا الاستفادة من معلومات أهل جنوة الايطالية ، وفعلا تم اكتشاف بعض الجزر المهمة فى المحيط الأطلسى مثل جزيرة ماديرا (١٤٢٠) وجزر كناريا وأزور والرأس الأبيض (١٤٤١) والرأس الأخضر (١٤٤٦) .

حدث ذلك فى وقت كانت فيه الحروب بين المسلمين والمسيحيين تزداد ضراوة فى كل من آسيا الصغرى والأندلس ، وعندما سقطت القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ كما ذكرنا استشاط البابا غضبا ، وخشى من زحف الاسلام على أوربا المسيحية .

ويبدو أن نداءاته التى تضمنت ضرورة التصدى لذلك الخطر وجدت

---

(٩) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ج ٤ — (القاهرة ١٩٦٦) ص ٢٨٣ وما بعدها .

(١٠) بنيكار ك.م : آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — (القاهرة ١٩٦٢) ص ٢٥ وما بعدها .

استجابة كاملة من البرتغاليين والأسبان لكراهيتهم الشديدة للاسلام والمسلمين(١١) .

ولما كان الأسبان لا يزالون يتصارعون مع بقايا الوجود العربي الاسلامى فى الأندلس وأن البرتغاليين الذين سبقوهم فى التحرر لا يستطيعون مواجهة العرب والمسلمين فى حوض البحر المتوسط . اتسعت خطة البرتغاليين وهدفت الى ضرورة الوصول الى الشرق ولكن ليس عن طريق البحر المتوسط كما كان يحدث من قبل واشتملت الخطة على :

١ — القيام بحركة التفاف تطوق بها البلاد الاسلامية من الخلف ومحاولة الوصول الى الحجاز والعبث بالمقدسات الاسلامية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . وهذا يترتب عليه تحطيم معنويات المسلمين وكسر هيبة الدولة العثمانية التى تجد المؤازرة المعنوية منهم وبالتالى عرقلة فتوحاتهم فى أوربا الشرقية .

٢ — التحالف مع الهنود على أساس أنهم مسيحيون ونشر المسيحية بين الشعوب الخارجة عن النطاق الاسلامى لتكون عونا لهم — البرتغاليين — على ضرب المسلمين والقضاء على الدين الاسلامى(١٢) .

وكان البابا نيقولا الخامس قد أرسل فى عام ١٤٥٤ كتابا الى الأمير هنرى الملاح . يعبر له فيه عن سروره بما فعله من ادخاله فى أحضان الكاثوليكية « الغادرين من أعداء المسيح مثل العرب والكفرة » فيقول له .. فاذا تم على يديه — هنرى الملاح — اختراق المحيط ملاحة حتى بلاد الهند والتى يقال أنها خاضعة أيضا للمسيح وان هو توصل الى انشاء العلاقات بينه وبين هؤلاء الناس فانه سيتمكن من حملهم على النهوض لبذل العون لمسيحى الغرب على أعداء الدين ويستطيع فى الوقت نفسه أن يدخل فى الطاعه والخضوع جميع الوثنيين الذين لم تصمهم

---

(١١) بانيكار : ذات المرجع ص ٢٤ .

(١٢) د. حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأقصى ، الجزء الاول — (القاهرة ١٩٥٣) ص ١٦ .

حتى الآن يد الاسلام ويدخل اسم المسيح فى نطاق عطهم . وأضاف أن للأمير هنرى الحق فى جميع البلاد التى يكتشفها حتى الهند(١٣) .

ويلاحظ من ذلك الكتاب البابوى أنه فضلا عن أنه يحث الأمير على محاربة المسلمين أساسا فانه تضمن جانبا سياسيا وهو فرض سيادة البرتغال على البلاد التى يتم اكتشافها .

لذا فقد أعطى ذلك الكتاب للأمير دفعة اضافية من الحماس الدينى ضد الاسلام والمسلمين ، مما ترتب عليه أن نشط البرتغاليون فى اعداد الحملات للوصول الى المحيط الهندى .

ولما كانت القوات العثمانية تواصل ضرباتها بنجاح فى أوربا الشرقية ، رأى البابا كاليكستوس الثالث أن يزيد من تشجيع الأمير البرتغالى . فاصدر مرسوما فى ١٤٥٦ تضمن تاكيد البابوية للمرسوم البابوى السابق (١٤٥٤) .

هذا وكانت الأخبار قد تواترت فى أوربا عن مملكة برسترجون (القس يوحنا) المسيحية(١٤) . وانها تقع الى الخلف من البلاد العربية وربما تقع فى وسط أفريقيا وكان المقصود بها دولة الحبشة ، وقد رأى ملك البرتغال انه فى الامكان الاستفادة من تلك الدولة والتحالف معها وكل هذا وذاك خدمة للمسيحية والمسيحيين . لذا واصل البرتغاليين رحلاتهم بالدوران حول القارة الافريقية بعيدا عن قواعد المسلمين فى البحر المتوسط .

---

(١٣) د. يونان لبيب رزق وآخرون : اوربا فى عصر الراسمالية — (القاهرة ١٩٨٣) ص ٨٩ .

(١٤) قصة امبراطورية برسترجون او القديس يوحنا اسطورة ادبية تعود الى القرن الثانى عشر ولعلها كانت من تاثيرات الحروب الصليبية .

وهى تشير الى ان هذا القديس اسس امبراطورية مسيحية كبرى فى الشرق وحكم الهند والصين والحبشة وانها على استعداد لقتال اعداء المسيح ، ومع مرور الايام اقتصرت الاسطورة على مملكة الحبشة انظر : د. عبد المجيد عابدين : الحبشة والعرب (القاهرة د. ت) ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

وعلى ضوء ذلك نستطيع القول أن العامل الدينى هو الذى دفع البرتغاليين للابحار نحو الشرق والوصول الى الهند لضرب الاسلام ونشر الكاثوليكية فى تلك الأرجاء وانتزاع تجارتها من أيدى العرب . وقد دلل على ذلك ما ذكره فاسكو داجاما نفسه من أنه يسعى من رحلاته فى المحيط الهندى الى نشر المسيحية والوصول لبلاد التوابل(١٥) .

ولكن للانصاف نقول أنه بجانب العامل الدينى الذى تغلبت عليه روح صليبية متشددة كانت هناك دوافع أخرى شجعت البرتغاليين على ارتياد البحار ومواجهة المخاطر منها ما يلى :

١ — تجارة الشرق : فقد ترتب على موقع البرتغال الجغراف وطول سواحلها على المحيط الأطلسى أن اندفع سكانها لارتياد البحار للصيد والتجارة مع الغير وهذه سمة من سمات الدول البحرية ، وكانت الطرق التجارية الدولية بين شرق آسيا وأوربا سواء كانت برية أو بحرية تحت السيادة الاسلامية(١٦) . ومن ثم كان الأوربيون يعتمدون على المسلمين فى الحصول على السلع الشرقية التى تتمثل فى التوابل بأنواعها والتى كان لها المرتبة الاولى فى الأهمية لأنها تعتبر الوسائل المفيدة للصحة وحفظ الطعام فى أوربا خلال فصل الشتاء بجانب سلع أخرى مثل الجواهر والقرنفل والمسك والكشمير والحرير والبخور وغيرها .

وبعد أن حصلت البرتغال على استقلالها كانت أسعار السلع الشرقية تتزايد من حين لآخر فى أوربا ، بسبب ما كان يفرض عليها من ضرائب ومكوس حين مرورها فى الطرق الاسلامية ، وتجمعها فى الموانىء العربية (مصر والشام والمغرب) فى انتظار التجار الأوربيين خاصة تجار البندقية الطليان الذين كان لهم منزلة خاصة لدى سلاطين مصر ، لنقلها وتسويقها فى البلاد الاوربية فرأى البرتغاليون أن الثروة الهائلة

---

(١٥) Duffy, James : Portuguese Africa, London 1959, p. 107.

(١٦) د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (القاهرة ١٩٧٣) ص ١٦٥ وما بعدها .

الناجمة عن احتكار العرب المسلمين لتجارة الشرق هى أحد العوامل الرئيسية فى قوتهم . وحيث أن أهداف البرتغال هى ضرب المسلمين ، فان الضرورة تتطلب ضرب هذا العامل وتسخير الأرباح التجارية مع الشرق فى خدمة الهدف الدينى وانعاش الاقتصاد البرتغالى .

٢ — الاستفادة من التقدم العلمى الذى ترتب على ظهور النهضة الحديثة خاصة فى مجال الملاحة والفلك وكان ذلك عونا كبيرا للمكتشفين البرتغاليين لطريق الشرق بالدوران حول أفريقيا .

٣ — لا نستبعد على الاطلاق أن يكون لليهود دور فى دفع البرتغاليين الى المحيط الهندى . لأنهم كانوا يعرفون مصادر التجارة منذ العصور الوسطى .

أوضاع البلاد المطلة على المحيط قبيل وصول البرتغاليين :

نظرا لاتساع المحيط الهندى فاننا نشير بايجاز شديد الى المناطق التى تطل عليه مباشرة والتى كان للعرب فيها وجود مثل سواحل شرق أفريقيا وسواحل الهند وبعض الجزر الشرقية والتطرق اذا تطلب الانسجام التاريخى ولربط الأحداث الى الخليج والبحر الاحمر لكونهما يمثلان ذراعيه وأهم منافذه الى أوربا .

فتجمع المصادر التاريخية على أن هناك علاقات قوية ربطت بين العرب والآسيويين فى الهند وجزرها الشرقية وبين سكان شرق أفريقيا منذ عهود بعيدة(١٧) . وكانت تتميز بالطابع التجارى ، وبعد أن ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية ، وامتداده الى تلك الجهات ازدادت العلاقات بين العرب والمسلمين وبينها . وصار لهم وجود فيها . تميز فى شرق أفريقيا بالتجارة والاقامة الدائمة وفى الشرق تمثل فى اقامة مراكز تجارية وعلاقات قوية مع الحكام .

---

(١٧) عن الوجود العربى فى شرق افريقيا انظر :

فحول ساحل شرق أفريقيا تشير المصادر الى أنه لم يشهد دولة سياسية موحدة ترجع الى أصول تاريخية قديمة وربما كانت أعظم دولة ظهرت فى المنطقة هى دولة الزنج وعاصمتها (كلوه) . ولكن فى معظم الأحوال كانت تتنازع المنطقة امارات عربية وفارسية تأثرت بالبيئة الافريقية وتستقل كل منها بميناء أو اكثر على الساحل أو جزيرة من الجزر .

فمثلا تمكنت الأسرة النبهانية فى امارة (بات) من أن تفرض نفوذها على أغلب امارات الساحل الشرقى طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . واستطاعت (كلوه) فى القرن الخامس عشر أن تحقق مثل هذا النفوذ الذى امتد الى موزمبيق وسفالة . غير أن هذه الجهود لم يتمخض عنها ايجاد وحدة سياسية تجمع شمل هذه الامارات التجارية التى كانت أشبه بالمدن الفينيقية المتناثرة على ساحل الشام أو على ساحل شمال أفريقيا .

وكانت هذه الامارات العربية الاسلامية لا تسلم من العداوات التى كثيرا ما تفضى الى حروب بسبب التنافس التجارى أو بسبب الاختلاف فى المذاهب الدينية رغم أنها جميعا تنتمى الى الاسلام .

وبدلا من أن تتوحد تلك الامارات وكلها اسلامية وتكتل قواتها فى وحدة واحدة لمواجهة أى خطر من الخارج تسبب البعض منها فى زيادة تفككها كما نراه على سبيل المثال فى حالة شيوخ (مالندى) الذين كانوا يعتمدون على أنهم من سلالة أقدم الحكام الذين حكموا المنطقة الساحلية وتحالفوا مع البرتغاليين من منطلق الرغبة فى الانتقام من شيوخ (ممباسة) الذين كانوا من أقوى حكام الساحل .

وهكذا حين وصل البرتغاليون الى شرق أفريقيا ، ورغم انبهارهم بالحضارة العربية الاسلامية الزاهية التى وجدوها على الساحل فانهم

د. جمال زكريا قاسم : الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية (معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٥) ص ٤٩ وما بعدها .

شاهدوا على الطبيعة التفكك السياسى . مما شجعهم على المضى فى تحقيق أهدافهم(١٨) .

وبالنسبة لسواحل الهند والجزر الشرقية فقد كان العرب قد أسسوا لهم مراكز تجارية على جانب كبير من الأهمية كما هو الحال فى (قاليقوط) على الساحل الغربى للهند فى (مالابار) وفى (الديبل) و (المنصورة) و (سندان) (صيمور) وغيرها مثل (مالقا) التى تعتبر من أهم المراكز العربية فى الجزر الشرقية و (كوجرات) و (البنغال) على سواحل الهند و (سرنديب أى سيلان) وفى جزر الملايو وأندونيسيا وكانتون (ميناء الصين العظيم) وغيرها ، حيث كانت السفن العربية والاسلامية تتردد باستمرار على تلك المحطات لتنقل هى والسفن الهندية والصينية سلع الشرق الى البلاد العربية(١٩) .

ولم تقتصر العلاقة بين المسلمين وتلك الجهات على التجارة وانما زاد منها ارتباطها بالاسلام ، فقد شهدت الهند نفسها دولا اسلامية على جانب كبير من الحضارة مثل الدولة الغزنوية والتى ورثتها الدولة الغورية التى ظلت قائمة حتى أوائل القرن الثالث عشر ، عندما استبد المماليك بالحكم لمدة تقرب من مائة عام ثم أعقبهم الأمراء الخليجيين (١٢٩٠ — ١٣٢١) ثم دولة آل تغلق (١٣٢١ — ١٤١٢) .

وعلى أثر غزوة تيمور لنك للهند وسقوط دلهى فى ١٤١٤ تفككت الدولة الاسلامية فى الهند بل تفككت الهند كلها الى عدة دول سادها الاضطراب والحروب .

فظهرت فى دلهى أسرة السادات الذى ورثها فى الحكم اللودهيون الأفغان فى عام ١٤٥١ .

---

(١٨) Oliver, Roland, and Mathew, G. : History of East Africa, vol. 1 Oxford 1963, pp. 94, 95.

(١٩) Skyes, Percy : A History of Exploration to the Present Day, London 1949, pp. 111 — 112.

ويلاحظ بصفة عامة أن التفوق الاسلامى ظل حاسما فى الشمال ووسط الهند وأن الهندوكية ارتكزت على معاقلها العسكرية والسياسية فى الجنوب خاصة فى قاليقوط ومملكة فيجايانكر(٢٠) .

ولا بأس من ذكر أهم الامارات الاسلامية والهندوكية فى الهند قبيل وصول البرتغاليين لما لذلك من أهمية فى مسار الجهود ضد نفوذهم فى المحيط الهندى . فقد كانت هذه الامارات أو الممالك تتمثل فى الآتى :

١ — جنبور وكانت هذه الامارة قد استقلت عن دلهى ثم استولى عليها اللودهيون الأفغان .

٢ — مملكة البنغال الاسلامية وقد استقل بها حسين شاه ويقال أن هذا الرجل دعا الى دين جديد يجمع عقائد الهندوس والمسلمين الذين انتشروا فى البلاد وتولوا الحكم فيها . ولم يلبث البنغال أن وقع فى أيدى الأفغان بعد ذلك .

٣ — امارة كوجْرات التجارية : وكانت على ثراء كبير ولها اتصالات واسعة مع مصر وشرق أفريقيا والخليج وكانت هذه الامارة قد استقلت فى عام ١٤٠١ م .

٤ — مالوه : وتقع شرقى كوجرات واستقلت فى مطلع القرن الخامس عشر وقد استولى عليها (بهادر خان) أمير كوجرات فى ١٥٣١ .

٥ — خاندش : وقد استقلت عن دلهى ثم دخلت فى حوزة أمير كوجرات .

٦ — الدولة البهمنية وكانت تشغل مساحات واسعة من نواحى بومباى وحيدر أباد ثم تفسخت الى خمس امارات متحاربة هى بدار وبرار وبيجابور وأحمد نكر وغولكنده .

٧ — أوريسا فى الشرق .

٨ — دولة فيجايانكر الهندوكية القوية فى أقصى الجنوب وكانت

---

(٢٠) د. عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام فى الهند (بيروت ١٩٨١) ص ٤٢٤ وما بعدها .

تقاتل بعنف شديد ضد الامارات الاسلامية . لذا حين وصول البرتغاليين الى الهند وجدوا فى تلك الدولة حليفا طبيعيا لهم ضد القوى الاسلامية فى الهند .

٩ — موار الهندوكية : وكان يحكمها أمراء الراجيوت .

وهكذا كان الحكم الاسلامى فى الهند مفكك الأوصال حتى أواخر القرن الخامس عشر وفى ذات الوقت كانت أسرة اللودهى فى اضطراب شديد ولم يأت القرن السادس عشر حتى كان الأمراء الراجبوت الهندوكيين قد كونوا جبهة قوية وفرضوا سيطرتهم على الحكام المسلمين الهندوكيين قد كونوا جبهة قوية وفرضوا سيطرتهم على الحكام المسلمين .

ولكن شاءت الأقدار أن الملك (بابر) صاحب غزنة(٢١) . أدرك فى الوقت المناسب أن الدولة اللودهية تعانى من سكرات الموت ؛ فأسرع بجيشه وأخضع معظم شمال الهند ثم رفع راية الجهاد ضد الهندوس بل وبعض المسلمين المعارضين كالأفغان مكونا بذلك الدولة المغولية فى وقت كانت فيه طلائع البرتغاليين تدق أبواب الهند(٢٢) ولم تكن تلك قد أثبتت وجودها بعد .

هذه هى الصورة العامة للاوضاع التى كانت عليها بعض البلاد المطلة على المحيط الهندى والتى يتضح منها أنها لم تملك وحدة سياسية ولا حتى قوة عسكرية منظمة تجابه بها القوة البرتغالية الوافدة عليها مما جعلَ تلك البلاد تستصرخ من منطلق عاملى الدين والتجارة قوى أخرى تشاركها الخطر البرتغالى . ونعنى بذلك القوة العربية الاسلامية بمفهومها الواسع كما نراه بعد قليل .

---

(٢١) بابر او ببر تعنى (النمر) واسمه الحقيقى ظهير الدين محمد ابن عمر شيخ ميرزا وهو ينحدر من ناحية الاب من سلالة تيمورلنك وكذلك من سلالة جنكيز خان .

(٢٢) استمر حكم دولة المغول فى الهند من مطلع القرن ١٦ الى منتصف القرن ١٩ تخللها فترات ضعف فى بعض الاحيان انظر : د. عبد العزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية (بيروت ١٩٧٣) ص ٥٠٥ وما بعدها .

وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى وفرض نفوذهم عليه :

بعد أن اكتملت الدوافع لدى البرتغاليين وكانوا قد نجحوا الى حد كبير فى اكتشاف بعض المناطق على ساحل أفريقيا الغربى ــ كما ذكرنا ــ وبدأت التجارة خاصة فى السود الأفارقة التى افتتح الأمير هنرى الملاح مدرستها تؤتى ثمارها(٢٣) • تابع البرتغاليون جهودهم للوصول الى الهند والبحث عن مملكة القديس يوحنا . فكانت رحلة بارثلوميو فى عام ١٤٨٦ والتى تمكن فيها من أن يصل الى الطرف الجنوبى من القارة الافريقية وعبر شرقا لمسافة قصيرة فى جو عاصف فأطلق عليه اسم رأس العواصف (أطلق عليه فيما بعد اسم رأس الرجاء الصالح) وقد أخذ عدة صور لهذا الرأس ولم يستطع دياز مواصلة الرحلة وعاد الى لشبونه حيث وصلها فى ١٤٨٨(٢٤) •

وبعد عشر سنوات تمكن (فاسكو داجاما) من عبور رأس الرجاء الصالح • وبسبب العواصف الشديدة فقد (داجاما) احدى سفنه شمال الناتال ثم واصل الملاحة شمالا حتى ثغر سفالة وأرسى سفنه قرب نهر كليمانى للتزود بالمون واصلاح السفن(٢٥) • ثم استأنف السير الى موزمبيق •

ويقال أن الأهالى قابلوه هناك بالترحاب ظنا منهم أن هؤلاء الجماعة من البرتغاليين المسلمين أو من المغاربة . وعلم (داجاما) أن موزمبيق تدين بالولاء لسلطنة كلوه الاسلامية التى تعتبر أشهر موانىء الساحل الشرقى لافريقيا • وعرف أن السفن التجارية المختلفة تصل اليها من بلاد العرب والهند •

---

(٢٣) للمزيد انظر :

د. شلم حسلم شلم : الهجمات الاستعمارية والمقاومة الاسلامية (سلسلة مقالات منشورة فى مجلة الهداية بدولة البحرين فى عامى ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ . ١٩٦٧) ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢٤) د. يوسف الجوهرى : الكشوف الجغرافية (الاسكندرية

(٢٥) Bell, Christopher. : Portugal and the Quest for Indies. London 1977, pp. 203 — 206.

وقد طلب (داجاما) من حاكم موزمبيق أن يساعده فى الوصول الى الهند . فكلف الحاكم اثنين من العرب ممن لهم دراية بالطريق البحرى ليرشداه لتلك الجهات . ويقال أنه عن طريق الصدفة اكتشف الأهالى أن رجال (فاسكو داجاما) من المسيحيين . وكانت أخبار التنكيل بالعرب والمسلمين فى الأندلس لا تزال عالقة فى أذهان عرب شرق أفريقيا . فتوترت الأمور وخشى (داجاما) على رجاله فعزم على التوجه الى (كلوه) بعد أن قصف المدينة ودمر جزءا منها . مما ترك انطباعا سيئا منذ البداية لدى سكان الساحل عن سلوك القادمين .

ويقال أن المرشدين العربيين نصحا (داجاما) بالتوجه الى (ممباسة) لادراكهما أنه فى امكانها الفتك به . وفعلا حين وصوله اليها فى ٧ ابريل ١٤٩٨ وجد مقاومة عنيفة خاصة وأن أخبار ما حدث فى موزمبيق كانت قد وصلت اليها .

وكان (داجاما) قد عرف أن هناك عداء مريرا بين شيخ ممباسة وشيخ ماليندى . فعزم على الاستفادة منه . فتوجه الى الأخيرة حيث قابله شيخها بالود وألحق معه البحار أحمد بن ماجد(٢٦) . وطلب منه أن يمر على ماليندى عند عودته ليرسل معه وفدا الى ملك البرتغال للتعبير عن صداقته . وكان شيخ ماليندى يريد بسلوكه هذا . أن يكسب البرتغاليين ضد منافسه وعدوه شيخ ممباسه دون أن يدرى أن العداء بين الطرفين أتاح الفرصة للبرتغاليين ليوطدوا نفوذهم فى المحيط الهندى وليفتحوا مدرسة الاستعمار الأوربى الحديث فى الشرق .

على أية حال أبحر فاسكو داجاما الى الهند فى ١٤ أبريل ١٤٩٨ ووصل الى قاليقوط فى ١٨ مايو من ذات العام وأقام بها بعض الوقت وبعد أن كون حصيلة كبيرة من المعلومات عن أحوال (ماليبار) وعن

---

(٢٦) هناك من ينتقد احمد بن ماجد وينسب اليه انه كان السبب فى وجود الاستعمار البرتغالى فى المحيط الهندى فيجب الاخذ فى الاعتبار ان السبب الرئيسى يكمن فى المخطط البرتغالى الصليبى وتفكك القوى العربية الاسلامية والمحلية فى ذلك المحيط .

مركز العرب وحجم تجارتهم وقوة بحريتهم فى تلك الجهات عزم على العودة . وحين وصل الى شرق أفريقيا عرج على موانيها من الشمال الى الجنوب فوجد مقاومة عنيفة عند مقديشيو فضربها بمدافعه وأغرق الكثير من السفن العربية ثم اتجه الى ماليندى ليتزود بالمون اللازمة وعند وصوله الى جـزيرة زنجبار فى أبريل ١٤٩٩(٣٧) • ووجد ذات المقاومة العربية ضده واصل رحلته الى الجنوب حيث عرج على رأس الرجاء الصالح الذى اعتبره البرتغاليين منذ ذلك الوقت احتكارا لهم وحدهم ثم عاد الى لشبونة فى سبتمبر ١٤٩٩ حيث عم الفرح واعتبر ذلك نصر مبين للمسيحية على الاسلام •

ويبدو أن البرتغاليين كانوا يظنون مثل بابا روما أن الهنود فعلا من أتباع المسيح ويستشف ذلك من رسالة الملك عمانويل الى فردناند وايزابيلا حيث يقول : أن المسيحيين الذين اكتشفناهم ووصلنا اليهم هنا ليسوا على درجة كافية من قوة العقيدة ورسوخها وانما ينقصهم الايمان الكامل الصحيح وعنـدما يحين الوقت ويتحصـنون بالايمان المسيحى السليم فسوف تتوفر لنا الفرصة لتدمير المسلمين فى هذه البلاد ولا زلنا نأمل بعون المسـيح أن التجارة الكبيرة التى لا يتمـتع بها المسلمون سننتزعها منهم وتعود الفائدة منها على رعايانا وسفننا(٢٨) •

على أية حال ترتب على هذه الرحلة ثلاث نتائج هى :

١ — عداء سافر من العرب فى شرق أفريقيا وسيظل ذلك العداء طوال الوجود البرتغالى فى تلك الجهات •

٢ — وضوح الرؤية لدى البرتغاليين ، أن الأمر يتطلب تأسيس نفوذ لهم على ساحل شرق أفريقيا عن طريق اتخاذ موانىء لهم كمحطات تخدم سفنهم فى المحيط وتأسيس مركز تجارى ثابت على ساحل الهند •

---

(٢٧) جيان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقيا ، ترجمة وتلخيص كمال يوسف (القاهرة ١٩٢٧) ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ •

(٢٨) Jayne, K. G. : Vasco Da Gama and His Successors 1460 — 1580, London 1970, p. 62.

٣ — ضرورة استغلال التفكك والعداء بين بعض الامارات العربية الاسلامية فى شرق أفريقيا •

رفع (فاسكو داجاما) تقريره عن رحلته هذه الى الملك عمانويل الثانى فأمر باعداد حملة كبيرة بقيادة « البدرو الفاريز كابرال » الذى أبحر بها من لشبونه فى عام ١٥٠٠ وكانت مهمتها ضرب المسلمين فى البحار الهندية وتنفيذ ما جاء فى تقرير (داجاما) •

وحين وصوله الى ساحل شرق أفريقيا أرسل للسلطان ابراهيم حاكم كلوه بعض الرسائل من ملك البرتغال بقصد التحالف معه فأسرع التجار العرب وعرقلوا هدف البرتغاليين . فتوجه كابرال الى صديقهم شيخ ماليندى للتزود بالمؤن(٢٩) • واستأنف السير الى الهند وكانت معظم سفنه قد تحطمت عند رأس الرجاء الصالح ولم يتبق منها سوى ست سفن حين وصوله الى قاليقوط(٣٠) •

وكان كابرال لديه تعليمات بأن يطلب من (الزامورين) حاكم قاليقوط بأن يسمح للبرتغاليين بتأسيس مركز تجارى والسماح لخمسة من الآباء الفرنسيسكان لنشر الثقافة الكاثوليكية بين المواطنين(٣١) • الا أن التجار العرب تدخلوا لدى الزامورين الذى فطن نوايا البرتغاليين وهجمت قواته عليهم وقتلوا حوالى سبعين رجلا منهم رغم ضرب المدينة بالمدافع(٣٢) •

وحين رأى كابرال أنه من غير الممكن تحقيق ما جاء فى تقرير داجاما رجع الى لشبونه . وضمن تقريره أن الأمر يتطلب تكوين حملة كبيرة

---

(٢٩) John Gray. : Early Portuguese Missionaries in East Africa, London 1960 p. 5.

(٣٠) بانيكار : مرجع سابق ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٣١) د. يونان لبيب وآخرون : مرجع سابق ص ٩١ ، ٩٢ .

(٣٢) انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح — (القاهرة ١٩٦٦) ص ٥٦ وما بعدها .

جدا والا فمن المستحيل تحقيق أهدافهم فى المحيط الهندى(٣٣) .

فقرر الملك ارسال حملة كبيرة بقيادة (فاسكو داجاما) فى عام ١٥٠١ لخبرته السابقة . وأغدق عليه لقب (أميرال البحار الشرقية) فى احتفال كبير فى الكنيسة الكاتدرائية بلشبونه(٣٤) .

وحين وصل داجاما الى كلوه سلط عليها نيران مدافعه فاضطرت الى الاستسلام والاعتراف بسيادة الملك البرتغالى وتبع ذلك خضوع زنجبار وبمبا ومافيا ثم غادر الى ماليندى وهناك أخذ يتصيد السفن العربية والاسلامية القادمة من الهند ويستولى عليها(٣٥) . وفى طريقه الى الهند مارس عمليات القرصنة . وعندما وصل الى ساحل (ماليبار) أخذ ينكل بكل ما هو عربى أو مسلم تقع عليه عيناه من منطلق (حرب لا هواده فيها مع المسلمين) (٣٦) .

فمثلا وجد أمام الساحل سفينة للحجاج قاصدة مكة المكرمة وعليها ٣٨٠ راكبا فاغتصبها بالقوة وأشعل فيها النيران وبعد دفاع مستميت من الركاب هوت السفينة الى قاع المياه(٣٧) .

وحين اقترب من قاليقوط اندهش من كثرة السفن العربية الاسلامية الراسية فى الميناء فسلط مدافع أسطوله ضدها وأسر بحارتها وبعد أن جدع أيديهم وآذانهم وأنوفهم والسنتهم ، أرسلهم الى ملك قاليقوط ليعرضهم أمام المارة فى الشوارع .

ومن جانب آخر كان البرتغاليون قد تمكنوا من اعتقال أحد كبار التجار العرب وبعد أن قيدوه بالسلاسل انهالوا عليه ضربا حتى

---

(٣٣) Sousa, Faria. : The History of the Discovery and Conquest of India by the Portuguese, Translated into English by John Steven. vol. 1, London 1894, pp. 60 — 63.

(٣٤) بانيكار : مرجع سابق — ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣٥) Sousa, : op. cit, vol. 1, pp. 64 — 65.

(٣٦) Jayne, R. G. : op. cit p. 26.

(٣٧) Sousa, Op. Cit, vol. 1, pp. 65 — 66.

الموت(٣٨) ٠

وقد ترتب على السياسة الوحشية أن تأجج الحقد فى صدور المسلمين والهندوس فى قاليقوط ، وكان الزامورين قد طلب أن تعرضت المدينة لطلقات المدافع التفاهم مع داجاما الا أن الأخير اشترط عليه ضرورة طرد المسلمين واخراجهم من المدينة أولا(٣٩) ٠

فجمعت المصلحة بين الزامورين والمسلمين وحاصروا داجاما الذى اضطر الى الابتعاد عن قاليقوط ، وعقد صلحا مع ملكى (كنانور) و (كوتشين) تضمن حرية التجارة معهما وعاد الى لشبونة ومعه تسع سفن محملة بحوالى خمسة آلاف قنطار من البهار(٤٠) ٠ مما شجع تجار أنتورب Antwerp على مساعدة الملك البرتغالى وامداده بالأموال لاتمام مشروعاته الاستكشافية واحتكاره للتجارة الشرقية(٤١) ٠

ويلاحظ أنه رغم أن البرتغال لم تكن حتى ذلك الوقت قد وطدت نفوذها فى المحيط الهندى . فان الملك اتخذ لنفسه لقب (ملك الملاحة والغزو وملك تجارة أثيوبيا والجزيرة العربية والفرس والهند) وأصدر فى عام ١٥٠٤ مرسوما يحرم حمل خرائط تشير الى طريق الملاحة جنوبى الكونغو الى الهند وجمعت الدولة الخرائط البحرية المتداولة وأعدمتها وأخذ الاسطول البرتغالى يستعد للوقوف فى البحر ضد أى محاولة لشق الطريق بالقوة دون الحصول على اذن من البرتغاليين(٤٢) ٠

ولكن المسلمين لم يستسلموا للاعداء واستمرت تجارتهم مع الشرق وان كانت بدأت تتناقص يوما بعد يوم ولم تعد بذات الحجم السابق ٠

---

(٣٨) Masselman, G. : The Cradle of Colonialism, London 1963 pp. 218 — 219.

(٣٩) Jaune, R. G. : op. cit. p. 65.

(٤٠) د. احمد دارج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى (القاهرة ١٩٦١) ص ١٢٢ ، ١٢٣ ٠

(٤١) د. يونان لبيب رزق وآخرون : مرجع سابق ص ٩٧ ٠

(٤٢) د. عبد الملك عودة : السياسة والحكم فى افريقيا (القاهرة ١٩٥٦) ص ٧١ ٠

ويلاحظ أن الوقت كان يمر في صالح البرتغاليين . ففى عام ١٥٠٥ توجهت حملة بقيادة (فرانسيسكو دالميدا) لتثبيت أقدامهم في شرق أفريقيا وخاصة في المناطق التجارية الاستراتيجية التى تتحكم في الطريق التجارى الجديد والقضاء على قوة ونفوذ المسلمين وحرمانهم من التجارة الشرقية . فأرسل القائد البرتغالى قوة استولت على ثغر (سفالة) الذى كان من مراكز العرب الهامة حيث وجود الذهب في مناجم (مونوموتابا) في زيمبابوى واعادة فرض القوة على كلوه وتأسيس قلعة عسكرية في ميناثها . ثم اتجهت الحملة الى (ممباسة) التى تعتبر مركز المقاومة العربية الاسلامية في شرق أفريقيا وسلط البرتغاليون مدافعهم تجاه المدينة ثم نزلوا الى البر في فجر يوم عيد ارتفاع العذراء الى السماء . ودارت معركة عنيفة بينهم وبين السكان فاضطر البرتغاليون الى اشعال النيران في المدينة . وهى وسيلة رخيصة كثيرا ما استخدموها في حالات اليأس ، فالتهمت كل شىء مما جعل السكان يفرون الى الداخل . ولهول المعركة وفظاعة البرتغاليين كتب الشيخ ممباسة لعدوه التقليدى حاكم ماليندى يصف له المدينة حيث يقول « لم يترك البرتغاليون فيها أى كائن حى لم يستطيع الفرار من المعركة حتى قتلوه أو أحرقوه ونهبوا كل ما بها من ثروات »(٤٣) ويحذره من خطر هؤلاء القادمين ولا ينخدع في الصداقة معهم .

لكن على أية حال ترتب على سقوط كلوه وممباسة أن سقط عمودان من أهم الأعمدة التى كانت ترتكز عليها السيادة العربية في شرق أفريقيا(٤٤) وأسس البرتغاليون في ممباسة قاعدة عسكرية وأشرفوا منها على الموانىء المجاورة مثل كلوه ومافيا وبمبا وزنجبار واكتفوا في الشمال بالاعتماد على حكام ماليندى الذين كانوا يمدونهم بالمساعدات العسكرية ، ثم اتجه فرنسيسكو دالميدا الى الهند ليباشر عمله كأول حاكم ونائب لملك البرتغال من مقر قيادته في كنانور شمال قاليقوط .

---

(٤٣) وندل فليبس : تاريخ عمان ، ترجمة محمد امين عبد الله (سلطنة عمان ١٩٧٣) ص ٤٥ ، ٤٦ .

وفى ٦ مارس ١٥٠٦ تحرك أسطول برتغالى مكون من ١٦ سفينة بقيـادة (تريستان داكونها Tristanda Cunha) لتعزيز القـوات البرتغالية فى الهند . وكان « الفونسو دى البوكيرك » القائد البرتغالى الذى وصل الى الشرق منذ عام ١٥٠٣ قد لاحظ عجز البرتغاليين عن وقف حركة الملاحة العربية فى المياه الشرقية ونشاطها مع (مالقا) فوضع خطة محكمة لتحقيق سيادة البرتغاليين البحرية ، وذلك بالتوغل نحـو (مالقا) وجزر الهند الشرقية لمنع التجار العرب من الوصول الى مناطق انتاج التوابل وكذلك احتلال الموانىء على طول الطريق البحرى بين الهند ورأس الرجاء الصالح والتحكم فى مداخل الخليج والبحر الأحمر ، أى التحكم فى المنافذ الرئيسية للمحيط وهى مالقا وهرمز وعدن ، وبذا تخضع كل التجارة الشرقية لنفوذ البرتغاليين(٤٤) ، وبذا تضرب البرتغال المسلمين فى أعز مواردهم الاقتصادية وبالتالى لا يتمكنون من بناء أو تجديد قواتهم العسكرية ومن ثم يتيسر للبعثات الكاثوليكية دخول البلاد المطلة على المحيط ونشر رسالتها دون عقبات من المسلمين .

وقد عرض البوكيرك هذه الخطة على الملك فلقيت استحسانا منه لأنها تمس فى الصميم ما يتطلع اليه .

وتشير المصادر الى أن الاسطول استولى فى طريقه على لامو وبراوه فى شرق أفريقيا ثم اتجه نحو سواحل شبه الجزيرة العربية واستولى على جزيرة سوقطرة فى عام ١٥٠٧ لتوسطها المسافة بين الخليج والبحر الأحمر وأقام البرتغاليون فيها قلعة القديس توماس وزودوها بحامية عسكرية لمهاجمة السفن المصرية والتحكم فى مداخل البحر الأحمر الجنوبية ومهاجمة عدن ، كما تقرر أن يؤسس بها دير لجماعة الفرنسسكان رغم أن الجزيرة جرداء وخالية من مظاهر الحياة وعين (داكونها) قريبة (الفونسودى نورونها) حاكما عليها(٤٥) .

(٤٤) Duffy, op. cit, p. 28.

(٤٥) Danvers, F. C. : Report on Portuguese Records, London 1982 pp. 112 — 113.

وفى ذات الوقت (١٥٠٧) كانت قوة أخـرى بقيادة « دورات داميللو » قد أسقطت موزمبيق وأسس البرتغاليون بها كنيسة وقاعدة عسكرية(٤٦) .

ولم يلبث أن توجه تريستان داكونها الى الهند ليكون تحت أمرة دالميدا لضرب المقاومة من قبل مسلمى الهند والتجار العرب والزاموريين . تاركا البوكيرك على رأس قوة لمهاجمة عدن . غير أن البوكيرك لم يلتزم بتلك التعليمات وآثر التوجه الى الخليج للاستيلاء على هرمز التى كانت تسيطر وقتذاك على كثير من بلاده وذلك للتحكم فى مداخله(٤٧) .

وبعد مقاومة ضارية من هرمز اضطر ملكها سيف الدين ووزيره خوجه العطار الى توقيع اتفاقية مع البوكيرك فى ٧ سبتمبر ١٥٠٧ . تضمنت الاعتراف بالولاء لملك البرتغال . وبذا وضع البوكيرك أسس سيادة البرتغاليين البحرية ونشاطاتهم التجارية فى الخليج(٤٨) .

ثم توجه البوكيرك الى الهند بناء على تعليمات من (دالميدا) وسرعان ما وصلت الأوامر من لشبونه بتعيينه نائبا للملك فى الهند (نوفمبر ١٥٠٩) ومن ثم انشغل عن هرمز والخليج مدة سبع سنوات قضاها البوكيرك فى توطيد نفوذ البرتغاليين فى الهند والشرق الأقصى(٤٩) .

وكان أول ما فعله البوكيرك هو نقل مقر نائب الملك من كنانور الى (جوا) التى كانت آخر أملاك (عادل شاه) فى مملكة فيجايانكر وسقطت فى أيدى البرتغاليين بمساعدة الهندوس المراهقا الذين انحازوا اليهم

---

(٤٦) د. شوقى الجمل : مرجع سابق ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٤٧) لاندن ، روبرت جيران : عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا ومصيرا ، ترجمة محمد امين عبد الله (سلطنة عمان) ص ٤٩ وما بعدها .

(٤٨) د. بدر الدين عباس الخصوص : دراسات فى تاريخ الخليج العربى (الكويت ١٩٨٤) ص ١٧ .

(٤٩) لوريمر ، ج.ج : دليل الخليج ، القسم التاريخى الجزء الاول ، (اعداد قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو امير دولة قطر) ص ١٢ وما بعدها .

لكى يضعفوا من قوة السلاطين المسلمين(٥٠) ، وكان هدف البوكيرك أن يجعل منها نواة لامبراطورية برتغالية تتحكم فى المحيط الهندى .

فعندما وصلت حملة (لوبيز دى سيكيورا) من لشبونه الى الهند طلب منه البوكيرك أن يستطلع (مالقا) وقد اندهش البرتغاليون من رواج التجارة وازدهارها وازدحام الميناء بالسفن العربية والاسلامية والهندية(٥١) .

وكانت (مالقا) كما ذكرنا ضمن خطة البوكيرك ، فأسرع على رأس أسطول كبير أقلع به من (كوتشين) ووقف أمامها فى عام ١٥١١ وتم الهجوم عليها يوم عيد القديس جيمس الذى يرعى الجيش البرتغالى وخطب البوكيرك فى جنوده مؤكدا لهم (الخدمة العظيمة التى سنقدمها للرب بطردنا العرب من هذه البلاد وباطفائنا شيعة محمد بحيث لا يندلع لها هنا لهيب بعد ذلك) ، ثم عقب بخدمة مصالح البرجوازية فقال ; وانى لعلى يقين من اننا لو انتزعنا تجارة مالقا هذه من أيديهم المسلمين لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين وسقطت المدينة وانتهبت وبيع المسلمون الذين نجوا من السيف بيع الرقيق) (٥٢) .

وقد ترتب على سقوط (مالقا) بتلك الطريقة الوحشية أن ازداد حكام الهند والجزر الشرقية قناعة أن وصول البرتغاليين لا يعنى الا فرض النفوذ بالقوة ، لذا لم يتردد حاكم (جاوه) من ارسال أسطوله لمساعدة سلطان مالقا المخلوع ، ولكن وبسبب عدم وجود تنسيق بين قواتهما بل وقوات الحكام الآخرين ، بجانب تعاطف الهندوس مع البرتغاليين . تمكن الاسطول البرتغالى من أن يمزق أسطول جاوة ويفرض سيادته على بحارها ، ثم تطلع البوكيرك الى الصين واتفق معها فى عام ١٥١٤ على اقامة قاعدة بحرية فى (مكاو) نظير اتاوة سنوية تدفع لها ، ثم أخذ البرتغاليون يفرضون نفوذهم على الخطوط الساحلية

---

(٥٠) د. عبد المنعم النمر : مرجع سابق ، ص ٤٢٨ .

(٥١) Skyes. P. : op. cit. pp. 111 — 112.

(٥٢) د. يونان لبيب وآخرون : مرجع سابق ص ٩٤ .

فى سيلان وأندونيسيا وامتدت علاقاتهم مع اليابان فى عام ١٥٤٢(٥٣) .

وبهذا فرض البرتغاليون نفوذهم فى البحار الشرقية . وصارت السفن التجارية المحملة ببضائع الشرق تمخر المحيط الهندى فالمحيط الأطلسى الى لشبونة عن طريق رأس الرجاء الصالح(٥٤) .

ويلاحظ رغم اهتمام البوكيرك بالهند والشرق الأقصى فانه كان شديد الاهتمام بالجزء الغربى من المحيط الهندى حيث وجود الأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز . ففى عام ١٥١٣ تطايرت الأخبار أن مصر تستعد من جديد لمواجهة البرتغاليين فى المحيط . فعاود البرتغاليون حملاتهم الى البحر الأحمر للاستيلاء على عدن بعد أن ثبت لهم فشل سوقطرة فى التحكم فى مداخل ذلك البحر(٥٥) وعندما اصطدموا بالبحرية المصرية التى تمكنت من الدفاع عنه ركزوا جهودهم منذ عام ١٥١٤ فى الخليج .

وكان البوكيرك فى ذات الوقت يتابع الحروب الساخنة بين أكبر قوتين اسلاميتين (الدولة الصفوية والدولة العثمانية) وكانت هذه الحروب بغض النظر عن أسبابها أعظم فرصة للبرتغاليين لتحقيق أهدافهم فى الشرق فعندما انكسر الصفويون فى موقعة جالديران فى عام ١٥١٤ أمام العثمانيين . لم يتمكنوا أن يفعلوا شيئا ضد البرتغاليين حين كانوا يضغطون على حاكم هرمز الذى كان يدين بالولاء للشاه الصفوى . بل ويوافقون على اتفاقية ١٥١٥ — المبرمة بين ذلك الحاكم والبوكيرك والتى تضمنت خضوع هرمز للسيادة البرتغالية .

---

(٥٣) بانيكار : مرجع سابق ، ص ٣٦ .

(٥٤) حول تجارة البرتغاليين انظر :

Boxer. C. R. : Portuguese Conquest and Commerce in Southern Asia, 1500 — 1850, London 1985.

وحول التجارة الآسيوية التقليدية انظر :

Sim Kin C. G. F. : The Traditional Trade of Asia, London 1968.

(٥٥) Cook, M. A : A History of the Ottaman Empire, London 1976 p. 19.

وكان من نتائج معركة جالديران أيضا أن التفت الشاه الى البرتغاليين حيث أرسل مبعوثا الى البوكيرك ليعبر عن رغبته فى التحالف معه ضد العثمانيين وأن يرسل اليه عددا من السفن البرتغالية لغزو البحرين والقطيف فى مقابل أن يتنازل للبرتغاليين عن ميناء (جوادر) على ساحل بلوشستان(٥٦) .

ربما كان هذا ما يريده البوكيرك لأنه على أسوأ الاحتمالات يجعل الدولة العثمانية تنشغل بحروبها مع دولة اسلامية أخرى وتحول جيوشها الغازية فى أوربا أو على الأقل جزءا منها الى الشرق الاسلامى وبذا يحقق رغبات البابوية .

فأسرع البوكيرك وأرسل للشاه قائلا « انى أقدر لك احترامك للمسيحيين فى بلادك وأعرض عليك الأسطول والجند لاستخدامها ضد قلاع الترك .. واذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدنى بجانبك فى البحر الأحمر أمام جده أو فى عدن أو فى البحرين أو القطيف أو البصرة وسيجدنى الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسى وأنفذ له كل ما يريد(٥٧) .

وبعد أن عين البوكيرك ابن أخيه بدرو دى البوكيرك قائدا لقلعة هرمز ولتكون نقطة انطلاق الى البحرين وغيرها من بلاد الخليج ، عاد الى الهند فى ٢٠ أكتوبر ١٥١٥ وهو معتل الصحة ولم يلبث أن توفى فى سفينته أمام جوا فى ١٥ ديسمبر ١٥١٥ بعد أن نفذ مشروعه الضخم لبناء امبراطورية برتغالية فى المحيط الهندى(٥٨) .

مواقف مصر من النفوذ البرتغالى :

كانت الدولة المملوكية فى مصر لها السيادة على الشام والحجاز وكانت تتحكم فى تجارة الشرق المارة بالطرق المألوفة وتجنى من ورائها

---

(٥٦) لوريمر : مرجع سابق ج ١ ص ١٤ .

(٥٧) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى (القاهرة ١٩٧٤) ص ١٧ .

(٥٨) Masselman G. : Op. cit, pp. 223 224.

أرباحاً طائلة وتعتمد في بناء قواتها العسكرية على جــزء كبير من تلك الأرباح .

ولذا فقد شعرت مصر ربما أكثر من غيرها بالحصـــار التجارى البحرى الذى فرضه البرتغاليون على البحر الأحمر والخليج وفي ذات الوقت كانت تدرك المغزى من وراء ذلك ونظرة أوربا اليها بسبب فشل الحروب الصليبية السابقة .. فهيت نذر أخطار البرتغاليين التى باتت تهدد الاسلام والمسلمين من الشرق هذه المرة .

وكانت البندقية (في ايطاليا) لها مكانة خاصة لدى سلاطين مصر من حيث التجارة . فرأت أن انتزاع لشبونة تجارة الشرق منها سيؤثر عليها اقتصاديا بدون شك .

ويبدو أن البندقية كمجتمع تجارى يهتم كثيرا بتحقيق الأرباح ، تغاضت عن مسألة الدين الذى يشاركها فيه البرتغاليون فأرسلت في عام ١٥٠٢ بعثة برئاسة (باندتو سانوتو) الى القاهرة لمقابلة الســلطان قنصـــوه الغورى ليحذره من عواقب ســيطرة البرتغاليين على المحيط الهندى وأشار اليه بأن يبعث الى حكام الهند ليقطعوا علاقاتهم مـــع البرتغاليين وأن يخفض من أســعار التوابل التى تباع في الاسكندرية حتى يستطيع تجار البندقية الوقوف في وجه خصومهم .

والحقيقة أن السلطان الغورى كان يدرك مغبة الأمور من تلقاء نفسه وبدأ مراسلاته مع ملك كوجرات وبعض الحكام المسلمين في الهند وملك قاليقوط الهندوسى .

وعندما لاحظت البندقية تطور الأمور في غير صالحها أرسلت في عام ١٥٠٤ بعثة أخـــرى الى القاهرة اقترحت على السلطان أن يغمر الأسواق بالتوابل وبأسعار معقولة لضرب البرتغاليين في أوربا(٥٩) .

ويبدو أن السلطان الغورى حدثته نفسه بأن يستفيد من موقف البنادقة خاصة وأن البرتغاليين صاروا يعربدون في مياه الهند ويغتصبون

---

(٥٩) د. أحمد دارج : مرجع سابق ص ١٣٢ .

السفن الاسلامية فقد ذكر ابن الديبع عن حوادث عام ٩٠٨ ﻫ ١٥٠٢ م « وفى هذه السنة ظهرت مراكب الافرنج فى البحر بطريق الهند وهرمز وتلك النواحى وأخذوا سبعة مراكب وقتلوا أهلها »(٦٠) وأنهم أى البنادقة كما يبدو لا يمانعون فى المساهمة لاعداد حملة بحرية ضد البرتغاليين فى المحيط الهندى . لكن عندما علم ملك البرتغال بذلك التفاهم أرسل لها تهديدا شديدا لمساعدتها أعداء المسيحية وأعداء البرتغال(٦١) .

وفى ذات الوقت كان البرتغاليون يفتحون قنوات اتصال مع ملك الحبشة لوضع مخططات للاطاحة بالقوى الاسلامية فى البحر الاحمر . فأعد السلطان الغورى فى سبتمبر ١٥٠٥ حملة بقيادة الامير حسين الكردى نائب جدة لحماية الأماكن المقدسة فى الحجاز ، لذا حين اقتربت السفن البرتغالية فى عام ١٥٠٦ من الميناء وشاهدت الأسطول المصرى أسرعت بالفرار نحو الهند .

وعلى الجانب الآخر كان ملوك الهند والتجار العرب يتصارعون مع البرتغاليين ويستصرخون القاهرة لمساعدتهم فيقول ابن اياس « تزايد الضرر من الفرنج وترادفت مراكبهم ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركبا وصاروا يعبثون على مراكب التجار فى الهند ويقطعون عليهم الطريق فى الأماكن المخيفة ويأخذون ما معهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والأرز من مصر وغيرها من البلاد »(٦٢) .

لذا تحرك الاسطول المصرى بقيادة حسين الكردى فى عام ١٥٠٨ الى بحر العرب وحين وصوله الى جزيرة (ديو) من موانىء كوجرات

---

(٦٠) ابن الديبع (ابى الضياء عبد الرحمن بن على) : قرة العيون فى اخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد بن الاكوع ج ٢ (القاهرة ١٩٧٦) ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٦١) د. نعيم زكى فهمى : مرجع سابق ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٦٢) ابن اياس (محمد بن احمد . ت ١٥٢٢/٩٣٠) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الجزء الرابع ، تحقيق د. محمد مصطفى (القاهرة ١٩٦٠) ص ١٠٩ .

انضمت اليه سفن مالك بن اياس حاكم الجزيرة وعندما علم نائب الملك البرتغالى بالتحالف المصرى الهندى تملكه الذعر وطلب من ابنه (لورنسو دى الميدا) أن يتحرك بالاسطول من قاعدة كوتشين فورا . والتقى الاسطولان عند « شول Chaul » فى ذات العام (١٥٠٨) حيث دارت معركة قتل فيها لورنسو . فأطلت الكارثة على البرتغاليين وشعروا أن عدوا لهم — المسلمون — يكافئهم فى العتاد ويفوقهم فى المهارة الحربية قد برز لهم فى المياه الهندية وأوشكت أحلامهم أن تتحول الى كابوس .

وبعد هذا الانتصار الاسلامى توجه الكردى ومالك بن اياس الى جزيرة ديو مرة أخرى لاصلاح السفن والتزود بالمؤن(٦٣) .

وكان وقع الهزيمة كالصاعقة على نائب الملك فبجانب خسارته فى ابنه خشى من الوجود المصرى بالذات فى المياه الهندية فأعد الاسطول من جديد وانطلق به (نونو فاز بيريرا Nunno Vaz Pererra) ورابط أمام (ديو) فى انتظار الاسطول المصرى .

ولا نستبعد أن يكون البرتغاليون استخدموا سلاح الخيانة عن طريق الهنود الهندوس حيث هجم البرتغاليون على الاسطول المصرى على حين غرة فى ٣ فبراير ١٥٠٩ وأوقعوا الهزيمة به وجرح الامير حسين ولجأ الى الملك محمود شاه حاكم كنبايه ثم عاد مع ما تبقى من اسطوله الى مصر فى ذات العام(٦٤) وتمكن البرتغاليون من عقد معاهدة صلح مع حاكم ديو(٦٥) .

لاشك أن هذه الأحداث شكلت ضربة قوية للوجود العربى الاسلامى فى المياه الهندية ومما زاد الطين بله أن القوتين الاسلاميتين فى ايران وتركيا تمادتا فى الخصومة ولم يجذبهما تصاعد النفوذ البرتغالى فى الخلف وخطره على الاسلام . بجانب تواتر الأخبار أن الملكة (هيلين)

---

(٦٣) ابن ايلس : ذات المصدر .. جـ ٤ ص ١٤٢ .
(٦٤) ابن ايلس : ذات المصدر .. جـ ٤ ص ٣٠٨ .
(٦٥) بانيكار : مرجع سابق : ص ٢٦ وما بعدها .

والدة (لبنا دنجل) ملك الحبشة أرسلت مبعوثا الى البوكيرك فى مايو ١٥١٠ للتفاهم حول قيام تحالف صليبى بين الحبشة والبرتغال للاستيلاء على الحجاز ومصر . وتزويد الحبشة بأسطول قوى للعمل ضد القوى الاسلامية فى البحر الاحمر .

وكان البوكيرك قد فكر لكى يقضى على قوة المصريين : فى اعداد مشروع مشترك مع الحبشة يقضى بتحويل مجرى النيل الى البحر الأحمر(٦٦) .

على أية حال رحب الملك عمانويل بفكرة التحالف مع الحبشة لأن ذلك يساعد على فرض سيطرتهم على البحر الأحمر والتوغل فى الأماكن المقدسة امعانا فى اذلال المسلمين(٦٧) . فقد أكد هذا الملك للبابا بأنه سوف يجعل من مكة هدفا لجنوده ومدافعه(٦٨) .

وكانت رغبة البوكيرك فى التسلط على البحر الأحمر تراوده باستمرار فيقول فى رسالة له الى الملك فى ١٥١٢ (ان أعظم الشرور كلها بالنسبة الى جوا على كل حال الأراجيف المستمرة بأن الرومان قادمون . ان هذا مصدر عظيم للخطر على الهند ويسبب كثيرا من القلق والاضطراب وأنه لن يكون هناك ثقة أو سلام لرعايا جلالة الملك فى تلك الجهات الا بأن نذهب الى البحر الاحمر ونؤكد لهؤلاء الناس أن مخلوقات اسمها الرومان ليس لها وجود(٦٩) .

---

(٦٦) يكرر المسئولون فى الحبشة هذه الفكرة عندما تسوء العلاقات بينهم وبين مصر رغم استحالة تنفيذها بسبب طبيعة جريان المياه نفسها .

(٦٧) د. جمال زكريا قاسم : الاستعمار البرتغالى وأثره على العلاقات العربية الافريقية ، ضمن العلاقات العربية الافريقية (معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٧) ص ٧٥ وما بعدها .

(٦٨) Budge, E. A. W. : A History of Ethiopia, Vol. I, (London 1918) P. 180.

(٦٩) ويلسون ، السير ارنولد : الخليج العربى ، نقله الى العربية وقدم له د. عبد القادر يوسف (الكويت بدون تاريخ) ص ٢١٢ وما بعدها . هذا ولعل المقصود بالرومان هم الاتراك نظرا لانتصاراتهم الاسلامية على الاوربيين فى اوربا .

وفعلاً فى عام ١٥١٣ حضر (هجان) من مكة الى القاهرة ، يفيد السلطان بأن البرتغاليين استولوا على قمران وأنهم يحاصرون سواكن .
ويقول ابن اياس أن السلطان تنكد لذلك الخبر وأرسل الى جدة الأمير حسين الكردى لتحصين الميناء وبناء سور وأبراج للدفاع عن المدينة(٧٠) .

وفى عام ١٥١٤ كان ملوك كجرات وقاليقوط والتجار المسلمين يستنجدون به فأمر باعداد أسطول كبير . وفى ذات الوقت أراد أن يجدد التقارب السابق مع البندقية فطلب المساعدة العسكرية . ولكن هذا الطلب جاء متأخراً لأن عامل الزمن كان فى صالح البرتغاليين سواء فى المحيط أو بالنسبة لتسويق بضائع الشرق من لشبونة . كما أن البندقية صارت تتكيف مع الأمر الواقع وتحصل على تجارتها منها ومن ثم لا حاجة لتطلب مساعدة مصر الاسلامية .

ورغم الأحوال التى كانت عليها مصر وقتذاك وترجمها ابن اياس بقوله .. وكان فى تلك الايام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص فى غاية الانشحات والتعطيل فان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه بضائع فى السنة الخالية وبندر جده خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار فى بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جده نحوا من ست سنين .

رغم كل ذلك فان مصر لم تتقاعس وتقدم كل ما لديها من امكانيات لحماية العرب والمسلمين من خطر البرتغاليين ، فحين اشتدت الضرورة للأخشاب لبناء الاسطول أمر السلطان بتحريم بيع « الخشب النط » واحتكاره لتصنيع السفن فيقول ابن اياس أيضاً « وصاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان ويرسلونه الى السويس لأجل عمارة المراكب هناك »(٧١) .

---

(٧٠) ابن اياس : مصدر سابق .. ج ٤ ص ٢٨٧ .
(٧١) ابن اياس : ذات المصدر .. ج ٤ ص ٣٣٥ وما بعدها .

وبعد أن تم بناء الاسطول تحرك من السويس بقيادة حسين الكردى فى عام ١٥١٥ وحين سمع البرتغاليون بقدومه الى الهند استولى عليهم الذعر . وفى ذات الوقت وصل المدد الذى أرسله السلطان بقيادة (الريس سلمان العثمانى) ولكن لم تتمكن تلك الحملة من انزال هزائم بالبرتغاليين . فرجع حسين الكردى الى مصر وفى طريق العودة قضى على دولة بنى طاهر فى اليمن .

وفى خلال تلك الفترة كان السلطان الغورى يستعد للخروج لحرب السلطان العثمانى سليم الأول فتقدم اليه الريس سلمان ومعه بعض الأسرى البرتغاليين الذين أسرهم الاسطول المصرى فى المياه الهندية غير أنه حين وصل أمير البحر حسين الكردى الى جده كان السلطان الغورى قد قتل فى مرج دابق (١٥١٦) على أيدى العثمانيين ودخل السلطان العثمانى مصر فى عام ١٥١٧ .

وبذا سقط حكم المماليك وآلت أملاكهم الى الدولة العثمانية الصاعدة وترتب على ذلك أن ورث العثمانيون عبء المقاومة وبمعنى آخر استمرار الجهود العربية الاسلامية المضادة للنفوذ البرتغالى فى المحيط الهندى .

الحضور العثمانى فى المحيط لمناهضة البرتغاليين :

كانت الدولة العثمانية رغم انشغالها فى أوربا تتابع تطورات الموقف فى المحيط الهندى ولعلها كانت تأمل أن تصد القوى الاسلامية الأخرى « مصر المملوكية والدولة الصفوية والدولة المغولية فى الهند » البرتغاليين وتطردهم من البحار الشرقية وتتفرغ هى لمواصلة فتوحاتها فى أوربا والتصدى للاسبان فى شمال أفريقيا بدليل أنها أرسلت الى السلطان الغورى قافلة بحرية مزودة بالسلاح والأخشاب والمعونة فى عام ١٥١٠ لتجديد الاسطول الذى انكسر فى « ديو »(٧٢) .

---

(٧٢) ابن ایاس : ذات المصدر .. ج ٤ ص ١٩٦ .

لكن لظروف عديدة وجهت الجــزء الأكبر من قوتها الى الشرق العربى الاسـلامى مما ترتب عليه نتيجتان كان لهما أكبر الأثر فى تحول المسار التاريخى لذلك الجزء من العالم وهما :

١ ــ توقف الفتح العثمانى • أو كاد • فى أوربا حيث تحولت الدولة العثمانية من حالات الهجــوم الى حالات الدفاع عن ممتلكاتها الأوربية ومن ثم نجـت امبراطورية الهابسبورج من ضربات القوات العثمانية •

٢ ــ زوال الدولة المملوكية من الوجود •

والجدير بالذكر أن تغير هوية الحكم فى مصر لا يعنى أنها نفضت يدها عن مقاومة البرتغاليين . فالملاحظ أن كل الحملات التى كانت تخرج من السويس ظلت تعتمد فى تمويلها على المصريين بجانب مشاركة البعض منهم بصورة وبأخرى فى تلك الحملات •

لذا لا نبالغ اذا قلنا أن الجهود التى بذلت فى ظل الحكم العثمانى كانت جهود مصرية اسلامية وبمعنى آخر جهود عربية اسلامية وانها استمرار للجهود السابقة •

على أية حال فانه بسـبب عربدة البرتغاليين فى المحيط الهنـدى ومحاولاتهم المتكررة لفرض نفوذهم فى البحر الأحمر . أصدر السلطان العثمانى قرارا بتعيين حسين الرومى واليا على جده لمراقبة الأوضاع فى ذلك البحر(٧٣) •

ويبدو أن البرتغاليين أرادوا أن يجسـوا نبض الحكم العثمانى الجديد فى مصر فى ذات العام الذى سقطت فيه . فهاجم (لوبو سواريز) خليفة البوكيرك البحر الأحمر واتجه الى جده للاستيلاء عليها الا أن القائدين سلمان ريس وحسين الرومى طارداه حتى قمران واستوليا

---

(٧٣) د. عبد الحميد البطريق : من تاريخ اليمن الحديث (١٩٦٩) ، ص ٢٢ وما بعدها .

على واحدة من سفنه وعادا الى جده وأرسلا الأسرى البرتغاليين الى السلطان العثمانى(۷٤) .

ويبدو أن ظروف الدولة العثمانية فى أوربا وانشغالها بتثبيت سيادتها فى المشرق العربى والاطمئنان الى دفاعات جده . جعلها تتأخر بعض الوقت فى منازلة البرتغاليين مما أتاح لهم زيادة عربدتهم فى البحار الشرقية ومحاولاتهم الهجوم على عدن وتضييق الخناق على سلطان كوجرات بالهند(۷٥) .

لذا أرسل السلطان سليمان القانونى تعليماته الى والى مصر سليمان الخادم لبناء أسطول جديد للتصدى للبرتغاليين فى اليمن والمحيط الهندى(۷٦) .

وكان مصطفى الرومى قد أسس قلعة فى قمران . ثم تحرك ومعه بعض الجنود الى « ديو » فى ۱٥۳۱ التى كان عليها « توغن بن مالك اياس » من قبل سلطان كوجرات « بهادر شاه » .

وهناك تصدى لكثير من الغارات التى شنها البرتغاليون على الجزيرة وتمكن من انزال بعض الهزائم ضدهم(۷۷) .

وكان فى امكان مصطفى الرومى أن يواصل ضرباته ضد البرتغاليين بمساعدة سلطان كوجرات . الا أنه سرعان ما توقف بسبب دخول هذا السلطان فى حرب مع سلطان الدولة المغولية الاسلامية « همايون » . واضطرار سلطان كوجرات أن يستنجد بعدوه نائب الملك البرتغالى فى جوا وعقد معه معاهدة تنازل له بموجبها عن عدة موانئ، وبناء قلعة

---

(۷٤) اليمانى : (يحيى بن الحسين بن الامام القاسم) تحقيق وتقديم د. سعيد عاشور جـ ۲ (القاهرة ۱۹٦۸) ص ٦٥٦ وما بعدها .

(۷٥) د. عبد العزيز سليمان نوار : مرجع سابق ص ٥٤۷ .

(۷٦) د. السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية (القاهرة ۱۹۷۰) ص ۷٤ وما بعدها .

(۷۷) النهروالى (قطب الدين محمد بن احمد) : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، تحقيق حمد الجاسر (الرياض ۱۹٦۷) ص ٥٥ وما بعدها .

برتغالية فى « ديو » ولم يدر هذا السلطان أن اللجوء للبرتغاليين ليس لصالحه ولا للوجود الاسلامى — ككل — فى الهند . فبعد زوال خطر « همايون » عن مملكة كوجرات . نقض السلطان بهدار شاه المعاهدة ودخل فى حرب مع البرتغاليين الذين هزموه وقتلوه فى المعركة (١٥٣٦) واستولوا على جزيرة ديو(٧٨) •

وعندما وصلت تلك الأخبار المزعجة الى السلطان العثمانى حث والى مصر سليمان الخادم الذى كان يعد الاسطول فى السويس على أن يتوجه الى الهند ، وفعلا تحرك الخادم فى ٢٧ يونيو ١٥٣٨ • وفى طريقه أخضع عدن وقتل حاكمها عامر بن داوود الطاهرى وعين حاكما عليها من أتباعه(٧٩) •

وفور وصوله الى ديو فرض الحصار البحرى عليها الا أنه سرعان ما وقع الخلاف بينه وبين حاكم كوجرات السلطان محمود شاه لاعتقاد الأخير أن الخادم طامع فى مملكته ولم يأت للمشاركة فى قتال البرتغاليين دون حاجة فى نفس يعقوب . أو ربما يفعل معه كما حدث بالنسبة لحاكم عدن ، فرفض التعاون معه وامتنع عن امداده بالمؤن . فكانت فرصة مواتية للبرتغاليين الذين كانوا يستفيدون من اختلافات القوى الاسلامية . وحشدوا قوتهم لمنازلة الخادم الذى منى بخسارة فادحة فى « ديو »(٨٠) • واضطر الى العودة الى عدن فى ٥ ديسمبر ١٥٣٨ دون أن يحقق ما كان مرجو منه بسبب عدم توافر الثقة بين بعض الحكام المسلمين •

---

(٧٨) د. جمال الدين الشيال : تاريخ دولة اباطرة المغول الاسلامية فى الهند (الاسكندرية ١٩٦٨) ص ٤٧ وما بعدها .

(٧٩) د. محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى : ١٥١٤ — ١٩١٤ ص ١٣١ وما بعدها .

(٨٠) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الاول ١٥٣٨ — ١٦٣٥ (القاهرة ١٩٧٤) ص ٧٥ .

ونظرا لأهمية موقع عدن نقل اليها مائة قطعة من مدفعية الاسطول وترك فى الميناء خمس سفن وحامية تتكون من ٥٠٠ رجل ثم أخضع المخا وزبيد وجيزان وحصن جزيرة قمران وعاد الى السويس(٨١) •

وكانت عدن فى الحقيقة تشكل أهمية لدى البرتغاليين لأنها تمثل الرأس الثالث من مثلث منافذ المحيط الهندى . لذا لم يتركوا فرصة مواتية للاستيلاء عليها وقد ساعدهم فى بعض الحالات بعض الأمراء المحليين الساخطين على الحكم العثمانى ولكن ولاة مصر لم يغفلوا أهميتها أبدا(٨٢) •

لذا ركز البرتغاليون نشاطهم فى محاولات التقارب مع الحبشة وزيادة نفوذهم فى شرق أفريقيا والخليج وهى الجهات الأخرى التى تنبع منها الجهود العربية الاسلامية المضادة لتسلطهم على المحيط . ورغم أن الذى يعنينا من الدراسة هنا هو شرق أفريقيا لكونه يطل على المحيط الهندى مباشرة لكن لا بأس من القاء الضوء على المنطقتين الأخريتين لتناغم الأحداث خلال الحكم العثمانى •

القرن الافريقى والخليج العربى :

لم تغفل الدولة العثمانية مغزى السفارات المتبادلة بين الحبشة والبرتغاليين ورأت أنه اذا تحقق تحالف صليبى بينهما يكون بدون شك له خطورته على البحر الأحمر . لذا عندما نهض الامام أحمد بن ابراهيم جرى ضد امبراطور الحبشة (لبنا دنقل) الذى كان يتلقى المساعدات من البرتغاليين . جذب نظرها . وتصورت أنه اذا قامت دولة اسلامية فى الحبشة فانه على أضعف الاحتمالات اختفاء المشاريع الحبشية البرتغالية ضد الأماكن الاسلامية فى الحجاز ، ومن ثم أرسلت اليه

---

(٨١) د. السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ٧٥ .
(٨٢) للمزيد انظر :
د. سعد زغلول عبد ربه : البرتغاليون والبحر الاحمر ، ضمن ابحاث البحر الاحمر (سمنار جامعة عين شمس ١٩٨٠) ص ٢٠ وما بعدها .

المعونات التى مكنته من هزيمة ذلك الامبراطور(٨٣) • فاستصرخ خليفته الامبراطور كلاوديوس (١٥٤٠ – ١٥٥٨) ملك البرتغال الذى أصدر تعليماته الى نائبه (ستيفن دى جاما) فى جوا بارسال حملة لمساعدة الامبراطور الحبشى •

وسرعان ما وصلت حملة كبيرة بقيادة (كريستوفر دى جاما) الى الحبشة فى عام ١٥٤١ وبدا الأمر أن الحبشة تشهد حربا بين المسلمين والمسيحيين • اذ أرسل محفى النشار فى زبيد على وجه السرعة مساعدة عسكرية مكنت الامام أحمد جرى من أن يضرب التحالف الصليبى ويقتل القائد البرتغالى نفسه •

وحين وصلت هذه الأخبار الى نائب الملك البرتغالى فى جوا أرسل فى عام ١٥٤٣ حملة قوية الى الحبشة للاخذ بثأر أخيه (كريستوفر دى جاما) وكانت الظروف قد خدمت هذه الحملة بطريق مباشر • اذ أعاد الامام أحمد جرى بعد انتصاره الساحق — السابق — معظم القوة الاسلامية الى زبيد لسبب أو لآخر ومن ثم تمكنت القوة البرتغالية الحبشية من هزيمة الامام وقتله وتفريق جيشه(٨٤) •

لكن سرعان ما تزعم الحركة الاسلامية نور الدين بن الوزير مجاهد وانطلق من هرر بقواته وقتل الامبراطور كلاوديوس فى عام ١٥٥٨ • على أنه بموت هذا المجاهد تعرض المسلمون فى القرن الافريقى لضربات حبشية برتغالية •

ومما يسترعى الانتباه أن انتصار التحالف الصليبى فى الحبشة عرقل تطلعات البرتغاليين الى البحر الأحمر • اذ أخذت بعثات الجزويت تنشر المذهب الكاثوليكى فى الحبشة وتضطهد مذهبها الأرثوذكسى مما

---

(٨٣) د. جمال زكريا قاسم : الاستعمار البرتغالى .. مرجع سابق ، ص ٧٤ وما بعدها •

(٨٤) د. جمال زكريا قاسم : الصراعات المحلية والدولية فى البحر الاحمر فى النصف الاول من القرن السادس عشر ، ضمن البحر الاحمر .. مرجع سابق ص ٢٥٥ وما بعدها •

جعل الامبراطور (فاسيلادس) يستعين بامام اليمن الزيدى الذى كانت بلاده قد تمكنت من طـرد القـوات العثمانية (١٦٣٥) وذلك لطرد البرتغاليين من الحبشة(٨٥) • الأمر الذى أضعف من النفوذ البرتغالى •

أما بلاد الخليج العربية فقد ذاقت الكثير من قـوة البرتغاليين . لذا أخذت تتطلع الى الدولة العثمانية بصفتها حامية الحرمين الشريفين . وكان العثمانيون قد استولوا على العراق فى عام ١٥٣٤ واستمر السـلطان العثمانى سـليمان القانونى يبعث بحملات منظمة من السـويس الى الخليج لدرء النفوذ البرتغالى وسار على نهجه بقية السلاطين من بنى عثمان حتى عام ١٥٨١ (٨٦) •

حقيقة أن العثمانيين لم يستطيعوا القضاء على النفوذ البرتغالى فى الخليج كما هو الحال فى البحر الأحمـر مثلا . الا أنه على كل حال أسهموا بشكل واضح فى شل النشاط البرتغالى وأن يخففوا الضغط على التجار العرب والموانىء والامارات العربية الساحلية ومن ثم استمر التجار فى مزاولة نشاطهم التجارى مع الهند وغيرها من بلاد الشرق بصورة أو بأخـرى ولم ينقطع هذا النشـاط أبدا رغم كل مضايقات البرتغاليين وان لم يكن بالحجم الذى كان عليه فى السابق . ووقع عبء طرد النفوذ البرتغالى على أبناء الخليج كما سنعالجه بعد قليل •

عودة البحرية العثمانية الى شرق افريقيا :

كانت الامارات العربية الاسلامية على ساحل شرق افريقيا تتحين الفرص للقيام بالثورة ضد البرتغاليين وقد ظهرت امارة « ممباسة » منذ البداية مهد حركة المقاومة وظلت تمثل أهم أكثر الامارات الساحلية تناهضهم لدرجة أنهم أطلقوا عليها اسم « جزيرة الحرب » •

---

(٨٥) د. زاهر رياض : تاريخ اثيوبيا — (القاهرة ١٩٦٦) ص ١٠٤

(٨٦) حول هذا الموضوع انظـر :
Salih Ozbaran. : The Ottoman Turks and The Partuguese in the persian Gulf. 1534 - 1581. (University of Istanbul).

وكان فى الامكان أن تلعب « ممباســة » دورا أكبر فى مقاومتها للنفوذ البرتغالى بسبب مناعتها بالأسوار وثروتها الضخمة وعلاقاتها التجارية المتعددة مع امارات الســاحل ودول البحر الأحمر والخليج والهند لولا موقف « ماليندى » العدائى منها وتحالفها مع البرتغاليين ضــدها .

ومع ذلك لم تتردد فى طعن البرتغاليين كلما أتيحت الفرص وتثير عليها الامارات الأخرى مثل زنجبار وبمبا ولــكن سرعان ما كانت تلك الامارات تستسلم أمام مدافع البرتغاليين . وتحالف حاكم ماليــندى معهم . بجانب عدم وجود قوة اسلامية كبيرة تأخذ بيد تلك الامارات .

لكن منذ عام ١٥٨٠ حين استولت أسبانيا على البرتغال ترتب على ذلك أن ضعفت القوة البرتغالية فى المحيط الهندى(٨٧) . وكان هذا باعثا على تجدد المقاومة ودافعا لاستئناف البحرية العثمانية بصورة أو بأخرى ضد المراكز البرتغالية فى المحيط .

فقد قام أحد رجال البحر الأتراك المشهورين (على بك) فى عام ١٥٨١ على رأس أربع ســفن من ميناء (مخا) فى اليمن وأنزل هزيمة ساحقة بالحامية البرتغالية فى مسقط ولكنه لم يحتفظ بها . ربما بسبب حبه للمغامرة فى أماكن أخرى . وفعلا تقدم الى ساحل شرق أفريقيا على سفينته بصحبة ثمانين رجلا ووصل الى مقديشيو فى عام ١٥٨٦ وأخبر عرب الساحل أن اســطولا عثمانيا كبيرا سيتبعه وأنه قادم من قبــل السلطان العثمانى ليحررهم من البرتغاليين .

وعلى الفور أعلنت كل من مقديشيو وبراوه وقسمايو وفازا وبات ولامو ولاءها للسلطان العثمانى المسلم ورفضها الخضوع لتلك أسبانيا والبرتغال المسيحى(٨٨) .

---

(٨٧) لوريمر ، مرجــع ســابق جـ ١ ص ٥٢٢ وما بعدها ويلاحظ ان البرتغال استمرت تحت التاج الأسبانى فى الفترة من ١٥٨٠ الى ١٦٤٠ .

(٨٨) Coupland, A. : East Africa and its Invaders, from the Earsliest Times to the Death of Seyyid Said 1856. (Oxford 1938), PP. 55 - 56.

وكانت ممباسة أسبق امارات شرق افريقيا اعترافا بالولاء للسلطان العثمانى وطلب شيخها من القائد التركى بناء قلعة فى الميناء وتزويده بحامية عسكرية . الا أن القائد التركى لم يمكث طويلا فى شرق افريقيا . ربما لعدم وجود قوة عسكرية كافية لديه . ومع ذلك كما تشير المصادر فانه بمساعدة شيوخ الامارات أغار على بعض القواعد البرتغالية وعاد الى البحر الاحمر ومعه خمسين أسيرا برتغاليا ومجموعة كبيرة من الغنائم الأمر الذى بدا منه انه نصر للعثمانيين أكثر من كونه نصر لحلفائهم من سكان شرق افريقيا(٨٩) .

وفى هذه الأثناء كان حاكم ماليندى قد أرسل الى الحاكم البرتغالى فى جوا يخبره بمجىء الأتراك ويستنجد به على اخوانه من الأمراء المسلمين ، فتحرك الاسطول البرتغالى ووصل الى الساحل فى عام ١٥٨٧ وأخذ يصب نيران مدافعه على المدن والموانىء التى اعترفت بالولاء للسلطان العثمانى فأعلنت جميع الامارات خضوعها من جديد للبرتغاليين .

وحين علم السكان بوجود على بك فى عدن طالبوه بحق الاسلام أن يحرر بلادهم من النفوذ البرتغالى وعبروا له عن استعدادهم التام للمساهمة فى تكاليف الحملة(٩٠) .

فاقلع على بك فى عام ١٥٨٨ على رأس أسطوله وفور وصوله الى ممباسة أخذ ينسق مع الموانىء العربية الاسلامية لتأديب حاكم ماليندى وطرد البرتغاليين .

ولكن لسوء الحظ فوجىء القائد التركى بأنه محاصر بين نارين . الاسطول البرتغالى من البحر وقبائل الزيمبا (من آكلة لحوم بشر الأعداء) من الداخل(٩١) . فكانت كارثة حاقت بالقائد التركى الذى

---

(٨٩) د. جمال زكريا : الاستعمار البرتغالى .. مرجع سابق ص ٧٣

(٩٠) Coupland. : Op Cit. PP. 56 57.

(٩١) وندل فيليبس : مرجع سابق ، ص ٥٤ ، ٥٦ .

وقع أسيرا فى يد البرتغاليين الذين تشفوا فيه وأرسلوه الى لشبونه فى عام ١٥٨٩ لاجباره على اعتناق المسيحية ولكنه توفى سريعا(٩٢) .

عندئذ أعاد البرتغاليون نفوذهم على ساحل شرق افريقيا بعد أن تمت هزيمة الأتراك الذين لم يحاولوا اعادة الكرة من جديد بالنسبة للمحيط الهندى وركزوا جهودهم فى البحر الاحمر .

وعلى الفور أسس البرتغاليون قلعة يسوع (المسيح) فى ميناء ممباسة عام ١٥٩٣ وزودوها بحامية قوية جدا لارهاب واسكات المقاومة العربية الاسلامية ولتكون مقرا ثابتا لطوائف الجزويت والدومنيكان لنشر المسيحية فى امارات الساحل(٩٣) . وأعطى البرتغاليون الحسن بن أحمد حاكم ماليندى امارة ممباسة تعبيرا لصداقتهم معهم وأن يحصل على ثلث ايرادات الجمرك نكاية فى شيوخ ممباسة .

وبعد أن توفى الحسن بن أحمد خلفه فى الحكم ابنه (يوسف) الذى بعث به البرتغاليون الى جوا وعهدوا به الى طائفة سان أوغسطين الذى تمكنت كما يقال من تحويله الى النصرانية وأطلقت عليه اسم (دون جيرونيمو) وتسلم الحكم فى عام ١٦٣٠ .

ولكن يبدو أن اعتناقه المسيحية — ان صح ذلك — كان ظاهريا خوفا من السلطة البرتغالية ، فبعد أن شعر بقوته انقلب عليها وتزعم حركة المقاومة فى عام ١٦٣١ ، ففى أحد أيام شهر أغسطس بينما كان البرتغاليون يحتفلون بأحد أعيادهم فى قلعة يسوع هاجمهم السلطان يوسف على حين غره وقضى على كثير من أفراد الجالية البرتغالية وعلى بعض المتنصرين الوطنيين وواصل غاراته عليهم حتى مدغشقر(٩٤) .

---

(٩٢) Ingram, W. H. : Zanjibar, its History and ist people (Holland 1967) P. 120.

(٩٣) أسس البرتغاليون هذه القلعة فى عام ١٥٩٣ ، انظر : العمانيون وقلعة ممباسا (سلطنة عمان ١٩٨٥) .

(٩٤) د. السيد رجب حراز : افريقية الشرقية والاستعمار الاوربى (القاهرة ١٩٦٨) ص ١٣ وما بعدها .

ولكن يلاحظ أن هذا السلطان لم يستطع الصمود أمام الاسطول البرتغالي بسبب التفكك الذى أصاب المنطقة كما أن غياب القوى الاسلامية الكبيرة فى المحيط الهندى زاد الأمر سوءا ، وكان فى الامكان أن يتمادى البرتغاليون فى سياستهم التعسفية ضد السكان ويحولوا مسباسة الى موزمبيق أخرى لولا ظهور دولة اليعاربة فى عمان التى رفعت الجهاد الاسلامى ضد البرتغاليين ليس فى الخليج بل فى المحيط كما سنعالجه فى صفحات تالية •

احياء الجهود العربية خلال التنافس الدولى فى المحيط الهندى :

بعد أن استتب الأمر للبرتغاليين وتمكنوا من أن يتغلبوا على الجهود العربية الاسلامية الناهضة لهم وأن يفرضوا نفوذهم على المحيط الهندى ، عكفوا على استنزاف أقصى ما يمكن استنزافه من المنافع من احتكارهم التجارى ، لكن سرعان ما طرأت ظروف جديدة فى أوربا من ناحية وفى الخليج من ناحية أخرى كان لها انعكاساتها على المحيط الهندى •

فقد حدث أن تلقت البابوية ضربة شديدة من اللوثرية ترتب عليها ظهور المذهب البروتستنتى على حساب مذهب البابوية الكاثوليكى وبالتالى صارت الدول الأوربية التى اعتنقت المذهب الجديد لا تتقيد بالمراسيم التى أصدرتها البابوية فى أعوام (١٤٥٤ م — ١٤٥٦) السابق ذكرها ومن ثم يحق لتلك الدول منازعة البرتغال التى احتفظت بالكاثوليكية فى أملاكها واحتكارها التجارة فى المحيط الهندى •

فبعد أن تمكنت هولندا من انتزاع سيادتها من أسبانيا فى حروب الاصلاح الدينى وكان الهولنديون وسطاء تجارة الشرق بين البرتغال وموانىء شمال أوربا أصدر الملك الأسبانى فيليب الثانى قرارا بحرمانهم من نقل التجارة الشرقية الى الموانىء الأوربية •

وكانت هولندا لديها معلومات وفيرة عن الأوضاع فى المحيط الهندى عن طريق بعض الهولنديين الذين كانوا يشتغلون فى تلك الجهات(٩٥) . فأخذ الهولنديون يخططون للوصول الى الهند والتعامل مباشرة مع تجار الشرق والقضاء على الاحتكار البرتغالى وساعدهم على ذلك تحطيم (الارمادا) الاسبانى أمام الاسطول الانجليزى فى عام ١٥٨٨ وانشغال الأسبان فى حروبهم مع الانجليز .

وكان الهولنديون قد تمكنوا من تأسيس عدد من الجمعيات والاتحادات التجارية التى اندمجت فيما عرف باسم جمعية التجار الى الأقطار النائية والتى لم تلبث هذه أن تحولت الى شركة الهند الشرقية الهولندية فى عام ١٦٠٢ الذى بدأ به القرن السابع عشر ليكون قرن هولندا . بعد أن دبت الشروخ فى كيان الامبراطورية البرتغالية فى المحيط الهندى بسبب الاهمال النسبى لها من جانب الملك الأسبانى الذى ركز جهوده واهتمامه نحو المستعمرات الأسبانية فى العالم الجديد(٩٦) . وبسبب التعصب الدينى للبرتغاليين أنفسهم واضطهادهم الذى لم يقتصر على المسلمين وانما امتد الى الهندوس أيضا(٩٧) .

وكانت سياسة الهولنديين فى الشرق تختلف عن سياسة البرتغاليين مما أكسبهم فى البداية عطف أهل البلاد ، فيبدو أنهم لم يتدخلوا بطريق سافر مثل سابقيهم فى مسألة نشر المسيحية وانما ركزوا جهودهم للحصول على أكبر قدر ممكن من التجارة والقضاء على النفوذ البرتغالى.

ففى عام ١٥٩٨ توجه « كورنيليس هوتمان » الى المياه الهندية على رأس بعثة تجارية . تمكنت من تأسيس محطة تجارية فى جزيرة

---

(٩٥) Simkin, C. G. F. : Op. Cit. PP. 189 191

(٩٦) Danvers, F. C. : The Portuguese in India, Vol. 11, (London 1894) PP. 35 - 40.

(٩٧) Parry, J. H. : Europe and Wider World, 1415 1715, (London 1965) P. 96.

(جاوا) الاسلامية فى أندونيسيا وعقدت معاهدة مع الزامورين ضد البرتغاليين فى عام ١٦٠٤ ، ثم صار الهولنديون يضيقون الخناق عليهم فى ساحل افريقيا . مما اضطرهم الى نقل قاعدة حكمهم من موزمبيق الى سفالة ، كاجراء مؤقت انتظارا لما تسفر عنه الأحداث من نتائج(٩٨) .

واستمر الهولنديون يتوسعون على حساب البرتغاليين فى جزر الملايو بعقد المعاهدات تارة وبالقوة تارة أخرى . وفتحوا مراكز تجارية لهم فى سورات وأحمد آباد وبعض الموانىء على ساحل الدكن ولم ينتهى عام ١٦١٩ حتى كان (جان بترزكوين) قد فتح جاكارتا وصار الهولنديون يتوسعون فى سياستهم من (بتافيا) على حساب البرتغاليين . حيث انتزعوا منهم (مالقا) فى ١٦٤١ وأخرجوهم من سيلان فى ١٦٥٨ وطردوهم من كوتشين فى ١٦٦٠ (٩٩) .

فى ذلك الوقت كان الانجليز يشعرون بالمرارة من ارتفاع أسعار التوابل التى صار الهولنديون يشاركون البرتغاليين فى احتكارها والأرباح التى يجنونها من ورائها . ومن ثم صمموا على تأسيس شركة تستورد سلع الشرق من مصادرها الأصلية . فكان ان أصدرت الملكة (اليزابيث الأولى) مرسوما بتأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية فى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ لمنافسة الهولنديون فى تجارة التوابل فى الشرق من جانب واضعاف قوة أسبانيا وحرمانها من احتكار التجارة الهندية وتحويل أرباح تلك التجارة الى الانجليز من جانب آخر .

وبذا صار المحيط الهندى مركزا للتنافس بين كل من البرتغال وهولندا وانجلترا وأخيرا فرنسا حين أسس وزيرها (جان باتست كولبير) الذى يعد من أعظم العقليات الاقتصادية ، شركة الهند الشرقية الفرنسية فى عام ١٦٦٤ لتحصل بلاده على نصيب من أرباح تجارة الشرق .

---

(٩٨) جبان : مصدر سابق ، ص ٢٩٣ وما بعدها .
(٩٩) د. يونان لبيب وآخرون : مرجع سابق ص ١١٢ .

على أية حال بدأت الشركة الانجليزية نشاطها التجارى فى الهند مستغلة تسامح الملك المغولى (أكبر) (١٠٠) . ووافق لها الملك (جهانكير) على تأسيس مركز تجارى لها فى سورات عام ١٦١٣ وتحصينه فى عام ١٦١٦ ومن ثم أخذت الشركة تتوسع فى تأسيس محطات لها فى برهانبور وأجمير وأكرا(١٠١) . على أثر انتصار الانجليز على البرتغاليين فى تلك الجهات .

ولكن كان على الشركة الانجليزية أن تعمل حسابها فى ذات الوقت للوجود الهولندى . فكثيرا ما تشير المصادر الى الصراعات والأزمات بين الأطراف الثلاثة . ومما زاد فى تعقيد الأمور . الخلافات التى كانت تنشب فى أوربا بسبب الحروب الدينية .

على أية حال أمام منافسة الهولنديين أخذت الشركة الانجليزية تستغل الهدوء الذى حدث بين البرتغال وانجلترا فى عام ١٦٣٤ وتقاربت مع نائب الملك البرتغالى فى جوا ضد الهولنديين . وزادت من علاقاتها مع أمراء الهند . فأقامت مركزا تجاريا آخر فى البنغال فى ١٦٣٣ وأسست أول قلعة عسكرية لها فى مدراس أطلقت عليها اسم قلعة سانت جورج فى عام ١٦٣٩ . وانتهزت فرصة تنازل ملك البرتغال عن (بومباى) للملك الانجليزى شارل الثانى فى ٢١ يونيو ١٦٦١ ونقلت مركز الشركة من مدراس اليها وقد منحها الملك حق الولاية الكاملة التى كانت تتطلع اليها . ومن ثم طفقت فى توسيع أعمالها وصار لها فروع فى معظم الهند(١٠٢) .

---

(١٠٠) عن سياسة هذا الملك وفلسفته انظر :
د. عبد العزيز سليمان نوار : مرجع سابق ، ص ٥١٥ وما بعدها .
(١٠١) د. عبد المنعم النمر : مرجع سابق ، ص ٤٣٥ .
(١٠٢) للمزيد عن تاريخ الشركة انظر :
د. مصطفى النجار : شركة الهند الشرقية الانجليزية ، (مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ١٦ سنة ١٩٧٨ ، الكويت) ص ١٠٢ وما بعدها ١٠٣ .

ويبدو أنه ترتب على كثرة الأرباح التى حققتها الشركة والتى كانت تتراوح ما بين ١٠٠٪ و ٣٠٠٪ ، زيادة جشعها وتحركت فى داخلها مطامع استعمارية دفعتها فى عام ١٦٨٩ الى محاولة للاستيلاء على (تشيتاجونج) فكان رد الامبراطور المغولى (اورنكزيب) الذى كان يسيطر على الهند ما عدا أجزاء فى الجنوب ظلت تحت سيطرة الهندوس قويا وسريعا حيث احتلت قواته كل مؤسسات الشركة التى اضطرت صاغرة الى طلب الصلح والتعهد بعدم القيام بأى أعمال عدائية ضد سيادة الامبراطورية الاسلامية فى الهند .

وعلى أثر ذلك الصلح عاد وكلاء الشركة الى البنغال وسمح الامبراطور فى عام ١٦٩٠ بتأسيس مركز لهم وتحصينه فى كلكتا .

ولكن سرعان ما بدأت الامبراطورية الاسلامية فى التفكك بعد وفاة (اورنكزيب) عام ١٧٠٧ مما عرضها الى زيادة التدخل الأوربى فى شئونها الداخلية وأصبحت المراكز الانجليزية فى بومباى وسورات ومدراس وكلكتا لا تقتصر على تصدير الحاصلات الشرقية الى أوربا وانما صارت تستقبل المنتوجات الصناعية لتصريفها فى الأسواق الشرقية ومن ثم انتقلت مهمة هذه المراكز البريطانية من مجرد التبادل التجارى الى الاستعمار المباشر(١٠٣) .

هذه باختصار شديد الصورة العامة للتنافس الدولى فى المياه الهندية والتى يتضح منها تفوق كاسح للهولنديين والانجليز على حساب البرتغاليين .

وكان من الطبيعى أن ينعكس هذا التنافس على أوضاع البرتغاليين أيضا فى كل من الخليج وشرق افريقيا .

فبعد أن استقر الانجليز فى سورات عام ١٦١٣ واصطدامهم بالبرتغاليين ومنافسة الهولنديين رأت الشركة الانجليزية فى عام ١٦١٤

---

(١٠٣) د. عبد العزيز سليمان نوار : مرجع سابق ، ص ٥٤٨ .

أن توجد لها علاقات مع الخليج خاصة مع فارس وتمكنت أن تفتح بعض الوكالات التجارية فى كل من جاسك وشيراز وأصفهان كما حصلت على امتياز لاحتكار شراء الحرير الايرانى فى عام ١٦١٨ (١٠٤) •

فى ذلك الوقت كانت أسبانيا تحاول التقرب من الشاه ولا نستبعد أن تكون قد لوحت له بمساعدته عسكريا ضد الدولة العثمانية التى كانت ترى فيها عدوا اسلاميا له خطورته فى البحر المتوسط . ولأن الصراع بين الدولتين الاسلاميتين بدون شك يخدم الوجود البرتغالى ليس فى الخليج بل فى المياه الهندية •

ولكن وصول الانجليز الى بلاط الشاه أفسد محاولات أسبانيا لأسباب لعل منها ما يلى :

١ — كانت الحالة بين العثمانيين والصفويين شبه هادئة فى تلك الفترة (١٠٥) •

٢ — زيادة النفور من جشع وسياسة البرتغاليين •

٣ — تطلع الشاه الصفوى الى الانجليز للاستفادة منهم ضد البرتغاليين •

لذا بعد أن اعترض البرتغاليون أسطول الشركة الانجليزية التجارى عقدت الشركة مع حكومة فارس اتفاقا فى ٨ يناير ١٦٢٢ يقضى بالتعاون المشترك لطرد البرتغاليين من هرمز •

وفى أثناء الصراع قدم الهولنديون مساعداتهم للانجليز للقضاء على البرتغاليين الذين يخالفونهم فى العقيدة المسيحية ، واشتركت قواتهم مع قوات التحالف الانجليزى الفارسى الذى حقق نصرا على البرتغاليين أما بندر عباس فى ١٦٢٥ (١٠٦) •

---

(١٠٤) ويلسون : مرجع سابق ص ٢٣٢ ، وما بعدها .

(١٠٥) كان الصفويون يسيطرون على بغداد من ١٦٠٢ الى ١٦٣٨ .

(١٠٦) لوريمر : مرجع سابق ج ١ ص ٤٠ وما بعدها .

وكان تجدد الصراع بين الصفويين والعثمانيين حول العراق قد خدم الهولنديين حيث انتزعوا من الشاه فى عام ١٦٢٣ امتياز لشراء جزء من حرير فارس مقـابل تقديم مسـاعدات عسكرية . وهذا يعنى مزاحمة للشركة الانجليزية مما ترتب عليه أن دب التنافس بينها وبين الهولنديين . يتحول الى صراع بين الطرفين زاد منه الحرب السـاخنة بين هولندا وبريطانيا فى أوربا(١٠٧) .

وفى خلال ذلك الصراع الذى اشتركت فيه كل من البرتغال وهولندا وانجلترا ثم فرنسا وامتد من المياه الهندية الى الخليج . كانت الجهود العربية تتنامى من جديد والتى تمخض عنها انطلاق القوة العربية ليس من البحر الاحمر هذه المرة وانما من الخليج متمثلة فى قوة دولة اليعاربة الشابه فى عمان التى حملت لواء الجهاد لمطاردة البرتغاليين والذى نعتبره تتويجا لكل الجهود العربية الاسلامية السابقة كما نراه فى الصفحات التاليـــة :

ظهور الاسطول العمانى فى مياه المحيط :

بينما كان الخليج يعيش منافسات حادة بين أطراف أوربية وافدة عليـــه ، وان الضـــعف والتمزق وتقليص التجارة العربية مع الشرق الآسيوى مرده أســاسا الى النفوذ البرتغالى ، رأى أهل عمان أن خير ما ينقذهم من تلك الحالة الســيئة التى وصلت اليها بلادهم هو بعث الامامة الاباضية(١٠٨) ، فانتخبوا (ناصر بن مرشد بن مالك اليعربى) اماما لهم فى عام ١٦٢٤ .

وكان أول ما فعله ذلك الامام الاباضى هو العمل على توحيد البلاد لأنه بدون وحدة وطنية لافائدة ترجى ، وظهرت الى الوجـــود دولة

---

(١٠٧) ويلسون : مرجع سابق ، ص ٢٧١ وما بعدها .

(١٠٨) من الاباضية انظـــر :

سالم بن حمود بن شامس السيابى السمائلى : ازالة الوعثاء عن اتباع ابى الشعثاء ، تحقيق وشرح د. سيدة اسماعيل "الكاشف (القاهرة ١٩٧٩) .

اليعاربة . ثم ركز الامام اهتمامه نحو تطهير البلاد من البرتغاليين واجلائهم من معظم سواحل عمان وارغامهم على طلب الصلح بالشروط التي فرضها عليهم في ٣١ أكتوبر ١٦٤٨ وتمكن خليفته الامام سلطان ابن سيف من طردهم نهائيا من مسقط في عام ١٦٥٠ (١٠٩) .

ويبدو أن الامام ادرك أهمية تجديد الاسطول وتحديثه على غرار الأساطيل الأوربية ، ولذا بعد فترة قليلة نزل الاسطول العماني الى المياه بثوب جديد مزود بأسلحة حديثة مما جعل الانجليز في جمبرون يضمنون تقريرهم الى مركز الشركة البرتغالية في سورات وتقتذاك في ٨ مارس ١٦٥١ « ان عرب مسقط أرهبوا البرتغاليين وأفزعوهم بواسطة أسطولهم الحديث وصاروا يترددون كثيرا في الابحار في الخليج »(١١٠) .

فقد كان الانجليز رغم تورطهم في صراعهم مع الهولنديين والبرتغاليين يرقبون تنافس قوة اليعاربة ولذلك سعت الشركة البريطانية للحصول على مركز تجاري لها في مسقط اثر خروج البرتغاليين منها لتقوية وجودها أمام منافسيها ، الا ان الامام رفض السماح بأي وجود أوربي مسيحي في مسقط(١١١) .

وتشير الاحداث أن العمانيين رفعوا راية الجهاد الاسلامي منذ بداية نشاطهم على عهد الامام ناصر بن مرشد ضد البرتغاليين ليس في الخليج وانما في كل مكان في المحيط الهندي يستطيعون الوصول اليه ، بسبب سياستهم — البرتغاليون — العدائية ضد الاسلام والمسلمين ، وكانت انتصارات عمان تجد ارتياحا كبيرا لدى العرب والمسلمين في المحيط ورأوا فيها عامل الخلاص من استبداد وقسوة هؤلاء القادمين من أوربا .

---

(١٠٩) Danvers, F. C. : Report ... Op. Cit P. 122

(١١٠) Bathrust R. D. : The Ya' Rubi Dynasty of Oman (Ph. D. Thesis, Oxford University 1967) P. 144.

(١١١) Miles, S. : The Countries and Tribes of the Persian Gulf. (London 1919) P. 211.

فمثلا كان تحرير مسقط بمثابة الفتيل الذى أشعل الثورة فى شرق افريقيا فقامت (ممباسة) والقبائل المجاورة لها وفجرت غضبها فى شكل ثورة عارمة ، فأسرعت حكومة (جوا) وأرسلت فى عام ١٦٥١ حملة قوية لمحاصرة تلك الثورة حتى لا يمتد شررها الى الجنوب ولتمنع أى تقارب قد يحدث بين الاسطول العمانى وسكان الساحل . لكن رغم ذلك فان شيوخ بمبا وزنجبار وبات تمكنوا من ارسال وفود الى اخوانهم عرب عمان لانقاذهم وتحريرهم من البرتغاليين .

فأرسل الامام الاسطول فى عام ١٦٥٢ الى زنجبار وفتك بالحملة البرتغالية واغتال قائدها وحرر فازا وبات من النفوذ البرتغالى ، ومنذ ذلك الوقت صار تحرير شرق افريقيا جزء من ميدان الجهاد الذى نزله عرب عمان ضد البرتغاليين والذى خدم الهولنديين والانجليز بطريق غير مباشر فى المحيط الهندى .

فبعد انتصار الاسطول العمانى فى شرق افريقيا ، اتجه الى ميناء (بومباى) التى كانت تعانى هى الأخرى من استبداد البرتغاليين وفرض الحصار عليه ودمر الحامية ، ثم تعقبهم الى سواحل (ماليار) وضرب بعض مراكزهم وعاد الى عمان مكللا بالنصر ومحملا بالغنائم(١١٢) .

ويلاحظ أن الاسطول العربى لم يمكث طويلا فى الهند ، ربما لحداثة القوة العمانية وربما تجنبا من أى اصطدام مع الهولنديين أو الانجليز ، ولكن يبدو كما يستنتج من الأحداث فيما بعد ، أن اليعاربة لم يكن هدفهم الاقامة فى الشرق الآسيوى بقدر الاغارة وضرب البرتغاليين والعودة بالغنائم ، عكس سياستهم بالنسبة لشرق افريقيا حيث ارتباطه مع العرب منذ القدم بصلات الدم والرحم وعزز منها الدين الاسلامى والعلاقات التجارية .

وكان سكان ممباسة يعانون أكثر من غيرهم من وطأة الحكم البرتغالى فذهب نفر منهم الى عمان يستصرخون الامام ويسطوا أمامه

---

(١١٢) د. جمال زكريا : الاستعمار البرتغالى .. مرجع سابق ، ص ٨٠ — ٨٣ .

محاولات البعثات الكاثوليكية للقضاء على مظاهر ومقومات الحضارة الاسلامية في شرق افريقيا وعدم السماح بهجرة العرب الى تلك الجهات ، فتحول الاسطول العماني وضرب الحصار حول تلك المدينة — ممباسة — في عام ١٦٦٠ (١١٣) •

وبسبب شدة الحصار طلب قائد الحامية البرتغالية النجدة من نائب الملك في (جوا) الذي كان يعاني هو الآخر من ضربات هولندية ومن بعض القوى الاسلامية في الهند ، مما جعل قائد الحامية يرفع راية الاستسلام ، ومن ثم دخلت القوات العمانية ممباسة وأصدر الامام اليعربي قرارا بتعيين محمد بن مبارك المزروعي واليا عليها من قبله(١١٤) •

وكان سقوط ممباسة يعني للبرتغاليين أهمية خاصة في شرق افريقيا لكونها مركز حكمهم للامارات الشمالية ، مثل موزمبيق بالنسبة للجنوب ، وأن سقوطها يعني ايذانا بطردهم من تلك الجهات واستقرار العمانيين فيها بصفة دائمة •

لذا فقد انتهز البرتغاليون فرصة عدم وجود الاسطول العربي أمام المدينة وسيطروا عليها وانزلوا أشد العقاب بالأهالي ، فخشيت المدن المجاورة من بطش البرتغاليين ولم تبدو منها مقاومات شديدة حاسمة •

وكان الاسطول العماني قد أبحر الى الهند في عام ١٦٦٨ وفرض الحصار على جزيرة (ديو) وانزل بالحامية البرتغالية هزيمة ساحقة أعجزتها عن دخول القوات العربية المدينة والبقاء فيها ثلاثة أيام لقنوا البرتغاليين درسا قاسيا(١١٥) •

---

(١١٣) د. صلاح العقاد : دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج .

(ندوة الدراسات العمانية ، سلطنة عمان ١٩٨٠) المجلد الرابع ، ص ١٠٢ .

(١١٤) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج (القاهرة ١٩٧٤) ، ص ٤٦ .

(١١٥) Bathurst, : Op. Cit. PP. 123 - 124

وتشير بعض المصادر الى أن العمانيين خسروا بعض القتلى ولكن رغم ذلك فان الاسطول عاد الى عمان محملا بالغنائم لدرجة انه يقال أن الامام (سلطان بن سيف) بنى قلعة (نزوى) من غنيمة « ديو » .

وبعد أن جدد الامام الاسطول وزوده بأسلحة حديثة أخرى وجهه الى قلعة موزمبيق فى عام ١٦٦٩ ليفتحها وليأخذ بالثار من البرتغاليين . وحين أوشكت القلعة على السقوط أسرع البرتغاليون وفجروا لغما كبيرا أثار الذعر بين العمانيين فرفعوا الحصار عن الميناء(١١٧) .

ويبدو أن البرتغال رأت لكى تحتفظ بتجارتها بل ووجودها فى المحيط أن الأمر يتطلب ضرب الاسطول العمانى وتدميره فى الخليج نفسه وفعلا تحرك أسطول كبير فى صيف ١٦٦٩ بقيادة (دوم كير وتيمو مانويل) وحقق انتصارا عظيما على العمانيين ولكنه لم يتمكن من البقاء فى الخليج فعاد مسرعا الى جوا . فرد الاسطول العمانى على ذلك بالهجوم على قشم وهرمز . فعاد الاسطول البرتغالى أكثر قوة وصار يراقب ويعترض مسار الاسطول العمانى فى الخليج وينزل به بعض الخسائر(١١٨) .

وبعد أن التقط امام عمان أنفاسه وجدد من الاسطول دفع بجزء منه فى فبراير ١٦٧٤ لتأديب البرتغاليين فى قواعدهم الشرقية وفعلا دمر الحامية البرتغالية فى (باسين) على ساحل الهند وفتحت المدينة أبوابها للعرب حيث أقاموا بها خمسة أيام(١١٩) .

---

(١١٦) سرحان سعيد الازكوى العمانى : المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الامة ، حققه عبد المجيد حسيب القيسى — (القاهرة ١٩٨٦) ص ١١٠ .

(١١٧) د. جمال زكريا : الاستعمار البرتغالى .. مرجع سابق ، ص ٨٣ .

(١١٨) د. عائشة السيار : دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا ١٦٢٤ — ١٧٤١ (بيروت ١٩٧٥) ص ٧٢ ، ٧٣ .

(١١٩) Bathurst. : Op. Cit. PP. 131 - 132.

وعلى ضوء تلك التطورات بجانب تنامى الوجود الانجليزى فى الخليج على حساب الوجود الهولندى الذى تأثر بالحرب الساخنة التى كانت بين هولندا والملك الفرنسى لويس الرابع عشر فى أوربا توصلت السياسة البرتغالية الى أنه من الأجدى تركيز نشاطهم فى شرق افريقيا وقطع صلته بالعرب خاصة وأن الساحل الافريقى لم يتعرض لتنافس أوربى كما هو الحال فى الخليج أو فى المياه الهندية حتى وقتذاك ، وأن ذلك يضمن لهم سلامة الطريق البحرى من الهند الى لشبونة عبر رأس الرجاء الصالح •

فتحرك الاسطول البرتغالى فى ١٦٧٨ من جوا الى شرق افريقيا وعرج على موزمبيق وممباسة مركزى الحكم فى الساحل وترك بهما بعض القوات لتعزيز الحاميات البرتغالية فيهما . ثم فرض الحصار على مدينة (فازا) ورغم ما أبدته من مقاومة الا أنها استسلمت وأعقبتها كل من امارات (سيو) و (لامو) و (ماندى) ودخل البرتغاليون تلك الامارات ونكلوا بسكانها واعتقلوا حكامها(١٢٠) •

وعندما وصلت تلك الأخبار المزعجة الى امام عمان . حرك الاسطول الذى قهر الاسطول البرتغالى واضطره الى العودة الى موزمبيق ، واستمرت بعض قطع الاسطول العربى مرابطة حول تلك المدن . فلجأ البرتغاليون الى طريقة اشعال الفتنة بين حكام الساحل المسلمين ، وهى عادة رخيصة استخدمها ولا يزال المستعمرون مع الحكومات الاسلامية — فزينوا لسلطان (فازا) بأن يحكم امارة (بات) نيابة عنهم وانهم سيقدمون له كل المساعدات المادية • وحين تحرك الاسطول البرتغالى بصحبة السلطان الى (بات) فوجىء ببعض قطع الاسطول العربى المرابطة فى الميناء فهرب مسرعا الى ميناء ممباسة(١٢١) •

وهناك أدرك البرتغاليون أن منع الصلات بين عرب الخليج وامارات شرق افريقيا من المستحيل تنفيذها ومن ثم فان مراكزهم فى

---

(١٢٠) د. عائشة السيار : مرجع سابق ، ص ٩٨ .
(١٢١) د. عائشة السيار : ذات المرجع ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

الشرق الآسيوى تظل مهددة أمام قوة الاسطول العمانى ، فانتهزوا فرصة وجود بعض السفن العربية بالقرب من (سورات) واستولوا عليهـا .

فأمر الامام سيف بن سلطان (١٦٩٢ — ١٧١١) الاسطول الذى كان قد وصل الى قمة قوته بتأديب هؤلاء البرتغاليين القراصنة ، فقام الاسطول بهجـوم مضاد فى عام ١٦٤٩ على جزيرة (سالت) شـمال بومباى ورجـع محملا بالغنائم والأسرى . ثم عاود الهجـوم على (بارسلور) و (منجالور) وأشعل النيران فى صوامع الأرز ودمر الســفن البرتغالية فى الموانىء وعاد الى عمان بعد أن حـقق كل أهـدافه(١٢٢) .

هذا وقد ترتب على قوة الاسطول العربى ان صارت القوى الأوربية المتنافسة فى المحيط تخشاه وتعمل حسابا له ، وبدا واضحا أن البحرية العربية فى ذلك المحيط قد استعادت مجدها السابق .

فى ذلك الوقت كانت الأحداث تغلى فى ممتلكات البرتغاليين شرق أفريقيا ، فأرسل الامراء وفدا الى الامام سـيف يستصرخونه بحق الاسلام وصلات القربى أن ينقذهم من حكم وجور البرتغاليين .

فرأى الامام أن يبدأ خطوات التحرير بضربهم فى ممباسة حتى ينهار وجودهم فى القسم الشمالى من مستعمراتهم ، ففرض الاسطول الحصار عليها فى ١٣ مارس ١٦٩٦ واستمر الحصار مضروبا لمدة سنتين وتسعة شهور ، حاول البرتغاليون خلالها اختراقه ولكن دون جدوى فاضطرت المدينة الى الاستسلام فى ديسمبر ١٦٩٨ وسقط حصن يسوع فى أيدى العرب مما وضع نهاية للتفوق البرتغالى فى شرق أفريقيا(١٢٣) .

وأصدر الامام سيف قرارا بتعيين ناصر بن عبد اللـه المزروعى

(١٢٢) Miles. : Op. Cit — PP. 218 - 219

(١٢٣) Coupland, : Op. Cit. PP. 67 - 69

حاكما على ممباسة من قبله(١٢٤) .

وكان على العرب بعد ذلك أن يسقطوا موزمبيق عاصمة الجنوب حتى يتحرر كل الساحل الشرقى من النفوذ البرتغالى ، وتقدم الاسطول العربى لمهاجمتها ولكن موزمبيق بالذات كانت ترمز الى وجود البرتغاليين فى الجزء الغربى من المحيط الهندى ومن ثم كان الدفاع عنها يفوق غيرها بالنسبة لامارات الساحل الاخرى(١٢٥) .

ولما كانت خطة عرب عمان منذ البداية مطاردة البرتغاليين فى أى مكان فى المحيط الهندى من منطلق أن حربهم معهم نوع من الجهاد الاسلامى توجه الاسطول العربى الى (دامان) غرب الهند ودمر حاميتها البرتغالية فى عام ١٧٠٣ ، مما ترتب على كل ذلك أن أخذت القوى الأوروبية تخطب وده . فمثلا كان الانجليز يقدمون له السلاح والذخيرة والاخشاب من بومباى لصناعة قطع بحريته(١٢٦) ، بل قبلت الشركة الانجليزية أن تصنع بعض السفن الحربية فى سورات نفسها لحساب ذلك الأسطول(١٢٧) .

لكن رغم كل ذلك فان البرتغاليين لم يستسلموا نهائيا ويسلموا الراية للعمانيين . ففى فبراير ١٧١٤ كان الاسطول العربى قد وصل الى سورات فى احدى جولاته واحتجز سفينة برتغالية من أملاك الملك البرتغالى . وكان البرتغاليون يشتطون فى تدعيم قواتهم انتظارا لمثل ذلك الحادث . فدخلوا معركة مع الاسطول العربى تعتبر من أعنف المعارك البحرية بين الطرفين ويبدو أنهم حققوا انتصارا على

---

(١٢٤) الشيخ سعيد بن على المغيرى : جهينة الاخبار فى تاريخ زنجبار ، تحقيق محمد على الصليبى (سلطنة عمان ١٩٨٦) ص ١٩٥ وما بعدها .

(١٢٥) انظر :

Boxer, C. R. : From Lisbon to Goa, 1500 1750 (London 1984)

(١٢٦) Miles, : Op. Cit. PP. 218 - 221

(١٢٧) د. صلاح العقاد : دور العرب والفرس .. مرجع سابق ص ٩٨ .

العمانيين(١٢٨) . مما جعل الاسطول العربى يعبر مضيق هرمز ويفرض الحصار على قاعدة (كنج) وطلب من قائدها أن يسلمهم ممثل الملك البرتغالى للانتقام منه بسبب خسارتهم فى معركة سورات السابقة(١٢٩) .

فى ذلك الوقت طرأت ظروف داخلية فى عمان هددت الوحدة الوطنية وهذه آفة لم يتنبه لها العمانيون أو حتى الحكام فى ممباسة وزنجبار وبات حين وقعت الاختلافات بينهم وطار سلطان بات فى أواخر عام ١٧٢٨ نحو (جوا) للتحالف مع البرتغاليين ضد منافسيه ونيقدم المساعدة لهم لاستعادة ممباسة .

وكانت هذه فرصة سانحة انتظرها البرتغاليون طويلا ، فتحرك القائد البرتغالى (لويس دى ميللو) على رأس أسطول كبير مصطحبا معه سلطان بات وسلطان فازا ، وفور وصوله الى (بات) دخل فى بعض المعارك مع السفن العمانية . ولكن نظرا للاضطرابات الداخلية فى عمان نفسها وعدم وصول الامدادات الى الاسطول فى شرق أفريقيا ، دخل القائد البرتغالى المدينة ورفع عليها علم بلاده(١٣٠) .

وكان هذا الانتصار دافعا للقوة البرتغالية لتواصل هجومها وتحتل (ممباسة) فى مارس ١٧٢٨ ودخل القائد البرتغالى وسلطان بات وسلطان فازا حصن يسوع ومن هناك أعلن هذا القائد عودة الحكم البرتغالى الى ساحل شرق أفريقيا .

وقد ترتب على ذلك أن خشيت الامارات الاخرى من بطش البرتغاليين فى غياب قوة العمانيين وأعلنت خضوعها من جديد للنفوذ البرتغالى(١٣١) .

---

(١٢٨) د. عائشة السيار : مرجع سابق ، ص ٧٩ .

(١٢٩) Danvers : The Portuguese — Op. Cit. P. 380

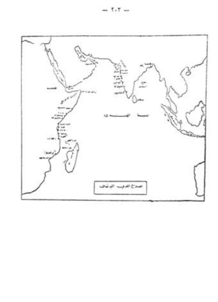
(١٣٠) Coupland : Op. Cit. P. 69

(١٣١) Bathurst : Op. Cit. P. 271

لكن الامام العمانى رغم مشاغله الداخلية وما أكثرها وأعقدها ، اعتبر سقوط شرق أفريقيا فى أيدى البرتغاليين وعملائهم من جديد يعنى تهديد واهدار كل الجهود العربية الاسلامية السابقة ضدهم فى المحيط الهندى . فضلا عن أن تواجدهم فى الساحل يعنى تحديا واستفزازا للوجود العربى الاسلامى القائم فى تلك الجهات .

فانتهز الثورة التى قام بها سكان ممباسة فى عام ١٧٣٠ ضد الحامية البرتغالية والتى امتد لهيبها الى معظم المدن الساحلية واستنجاد السكان به ، فوجه أسطولا بقيادة (محمد بن سعيد المعمورى) ليطرد البرتغاليين وليكون نائبا عنه فى تلك الجهات ، وتمكن المعمورى من أن يطبق على الغزاة وعملائهم ويدخل ممباسة ويخضع مدن وجزر الساحل التى اعترفت سريعا بالولاء للسيادة العمانية التى شملت المنطقة من مقديشيو شمالا الى خليج دلجادو جنوبا ، واضطر البرتغاليون صاغرين أن يرفعوا أيديهم نهائيا عن تلك الجهات ويتقوقعون فى موزمبيق التى فرضوا عليها لغتهم وثقافتهم الكاثوليكية .

وهكذا انتهت فصول المسرحية التى وضح منها استمرار الجهود العربية فى مقاومة البرتغاليين منذ وصولهم الى المحيط الهندى ورغم فشل تلك الجهود فى بعض الفترات مما ساعد على نمو النفوذ البرتغالى ، الا ان تلك الجهود سرعان ما كانت تتجدد وتؤثر على البرتغاليين بصورة أو بأخرى ، الى أن جاء عرب عمان وأنهوا الفصل الاخير من المسرحية وذلك بطرد البرتغاليين نهائيا من الخليج وساحل شرق افريقيا وأضعفوا الى حد كبير من قوتهم فى البحار الهندية مما ساعد القوى الأوربية الاخرى لترث الامبراطورية البرتغالية فى الشرق تجاريا وسياسيا وثقافيا واكتفى البرتغاليون بتواجدهم فى موزمبيق وجوا ودامان فى المحيط الهندى .





قضـــية لـــواء الاسكندرونة

دراســـة وثائقيـــة

دكتـــور / محمد كمال يحيى

كلية السياحة ــ جامعة حلوان

« خليج الاسكندرونة » ــ هو الخليج الوحيد على الساحل السورى ذو القيمة الاقتصادية والحربية البارزة ــ ويبلغ طوله نحـو سـتين كيلومترا ، وعرضه دون الأربعين ، وعمقه ٣٧ مترا • وفى العهد العثمانى ــ كان لواء الاسكندرونة يتألف من ثلاثة أقضية ، هى : الاسكندرونة ، قرق خان ، أنطاكية(*) •

وقد بنى مدينة الاسكندرونة « أنتيجون » ، أحد خلفاء الاسكندر الأكبر وسماها على اسم قائده العظيم ، على النحو الذى سميت به مدينة الاسكندرية ــ وكان ذلك فى عام ٣٣٣ قبل الميلاد ، تخليدا للنصر الكبير الذى أحرزه على دارا ملك الفرس ، فى معركة « ايسوس » على الطرف الشرقى من الساحل الجنوبى لشبه جزيرة آسيا الصغرى • وعلى القرب منها الى الشمال تقع « بياس » ، حيث تبتدىء منها الحدود الأصلية بين تركيا وسوريا • وفى صدر الاسلام ، فتحها أبو عبيدة بن الجراح عام ٦٣٨ م ، وكانت يومئذ خرابا ، الا أنها استعادت مكانتها بالتدريج حتى أن السيدة زبيدة ــ زوجة هارون الرشيد ــ بنت فيها حصنا أو صرحا ، كانت ترتاده بين الحين والآخر • وظلت هذه المدينة ممرا للغزاة من المسلمين والروم ، الى أن استولى عليها الصليبيون • وفى العصر

(*) حاولت الدولة العثمانية فى خلال القرن التاسع عشر أن تبسط سيطرتها على الولايات التابعة لها ــ فأصدرت عام ١٨٦٤ (قانون الولايات) فى عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ ــ ١٨٧٦) ، وقسمت السلطنة بموجبه الى ولايات ، والولاية تنقسم الى عدد من الالوية (مفردها لواء) ــ وكل لواء ينقسم الى عدد من الاقضية (مفردها قضاء) .

الحديث — كان للمدينة شأن قبل فتح قناة السويس ، لأن الانجليز اتخذوها أقرب محطة للهند عن طريق البحر المتوسط ، وعندما فتحها المصريون فى عام ١٨٣٤ . أنشأ بها ابراهيم باشا مصنعا للسفن ، يأتيه بالأخشاب اللازمة من جبال اللكام — ثم بعد أن عادت الى الدولة العثمانية ، جعلتها قضاء تابعا لولاية حلب .

أما مدينة أنطاكية — فقد أنشأها « سلوقوس » أحد خلفاء الاسكندر الثلاثة فى عام ٣٠٠ قبل الميلاد وسماها « أنطاكية سوريا » ، ليفرق بينها وبين المدن اليونانية الأخرى التى تشاطرها نفس الاسم — كما دعا ممر بيلان ، أو ممر (ايسوس) فى الوثائق التاريخية باسم « باب سوريا » . وعندما استولى الرومانيون على المدينة فى عام ٦٤ قبل الميلاد صارت جزءا من الامبراطورية الرومانية فى بعض عهود القياصرة العظام من أمثال بومبيوس ، ويوليوس قيصر ، وأنطونيوس — الذى زارها فى عام ٣٨ قبل الميلاد ، ومعه زوجته كليوباتره .

وقد دخلت المسيحية الى المنطقة عن طريق مدينة أنطاكية فى سنة ٢٣ للميلاد ، ومن هذه المدينة انتشر التبشير به فى مختلف الأنحاء . وفيها نشأت الخلافات الدينية المذهبية . وفى العهد الرومانى ظهر فيها رجل من رجال المسيحية كان له شأن كبير ، وهو يوحنا فم الذهب — الذى اشتهر بمواعظه وطلاقة لسانه ، الى أن نفى ومات فى طريقه الى المنفى . وكانت أنطاكية على مر العصور مقرا لجميع البطاركة . وفى أواخر القرن الرابع الميلادى ، دخلت أنطاكية فى قبضة البيزنطيين ، الى أن فتحها المسلمون على يد أبى عبيدة بن الجراح — وتقدمت تقدما كبيرا فى زمن الأمويين . وفى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، خضعت أنطاكية للغزو الصليبى ، الذى شمل معظم الشام ، وفى نهاية القرن التالى ، استعادها الظاهر بيبرس عنوة ، بعد معركة عنيفة ، الى أن جاء الفتح العثمانى حيث بقيت فى قبضة العثمانيين الى أواخر الحرب العالمية الأولى .

والملاحظ — بصفة عامة — أن « النصيرية » منتشرة فى هذه الجهات

والجهات المجاورة لها • وهى طائفة من العلويين . وتسمى بالنصيرية نسبة لنصير علام ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب • وقد جاء فى الكتب عنهم قديما ، أنهم متطرفون فى عقيدتهم . لدرجة أنهم يؤلهون عليا بن أبى طالب ، ويعتقدون أن مسكنه السحاب . حتى اذا مرت بهم سحب . قالوا « السلام عليك يا أبا الحسن » — ويقولون أن الرعد صوته والبرق ضحكه ، وأن سلمان الفارسى رسوله . ويحيون ابن ملجم قاتله • وفى بعض الكتب . أن كلمة « عمس » المختزلة من على ومحمد وسلمان ، هى كلمة المرور بينهم • وهم يخفون عقائدهم عن غيرهم ، ويعظمون الخمر ويرون أنها من النور — لذلك فهم يحترمون شجرة العنب ويتجنبون قلعها • وهم ينتسبون الى طريقة تدعى « الجنبلاوية » — وهذه الطريقة هى التى أدت الى افتراقهم عن بقية الاثنى عشرية — وهم فيما بينهم تفرقوا الى عشائر وأفخاذ . ترجع كلها الى أربعة أصول كبيرة ، هى : الخياطون ، والحدادون ، والكلبية ، والمناورة(١) •

لم تجد محاولات الدولة العثمانية من أجـل الحيلولة دون تطلع الدول الأوربية الى ممتلكاتها فى الشرق — خاصة انجلترا وفرنسا — وبدأت كل منهما ، بنوع من التنسيق بينهما . تحدد أهدافها انتظارا للحظة الحاسمة — لكن الانقلاب العثمانى فى عام ١٩٠٨ أوقع رجال السياسة الاوربية فى حيرة وارتباك — ذلك لأن الحركة الانقلابية كانت بمثابة « حركة انتقاض » ترمى الى « تخليص الرجل المريض من حالة الاحتضار » ، مع تجديد قواه ، واصلاح أحواله — فكان من شأنها أن تسلب الدول الكبرى ما كان لها من وسائل التأثير فى الدولة العثمانية ، وحجج التدخل فى شئونها(٢) — فسارعت بعض الدول الاوربية للتعجيل

---

(١) انظر نص المحاضرة التى القاها الدكتور عبد الرحمن شهبندر فى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة يوم ٢٣ يناير ١٩٣٧ عند احتدام النزاع بين سوريا وتركيا حول لواء الاسكندرونة ، ونشرها (المقتطف) فى الجزء الاول من المجلد التسعين — مارس ١٩٣٧ ، ص ٣٤٢ .

(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، الطبعة الثانية دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٥٢

بحل مسائلها المعلقة مع الدولة العثمانية قبل فوات الأوان • وكان من ذلك نزوع النمسا الى تحويل الحالة الراهنة في البوسنة والهرسك الى وضع قانوني ، يلحقها بالامبراطورية رسميا ، مما سبب هياجا شديدا في العالم السلافي ، خاصة في صربيا ، وتأزمت الأحوال بين العرب والنمسا • كما أن أطماع الدول الاوربية التقت بالرغبات الجادة من جانب القوميات في الاستقلال في وقت واحد ــ فأعلنت بلغاريا استقلالها وانفصالها عن الدولة العثمانية ــ كما أنزلت ايطاليا جيوشها في طرابلس الغرب سنة ١٩١١ ، معتمدة على الاتفاقيات السرية المعقودة بينها وبين فرنسا وانجلترا من جهة ، وبين النمسا والمانيا من جهة أخرى • بل أن دول البلقان رأت في انشغال الدولة العثمانية بالحرب الايطالية فرصة لاشهار الحرب عليها وتحقيق استقلالها •

وخلال هذه الزوبعة ، تحركت فرنسا ، وطالبت الدولة العثمانية بضمان مصالحها في سوريا ، ودارت مباحثات بين الجانبين لهذا الغرض ــ وفي الوقت نفسه ، أعلنت حكومة فرنسا وجوب احترام الدول لمصالحها التقليدية في سوريا ولبنان ، وعلى الرغم من أن المباحثات مع الدولة العثمانية لم تتقدم بالسرعة المطلوبة ، فانها انتهت بما يرضى فرنسا قبل نشوب الحرب العالمية الأولى •

وعندما دخلت الدولة العثمانية الحرب الى جانب دول الوسط (المانيا والنمسا والمجر) ، اتخذت الحكومة البريطانية الاجراءات اللازمة لحماية مصالحها التي تهددت بسبب هذا التطور في موقف الدولة العثمانية • وكان من الطبيعى أن تهاجم بريطانيا الدولة العثمانية بواسطة رعاياها من العرب • ففى ٤ سبتمبر ١٩١٤ ، وقبل دخول الدولة العثمانية الحرب ، كتب السفير البريطاني في استطنبول معلنا موافقته على « خطة تأييد وتنظيم حركة عربية ضد تركيا ، اذا ما اتخذت الأخيرة موقفا عدائيا واضحا ، وأصبح حربها أمرا لا مفر منه » ، سواء

أكان هذا التأييد للعرب مباشرا ، أم غير مباشر »(٣) • وفى ٧ نوفمبر ١٩١٤ ، أصدر « خيرى ابن عونى الاركوبى » . شيخ الاسلام فى اسطمبول فتوى يعلن فيها أن الواجب المفروض على جميع المسلمين (ومنهم الخاضعون لحكم بريطانيا وفرنسا وروسيا) هو الاتحاد ضد هذه الدول . أعداء الاسلام ، وأن يرفضوا مساعدة الحلفاء فى هجومهم على الدولة العثمانية . ورغم أنه لم يكن من السهل التكهن بأثر هذه الفتوى ، كما أن تركيا ذاتها كانت متحالفة مع دولة مسيحية هى المانيا ، الا أنه لاشك فى أن الدافع الدينى كانت لا تزال له قوته : بحيث لم يكن فى استطاعة الحلفاء ـــ وتحت حكمهم ملايين عديدة من المسلمين أن تتجاهل هذه الدعوة(٤) •

أيقن الحلفاء عامة ، والبريطانيون بوجه خاص ، ضرورة البحث عن زعيم للمسلمين ، لمقاومة نفوذ السلطان العثمانى ـــ وكان الشخص المرشح للقيام بهذا الدور ، هو الشريف حسين بن على الهاشمى ، أمير مكة • أخذ الانجليز يمنونه بمستقبل باهر ، ويلوحون له بمنصب الخلافة ، وتوقع الحسين نتيجة لذلك ، أن يؤسس دولة عربية اسلامية كبيرة « تضم تحت نفوذه الاجزاء العربية من الهلال الخصيب وفى الجزيرة العربية » •

من ناحية أخرى ـــ كانت العلاقات بين الشريف حسين والاتحاديين قد ساءت حتى قبل نشوب الحرب العالمية الاولى ـــ وتركزت نقطة الخلاف بينهما حول أسلوب نظام الحكم • فعلى حين كان الاتحاديون ينهجون نظام الحكم المركزى فى ادارة الولايات التابعة للدولة ـــ وهو الاسلوب الذى جر عليهم كثيرا من المتاعب ـــ كان الشريف حسين يرفض ذلك الاسلوب ، ويحاول بسط سلطانه على مناطق الحجاز

---

(٣) دكتور عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى (١٥١٦ ـــ ١٩٢٢) ـــ دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ ـــ ص ٤٤٨ .

(٤) دكتور محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية فى الشرق الاسيوى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٨ ـــ ص ٢٣٢ .

المختلفة • وفى ظل هذا الخلاف ، بدأ الشريف يجرى اتصالاته الأولية مع الانجليز ، وهى التى أوفد من أجلها ابنه عبد الله الى القاهرة عدة مرات قبل نشوب الحرب • وفى المقابل لم يتخذ الانجليز خطوات حاسمة للرد على هذه الاتصالات ، لأن الحرب لم تكن قد بدأت بعد — لكنها أوقفت المسئولين الانجليز فى القاهرة على وجود خلاف بين الشريف والأتراك • وكانت بالنسبة لهم فرصة ، استطاعوا استغلالها عندما بدأت الحرب ، ورأى كتشنر — وقد أصبح وزيرا للحربية أن موقف الحلفاء الحربى فى الشرق بحاجة ماسة اليها •

بدأت الحرب العالمية الاولى فى أول أغسطس ١٩١٤ ؛ أثر مقتل الارشيدوق فرانسوا فردیناند ولى عهد النمسا وزوجته فى سيراجيفو ، على يد طالب من الصرب — ولم يكن من الممكن حصر المسألة بين النمسا والصرب ، بعد تدخل المانيا الى جانب النمسا — كما أن تردد تركيا لم يستمر طويلا ، فانضمت الى جانب المانيا — وعلى الاثر بادرت بريطانيا بالاتصال بالعرب ، لمعرفة اتجاهاتهم ومدى اسهامهم فى الحرب التى لاحت فى الأفق — فجرت بينهما المراسلات الشهيرة (حسين — مكماهون) •

ولا يعنينا هنا كثيرا المراسلات فى حد ذاتها ، بقدر ما يعنينا ما يتعلق بموضوع دراستنا — وهو الاسكندرونة • فقد تلقى هنرى مكماهون فى ١٤ يوليو ١٩١٥ رسالة من الشريف حسين ، حين بعث بها مع أحد أتباعه (الشيخ محمد عارف بن عرفان) — يوضح له فيها أن العرب يرغبون فى الحصول على استقلالهم ، وأنه (أى الشريف) مستعد للوقوف مع الانجليز • ولكن الشعب العربى يريد أن يعرف ما اذا كانت الحكومة البريطانية على استعداد لأن تصادقه بواسطة مندوبيها أو ممثليها على عدة مقترحات أساسية ، من أهمها (بالنسبة لموضوع الاسكندرونة) — اعتراف انجلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين

وأطنة ، حتى الخليج الفارسى شمالا(٥) • وأهمية هذا التحديد فى رسالة الشريف حسين الى السير هنرى مكماهون ، هو أنه اعتبر منطقة الاسكندرونة وما حولها — عن حق — ضمن الدولة العربية المزمع انشاؤها بعد استقلالها عن الدولة العثمانية ولم يأت هذا التحديد — من فراغ — فقبيل بدء المراسلات ، كان الامير فيصل قد وصل الى دمشق ، مقر الحركات السرية العربية ، نائبا عن والده الشريف حسين ؛ واجتمع سرا بزعماء جمعيتى « العهد » و « العربية الفتاة » ، واعتمد عضوا فى هاتين الجمعيتين — وعرض عليهما الموقف ، واتصالات والده بالانجليز • وكان أن اتفقت كلمة جميع من اتصل فيصل بهم على قبول عروض الانجليز • فسياسة الاضطهاد العنيف التى اتبعها قائد الجيش العثمانى « جمال باشا » فى بلاد الشام ، وتعذيبه ، وشنقه للوطنيين العرب هناك ؛ كانت من العوامل التى دفعتهم الى الأخذ برأى التحالف مع انجلترا • وانعقد رأى القوميين العرب على زعامة الشريف حسين للثورة ، وسلم زعماء جمعيتى « العهد » و « العربية الفتاة » فيصلا المصور الذى يعين حدود البلاد العربية الجغرافية فى آسيا ، وطالبوه بأن يدور سعى الشريف حسين على أساسها ، لنيل الاستقلال — كما وضعوا مخططا للمطالب التى يريدون الشريف حسين أن يتفاوض على أساسها مع الانجليز — وهو ما عرف باسم « بروتوكول دمشق » — وكانت أهم فقرة فيه فيما يتعلق بموضوعنا — هو أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التى تبدأ شمالا بخط مرسين — أطنة ، ممتدا الى أرفه وماردين وجزيرة ابن عمر ، فحدود فارس(٦) • وعلى ذلك ، فان اعتبار منطقة الاسكندرونة وما حولها ضمن الدولة العربية المستقلة لم تكن من ابتداع الشريف حسين ، أو

---

(٥) تقع مرسين فى ولاية اطنة ، وتقع الاسكندرونة فى ولاية حلب فى ذلك الوقت .

(٦) دكتور محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ — ١٩١٤) القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٧٩ . وانظر ايضا ، فيما يتعلق بنصوص المراسلات — المجموعة الاولى من وثائق قضية فلسطين ، التى نشرتها جامعة الدول العربية (من سنة ١٩١٥ — الى سنة ١٩٤٦) .

تصوره للموقف ، بل على أساس رؤية موحدة ، أجمع عليها قادة العرب في المشرق ، لواقع لمسوه وعاشوا محنته •

على أية حال — فقد جاء رد السير هنري مكماهون بكتاب يقول فيه : « نتشرف بإبداء الشكر الى سموكم من أجل افصاحكم عن شعوركم الخالص نحو انجلترا ، ومصالح انجلترا هي مصالح العرب ، في رأي سموكم ورأي رجالكم — وأود بهذه المناسبة أن أؤكد لسكم ما جاء في رسالة اللورد كتشنر ، وهذه الرسالة كان موضحا بها رغبتنا في استقلال البلاد العربية وسكانها ، وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربيا عريق العروبة — أما بخصوص مسألة الحدود ، فيلوح لنا أنها سابقة لأوانها ، وأن وقتنا يضيق عن البحث في مثل هذه التفاصيل ، ونحن بعد في ابان الحرب ، خاصة وأن الأتراك لا يزالون يحتلون احتلالا تاما شاملا قسما كبيرا من الجهات التي أشرتم اليها في اقتراحكم » •

ويلاحظ أن مكماهون قد حرص في رسالته هذه على ألا يتقيد بالموافقة على حدود الدولة العربية المحددة في « بروتوكول دمشق » الذي تضمنته رسالة الشريف مكماهون ، متعللا بضيق وقته بسبب الحرب ، ثم باحتلال الاتراك للارض العربية • لكن الشريف حسين ، مهما كان تهافته على التأييد الانجليزي ، ما كانت تطمئنه مثل هذه الرسالة حتى تجعله يعلن الثورة على الاتراك — واذلك فانه ، في رسالته التالية (٩ سبتمبر ١٩١٥) قد عبر عن دهشته لموقف مكماهون هذا ، وذكر فيها : « أن الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد يمكن ارضاؤه ومفاوضته بعد الحرب ، بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود ، وهو متفق على هذا الاعتقاد » •

وأمام اصرار الشريف على أن تعترف بريطانيا بحدود الدولة العربية المستقبلة ، لم يجد مكماهون بدا من الدخول في الموضوع والمساومات ، فكتب الى الشريف رسالته المؤرخة في ٢٦ أكتوبر ١٩١٥ ، والتي جاء فيها : « لقد أدركت من كتابكم الاخير ، أنكم تعتبرون مسألة

الحدود من المسائل الحيوية المستعجلة . ولذا فانى قد أسرعت فى ابلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم . وانى بكل سرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية . التى لاشك أنكم تتزلونها منزلة الرضى والقبول : ان ولايتى مرسين واسكندرونة . وأجزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجهة الغربية للخط الممتد بين دمشق وحمص وحماه وحلب ، لا يمكن أن يقال انها عربية محضة : ومن ثم يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة (!!) — ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات ..

هكذا أراد مكماهون أن يستثنى من حدود الدولة العربية التى حددها — « بروتوكول دمشق » ولايتى مرسين واسكندرونة . أما رد الفعل لدى الشريف حسين فقد عبرت عنه رسالته التالية الى مكماهون (فى ٥ نوفمبر ١٩١٥) — وجاء فيها : « رغبة فى تسهيل الاتفاق ، وخدمة الاسلام . واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين ، واعتمادا على نيات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة ، فاننا نتنازل عن اصرارنا فى ضم مرسين وأطنة الى المملكة .. » — وبالطبع سعدت بريطانيا بتساهل الشريف على هذا النحو ؛ بل وتجاهلت تماما محاولة التراجع التى قد يكون الشريف قد حاول القيام بها فى رسالته المؤرخة فى أول يناير ١٩١٦ ، عندما كتب الى مكماهون يبلغه باستعداده للتنازل عن المنطقة الممتدة غرب دمشق — حمص — حماة — حلب ، على أن يكون من حق العرب أن يطالبوا بها عند انتهاء الحرب ؛ يدفعه الى ذلك (الرغبة فى تجنب ما قد يكون من شأنه الحاق الضرر بين بريطانيا العظمى وفرنسا . والاتفاق الذى حدث بين الدولتين ابان الحرب الراهنة ..) .

وعلى كل ؛ فان رسالة الشريف الأخيرة لمكماهون يستفاد منها أمران هامان :

الأول : أنه كان مترددا فى تمسكه بولايتى مرسين وأطنة ضمن حدود الدولة العربية المستقلة — اذ بعد أن تنازل عن اصراره بشأنهما

فى رسالته السابقة . عاد واحتفظ بحق المطالبة بهما بعد الحرب فى رسالته التالية .

الثانى : أن الشريف قد فهم من مكماهون . أن هاتين الولايتين المقتطعتين من الدول العربية المستقلة . بالاضافة الى أجزاء أخرى من الشام سوف تكون لفرنسا السيادة عليهما . بموجب اتفاق تم بين انجلترا وفرنسا فى هذا الشأن .

وهذا الامر الثانى تأكد بعد اذاعة الاتفاقية المعروفة باتفاقية سايكس بيكو . وحظيت فيها فرنسا بالساحل السورى الممتد من الناقورة جنوبا الى صيدا فطرابلس فبيروت واللاذقية فاسكندرونة ، حتى الحدود التركية شمالا — وحرصت فى أثناء المحادثات التى جرت بشأن هذه الاتفاقية على أن تكون الاسكندرونة ضمن هذه المنطقة ، وحاولت ابعاد حليفتها ، كل من انجلترا وروسيا . عن التطلع اليها — وكان هذا الحرص مدعاة لاثارة شكوكها نحو تصرف انجلترا بالذات ، لدرجة أنها عارضت اقتراح كتشنر ، الذى قضى بانزال قوات بريطانية عند الاسكندرونة . فقد فشلت حملة الانجليز على الدردنيل — وهى الحملة التى قاموا بها استجابة لطلب روسيا . لتخفيف ضغط الاتراك عليها فى القوقاز ، وكى تظل روسيا تقاتل وتناضل وهى ترى القوات البريطانية تدق أبواب المضايق ، بعد أن وعدها الحلفاء بالقسطنطينية ، لكن السفن البحرية البريطانية فشلت فى اقتحام الدردنيل بسبب الألغام التى بثها الاتراك فيه — فلما فكروا فى الهجوم البرى على شبه جزيرة غاليبولى ، استحال ذلك عليهم . وكلفتهم هذه المغامرة ١٢٠ ألف من القتلى والجرحى(٧) — على أثر ذلك أرسل كتشنر الى اسكويث ، رئيس الوزراء يقول له : انه يرى مرابطة بعض القوات البريطانية عند خليج اياس ، قرب الاسكندرونة فى شمال سوريا ، وذلك كعمل دفاعى محض بالنسبة لقناة السويس ، لمنع الاتراك من التقدم الى القناة ، وقال أن

---

(٧) دكتور محمد عبد الرحمن برج : دراسة فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢٠٩ .

مصر لا يمكن الدفاع عنها بالوقوف فى حالة دفاعية محضة عندها . ولكن هذا الاقتراح أزعج فرنسا — تماما — فبادر الملحق العسكرى الفرنسى فى لندن الى تقديم مذكرة باسم حكومته الى رئيس أركان الجيش الانجليزى ، جاء فيها : « .. واذا ما فكرت الحكومة البريطانية فى انزال قوات عند خليج الاسكندرونة لقطع السكة الحديدية المؤدية الى فلسطين ، فانه يجب على هذه القوات ألا تأخذ فى الاعتبار المصالح الاقتصادية لفرنسا فى هذه الأقطار فحسب ، بل ومصالحها السياسية والمعنوية أيضا . واستطرد الملحق العسكرى الفرنسى فى مذكرته الى رئيس أركان الجيش الانجليزى . فقال : ان الرأى العام الفرنسى مهتم تماما بأى عملية تجرى فى قطر يعتبره جزءا من دولة سوريا المقبلة ، وأنه سوف لا يطالب الحكومة الفرنسية بأن أى عمليات حربية تجرى فى هذا الشأن ينبغى ألا يسبقها اتفاق مسبق بين الحلفاء فحسب ، بل كذلك بأنه فى حالة اقرار عمل ما فى هذه المنطقة ينبغى أن يعهد به الى القوات الفرنسية ، والى الجنرالات الفرنسيين ، الذين يقودون ثلث القوات . واذا كان من المعروف أن فرنسا آنذاك لم يكن لديها قوات تصلح للقيام بهذه العملية ، فان قولها هذا كان يعنى اعتراضها على اقدام انجلترا ، أو مجرد تفكيرها فى انزال قوات عند الاسكندرونة ، كما كان يرغب كتشنر . وقد قام اللورد كتشنر بزيارة باريس فى ٢٩ نوفمبر ١٩١٥ ، محاولا اقناع الحكومة الفرنسية بمزايا هذه الحملة — ولكن هذه الحكومة أصرت على موقفها واضطر اسكويث ، رئيس الوزراء البريطانى ، أن ينزل على رغبة فرنسا ، حفظا لوحدة الحلفاء .

وقد ساء ذلك كتشنر ، فقرر العودة على الفور الى لندن ، ووضع استقالته بين يدى رئيس الوزراء ، ولكنه رفض قبولها — وعدل بالفعل عن انزال القوات البريطانية عند الاسكندرونة ، ارضاء لفرنسا .

وقد ظل مسلك فرنسا على هذا النحو بالنسبة لسوريا ، والاسكندرونة واحدة من أقاليمها — تؤيد كل عمل يدعم مركزها فيها ، وتقف بشدة ضد كل ما من شأنه أن يتعارض مع مصالحها فى هذه المنطقة العربية .

وما كادت تضع الحرب أوزارها ، حتى سارعت فرنسا بتعيين جورج بيكو (قنصلها السابق فى بيروت قبل الحرب . والمتحدث باسمها مع الانجليز فى محادثات سايكس — بيكو) مندوبا ساميا لها فى سوريا وأرمينيا . ووصل الى بيروت بالفعل يوم ٦ نوفمبر ١٩١٨ — وكان أول ما فعله . أنه أبرق الى حكومته بأن وجود القوات الانجليزية فى سوريا يضر بالمصالح الفرنسية ، واقترح ارسال ٢٠ ألف جندى فرنسى تحل محل القوات الانجليزية — وحذرها من التردد فى التنفيذ • وأمام توتر الاوضاع فى المنطقة . جرت محادثات بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية . ثم الاتفاق فى نهايتها . فى ١٥ سبتمبر ١٩١٩ على أن تنسحب القوات الانجليزية من الساحل السورى ، وتحل محلها قوات فرنسية ويترك شرقى سوريا للقوات العربية • فى ذلك الوقت ، كان مؤتمر الصلح المنعقد فى باريس . قد خرج بنظرية الانتدابات فى ٣٠ يناير ١٩١٩ — وقضى بأن تنفصل سوريا والعراق وأرمينيا عن تركيا ، ويشرف عليها وصى من قبل عصبة الأمم — وفى اجتماع المجلس الأعلى لدول الحلفاء . المنعقد فى مدينة سان ريمو بايطاليا ، قرر فى الخامس والعشرين من ابريل ١٩٢٠ وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى •

* * *

عندما انتهت الحرب العالمية الاولى ، ووضعت اتفاقيات الهدنة ، بدأت مشاكل احلال السلام فى الظهور . وبعد طول مباحثات ، اتفق زعماء الحلفاء على عقد اتفاقيات منفردة للصلح . وليست اتفاقية عامة واحدة لأن الحرب قد غيرت الكثير من معالم الدول وعلاقاتها ، خاصة فى الوسط وشرق أوربا . حيث اختفت امبراطوريات أربع عظيمة ، هى المانيا والنمسا ، المجر ، وروسيا ، وتركيا • وكان من الصعب فى وسط ما حدث رسم حدود جديدة . لقد انتهت الحرب العظمى عام ١٩١٨ . ولكن أعمال العنف كانت تبرز من حين لآخر فى أنحاء القارة ، لمدة خمس سنوات تالية •

ويعنينا هنا من هذه الاتفاقيات المنفردة ، معاهدة سيفر ، التى عقدت مع تركيا فى ٢٠ أغسطس ١٩٢٠ — فقد ثبت أنها المعاهدة الوحيدة التى لا يمكن تطبيقها بالقوة ، بعد أن كسبت تركيا تأييد بعض الدول المنتصرة ، وهزمت جيش يونانى فى آسيا الصغرى ، مما أزعج الدول العظمى التى كانت تخشى حرب جديدة •

كان عقد اتفاقية للصلح مع تركيا موضوعا فى غاية التعقيد ، لأن الحلفاء خلال فترة الحرب ، عقدوا ثلاث اتفاقيات سرية ، كلها تمس كيان وممتلكات الدولة العثمانية ، وكانت أولى تلك الاتفاقيات هى معاهدة القسطنطينية ، التى وقعت يوم ١٠ أبريل ١٩١٥ ، والتى أعطت القسطنطينية والمضايق لروسيا ، ثم جاءت معاهدة لندن فى ٢٦ أبريل ١٩١٥ لتخصص منطقة جنوب غرب آسيا الصغرى كمنطقة نفوذ لايطاليا — وكانت المعاهدة الثالثة هى سايكس — بيكو ، التى وقعت فى ١٦ مايو ١٩١٦ ، وقد عقدت بين بريطانيا وفرنسا وروسيا • والحقيقة ، أن فرنسا حاولت أثناء تلك المفاوضات ، أن تكون المنطقة الواقعة تحت نفوذها هى كل سوريا بما فى ذلك فلسطين ، الا أن بريطانيا لم توافق على ذلك ، لرغبتها فى السيطرة على عكا وحيفا ، لكى تجعل منهما منفذا ، يصل العراق بالبحر المتوسط كما أنها لم تشأ أن تعطى لفرنسا ، أو دولة عظمى أخرى فرصة الاقتراب من منطقة قناة السويس • واضطرت

تركيا الى توقيع معاهدة سيفر ؛ بعد أن هدد الحلفاء باخراج تركيا من أوربا كلها اذا ما رفضت التوقيع عليها •

ورغم توقيع تركيا لمعاهدة سيفر هذه ، الا أنها كانت تتطلع الى الاسكندرونة . التى كانت فى نظرها أفضل ميناء يطل على شرقى البحر المتوسط . ويمر بها الطريق الى سوريا وفلسطين • وشعرت فرنسا ، صاحبة الانتداب على سوريا ولبنان . بهذه التطلعات التركية ؛ فآثرت محاولة التفاهم معها •

ففى نهاية عام ١٩٢٠ . كلفت الحكومة الفرنسية « فرانكلين بويلون » Franklin Bouillon بالاتصال بحكومة أنقره لابرام اتفاقية بين الجانبين ـ وكانت دوافع فرنسا عديدة : منها الرغبة فى كسب ود تركيا أو ابقائها على الحياد . ازاء فشل سياسة التدخل ضد البلاشفة فى روسيا والسعى الى اقامة حاجز فى القوقاز مناهض للبلاشفة ، والتخفيف من الأعباء المالية الثقيلة التى ترتبت على بقاء الجيش الفرنسى فى كيليكيا . الذى تعرض لهجمات متوالية من الجانب التركى ، واتجاه فرنسا الى تخفيف حدة العداء مع الاتراك ، بحيث يتاح لها الحفاظ على مصالحها التقليدية فى تركيا ؛ وتطوير علاقاتها التجارية معها ، ولو أدى ذلك الى انسحاب قواتها من كيليكيا دون ابرام أى اتفاق • يضاف الى ذلك كله ، رغبة فرنسا فى التفرغ لمواجهة الثورات المحلية فى المناطق السورية ، الواقعة تحت الحكم العسكرى الفرنسى المباشر . وتأمين سيطرتها العسكرية التامة على سوريا ولبنان ، وبخاصة بعد أن جرت محاولات للتفاهم بين الحكم العربى فى دمشق والاتراك •

ولم تكن تركيا ، فى الوقت نفسه ، أقل رغبة فى انهاء الأعمال العدائية مع فرنسا ، خاصة وانها كانت ترى أن ميناء الاسكندرونة يستخدم لتهريب الاسلحة الى الاقليات الكردية والارمنية(٨) • هذا

---

(٨) Frank Weber : The Evasive Neutral, University of Missori Press U.S.A., 1958, p. 10.

بالاضافة الى أن الاتفاق مع فرنسا له فوائد جمة . منها تصدع الجبهة الاستعمارية الناهضة للحركة الكمالية فى تركيا . وايقاف القتال على جبهة حربية . قد يتيح المجال لتوجيه القوات التركية الى جبهة القتال الرئيسية . على الرغم من الانتصارات الأولية التى أحرزها عصمت اينونو فى ١٠ يناير ١٩٢١ (٩) .

لذلك — اعترف « أتاتورك » بالانتداب الفرنسى على سوريا ، بما فيها الاسكندرونة ، وأفضت المفاوضات الفرنسية — التركية الى ابرام اتفاقية بين البلدين ، وقعها عن الجانب الفرنسى وزير الخارجية بريان A. Briand. وعن الجانب التركى « بكر سامى » مندوب مصطفى أتاتورك فى ١١ مارس ١٩٢١ .

نصت الاتفاقية على سحب القوات الفرنسية من كيليكيا وتسليمها للاتراك ، مقابل منح شركة فرنسية حق الاشراف على الخط الحديدى المار بهذه المنطقة والمتجه الى بغداد — وبقى لواء الاسكندرونة ضمن الأراضى السورية الخاضعة للهيمنة الفرنسية آنذاك . ولكن حكومة أنقرة حصلت على بعض التنازلات من فرنسا لصالح الأقلية التركية فى اللواء — فقد نصت الاتفاقية على انشاء نظام ادارى خاص فيه ، ومنح سكانه من الاتراك كل التسهيلات اللازمة لتنمية ثقافتهم ، خاصة فى البرامج المدرسية ، واستعمال اللغة التركية بصورة رسمية ، الى جانب اللغتين العربية والفرنسية .

غير أن هذه الاتفاقيات بقيت حبرا على ورق ، لم يلتزم بها الجانب التركى بعد الانتصارات التى أحرزها الاتراك على قوات الحلفاء فى المناطق التركية المحتلة . ودخلت فرنسا — من جديد — فى مفاوضات

---

(٩) دكتور على محافظة : لواء الاسكندرونة — دراسة بمجلة « المؤرخ العربى » التى تصدرها الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ، ببغداد — العراق ، العدد رقم (٢٣) لعام ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م ، ص ٨٧ . هذا ، وقد اعتمد الباحث فى جانب من دراسته على الوثائق الفرنسية .

مع حكومة الجمعية الوطنية التركية . انتهت بتوقيع اتفاقية أنقرة فى ٢٠ أكتوبر ١٩٢١ التى سوت مشاكل الحدود بين سوريا وتركيا . بصورة ترضى تركيا . بحيث ازدادت نسبة الاتراك فى لواء الاسكندرونة من ٢٩ بالمائة الى ٣٩ بالمائة • كما نصت الاتفاقية على السماح لسكان الاسكندرونة وأنطاكية برفع علم خاص بهم يحتوى على العلم التركى . وعلى حرية استعمال ميناء الاسكندرونة من قبل الرعايا الاتراك . والبضائع التركية . وعلى امكانية وجود منطقة جمركية حرة للبضائع التركية(١٠) •

حقيقة أن اتفاقية أنقرة قد أنهت حالة الحرب بين الدولتين . وأبقت لواء الاسكندرونة ضمن منطقة انتداب فرنسا فى سوريا — غير أنها تضمنت فى نفس الوقت . نواة الخلاف على لواء الاسكندرونة •

من ناحية أخرى — فقد انشأت فرنسا ما أسمته « دويلات الشعوب السورية » ضمت فيه لواء الاسكندرونة الى « حكومة حلب »(١١) — ولم يستمر ذلك الوضع طويلا ، اذ جريا على عادة المندوبين السامين . من أن كل واحد منهم يغير تغييرا ظاهرا فى الأوضاع التى يجدها عند وصوله ، مع التمسك بالقواعد الأساسية للحكم الفرنسى ، وهى أن تكون السلطة الحقيقية بيدهم — فاتخذ « الجنرال ويجان » ، المندوب السامى الجديد ، فى ٥ ديسمبر ١٩٢٤ . قرارا بالغاء ارتباط لواء الاسكندرونة بحلب . وانشاء وحدة بين « دولتى » دمشق وحلب ، وبقيت ادارة اللواء جارية وفقا للاحكام الخاصة به ، وتابعا فى نفس الوقت لرئيس الدولة السورية(١٢) •

---

(١٠) فى إحصائية لعصبة الأمم فى تلك الفترة ، بلغ سكان لواء الاسكندرونة حوالى ٢٠٠ الف نسمة ، وعدد العرب فيه ١٢٩ الف ، على حين بلغ عدد الاتراك حوالى ٧١ الف .

(١١) دكتور نجيب الارمنازى : سوريا من الاحتلال حتى الجلاء ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٥ .

(١٢) دكتور على محافظة ، مصدر سابق ، ص ٨٩ .

أما على الجانب التركى — فقد تم عقد اتفاق « صداقة وحسن جوار » بين فرنسا وتركيا فى ٣٠ مايو ١٩٢٦ ، اكتفت فيه حكومة أنقره بالمطالبة بالحفاظ على النظام الادارى الخاص . الوارد فى المادة السابعة من معاهدة أنقرة سالفة الذكر • لكن على المستوى الشعبى ، جرت حملة صحفية تركية واسعة النطاق تطالب بعودة الاسكندرونة الى الأراضى التركية — بل أن قيادات الاسكندرونة وأنطاكية وقرقخان . اجتمعوا فى مارس ١٩٣٦ . واعتبروا أنفسهم مجلسا تأسيسيا . واتخذوا قرارا باعلان استقلال اللواء . وانفصاله عن دمشق ووضع دستور خاص به ، والحاقه مباشرة بالمندوب السامى الفرنسى . وطالبوا بتعيين نائب للمندوب السامى فى اللواء « المسيو ديريو » Durieux ولولا تدخل حكومة دمشق الفورى . الذى أدى الى تراجع القيادات المذكورة ، لحدث تطور خطير يصعب تلافيه •

هدأت الأوضاع مؤقتا — لفترة عشر سنوات تقريبا ، الى أن تجدد النشاط السياسى مرة أخرى فى عام ١٩٣٦ بمناسبة حلول الذكرى الأولى لوفاة المناضل السورى ابراهيم هنانو(١٣) فى يناير من ذلك العام — اذ عمت المظاهرات المدن ، وأذاعت « الكتلة الوطنية » — وهى جماعة من الوطنيين أشبه بحزب سياسى — برنامجا . قالت عنه انه الحد الأدنى الذى يقبله أى مفاوض سورى لتسوية الخلافات مع السلطات الفرنسية ، ويدور هذا البرنامج حول مبدأ الاتحاد والاستقلال وضمان الحريات السياسية • وقابل الفرنسيون ذلك بأعمال القمع . وهاجموا مكاتب « الكتلة الوطنية » واشتبكوا مع المضربين والمتظاهرين ، وفتحت أبواب السجون لاستقبال المناضلين ، وعطلت الأعمال وأغلقت

---

(١٣) المجاهد ابراهيم هنانو ، كان عضوا فى جمعية « العربية الفتاة » قبل الحرب العالمية الاولى — وهاله استيلاء الفرنسيين على سوريا ، فألف عصابات مسلحة ، امتد نشاطها الى الاجزاء القريبة من حلب ، وتغلب على الفرنسيين فى مواقع كثيرة ، وأسر بعض حامياتهم — وكان على اتصال بالشيخ « صالح العلى » فى اللاذقية ، ولم يكف عن النضال حتى يوليو ١٩٢١ م •

المدن ، واعتقل عدد من الزعماء — حتى شعر الفرنسيون بأن البلاد أوشكت أن تشتعل فيها نيران الثورة — ولم يجد المندوب السامى مناصا من تبديل الوزارة التى كان على رأسها « تاج الدين الحسنى » فى فبراير ١٩٣٩ بوزارة أخرى برئاسة وزير العدلية فيها « السيد عطا الأيوبى » ، الذى كان يحظى باحترام الوطنيين ، وان لم يكن عضوا فى « الكتلة الوطنية » ، وكانت المهمة الأولى التى أسندت لهذه الوزارة ، هو القيام بدور الوساطة بين السلطات الفرنسية و « الكتلة الوطنية(١٤) » . حققت هذه الوزارة نتائج ايجابية فى مهمتها ، اذ أذاع المندوب السامى بيانا ، أعلن فيه استعداده للمفاوضة لعقد معاهدة ، واطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، واصدار قرار بالعفو العام .

خشيت الحكومة التركية أن يكون اتجاه فرنسا لحل المشكلة السورية بتصفية الانتداب ، وتحـويل الادارة تدريجيا الى الزعماء الوطنيين السوريين هو بمثابة تمهيد لضم لواء الاسكندرونة الى الدولة السورية الجديدة — لهذا بادر « آراس » وزير الخارجية التركية بالاعتراض على هذا الاتجاه الفرنسى لأنه — على حد قوله : « لا يثق فى أن تصبح رفاهية الأقلية التركية فى الاسكندرونة تحت رحمة العرب ، أنصاف المتعلمين ، وقليلى الخبرة السياسية » — وادعى « آراس » أن الأتراك أغلبية فى الاسكندرونة — وعندما كذبت احصائية لعصبة الأمم هذا الادعاء ، هدد بالخروج من العصبة ، والاقتراب من الساخطين عليها المانيا وايطاليا .

وكانت تركيا قد حاولت بالفعل التقرب من المانيا — وذلك فى أثناء زيارة الاقتصادى الالمانى « الدكتور شاخت » لتركيا فى عام ١٩٣٥ ضمن جولة قام بها فى عواصم الشرق الأوسط ، لضمان بعض المشروعات فى المنطقة لأصحاب رءوس الأموال الالمان — وطلب « أتاتورك » من

(١٤) دكتور صلاح العقاد : المشرق العربى المعاصر ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٣٤ .

شاخت بصفته ممثلا لمصانع « كروب » توريد مدافع لتركيا ، وعلم « شاخت » أن هذه المدافع سوف تستخدم فى اعادة تحصين المضايق . وأن بعضها قد يستخدم ضد السوريين والفرنسيين على الحدود الجنوبية لتركيا .

ولكن شاخت كان يرى أن أتاتورك غير متحمس للتعامل مع الشركات الالمانية ويعتقد أن الاتراك ليسوا هم الوسيلة المثلى لزيادة النفوذ الالمانى فى الشرقين الأدنى والوسط . وأن العرب أكثر عددا ، وسيكونون أكثر طواعية من الاتراك . الذين سيطالبون بأن يعاملوا على قدم المساواة (مع المانيا) بينما العرب يكونون أكثر من الاتراك استعدادا لأن يصبحوا مخلب القط لألمانيا . لذا . فترت العلاقات بين المانيا وتركيا(١٥).

على أى حال — فقد وقع المندوب السامى مع زعيم « الكتلة الوطنية » هاشم الأتاسى — فى أول مارس ١٩٣٦ — اتفاقا فى بيروت ، يقضى بموافقة الحكومة الفرنسية على استقبال وفد رسمى يتفاوض معها لعقد معاهدة ؛ على نسق المعاهدة الانجليزية — العراقية لسنة ١٩٣٠ — فوافقت الكتلة الوطنية على التفاوض بناء على هذا الاعلان . وعاد الزعماء الوطنيون من معتقلاتهم على الأثر . فاستقبلهم الشعب فى كل مكان بحفاوة منقطعة النظير . وتكون وفد المفاوضات برئاسة « هاشم الأتاسى » ، وعضوية فارس الخورى ، وجميل مردم ، وسعد الله الجابرى ، والوزير مصطفى الشهابى وأدمون حمصى ، وسكرتارية نعيم الانطاكى(١٦) . وفى ٢١ مارس . غادر الوفد البلاد ، متوجها الى فرنسا ، فوصلها فى ٢ أبريل ١٩٣٦ .

لم تكن المفاوضات سهلة لينة ، بل تعرضت للانقطاع فى ظروف شتى ولم يكن من موقف كل من رئيس الوزراء الفرنسى « البرسارو » ووزير خارجيته « فلاندان » باعثا على الرضا والاطمئنان . ولما كانت

---

(١٥) Frank Weber, Op. Cit., p. 11.

(١٦) دكتور نجيب الارمنازى ؛ مصدر سابق ، ص ١٠٠

فرنسا على وشك أن تجرى فيها انتخابات نيابية . فقد فضل الوفد انتظار هذه الانتخابات . وتوقع أعضاؤه أن تتحسن الظروف فى حالة انتصار الاحزاب اليسارية ؛ وهذا ما حدث .

فقد ألف « ليون بلوم » Leon Blum أول وزارة يرأسها زعيم اشتراكى ، وكان وزير خارجيته « ايفون دلبوس » I. Delbuse الذى عهد الى نائبه « بيير فينو » P Vienot بادارة المفاوضات مع الوفد السورى . وساعده من الجانب الفرنسى المسيو شوفينيل Chovenelle الذى أمضى فى سوريا فترة من الوقت . كما انضم اليهما فى هذه المفاوضات . المندوب السامى « دى مارتل » De Martelle

وبعد خمسة شهور — أمضاها الوفد السورى فى العاصمة الفرنسية ؛ تم فى التاسع من سبتمبر عام ١٩٣٦ ، توقيع مشروع المعاهدة التى تنهى الانتداب . وقد أقرت المعاهدة فى نصها : السلم والصداقة بين فرنسا وسوريا . والتشاور فى السياسة الخارجية ؛ وما يمس مصالحهما المشتركة . وانتقال الحقوق والواجبات ، ومسئولية حفظ الأمن والنظام الى سوريا . وجعلها لمدة خمس وعشرين سنة . ومنح فرنسا التسهيلات اللازمة فى الطرق والمواصلات البرية والبحرية والجوية . يضاف الى ذلك اتفاق عسكرى . وما تحتاج اليه العلاقات الفرنسية السورية من « بروتوكولات » تتعلق بالشئون العسكرية والاقتصادية والسياسية(١٧) .

ورغم أن مشروع المعاهدة ؛ ينهى من الناحية الشكلية فقط نظام الانتداب على سوريا ، ويحفظ لفرنسا امتيازات عديدة فى مختلف الميادين ؛ فقد تقبل الشعب السورى هذه المعاهدة بقبول حسن ، وأعرب

(١٧) قارن بين نصوص مشروع المعاهدة ، وبين نصوص المعاهدة العراقية — الانجليزية الموقعة فى ٣٠ يونيو ١٩٣٠ — ملحق (ك) من كتاب « العراق من الاحتلال حتى الاستقلال » ، لمؤلفه الدكتور عبد الرحمن البزاز — معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٩٠ ، حيث تكاد تنطبق نصوص كلتا المعاهدتين .

عن ثقته بالذين عقدوها ، يدلنا على ذلك . أن الانتخابات التى جرت فى الحادى والعشرين من ديسمبر من نفس العام . قد فاز فيها أعضاء وفد المفاوضة — حيث تولى هاشم الأتاسى رئاسة الجمهورية . وفارس الخورى رئاسة المجلس النيابى وجميل مردم رئاسة مجلس الوزراء ووزارة الاقتصاد والزراعة . وسعد الله الجابرى وزارتى الداخلية والخارجية .

على كل — فقد قدمت الحكومة — بعد تشكيلها — معاهدة « التحالف والصداقة » المعقودة مع فرنسا الى المجلس النيابى . فوافق على ابرامها باجماع الآراء ، وجرى تبادل الرسائل بشأنها بين المندوب السامى ورئيس مجلس الوزراء — وبقى حتى تصبح سارية المفعول ، أن يوافق عليها المجلس النيابى ، الذى تم انتخابه مؤخرا فى فرنسا .

حرصت فرنسا — فى سعيها للاتفاق مع السوريين — على كسب ود تركيا فى نفس الوقت ، خاصة بعد التطورات السياسية التى حدثت فى أوربا ، ومن أبرزها ، العدوان الايطالى على الحبشة ، والاعلان عن الأطماع الايطالية فى حوض البحر الابيض المتوسط — غير أن مساعد سكرتير الدولة للشئون الخارجية الفرنسية ، « المسيو فينو » Vienot لم يكن على استعداد للتنازل عن لواء الاسكندرونة . كترضية لتركيا ، وكانت تؤيده فى ذلك رئاسة الأركان العامة للقوات المسلحة الفرنسية(١٨) — لذا ، فانه منذ يناير عام ١٩٣٧ تولى « ليون بلوم » L. Blum رئيس وزراء فرنسا ، بنفسه ، مسألة اللواء وأبعد عنها المسيو « فينو » — واقترح « بلوم » التساهل مع تركيا الى المدى الذى يتيح قيام ادارة ذاتية خاصة للواء ، فى ظل السيادة السورية ، مع التأكيد على الحدود السورية — التركية ، الواردة فى معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣ وجاء فى كتاب « بلوم » الموجه الى « رشدى آراس » ، وزير الخارجية التركية ، والمؤرخ فى ١٨ يناير ١٩٣٧ ، أنه يوافق على أن يستمر لواء

---

(١٨) دكتور على محافظة ، مصدر سابق ، ص ٩٠

الاسكندرونة تحت الانتداب الفرنسى ، بعد استقلال سوريا ، عن طريق اقامة نظام خاص به ، باشراف « مندوب سام » فرنسى تعينه عصبة الأمم — غير أن هذا الاقتراح لم يرض الحكومة التركية — وعندها انتقت الحكومتان ، الفرنسية والتركية ، على عرض القضية على عصبة الأمم .

كانت تركيا سعيدة تماما بنقل قضية الاسكندرونة الى عصبة الامم التى وضعت له ترتيبات خاصة ، بعد تجريده من الوجود العسكرى ، وضمان حقوق المواطنين الأتراك فيه • وربطت تركيا بين هذا التطور لقضية اللواء وبين مشروع « ميثاق سعد أباد » مع ايران والعراق وأفغانستان . والذى كان قد أقيم فى مواجهة حلف البلقان فى الغرب (٨ يوليو ١٩٣٧) (١٩) •

أصبح من الواضح ، أن السلطة فى لواء الاسكندرونة قد صارت بعيدة عن متناول السلطات السورية فى دمشق — لذا ، فقد انتهز المواطنون الاتراك فيه ، الفرصة لانزال مذابح بالأهالى العرب : مسلمين ومسيحيين • وفى نفس الوقت ، طلب الاتراك معونة الالمان ، فى محاولة أخرى للتقرب منهم — وفى هذا الصدد ، قابلت مجموعات من الاتراك ، « فريتز سيلر » Seiler القنصل الالمانى فى بيروت ، وطلبوا أموالا وأسلحة لاستخدامها ضد ما أسماه « المعارضة العربية » — ورغم أن بعض الشخصيات القنصلية الالمانية أدانت العنف فى الاسكندرونة ، الا أن « سيلر » نفسه كان متعاطفا مع قضية الاتراك ، وطلب من برلين الأذن بتأييدها • وكان « سيلر » يرى أن أيلولة الاسكندرونة الى الأتراك أمرا لا مفر منه ، ولكن يجب ألا تحققه تركيا بمفردها ، بل بمعونة المانيا ؛ حتى تصبح مدينة لها ، مما يؤدى الى ابرام تحالف

---

(١٩) Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw : History of the Ottoman Empire and Modern Yurky - Volume 2. London, ,New York Melbourn, 1977, p. 377.

رسمى تركى — المانى • لكن وزارة الخارجية الالمانية كانت حذرة . وأبلغت « سيلر » أنها ستدرس مسألة تقديم المعونة للاتراك . وحذرته من اتخاذ أى خطوة فى هذا الشأن قبل صدور قرارها — كما طلبت منه الا يشترك فى أى ادانة أنجلو — فرنسية للعنف الدائر فى الاسكندرونة(٢٠) •

وعلى صعيد آخر — أشار جميل مردم . فى أول بيان له كرئيس للحكومة السورية — فى يناير ١٩٣٧ — بالمجلس النيابى الجديد . الى قضية الاسكندرونة . فقال : « •• اذا كان علينا أن نتكلم عن المشكلة الخطيرة التى تواجهها سوريا فى بدء عهدها الجديد . وهى مشكلة الاسكندرونة — ولما كان سير الحوادث قريبا جدا . فاننا لا نرى حاجة للتفصيل والافاضة . وحسبنا الآن . أن نقول . أننا ننظر بملء الثقة والطمأنينة الى مستقبل هذه المنطقة العربية منذ أجيال متطاولة . التى لا تستطيع سوريا أن تتخلى عنها والتى تؤيد حقها الصريح فيها الشرائع الدولية الثابتة ، والعهود القائمة • على أننا حريصون — كل الحرص — أن تكون بيننا وبين جارتنا تركيا وشعبها أوثق العلاقات ، وأبقاها مدى الدهر — تلك الصلات التى تؤكدها ذكريات الماضى ، ورغبات الحاضر ، وآمال المستقبل • ونحن نرجو أن تزول هذه السحابة بتنحل المشكلة الخطيرة حلا حاسما ، مستمدا من التاريخ والحق الدولى العام »(٢١) •

توصلت العصبة — فى ٢٦ يناير ١٩٣٧ — الى حل للمشكلة ، يستند الى المادة (٢٢) من ميثاقها ، ويتضمن ذلك الحل . تشكيل لجنة من الخبراء لوضع خطوات ومراحل معالجة ذلك الموقف • تألفت اللجنة ، وبدأت فى مباشرة أعمالها فى جو من النقاش الدبلوماسى الحاد ، وانتهت الى توقيع المفاوضين الفرنسيين على مجموعة من الوثائق فى ٢٩ مايو

---

(٢٠) Frank Weber Op. Cit., p. 13.

(٢١) دكتور نجيب الارمنازى ، المرجع السابق ذكره ، ص ١٠٧

١٩٣٧ — وهى : القانون الاساسى للواء الاسكندرونة . والنظام الادارى الخاص به ، ومعاهدة تضمن سيادته ووحدة أراضيه ، واتفاقية حول الحدود التركية — السورية •

وبموجب هذه الوثائق . منح اللواء استقلالا فى شئونه الداخلية ، بعد أن كان قد جرد من السلاح من قبل . وتعينت الادارة المشتركة لشئونه الجمركية والمالية ، وربطت شئونه الخارجية بدمشق . شريطة ان يحظى كل قرار يتصل باللواء بموافقة مجلس عصبة الأمم • وأصبح حاكم اللواء هو الذى يعين رئيس مجلسه التنفيذى • أما استعمال اللغة العربية ، فلم يعد اجباريا — كما تقرر أن يتم تنفيذ ذلك النظام الادارى . والقانون الاساسى (الدستور) بعد فترة ستة شهور . أى اعتبارا من ٢٩ نوفمبر ١٩٣٧ •

وطبقا للمادة (١٥) من ميثاق العصبة ، كان لابد أن تجرى أولى الانتخابات فى اللواء ، الغرض منها اختيار أعضاء المجلس التنفيذى تحت تنظيم واشراف لجنة يتم اختيارها من مجلس العصبة ، ويتكون أعضاؤها من بلدان أعضاء ذلك المجلس ، من بينهم مندوبا فرنسيا وتركيا • وعليه قرر مجلس العصبة تكوين هذه اللجنة من خمسة أعضاء للاعداد والاشراف على الانتخابات ، على أن يكون رئيسها ، العضو البريطانى « المستر ريد » T. Reid وعضوية كل من ممثل بلجيكا ، والسويد ، وفرنسا ، وتركيا(٢٢) •

أقامت اللجنة فترة قصيرة فى جنيف ، غادرتها بعد ذلك ، فى ١٤ أكتوبر ١٩٣٧ ، متوجهة الى الاسكندرونة ، حيث بقيت هناك حتى ١٩ نوفمبر • وفى خلال اقامة اللجنة فى اللواء ، قامت ببعض التدابير الضرورية المتعلقة باجراء الانتخابات ، وتسجيل أسماء الناخبين • وغادرت اللجنة اللواء فى نهاية نوفمبر ، ثم عقدت جلسات اضافية فى

---

(٢٢) F. O., 406-76, No. 72. (E. 264/29/89), Memorandum from (M. S. Williams), Eastern Department, Foreign Office, (Date in : January 12, 1938) - Respecting the Franco-Turkish Over the Sonjak of Alexandretta.

جنيف ، امتدت من ٣٠ نوفمبر حتى ٣٠ ديسمبر ، لاستكمال خطتها فى التنظيم والاشراف على الانتخابات ، ووضع تقريرها التفصيلى .

كان من المقرر ، أن تجرى الانتخابات — طبقا للميثاق — على مرحلتين : الأولى — للاشخاص الذكور الذين تزيد أعمارهم عن ٢٠ سنة . وحتى يتم حصرهم فى كشوف الانتخابات ، يجب عليهم تسجيل أسمائهم بحضور لجنة مختصة للانتخابات تتكون من سبعة أعضاء ، أحدهم ينتمى الى مذهبهم الدينى . أما فى المرحلة الثانيـة — فيتم توزيع الناخبين طبقا للجماعات السكانية فى اللواء ككل وطبقا للاعداد التى تم حصرها فى المرحلة الاولى(٢٣) .

تحركت الدوائر التركية ، بمجرد سماعها بوجود اللجنة فى اللواء ، وتصرفت على نحو من يدرك ضعف مركزه ازاء حق يدعيه . فقد أرادت العناصر التركية ، بمساعدة القنصل التركى ، وبتأييد غير رسمى من الحكومة التركية أن تمارس ضغط على العناصر غير التركية — بالرشوة ، وبالتهديد — لقيد أسمائهم كأتراك ، وبذلك يمكنهم بطريق غير مباشر ، ارغامهم على التصويت الى الجانب التركى فى الانتخابات — « على أن اللجنة صممت ، مهما كان الامر ، على التصدى لهذه الخطة ، ورفع أى ضغـط على الناخبين لقيـد أسـمائهم فى مجموعات لا ينتمون اليهـا »(٢٤) .

من ناحية أخرى ، تحركت السلطات التركية ، فى مظاهرة مفتعلة تجاه اللجنـة — فبعثت ، فى الثانى من ديسمبر ١٩٣٧ ، بمذكرة الى الحكومة الفرنسية تشكو فيها من أن سلطات الانتداب فى اللواء ، قد مارست ضغوطا « غير شرعية » على لجنـة الانتخابات ، وأن هـذه السـلطات تتآمر بشتى الأسـاليب والنظم الادارية « مما يؤكد أن

(٢٣) — Ibid.

(٢٤) — Ibid.

الانتخابات القادمة فى اللواء سوف لا تكون فى صالح العنصر التركى ، بقدر الامكان »(٢٥) .

وأتبعت السلطات التركية هذه المذكرة ، ببرقية ، مؤرخة فى ١٥ ديسمبر — بعد أسبوعين فقط — الى السكرتارية العامة للعصبة — وكانت هذه البرقية تتضمن جانبين :

الأول : ادعت الحكومة التركية ، أن اللجنة قد اشتركت مع سلطات الانتداب فى اللواء ، فى وضع مسودة نظام الانتخاب . وما يعنى ذلك التشاور من نتائج سلبية — بالنسبة للاتراك — على الانتخابات .

الثانى — هو عبارة عن اعتراض رسمى على نظام الانتخابات نفسه — اذ اعتبرته الحكومة التركية غير قانونى .

وبالنسبة للنقطة الاولى — فقد أوضح « ريد » رئيس اللجنة ، أن نظام الانتخاب الذى تم وضعه ، لم يكن نتيجة لمشاورات تمت بين اللجنة وسلطات الانتداب — بل أن هذه « الاتصالات » التى تمت بين اللجنة وسلطات الانتداب ، كانت تتركز بشكل أساسى على تلقى البيانات والمعلومات من هذه السلطات — لأنه من الواضح ، أنه لا يمكن الحصول على البيانات التفصيلية الا من المسئولين فى اللواء . ومن جهة ثانية ، فان سلطات الانتداب لم تحاول أبدا التأثير على قرار اللجنة ، بل انها لم تحاول أيضا معرفة ذلك القرار — كما قرر رئيس اللجنة — فى رده هذا — أن اللجنة وحدها هى المسئولة عن نظام الانتخاب .

أما بالنسبة للنقطة الثانية — فقد أوضح رئيس اللجنة ، أنه لا توجد أية التزامات على اللجنة ، يضطرها للخضوع لفرنسا كسلطة انتداب ، أو حتى للاذعان لمجلس أو سكرتارية العصبة .

على أننا ، اذا نظرنا الى برقية الحكومة التركية الى عصبة الأمم

---

(٢٥) — Ibid.

بشقيها السايقين ، نجدها تدور حول موضوع الانتخابات المزمع اجراؤها في اللواء في الفترة التالية ، وهو ما كان يفقد الحكومة التركية كثيرا من صوابها . ويجعلها تتشكك في كل تصرف تأتيه اللجنة — وهو ما يجعلنا بالتالي نتوقف قليلا عند أمر الانتخابات لنتبين حقيقة الوضع .

فقد تناولت المادتين أو ١٤ من القانون الأساسي للواء ، حرية الناخبين واختيارهم للجماعات التي ينتمون اليها ، فنصت المادة التاسعة على أن الناخبين في المرحلة الاولى يقيدون أسماؤهم بحضور ممثلي اللجنة المشرفة على عملية القيد ، بينما نصت المادة الرابعة عشرة على أن « كل ناخب سوف يتسلم بطاقة انتخاب واحدة فقط ، تحتوى على أسماء المرشحين للجماعة ، والتي أعلن هو بنفسه انضمامه اليها » . من ناحية أخرى ، فقد احتفظ نظام الانتخاب للجنة ، بالكلمة النهائية ، لتقرر في أي الجماعات ستسجل اسم العضو فيها ، وربما كانت الحكومة التركية تثير النزاع حول هذه النقطة بالذات — لأن اللجنة تحتفظ لنفسها بحق القرار النهائي في تسجيل المواطن ضمن الجماعة التي يرغب في الانضمام اليها — على أن ميثاق العصبة منح هذا الحق لكل ناخب .

واذا كان ما ذهبنا اليه صحيحا — فان ذلك أيضا يفسر بجلاء سبب موقف الحكومة التركية الذي أشرنا اليه ، أو بمعنى آخر ، اذا كانت قضية الانتخابات بالذات محل خلاف بين الجانب التركي واللجنة — فانه لم يكن أمام اللجنة غير اتباع هذا الأسلوب ، لتضمن الوصول الى نتائج مطابقة للواقع ، اذا كانت جادة في القيام بمهمتها . وعلى هذا ، فقد تبين للجنة ، أنه اذا ما اتضح لها أن الناخبين سيكونون في خطر ، نتيجة لوقوعهم تحت تأثير غير قانوني ، فان ذلك هو الطريق الوحيد لحمايتهم ضد هذا الضغط ، ومنحهم حرية حقيقية — وهو أن تأخذ اللجنة على عاتقها مسئولية القرار النهائي ، وحتى تقطع الشك باليقين ، في أي من الجماعات سينضم اليها الناخب . واذا كان ، من وجهة النظر التركية ، ألا يكون للجنة مثل هذا الحق ، فان الانتخابات — كما يقال —

ستكون بكل تأكيد مصحوبة بالشغب واراقة الدماء بشكل واسع .

على أننا — من جهة أخرى — يجب أن نقرر هنا ، بما لا يدعو الى التردد ، أن احتفاظ اللجنة لنفسها بحق القرار النهائى فى تسجيل المواطن ضمن الجماعة التى يرغب فى الانتماء اليها ، وهو ما نص عليه فى القانون الأساسى للواء ، كان يتعارض مع ميثاق عصبة الأمم ، الذى ضمن هذا الحق للمواطن نفسه ، وليس لأى جهة أخرى — لكننا نعتقد أيضا ، أن الظروف التى عاشتها اللجنة ، ولمستها عن قرب ، خاصة فيما يتعلق بالضغوط التركية على الناخبين ، جعلتها تتجه الى ذلك الاسلوب — وهو أيضا ما جعل المستر « بيكيت » Mr. Beckett. — أحد أعضاء اللجنة المنبثقة عن مجلس العصبة يقول فى ملحق للمذكرة التى نحن بصددها : « منذ أن وضعت اللجنة مواد نظام الانتخاب ، عمت الرشاوى التركية والضغوط على الناخبين ، التى أخشى أن تؤثر على أعمال اللجنة .. اننى فى غاية التعجب من هجوم الحكومة التركية على اللجنة(٢٦) .

ذكرنا — فيما سبق — أن اصدار مجموعة الوثائق المتعلقة بالقانون الأساسى (الدستور) ، والنظام الادارى للواء فى ٢٩ مايو ١٩٣٧ — نصت على أن يسرى تطبيقها بعد ستة شهور من اصدراها — أى فى ٢٩ نوفمبر ١٩٣٧ . واعتبارا من هذا التاريخ ، أصبح اللواء منفصلا من الوجهة القانونية عن الكيان السورى ويخضع لاشراف الدولة المنتدبة مباشرة . ومن الطبيعى أن يحدث خلال هذه الشهور الستة ، بين اصدار « تصريح جنيف » ، وبدء سريان تطبيقه ، ردود أفعال متباينة :

فالسوريون : لم ينظروا اليه الا على أنه خداع لهم من جانب فرنسا ، التى قررت فصله عن سوريا تماما ، بكل وسائل القهر والارغام — وقدم « فخرى البارودى » مذكرة الى رئيس مجلس العصبة ،

---

(٢٦) — F. O., Annex (Note by Mr. W. E. Beckett), January 7, 1938 - Registration of Voters for the Assembly of the Sanjak of Alexandretta.

تضمنت الحجج الجغرافية والتاريخية والاقتصادية . التى تثبت أن اللواء جزء لا يتجزأ من سوريا(٢٧) — كما طالب جميل مردم . عصبة الأمم بالحفاظ على وحدة التراب السورى • والواقع أنه لم يكن ق يد الحكومة الوطنية السورية آنذاك من الوسائل . ما يمكنها من تغيير مجرى الأحداث — فقد قاوم المندوب السامى الفرنسى كل محاولة من جانب الكتلة الوطنية لتشكيل فروع لها ق الاسكندرونة وأنطاكية . ورفضت باريس بشكل واضح تعويض خسارة الاسكندرونة بطرابلس الشام . ولما لم تجد الوسائل الدبلوماسية . لجأت الى المظاهرات الشعبية •

أما الاتراك : فقد نظروا اليه على أنه بادرة . توحى بأن « النظام الجديد » يهدف الى ترجيح كفتهم — بأى وسيلة — كأكثرية . تؤدى ق النهاية الى استخلاص اللواء وبسط سيطرتهم عليه ، واعتباره ضمن أقاليم الجمهورية التركية(٢٨) — وعينت الحكومة التركية قنصلا لها ق الاسكندرونة . وآخر ق أنطاكية . واحتجت رسميا — على النحو الذى عرضنا له من قبل — لدى عصبة الأمم . على الاجراءات الانتخابية المنوى العمل بها ق اللواء وأعلنت منذ البداية أنها لن تقبل أية نتائج انتخابية لا تضمن نجاح أغلبية تركية ق المجلس النيابى للواء •

وعلى صعيد آخر — كان استقبال عناصر السكان المختلفة ق اللواء لهذه التطورات متباينة أيضا • فطبقا لتقرير قنصل بريطانيا ق حلب(٢٩) لم تتوحد ردود أفعالهم تجاه تبنى عصبة الأمم لتضيتهم ، على الرغم من أن الغالبية العظمى — المعتدلة — ق أقسام اللواء . قد تجاوبت . وأبدت رضاها للمسيرة السلمية مع القانون الجديد . وتعاونها لخير

---

(٢٧) دكتور على محافظه ، مصدر سابق ، ص ٩١ — ٩٢

(٢٨) F. O., 406 - 76, (E. 311/29/89) - Memorandum from A. W. Davis, Counsul of Aleppo to Mr. Eden (Confidential), No. 121, Dated December 23, 1937 - Recieved, January 17, 1938. —

(٢٩) Ibid. —

اللواء تحت رعاية العصبة • ومهما يكن من أمر . فانهم بالرغم من ذلك ، لم يتركوا مكائدهم فيما بينهم — وهم فى ذلك يستنصرون جهات خارجية : العرب بطبيعة الحال يعتمدون على دمشق . والاتراك يعتمدون على أنقرة . وفيما عدا ذلك . فالعناصر الاخرى تعتمد على النزاهة فى تطبيق الميثاق •

المدهش . والغريب حقا . أن « ويبر » يورد فى مؤلفه « الحياد المراوغ » أمرا فى غاية الخطورة — ذلك أن الامير عبد الله — أمير شرق الاردن — أراد أن يستغل الوضع المتردى فى اللواء لصالحه . فقابل فى يونيو ١٩٣٧ أتاتورك فى أنقره . وعرض عليه — باسم العرب على حد قوله — الموافقة على انتزاع تركيا للاسكندرونة ، فى مقابل تأييد تركيا لاتحاد الاردن مع فلسطين ، كنواة لاتحاد عربى أكبر فى المستقبل — لكن أتاتورك رفض ذلك العرض رفضا قاطعا(٣٠) •

على كل ، فقد استطرد تقرير القنصل البريطانى فى حلب ، قائلا : « ان صراع المكائد بين الطوائف كان بلا شك فى صالح الاتراك ، ذلك لأن الدولة العربية الوليدة ، كان لديها من المشاكل التنظيمة الواضحة الشائكة ، ما جعلها تفشل فى تقديم أى معونة ذات فعالية للعناصر المختلفة — غير التركية — أو تنظيم لمرحلة الانتخاب القادمة — على عكس الوضع بالنسبة للجمهورية التركية ، فقد قوبل نداؤها لمواطنى اللواء بالاقامة فى سوريا أو فى أى مكان ، حتى يحين العودة الى الاسكندرونة لتسجيل أنفسهم كناخبين فيها ، بالحماس والتأييد • هذا فى الوقت الذى أحرزت فيه جهود سوريا فى تنظيم شباب النوادى ، ومنظمات الشباب العربى ، لمواجهة مثيلاتها التركية ، نجاحا محدودا ، وعلى الجانب الآخر ، كان الاتراك أكثر ترابطا وتنظيما وتدريبا

---

(٣٠) Frank Weber, Op. Cit., p. 15. —
ذكر المؤلف هنا انه اعتمد على الوثائق الالمانية — وان ذلك كان فى رسالة بعثها .Keller السفير الالمانى فى انقرة الى وزير خارجيته فى برلين ، بتاريخ ٣٠ يوليو ١٩٣٧ .

وتعضيدا . من خلال ممثليهم فى القنصلية . سواء فى الاسكندرونة . أو أنطاكية — ولديهم أيضا الاعتمادات المالية التى ساعدتهم على النجاح فى حملتهم التمهيدية • فقد كانت نواديهم ومنظماتهم الشبابية منظمة تنظيما دقيقا . وعلى استعداد لمواجهة كل الظروف — كما كان مهاجروهم . الذين بلغوا فى أقل التقديرات (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف مهاجر يقيمون فى تركيا بأماكن لائقة . عادوا (الآن) الى اللواء . واستلم كل واحد منهم من السلطات التركية ٢٥ ليرة . لنفقاته الشخصية — وكان تأثيرهم على العرب (!) — الذين رغبوا فى قيد أسمائهم كأتراك كبيرا » •

من ناحية أخرى . فقد أشار التقرير البريطانى — الذى نحن بصدده — الى محاولة ، قد تبدو غريبة الآن ، للتأليف بين كلا العنصرين ، العرب والاتراك — وذلك لايجاد نوع من التعاون بين الجانبين لصالحهما وتقدمهما فى اللواء ، ككيان منفصل تماما عن كل من سوريا وتركيا • لكن هذا المشروع أو المحاولة — التى كانت بعيدة عن سلطات الانتداب لسوء الحظ — لقيت معارضة بالغة العنف من جانب المتطرفين والمهيجين من كلا الجانبين ، وكانت النتيجة الخطيرة لذلك : هى تهديد أى عربى أو تركى ، باعتباره خائنا للقضية — لذا فقد لقيت هذه المحاولة اخفاقا تاما •

على أية حال — فقد وضع كاتب التقرير المشار اليه نهاية له ، عبارة عن تلخيص عام للحالة التى كانت ماثلة أمامه — فذكر أنه يعتقد (هنا) بصفة خاصة ، أن اتفاق جنيف — الذى تم توقيعه فى ٢٩ مايو من العام (الماضى) — ليس نهاية المطاف • فالاتراك : يتمنون ضم اللواء اليهم ، والعرب ، خائفون من أن يصبح اللواء مرة أخرى احدى المقاطعات التركية ، وأنه ليس هناك من يستطيع أن يتأكد من أن فرنسا سوف تلجأ فى النهاية الى استخدام القوة العسكرية المسلحة ، فيما لو قام الاتراك بمحاولة لاحتلال اللواء • والحقيقة أن المسئولين الفرنسيين هنا ميالون الى القول بشكل عام ، أن بلادهم ليست على استعداد للقتال

من أجل السوريين الذين يجحدون أفضالهم . ويسببون لهم العديد من المتاعب ، بحيث لا يعنيهم فى شيء تبديد هذا الخوف من جانبهم — وهذا الفتور من جانب فرنسا . سواء كان حقيقيا أو ظاهريا . أعطى الأتراك دافعا قويا . لكي يثابرون فى عناد . ويقاتلون فى ضراوة . لكى يحصلوا على كل شيء . ولا يفقدون شيئا .

وفى نهاية شهر يناير ١٩٣٨ — دعا السيد عدلى (الايرانى الجنسية ورئيس مجلس العصبة فى هذه الدورة) — الى عقد جلسة خاصة للمجلس لبحث ما توصلت اليه اللجنة فى عملها . بشأن مشكلة لواء الاسكندرونة — ألقى فيها السيد أندن M. Unden. ممثل السويد تقريرا نيابة عن أعضاء اللجنة . أشار فيه الى الصعوبات التى واجهت عمل اللجنة . والعقبات التى أطلت برأسها مع كل من ممثلى فرنسا وتركيا . وأشار الى أن اللجنة المنبثقة عن المجلس والمؤلفة من « بلجيكا . المملكة المتحدة . فرنسا . السويد . تركيا » — تسعى (الآن) لكى توائم بين وجهات النظر المختلفة ، فيما يتعلق بالنظام الذى سيتبع فى عملية الانتخاب . حتى يصبح نهائيا ومقبولا من جميع الاطراف . كما أشار الى أن عمل هذه اللجنة ، سوف لا يكون معدا قبل انعقاد دورة المجلس التالية . واتمام اللمسات الاخيرة عليه . وعند ذلك يمكن لرئيس المجلس الاتصال فورا بسلطات الانتداب لاعلان هذه التنظيمات باللواء(٣٠) .

على أن الخلاف لم يلبث أن اتسع تدريجيا بين كل من فرنسا وتركيا وبصفة خاصة فيما يتعلق بنظام الانتخاب — وحلت لجنة الانتخابات التى تشكلت لوضع هذا النظام مكان فرنسا فى ذلك الخلاف.

---

(٣٠) — F. O., 406 - 76 (E. 612/29/89), League of Nations, One-Hundredth Session of the Council. Provisional Minutes of the Fifth Meeting (Public), held on Monday, January 31, 1938 - at 6. 15 p. m., (Received in F. O. , February 3.) - President : M. Adle, representative of Iran.

فتشكلت تركيا في كل قرار تقريبا اتخذته اللجنة . لوضع أسس وقواعد نظام عملية الانتخاب — وفي المقابل ، شحذ أعضاء اللجنة مقدرتهم وامكانياتهم في الرد على اعتراضات الجانب التركى . واتسمت تلك الردود في جانب كبير منها بالاستناد الى نصـوص وقواعد القانون الدولى — وتبادل الجانبان الدفاع والهجوم على الطرف الآخر ، حتى بات الأمر وكأنه معركة حقيقية بين خصمين عنيدين .

وفي الفترة بين نهاية يناير ، وأوائل مارس ١٩٣٨ ، كانت اللجنة قد أعدت مسودة القانون الخاص بتنظيم عملية الانتخاب في اللواء — وبادر الجانب التركى في نفس الوقت بتقديم مذكرة ، اعترض فيها على معظم ما جاء في هذه المسودة . وكان أهم ما اعترض عليه الجانب التركى ازاء مسودة اللجنة ، واحتل مساحة واسعة في ذلك الخلاف . ما كان متعلقا بتحديد هوية الفرد وانتمائه الى الجماعة التى سيقيد ضمنها . فعلى حين كانت مسودة اللجنة تتضمن فقرات واضحة تستند الى المنطق ، كانت المذكرة التركية على العكس من ذلك ، غاية في التعقيد ، وتشمل العديد من الاعتراضات .

فقد رأت اللجنة ، أن الديانة واللغة — الى جانب بعض العناصر الاخرى ، يمكن اعتبارها الأساسين المقبولين لتحديد أى الجماعات ينتمى اليها الناخبون — واعتبرت هذين الأساسين ، الوسيلة المقبولة لديها للتفريق بين الجماعات المختلفة ، وتمييز شخص عن آخر .

وحتى تتضح وجهات النظر المتباينة أمام الطرف الآخر ، رأى رئيس اللجنة « المستر ريد » مناقشة كل من مسودة اللجنة ، ومذكرة الاعتراض التركية في آن واحد — فتتلى عناصر المسودة مادة مادة ، ويسأل المندوبين الاتراك ليوضحوا بالتفصيل اعتراضاتهم عليها ، ثم يتولى « المستر ريد » — باعتباره رئيس اللجنة ، الاجابة . وتوضيح وجهة النظر المقابلة — وتستمر دراسة المسودة على ذلك المنوال .

وبدأت هذه الجلسات فى التاسع من مارس ١٩٣٨(٣١) : — وأبدى المندوب التركى : نعمان M. Numan اعتراضاته بعبارات غاية فى « المكر والخداع » — فذكر أنه بينما توجد مجموعات تتكون من عناصر واضحة مثل الاتراك والأرمن . توجد عناصر أخرى لا يمكن تحديد هويتها بشكل مؤكد • فمعيار « الدين » الذى كان يمثل الركيزة الاساسية فى التفرقة بين الاجناس المختلفة تحت الحكم العثمانى . أصبح غير ملائم • أما بالنسبة للمعيار الثانى وهو « اللغة » — فذكر أنه يوجد فى اللواء أعداد كبيرة تتحدث لغتين . ولذلك فان اللغة أيضا لا يمكن أن تكون معيارا للتفرقة بين عناصر السكان(٣٢) — وأضاف المندوب التركى . أن حكومته لا يمكن أن توافق على « توصيات » تعرضها اللجنة على السلطات المحلية • وقد أعرب « نعمان » بوضوح عن عدم ثقته فى أى قرار يصدر عن اللجنة . كما أكد أن الحكومة التركية كانت دائما تحتج بشدة على قيام اللجنة باجراء أى نوع من الاحصاء السكانى للمجموعات المختلفة . وترفض اجراء مثل هذا الاحصاء •

ولم يترك « المستر ريد » — رئيس اللجنة — مندوب تركيا يتمادى فى التقليل من انجازات اللجنة . وذكر أنه يوجد هناك اجراء أساسى يجب القيام به لاتمام أى انتخاب صحيح . وهو تسجيل الناخبين طبقا لانتماءاتهم الفعلية . هذا بالاضافة الى أن اللجنة قد قامت بدراسة مسودة القانون دراسة متأنية وخرجت بنتيجة مفادها أن هذه المسودة التى وضعتها هو الاسلوب الأمثل لتحديد عناصر

---

(٣١) كان مقررا لبدء عقد هذه الجلسات يوم السابع من مارس ، لكن المندوب البلجيكى « المسيو بوركو » Beurqueu طلب تاجيل بدء عقدها مدة يومين حتى يتمكن من اجتياز الاختبارات التى تصادف اجراؤها فى ذلك الوقت ، بجامعة جنيف ، حيث كان مقيدا بها .

(٣٢) F. O., 406 - 76 (E. 1359/29/89), Proceedings of the Committee of the Council appointed to revise the Draft Electoral Law, March 9, 1938. —

المجموعات التى يضمها اللواء بدقة . وحماية الناخبين ضد أى نوع من الارهاب أو الضغط • وقد أعرب « المستر ريد » — من واقع تجربته الشخصية ودراسته لأحوال اللواء — عن ارتياحه العميق للنتائج التى أسفرت عنها جهود اللجنة . فيما عدا بعض الحالات « القليلة جدا » التى يمكن تحديد انتماء كل ناخب للمجموعة التى ينتسب اليها على حدة •

وأمام تصاعد حدة المناقشة بين الطرفين حول هذه النقطة ، تأجلت مناقشتها ، ثم تركت معلقة •

لم يقتصر الخلاف بين الجانب التركى ولجنة الانتخابات على تحديد هوية الفرد وانتمائه الى جماعته — بل شمل ذلك الخلاف أيضا عدة جوانب أخرى ، من أبرزها ما جرت المناقشة بشأنه فى تعيين وتحديد لجان خدمة ومراجعة عملية الانتخاب نفسها — وهى التى يمكن تسميتها « بلجان الاقتراع » تمييزا لها عن لجنة الانتخاب الرئيسية — ولجان الاقتراع هذه ، هى التى ستتولى حصر جداول الانتخاب ، وقيد أصوات الناخبين للمرشحين ، والتأكد من هوية كل ناخب وانتمائه لجماعته ، وغير ذلك من المراحل التنفيذية لعملية الانتخاب ، والتى تضمنت مسودة اللجنة تفصيلات اجراءاتها • وقد كان اعتراض الجانب التركى حول هذا الموضوع منصبا على التدابير الواجب اتخاذها لتشكيل هذه اللجان ، وضرورة أن يكون هناك تمثيل لكل جماعة بمندوب عنها فى كل لجنة ، بدون اعتراض أو موافقة لجنة الانتخابات • وقد أشار « ريد » فى رده على هذا الاعتراض ، أن ذلك « سوف يقودنا الى متاعب لا تنتهى ، خاصة عندما انقسمت الجماعات نفسها الى أحزاب كثيرة ، وأن أمام المندوبين طريق واحد يجب عليهم أن يسلكوه ، وهو أن يتركوا للناخبين حرية الاختيار من هذه الاحزاب المختلفة لكل جماعة ، حضور مندوبين عنها كأعضاء فى هذه اللجان(٣٣) •

---

(٣٣) — Ibid.

ولم يبد « نعمان » مندوب تركيا أى تعليق حول كلام « ريد » — بل انه أكد بشدة على ضرورة منح الفرصة كاملة لكل جماعة — بدون استثناء — وبكل عناصرها الحزبية . للاشتراك فى لجان الاقتراع بكل حى . بعض النظر عن الجماعات التى يمثلها ذلك الحى .

وهنا يبدو واضحا من موقف الجانب التركى . أن الهدف الـذى يرمى اليه هو تمكين الحكومة التركية من ارسال مجموعات « مختارة » من الاتراك لكل صندوق اقتراع فى اللواء — بينما . وفى نفس الوقت . ستجد الجماعات غير التركية صعوبات جمة لايجاد أشخاص مناسبين لها : لارسالهم الى الأحياء . التى لا تتوفر فيها أغلبية تنتمى اليها .

على أية حال — فبينما كان هذا الخلاف ، وذلك الصدام ، على المستوى الرسمى . أى بين أعضاء لجنة الانتخاب المنبثقة عن العصبة . وبين ممثل الحكومة التركية . وهـو ما أوضحته الوثائق والتقـارير الرسمية . كان للاشخاص الذين عاصروا هذه الأحداث وجهات نظرهم . التى لا يمكن اغفالها بحال . وحتى تكتمل جوانب هذه الصورة . نوجز فيما يلى تقريرا مطولا . أشبه بخطاب خاص أو مذكرة شخصية ، لأحد الذين عملوا فى هذه القضية . وهو « المستر رندل » Mr. G. W. Rendel واحتفظت به الخارجية البريطانية . يقول التقرير(٣٤) :

« لقد تسلمنا يوم السبت الماضى رسالتين عن طريق البريد الجوى ، من عصبة الأمم . ومن السفارة التركية ، الاولى تتضمن مسودة قانون الانتخاب والثانية صورة من مذكرة الاعتراض التركية عليها — وقمنا بتدارسها فى القطار وتبادل الرأى مع المستر ريد ، الذى كان مسافرا معنا . لقد كان من الواضح أن هناك نقطة وحيـدة تحتل الأهميـة القصوى — تلك هى طريقة تسجيل الناخبين فى المجموعات السكانية ..

---

(٣٤) — F. O., (E. 1358/29/89), Marth 11, 1938, Proceeding of the Council appointed to revise the Draft Electoral Law (March 1918) - Note No. 1.

لقد نظر المستر ريد بعين الاعتبار الى نص القانون وما يهدف اليه — ثم أوضح . أنه سيكون من المستحيل تماما بالنسبة له . أن يستمر على رأس اللجنة . اذا وقع أى شيء ينم عن الخداع • والحقيقة ، فقد قرر أن أى لجنة للانتخابات تحترم نفسها . لا يمكن أن تعمل بموجب ما جاء بها . فانه يجب عندئذ أن نتعامل مع (حمامات الدم) التى ستجرى فى اللواء » واستطرد التقرير قائلا : « بمجرد وصولنا الى جنيف . أردت أن أتصل بالمندوبين الفرنسيين . وذهبت مع « المستر بوكر » Mr. Bowker لزيارة كل من « المسيو دى تسان » De Tessan و « المسيو لجاردى Lagarde وسألانى عما أعتقده فيما يتعلق بالمذكرة التركية المضادة . فأجبتهما اننى ما جئت هنا الا لأستطلع وجهتى نظرهما — عندئذ انطلقا فى تفسيرات مطولة ، توضح بجلاء وجهة النظر الفرنسية • فقد أوضحا ، أن المشكلة « سياسية بكل معنى الكلمة ، وتعود فى أصولها الى جذور سياسية ، وأنه يجب — لدوافع السياسة الدولية . مواجهة التطلعات التركية • وقد تم التوصل الى هذا القرار فى يناير ١٩٣٧ ، ولا يمكن العودة فيه الآن • ثم أضافا : أن الاتراك يكونون حاليا فى الواء ما قدره ٤٠ بالمائة على الأقل من مجموع سكانه ويشكلون مجموعة متكتلة ، ويشكل الأرمينيون أيضا مجموعة متكتلة ، ويصلون فى الغالب الى ١٥ بالمائة من مجموع السكان — ويمكن لهاتين المجموعتين أن يقيدا على أنهما أتراك • والأرمينيون يشعرون بالولاء للاتراك ، بصرف النظر عن أية تدابير تضمنتها مذكرة اللجنة — لكنة من الصعب التعرف على المجموعات الاخرى . فقد تصاهرت سلالاتهم مع الأتراك . ويمكن أن يشكلون أغلبية بعد سنوات قليلة ، ولا يمكن أن يحيق بسوريا ضرر حقيقى اذا اطمأنت هذه الأغلبية لأوضاعها •• ولذلك فان الفرنسيين يتهيأون للاذعان للاغلبية (من الاتراك والأرمن) — والتى قد تصل الى ٥٢ أو ٥٣ أو حتى ٥٥ بالمائة — كما أنهم مستعدون تماما لكل الاحتمالات المتوقعة ••

واستطرد كاتب ذلك التقرير يقول : « بينما كنت أعيد قراءة

المذكرة التركية المضادة لمسودة لجنة الانتخاب . أدركت ما كان يسعى اليه الاتراك من وراء طرح هذه المذكرة — وتخيلت أنه يمكنهم — على أحسن الفروض — أن يحصلوا كأغلبية . على ٧٠ أو حتى ٨٠ بالمائة بدون أدنى صعوبة • وعلى الرغم من أن هذه الأغلبية ستكون بالتأكيد زائفة . لكن يجب « علينا » أن نمكن الاتراك من الحصول على مبتغاهم فى اللواء . لأنه سيكون من السهل عليهم جدا بعد ذلك عمل الترتيبات الشكلية تلقائيا . اذ سيطالبون حينئذ باجراء استفتاء عام . وهذا الاستفتاء سيؤدى بالضرورة الى الاتحاد مع تركيا — وأمام هذه الحقائق . فانه يصعب علينا مقاومة ذلك التخطيط • من جهة أخرى . فان هذا التخطيط ، أو الاسلوب ، الذى قد يفيد فى حالة مثل لواء الاسكندرونة . فانه ليس بالضرورة مفيدا فى مناطق أخرى ، كانت تطلعات المسئولين الاتراك تسعى حثيثا لضمها الى الجمهورية التركية ، مثل منطقة الموصل ! •• لقد تحركت مشاعر الفرنسيين الذين تحادثت معهم فى هذه القضية من مجرد الاشارة الى ذلك الخاطر ، ومنذ أن حصلوا على ما يقارب ٢٤ بالمائة ، كحصة من بترول الموصل • لقد سببت تلك التطورات التى وقعت بعد ذلك كثيرا من الارتباك بشكل عام •• أليس من الحكمة الآن التنازل عن طيب خاطر للاتراك بما تسمح به الظروف ، وقبل أن تتعقد الأمور . ويصبح من الصعب معالجتها ؟ •

واضح من هذا التقرير « الخاص » — الذى بعث به « رندل » الى حكومته أنه يحمل دلالات على قدر كبير من الاهمية فى سير أحداث هذه القضية — نستطيع أن نحددها فى النقاط التالية :

أولا — أن السكان فى اللواء تبلغ نسب أعدادهم التقريبية من وجهة نظره ، حوالى ٤٥ بالمائة للعرب ، و ٤٠ بالمائة للاتراك ، و ١٥ بالمائة للارمن وغيرهم • وأن تقارب نسبة عدد العرب فى اللواء بالنسبة لعدد الأتراك فيه ، قد جعل أهمية الأقليات الاخرى — الارمن وغيرهم — تزداد خطورتها وفاعليتها ، بانضمامها الى أحد الجانبين ،

لترجحه على الجانب الآخر — ومن هنا : كانت خطة الأتراك لترجيح كفتهم تسير في ثلاثة خطوط متوازية :

(أ) تهجير أكبر عدد ممكن من الشباب التركى المقيم بالقرب من اللواء تحت « مظلة النوادى الشبابية » . واثارة حماسهم وتشجيعهم معنويا وأدبيا .

(ب) استقطاب العناصر الارمنية ، والاقليات الاخرى ، بالارهاب والرشوة ، وكافة الاساليب المختلفة ، ليقيدوا أنفسهم على أنهم أتراك .

(جـ) استمالة بعض العناصر العربية — خاصة المشتركه — والتى ترتبط بالمصاهرة بعناصر تركية .

ثانيا — أن « دوافع السياسة الدولية » التى أشار اليها المتحدثون الفرنسيون مع « رندل » — ربما كان القصد منها محاولة ارضاء تركيا بقدر المستطاع ، حتى لا تميل الى جانب المانيا ، التى تزايدت حدة الأزمات معها قبيل الحرب العالمية الثانية — ولا شك أن المندوب التركى قد أتقن الضرب على هذا الوتر ، ملوحا في مناسبات مختلفة الى هذا الاتجاه ، حتى باتت فرنسا « متهيئة للاذعان » لرغبات تركيا .

ثالثا — أن العناصر التركية في اللواء — رغم أقليتها عن العناصر العربية — كانت في الوقت نفسه « عناصر حركية » . تستجيب لتوجيهات قياداتها ، وتتحرك في اطار مرسوم نحو هدف محدد — وفي معظم الحالات ، فان مثل هذه العناصر ، يتعدى دورها وتأثيرها حجمها العددى . ولعل أبرز مثل على ذلك . ما وقع في فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما لم يتجاوز عدد اليهود حينئذ ٣٥ بالمائة في أحسن الفروض — بالنسبة للعرب ، ومع ذلك استطاع هؤلاء اليهود أن يفرضوا ارادتهم على الأغلبية العربية .

رابعا — أن القناعة التى توصل اليها الفرنسيون « بالاذعان » لرغبات تركيا ، فقد بدأت تتسرب الى حليفتها انجلترا ، عن طريق خبرائها الانجليز — مثل رندل — حتى وان كان الساسة الانجليز أنفسهم لا يرون نفس الرؤية الفرنسية من قبل — فبدأ يحثهم على التنازل « عن طيب خاطر » للاتراك . بما تسمح به الظروف . قبل أن تتعقد الامور ، ويصبح من الصعب معالجتها .

وفى تتبع لمجريات الاحداث ، تشير الوثائق البريطانية . الى أن اللجنة عقدت اجتماعاتها التالية بعد ظهر يوم ١٠ مارس ١٩٣٨ . وبدأت المناقشة بطرح سؤال ، يتضمن ما اذا كان الاتجاه هو الاخذ بالقواعد التى وضعتها اللجنة ، أو تبنى وجهة النظر التركية . وبعد أن استمع الحاضرون الى الاسباب التى عرضها السيد « منيمين أوغلو » Menemencioglu المندوب التركى — لتفضيله ما جاء بالمذكرة التركية : قام رئيس اللجنة وفند ما جاء على لسان المندوب التركى ، مبينا الأسس التى اعتمدت عليها مذكرة اللجنة ، وأجاب فى نفس الوقت على بعض الاستفسارات التى أبداها مندوب تركيا . ثم استمر المجتمعون فى النهج الذى ساروا عليه من قبل ، من حيث طرح مواد قانون الانتخاب الذى وضعته اللجنة مادة مادة ، والاستماع الى رأى المندوب التركى فى كل منها — وبدأوا من حيث انتهوا فى الاجتماع السابق ، وادعى كل جانب — من وجهة نظره على الاقل — حرصه التام على ضمان أكبر قدر من الحرية لسكان اللواء ، فى اختيار الجماعات التى سينتمون اليها فى عملية الانتخاب ، وانفض الاجتماع ، بالاتفاق على استئناف عقده فى اليوم التالى(٣٥) .

اجتمعت اللجنة — للمرة الثانية — فى صباح يوم ١١ مارس ،

---

(٣٥) — F. O., 406-76 (E. 1445/29/89), Proceeding of the Committee of the Council appointed to Revise the Draft Electoral Law, March, 1938. Note No. 3, (Received in Foreign Office March 15), Confidential Record by Mr. Bowker.

واستمرت فى القراءة الاولى لمسودة قانون الانتخاب على ضوء اقتراحات الجانب التركى — وبناء على التفصيلات الدقيقة التى أبداها رئيس اللجنة ، أعد المستر « دى هالر » .De Haller بيان بالمواد التى جرى عليها التعديل نتيجة لتلك المناقشات وتقرر عقد جلسة أخرى فى صباح اليوم التالى . لمناقشة المسودة فى شكلها النهائى • وفى مساء ذلك اليوم أيضا . عقد اجتماع مصغر . ضم المندوب البلجيكى ، والمندوب الفرنسى . وواحد من أعضاء الوفد التركى — كان الغرض منه مناقشة وتحديد الجهة التى ستتولى فض النزاعات التى تنشأ عند التطبيق ، واتفق من حيث المبدأ ، على أن أفضل السبل هو تشكيل محكمة لهذا الغرض من أعضاء اللجنة . واتفق على مناقشة هذا الاقتراح فيما بعد(٣٦) •

وفى تقرير خطى ، بعث به رئيس اللجنة « المستر رندل » G. W. Rendel. من روما فى ١٨ مارس ١٩٣٨ — ويبدو أنه قد تولى رئاسة اللجنة بعد ريد — أشار فيه الى أنه عندما استؤنفت المناقشات الخاصة بمسألة تسجيل الأسماء فى الجماعات التى ينتمون اليها ، قام « رندل » بجهد كبير لتاكيد أنه فى حالة اذا ما تبين أن الناخب قد قام بتسجيل نفسه فى مجموعة ، لم يكن هو فى الاصل تابع لها ، يجرى تحقيق بناء على التماس من ممثل المجموعة التى كان ينتمى اليها ذلك الناخب واذا ما ظهر أن الناخب قد نقل اسمه من المجموعة التى كان ينتمى اليها الى مجموعة أخرى مختلفة تماما ، فانه فى هذه الحالة سيقال له : « انه حر تماما فى تغيير مجموعته التى ينتمى اليها ، لكن ذلك سيكون لمرة واحدة فقط — وأنه من الآن فصاعدا ، سيكون تابعا لمجموعته الجديدة ، بكل ما يستتبع ذلك التغيير من حقوق أو واجبات »• وكان هدفى — على حد تعبير رئيس اللجنة — من وراء التعجيل بهذه

---

(٣٦) — F. O., 406-76, (E. 1446/29/89), Alexandretta. Proceedings of Committee of the Council appointed to revise the Draft Electoral Law, March, 1938 - Note No. 4 - Received in Foreign Office, March 15.

الخطوة . هو تشتيت جهود الاتراك . ذلك أن الغالبية العظمى من العرب . والعناصر المستعربة . سوف ترغم بشتى الاساليب غير المشروعة لتسجيل أسمائهم كاتراك . دون ادراك لعاقبة هذا التصرف . وقد طرح اقتراح فى هذا الشأن . يقضى بأن يتسلم الناخب فى أثناء تسجيل اسمه . بطاقة ذات لون مميز لكل جماعة من الجماعات — عند ذلك يسهل معرفة أى شخص انضم الى الجانب التركى دون أن يحمل البطاقة ذات اللون المخصص للجماعة التركية . وفى هذه الحالة تجرى معاقبته بمعرفة السلطات التركية فى أنقرة . وأكد رئيس اللجنة . أنه بهذه الطريقة لن يجرؤ أحد من العناصر غير التركية على تسجيل اسمه ضمن الاتراك فى ظل ذلك النظام . خاصة اذا أقسم يمين الولاء . والاخلاص لجماعته عند استلامه بطاقته . كما يفعل الاتراك مع جماعتهم(٣٧) .

واختتم « رندل » تقريره هذا ، بقوله : « يسود اللجنة شعور واضح بالقلق ازاء الاذعان لمعظم المطالب التركية . دون اعتراض يذكر — وفى مقابل ذلك . وأمام التعليمات التى صدرت . وتسلمتها قبل المجيء الى جنيف . فاننى أشعر باليأس ازاء هذه الظروف . لقد قبلت جميع المطالب التركية . ويمكن للاتراك (الآن) أن يتأكدوا ، من أن معظم العرب ، والمستعربين ، ان لم يكن الأرمن ، واليونان الأرثوذكس أيضا . قد قيدوا أسماءهم كاتراك — وهذا من شأنه أن يجعل الهيئة التشريعية الجديدة فى غالبيتها العظمى التركية . ويمكن القول (الآن) باطمئنان . أن المشكلة أصبحت مسألة وقت ، قبل اتمام الاجراءات اللازمة لاتمام عملية دمج اللواء فى تركيا .

وفى ختام تقريره ، ألقى « رندل » مفاجأته ، معلنا استقالته من اللجنة ، حيث قال : « وبالوصول الى هذه النتيجة ، فاننى أرى أن

(٣٧) — F. O., 406-76, (E. 1622/29/89), Alexandrtta., Proceedings of Committee of the Council appointed to revise the Draft Electoral Law March 18, 11938 - Note No. 7.

اللجنة تبدو لى وكأنها قد فقدت كل صلاحياتها ، ولذلك فقد قررت — بدون تردد — مغادرة جنيف هذا المساء »(٣٨) •

واضح من ذلك ، أن الغضب والتوتر قد استبدا برئيس اللجنة ، مما جعله يتخلى عن مهمته ، التى تولاها من بعده المستر بوكر Mr. Bowker. الذى مر بنا ذكره من قبل — والذى أورد فى أول تقرير له بعد توليه مهامه ، نفس الآراء — تقريبا — التى سبقه اليها « المستر رندل » من قبل • لكنه أضاف فيما يتعلق بتشكيل المحكمة التى ستتولى فض النزاعات ، التى قد تنشأ عند تطبيق قانون الانتخاب ، أنه قد تم الاتفاق على انشاء « محكمة خاصة » ، تتألف من قاض واثنين مساعدين ، تكون بلادهما أعضاء فى عصبة الامم ، واثنين آخرين أحدهما فرنسى والآخر تركى •

وفى تقرير « بوكر » التالى ، المؤرخ فى ٢١ مارس ١٩٣٨ — أوضح أن المناقشات بين اللجنة والمندوب التركى قد استمرت بالشكل التى كانت عليه فى الأيام السابقة ، لكن نتائجها اختلفت ، بعد أن عمدت اللجنة الى قبول الاعتراضات التركية ، وتعديل مسودة الانتخابات بما يلائم الاتراك — وفى هذا الصدد اختتم « بوكر » تقريره بقوله : « على ضوء هذه التنظيمات المعدلة ، فانه سيكون من المستبعد بالنسبة للبعثة أن تضمن انتخابات نزيهة ، وأن على العنصر التركى فى اللواء ، والذى لا تزيد نسبته عن ٤٠ بالمائة ، أن يطمئن الى حصوله على ٨٠ بالمائة من مقاعد المجلس التنفيذى »(٣٩) •

وفى ٢٣ مايو ١٩٣٨ — أى بعد شهرين ، بعث « بوكر » بتقريره التالى مشيرا الى استمرار المناقشات الحادة التى جرت بين أعضاء

---

(٣٨) — Ibid.

(٣٩) — F. O., 406-76, (E. 167/29/89).
Report on the Proceedings of the Committee of Five respecting the Sanjak of Alexandretta.
(dated, March 21, 1938).

اللجنة والمندوب التركى الذى استغل عدم دراية لجان الاقتراح بالأوضاع المحلية . خاصة فيما يتعلق بالديانة وأثار عاصفة من الاحتجاج لدى عصبة الامم . عن طريق المندوب التركى الدائم فى جنيف • فقد قيدت بعض هذه اللجان أفرادا بها . يدينون بالمذهب السنى على أنهم أقليات Snni Moslems . وأدرجتهم فى قوائم التسجيل تحت مسمى « جماعات أخرى » Other Communities. — وكان بينهم أتراكا بالفعل . فى أغلب الاحتمالات — وتطرقت المناقشات الحامية بين الجانبين حول مفهوم « الجماعات الاخرى » وما هو المقصود بتلك الجماعات • الطريف — أن هذه اللجان . اعتبرت كل من « اللاتينى . والمارونى . والأرثوذكس الشرقى . والاسرائيلى . والدرزى . الاسماعيلى والجركسى » ينطبق عليه مسمى « الجماعات الاخرى » . مما كان سببا فى دفع المندوب التركى لأن يقيم الدنيا . ولا يقعدها •

وانتهى ذلك الخلاف الطارىء — بعد جدل عنيف — الى أنه اذا كان قد تم قيد عدد من الاشخاص طبقا للمفهوم السابق للجان عن « الجماعات الاخرى » — وكان عددها ضئيل للغاية . فان الامر يتطلب أن تبقى على ما هى عليه . على أن يتم تعديل القيد ، طبقا للمفهوم الصحيح(٤٠) •

وأثار « بوكر » فى هذا التقرير . الى أن كلتا الحكومتين ، الفرنسية والتركية قد حثتا اللجنة على التعجيل بانهاء عملية الانتخاب فى أقرب وقت ممكن . وأنهما فى ذلك لا يطالبانها بما هو فوق طاقتها — ثم أعربتا عن ثقتهما باللجنة . وقدرتها فى تجاوز كل العقبات •

---

(٤٠) — F. O., 406-76, (E. 3020I29/89), Further Meeting of the League Committee of Five which drew up the Revised Regulations for the Elections in the Sanjak of Alxandretta. (Cofidential Record by Mr. Bowker) - May 23, 1938.

تزايدت في هذه الفترة اشاعات حول اتفاق تم عقده بين الحكومة الفرنسية والحكومة التركية . وتناولته الصحافة المحلية بالتلميح حينا وبالتصريح أحيانا . ووصل الى أسماع أعضاء اللجنة بعضا من تلك الاشاعات ولم يستطع أعضاء اللجنة تكتم ما تناثر من هذه الاشاعات . خاصة وأنها كانت تتعلق بالانتخابات التي يجرى (حاليا) الاستعداد لها • لذلك . أشار « بوكر » في تقريره التالي . المؤرخ في ١٤ يونيو ١٩٣٨ — (٤١) . الى هذا التطور الجديد . وقال : انني سألت المندوب الفرنسي — لمجرد الاستفهام — عن تلك التلميحات المختلفة . التي صدرت في أوساط متعددة عن تلك الاتفاقية الفرنسية التركية . حول نتيجة الانتخابات •• وقد أفاد أحد أعضاء الوفد الفرنسي وهو المسيو « لجاردى » . بأن كلا الحكومتين : الفرنسية والتركية : تعملان بتفاهم على أساس أن هناك أغلبية تركية في اللواء . وأنه في ظل هذا التفاهم : قد ضمنت الحكومة الفرنسية . في حالة اذا بلغ عدد الاعضاء الاتراك الفائزون في الانتخابات أقل من عشرين عضوا (علما : بأن اجمالي عدد أعضاء المجلس التنفيذي في الاسكندرونة أربعين عضوا) — فان سلطات الانتداب ستقوم باغراء العدد اللازم من العناصر غير التركية بالانضمام الى المندوبين الاتراك : بحيث يرتفع عددهم الى ما لا يقل عن اثنين وعشرين عضوا — ثم أضاف العضو الفرنسي . أن هذا من غير شك لا يعتبر تفسيرا للاتفاق الذي تم توقيعه مع الحكومة الفرنسية وقبلته — لكن « بوكر » عبر عن رأيه في مسألة الاتفاق الفرنسي التركي قائلا : « في الحقيقة . يبدو أن هذا الاتفاق يكتنفه بعض الغموض . اذ يبدو أنه ليس اتفاقا بالمعنى المعروف . بقدر ما هو مراسلات مكتوبة من جانب الاتراك الى الجانب الفرنسي : على حين أن الجانب الفرنسي اكتفى بموافقته عليها شفاهة •• » •

---

(٤١) — F. O., 406-76 (E. 3548/29/89). Further Meeting of the League Committee of Five which drew up the Revised Regulations for the Elections in the Sanjak of Alexandretta. (Confidential Record by Mr. Bowker), June 14, 1938.

وبمجرد اطلاع الحكومة البريطانية على ما يجرى فى الخفاء بين فرنسا وتركيا (كما استطرد التقرير يقول) — أعربت حكومة جلالته عن سخطها لكل من أنقره وباريس . لما أسمته باتفاق « الجنتلمان » بين الجانبين gentleman's agreements — لكنها اعتقدت أنه بقليل من « الحصافة » — أمام هذا التصرف يمكن أن يستمر عمل اللجنــة فى المستقبل .

وقد أشار المندوب البلجيكى فى اللجنة . الى أنه أمام هذه الظروف يجب أن نتعامل مع الوضع الراهن . ومعالجة الامور فى الحدود التى رسمت لها — واقترح فى ضوء هذه التطورات . أن تحاول اللجنــة — بقدر الامكان — أن تبدو فى شكل أكثر جاذبية ، على اعتبار أنه قد أصبح لها دور محدود لا يمكنها تجاوزه .

وفى ختام هذا التقرير . أشار « بوكر » الى أن هناك اتهامات مختلفة وجهت الى اللجنة — منها أنها تجاوزت حدود اختصاصاتها ، بتحريضها العناصر غير التركية فى اللواء ضد الاتراك ، معرضة بذلك التعاون بين الحكومة الفرنسية والتركية للخطر — بالاضافة الى أنها تحاول تمديد فترة اجراءات الانتخابات ، التى تحدد لها بشكل نهائى يوم ١٥ يوليو (القادم) • ثم بين أن موقف اللجنة قد أصبح صعبا للغاية . فى الوقت الذى لم تتلق فيه أى تعضيد من أى جهة كانت ، وفوق ذلك . كان عليها أن تعمل فى مناخ يزداد قلقا وتوترا ، وانتقادات عدائية من الحكومة التركية • ثم أخيرا . علمت اللجنة أن السلطات المحلية تسعى بأقصى طاقاتها لتحد من حرية الاختيار ، فى حالة التسجيل ، الذى يعتبر الاساس الرئيسى ، الذى تقوم عليه عملية الانتخابات .

ولذلك ، لا نعجب — كما أضاف التقرير — اذا ما اعتبرت اللجنة نفسها ، وفقا لتعاملها مع الفرنسيين والاتراك ، أن مهمتها هى توزيع الحصص عليهما .

كان التقرير السابق ، الذى أشرنا اليه ، هو آخر تقارير لجنة الانتخابات ، المنبثقة عن عصبة الأمم ، اثناء تواجدها على أرض لواء الاسكندرونة وتحتفظ به « وثائق الخارجية البريطانية » — وفيه تحددت ملامح الصورة — تقريبا خلال الأسابيع الأربعة التالية ، حيث تقرر اجراء الانتخابات فى منتصف شهر يوليو ١٩٣٨ • وتبين بوضوح من خلاله عقد اتفاق شبه رسمى (جنتلمان) بين الحكومتين الفرنسية والتركية ، بدأت تتسرب أنباؤه عن طريق الدوائر الصحفية وغير الرسمية وربما عن طريق أجهزة الدعاية والاعلان ، بقصد التأثير على سير اجراءات الانتخابات خاصة من الجانب التركى • وأكد وجود مثل هذا الاتفاق ، تلك التصرفات التى بدأت تصدر عن كلا الجانبين ، الفرنسى والتركى ازاء الاسكندرونة ، من حيث تشدد الاتراك فى هجومهم على لجان الانتخاب ، وأعضاء اللجنة الرئيسية ، واتهامهم بشتى أنواع التهم ، مما أدى الى تبديد طاقاتها فيما لا طائل من ورائه — على حين وقف الفرنسيون موقفا سلبيا من تعدى الاتراك على اللواء الذى انتدبوا عليه من قبل العصبة — وكان هذا الموقف الفرنسى ، ازاء العنت التركى ، دليل على ذلك التواطؤ ، الذى شمله هذا الاتفاق • وقد أدى هذا الوضع الى شلل فى أعمال اللجنة ، ولم يعد فى امكانها — حتى وان أرادت — أن تؤدى التزاماتها المكلفة بها • أما عن انعكاسات هذه الامور على الاوضاع فى اللواء ، فيعبر عنها تقريرين أحدهما من أنقره ، والآخر من حلب •

فقد بعث قنصل بريطانيا فى أنقره « المستر مورجان » Mr. Morgan بتقرير الى رئيس الحكومة البريطانية « الفيكونت هاليفاكس » — Viscount Halifax. مؤرخ فى الثامن عشر من يونيو ١٩٣٨ (٤٢) —

---

(٤٢) — F. O., No. 307 (E. 3717/29/89), From Mr. Morgan, to Viscount Halifax. (Received June 23) - Dated, Angora, June 18, 1938.

يقول فيه : « لقد انهار سيل القدح والشتائم من الاتراك الرسميين والصحفيين ضد فرنسا . وهو الآن ينهمر ضد عصبة الأمم ولجنة العصبة . التى توجد حاليا فى اللواء — وقد تردد هنا . أن الحل الملائم بالنسبة لمشكلة « هتاى » — وهو الاسم الذى استبدل به اسم الاسكندرونة » . على الاقل بالنسبة للاتراك . هو أن تدخل بعض « الطوابير » التركية الى اللواء لتتعاون مع بعض الوحدات الفرنسية هناك . طبقا لاتفاق « الجنتلمان » . الذى يقال أنه قد تم ابرامه فى جنيف . والذى يقضى — حسب ما تردد هنا — بأن تسفر الانتخابات المزمع اجراؤها فى منتصف الشهر القادم على أغلبية تركية • وترى وجهة النظر التركية . أنه يجب على بعثة عصبة الأمم « الآن » أن تتوارى عن الانظار — وتتهم فى الوقت نفسه : الفرنسيين بأنهم يشجعون العناصر المعادية للاتراك ، بحيث صارت الاعداد التركية فى اللواء تبدو أقل من حجمها الحقيقى • وقد أخبرنى منذ أيام السفير الفرنسى فى أنقره . أن الدكتور « توفيق روستو آرا » Dr. Teufik Rustu Ara قد استخدم أسلوبا أكثر تحتيرا ، فى الحديث عن عصبة الأمم — واختتم القنصل تقريره بفقرة من خطاب وصله ، من أحد الأشخاص ، يدعى « فالح رفقى عطية » Falih Rifki Atay يقول فيه : « •• يمكننا الآن أن نطرح سؤالا ، طالما تردد فى ذهن شعبنا فترة من الزمن •• ألم يحن الوقت بعد ، لكى تعتبر تركيا مشكلة العلاقات مع عصبة الأمم وحتى مشكلة عضويتها ، قد أصبحت غير ذات موضوع ؟ » •

أما القنصل البريطانى فى حلب ، فقد بعث الى حكومته ، يقول : « لى الشرف أن أقرر لفخامتكم أن فرنسا لم تعد قادرة على حماية مصالح العرب فى اللواء ضد تركيا ، التى أثارت مشاعر الفزع فى حلب ، وأصبح القلق مسيطرا على العناصر الوطنية السورية ، فى الوقت الذى انطلقت فيه الدعاية التركية على هيئة منشورات ، تدعو فيها العرب الى الاتحاد مع تركيا « القوة الوحيدة فى الشرق الاوسط ، القادرة

على دفع التسلط الخارجى » — ورغم أن اثنين من الدعاة الاتراك قد تم القبض عليهما فى حلب ، وزعما أنهما مسئولان عن هذه المنشورات ، فليس هناك ما يدعو الى الاعتقاد أنه كان معهما ما يؤيد انضمامهما الى الحركة التركية(٤٣) • ومن ناحية أخرى . انعكست الأحداث الجارية (الآن) فى اللــواء على مشــاعر الوطنيين تجاه قادتهم فى الحكومة السورية — وقد ظهر ذلك بجلاء فى الاسبوع الماضى . أثناء زيارة قام بها لحلب « سعد الله الجابرى » . الذى يعمل وزيرا للداخلية والخارجية فى وقت واحد . وألقى كلمة ضافية من منبر المسجد الرئيسى بالمدينة . بعد أداء صلاة الجمعة — وقوبلت كلمته ببرود شــديد أعقبها عودة ذلك « الداء المزمن » — حيث اندلعت النزاعات والصراعات وأعمال الشغب بين العناصر المختلفة التى تتشيع الى جهات مختلفة داخــل الكتلة الوطنية • وقد اضطر زعيم احدى هذه الجماعات فى حلــب « الدكتور حســن فؤاد ابراهيم باشا » الى التخلى عن موقعه فى القيادة ، رغم كثرة مؤيديه •

لاشك أن تلك الشهور القليلة التى سبقت عملية الانتخابات فى لواء الاسكندرونة ، كانت الحاسمة فى القضــية — ومن واقــع تلك « الوثائق » التى عرضنا لها على الصفحات السابقة ، كانت المجابهة بين العرب والاتراك غير متكافئة • فالاتراك ، يساندهم دعم خارجى قوى ، وهم منظمون ، ويتمتعون بالخبرة النضالية للحركة الكمالية ، والعرب منقسمون على أنفســهم . تضطهدهم ســلطات الانتداب الفرنسية ، وتدعم خصومهم الاتراك • وكان لابد — بناء على ذلك — أن تمضى الأحداث فى مسيرة حددت لها من قبل • فقد زورت الانتخابات، وأحرز الاتراك (٢٢ مقعدا) ، والعرب (١٦ مقعدا) — والأرمن مقعدين — وأعقب ذلك مفاوضات عسكرية بين فرنسا وتركيا ، أسفرت

---

(٤٣) — F. O. No. 27 (E. 3800/29/89).,
From Consul Davis, to Viscount Halifax, (Dated, June 21, 1938).
Received June 27, 1938.

عن توقيع اتفاق فى ٣ يوليو ١٩٣٨ ، ينظم الاحتلال العسكرى الفرنسى — التركى للواء ، وفى اليوم التالى وقعت معاهدة الصداقة التركية — الفرنسية .

وفى هذه الفترة ، كان للاحداث الجارية فى أوربا أثرها البارز على السياسة الفرنسية نحو قضية الاسكندرونة ، فقد بلغت المطالب النازية ، بمنطقة « السوديت » فى تشيكوسلوفاكيا ذروتها ــ وأعلنت وزارة الخارجية التركية فى أثناء ذلك ، عن رفضها للاساليب الفاشية ، وعن التزامها بالمفاوضات فى سبيل تحقيق أهدافها ، ولعب سفير فرنسا فى أنقره « رينيه ماسيجلى » Massigli دورا مهما فى اقناع حكومته بضرورة الاستجابة للمطالب التركية ، من أجل كسب ود تركيا ، والحيلولة دون اتجاهها نحو محور روما ــ برلين ، كتب ماسيجلى الى وزارة الخارجية الفرنسية فى ٢٣ فبراير ١٩٣٩ ما يلى :

« سواء أردنا ذلك ، أم لم نرد ، ما دامت قضية الاسكندرونة دون حل ، فهى السبب فى نظر الأتراك ، لعدم الاستقرار فى العلاقات الفرنسية ــ التركية ، وينبغى ألا ننسى أيضا ذلك القلق المتنامى هنا تجاه امكانية احلال ايطاليا محل فرنسا فى الاراضى الواقعة تحت الانتداب الفرنسى ، أما بالنسبة الى القيمة العسكرية المحتملة التى يمكن أن تقدمها تركيا ، فاننى مضطر الى الاعتراف بأن المباحثات التى أجريتها مؤخرا مع قيادتنا العسكرية والبحرية العليا ، لم يزل لديها الانطباع بأن هذه القيمة العسكرية أمر لا يمكن تجاهله »(٤٤) .

وفيما بعد ، برر « جورج بونيه » Georg Bonnet وزير الخارجية الفرنسية التنازلات الفرنسية فى لواء الاسكندرونة لتركيا فى مذكراته ، بقوله :

« .. كنا آنذاك فى نزاع شديد مع المانيا حول مسألة « السوديت »

(٤٤) « وثائق الارشيف الفرنسى » ــ نقلا عن : الدكتور على محافظة ، مصدر سابق ، ص ٩٤ .

— وتشيكوسلوفاكيا . ولم يكن الوقت مناسبا لفتح نزاع خطير . ربما تحول الى نزاع دام مع تركيا ، التى لوضعها الاستراتيجى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط أهمية كبرى ، وكان باستطاعتنا أن نقدر أهمية ذلك من خلال حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، كما كان من الواجب تجنب تكرار الخطأ الذى ربما كان مميتا لقضية الحلفاء ، بأى ثمن ، كانت صداقة تركيا لنا ضرورية أيضا من أجل نيل دعم روسيا ، التى كانت تربطها علاقات ممتازة بتركيا » .

شعرت وزارة الخارجية الفرنسية بحــرج شـديد ازاء المطالب التركية وأحس « بونيه » أن عليه أن يتخذ قرارا حاسما وخطيرا ، لا يعرف مدى ردود حكومة دمشـق عليه — وأدرك أن الابقاء على الانتداب الفرنسى فى لواء الاسكندرونة أمر شكلى بحت — كتب حول ذلك يقول : « اننا لا نخون التزاماتنا الدولية فحسب ، وانما نخون رسالتنا كدولة وصية » ، ولكن هذا التردد لم يدم طويلا ، اذ أن الحاح « ماسيجلى » R. Massigli السفير الفرنسى فى أنقرة ، بعدم التوانى ، وضرورة تقديم التنازلات التى تطالب بها الحكومة التركية فى الاسكندرونة ، قد ساهم فى سكوت السلطات الفرنسية عن العديد من اجراءات الضم ؛ مثل : الغاء الحدود بين اللواء وتركيا ، ومنح سكان اللواء جوازات غير سورية ، وادخال العملة التركية ، والتشريعات التركية بصورة تدريجية ، واستبدال القوات الفرنسية بقوات تركية . وكان الحل الذى يراه « ماسيجلى » واضحا — وهو الموافقة على ضم اللواء الى تركيا ، مقابل تأمين المصالح الفرنسية فيه ، وحماية السوريين من توسعات أرضية جديدة تتم على حسابهم ، وتوقيع معاهدة صداقة فرنسية — تركية ، للوقوف فى وجه أطماع ايطاليا فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط — وكلما أسرعنا باقناع الاتراك بحسن نوايانا ، كلما سهل علينا تحويل أنظارهم عن برلين ، واختاروا التحالف مع فرنسا وانجلترا »(٤٥) .

(٤٥) المصدر السابق نفسه .

لم تكن العوامل السياسية والاستراتيجية هي المحرك الوحيد للموقف الفرنسي ، فقد كان للعوامل الاقتصادية أثرها في دفع فرنسا الى تقديم التنازلات لتركيا • فمنذ عام ١٩٣٨ كانت العلاقات التجارية بين تركيا والمانيا النازية واسعة وقوية — اذ بلغت صادرات تركيا لالمانيا في ذلك العام ٤٣،٩٢ بالمائة مجموع قيمة صادراتها — كما بلغت واردات تركيا ٤٦،٩٨ بالمائة من مجموع قيمة وارداتها منها • وكانت المانيا تمول ٨٠ بالمائة من منشآت المصانع والتجهيزات العسكرية التركية — وتضمن آخر الاتفاقات الالمانية التركية ، الذى أبرم فى يناير عام ١٩٣٩ قرضا قدره (١٥٠) مليون مارك ، لمدة عشر سنوات • أثار هذا الوضع حفيظة فرنسا ، التى واجهت عقبات عديدة عند محاولاتها تعزيز علاقاتها التجارية مع تركية — ولم يكن بامكان فرنسا أن تقدم لتركيا من القروض ما يعادل ما قدمته المانيا ، لذلك كان الثمن الوحيد للتحالف الفرنسى — التركى هو لواء الاسكندرونة •

فى ٢٣ يونيو ١٩٣٩ ، وقعت فرنسا التسوية المشتركة ، التى تضمنت التنازل عن لواء الاسكندرونة لتركيا • وأحدثت الاتفاقية ردود فعل شديدة فى سوريا فاحتج المجلس النيابى السورى والحكومة السورية عليها — وجاءت ردود فعل مماثلة من باقى العواصم العربية فى المشرق العربى •

أما حكومة عصمت اينونو ، فقد أحرزت نصرا عظيما بهذه الاتفاقية ، وأصبح رئيسها الزعيم الوطنى الذى لا ينازع فى تركيا •

واتصفت ردود فعل المانيا على ضم اللواء بالاعتدال — فقد كان همها الحفاظ على حياد تركيا فى النزاع الاوربى القائم ، أما الحكومة الايطالية ، فقد أعلنت أن هذه الاتفاقية من شأنها أن تغير من الوضع الراهن فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، غير أن هذا الموقف لم يتجاوز الاحتجاج اللفظى •

* * *

مصـــــادر الدراســـة

أولا — الوثائـــق :

(أ) العربيـــــة :

وثائق قضية فلسطين (المجموعة الأولى) — قامت بنشرها جامعة الدول العربية من عام « ١٩١٥ — ١٩٤٦ » .

(ب) الأجنبيـــــة :

— F. O., 406-76., No. 72. (E. 264/29/89).
— F. O., (Annex) by Mr. W. E. Beckett, Jauary 7, 1938.
— F. O. 406-76. (E. 311/29/89).
— F. O. 406-76. (E. 612/29/89).
— F. O. 406-76. (E. 1358/29/89).
— F. O. 406-76. (E. 1359/29/89).
— F. O. 406-76. (E. 1445/29/89).
— F. O. 406-76. (E. 1446/29/89).
— F. O. 406-76. (E. 1662/29/89).
— F. O. 606-76. (E. 1676/29/89).
— F. O. 406-76. (E. 3020/29/89).
— F. O. 406-76. (E. 3548/29/89).
— F. O., No. 307 - (E. 3717/29/89).
— F. O., No. 27 (E. 3800/29/89).

ثانيا — المراجـــع :

(أ) العربيـــــة :

— ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، الطبعة الثانية دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ .

- دكتور صلاح العقاد : المشرق العربى المعاصر . القاهرة ١٩٧٠ •
- دكتور عبد الرحمن البزاز : العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، القاهرة ١٩٦٠ •
- دكتور عبد الرحمن شهبندر : لواء الاسكندرونة — محاضرة ألقاها فى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة . يوم ٢٣ يناير ١٩٣٧ ، ونشرها (المقتطف) فى الجزء الأول من المجلد التسعين — مارس ١٩٣٧ •
- دكتور عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى (١٥١٦ — ١٩٢٢) دار النهضة العربية . بيروت ١٩٨٥ •
- دكتور على محافظة : لاوء الاسكندرونة • دراسة بمجلة « المؤرخ العربى » العدد (٢٣) — بغداد ١٩٨٣ •
- دكتور محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ — ١٩١٤) — القاهرة ١٩٧٧ •
- دكتور محمد عبدالرحمن برج : دراسة فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٧٤ •
- دكتور محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية فى الشرق الآسيوى — دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٧٨ •
- دكتور نجيب الارمنازى : سوريا من الاحتلال حتى الجلاء ، بيروت ١٩٧٣ •

(ب) الأجنبيـــة :

- Frank Weber : The Evasive Neutral - University of Missori Press - U. S. A., 1958.
- Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw :
History of the Ottoman Empire and Modern Turky, Volume 2., London, New York, Melbourn, 1977.

جمال باشا فى سورية

بين السياسة العثمانية والتطلعات العربية

دكتور عبد العليم على عبد الوهاب ابو هيكل
كلية الآداب – جامعة القاهرة

مع وصول أحمد جمال باشا الى سورية كقائد للجيش الرابع واحتفاظه بمنصب وزير البحرية فى الخامس من ديسمبر ١٩١٤ بدأت مرحلة جديدة من العلاقات العربية العثمانية ضمتها أحداث متعددة ومثيرة وأحتوتها آراء واتهامات متبادلة . وجاء الدارسون العرب والاتراك بأحكامهم ، من بعد هذا ، أسرى للعواطف الوطنية ، كل يحاول تبرير موقفه من وجهة نظره ، خاصة بعد ما تفتحت أعين الجميع على النتائج والحقيقة المؤلمة بعد الحرب العالمية الأولى .

وظلت النظرة الشمولية لحركة الاحداث ولكافة الأطراف مسألة تحتاج الى مزيد من الدراسة والتقصى حتى يمكن الخروج بحكم موضوعى بعيدا عن جنوح الرأى . وذلك بوضع كافة الأطراف المعنية وبقدر واحد (أحمد جمال باعتباره ممثلا للدولة العثمانية ، وزعماء الاصلاح العرب لكونهم صوت التوجه العربى المسموع فى هذا الوقت ، والمسرح الذى جرت عليه الأحداث ، والذى أغفلته الأكثرية الدارسة لهذا الموضوع)أخذهما جميعا بعين الاعتبار وبقدر متساو من الأهمية فى الوقت نفسه .

لقد خلقت الجغرافيا من سورية بيئة متعددة الأنماط وقسمتها الى أقسام طبيعية من سلاسل جبلية الى سهول ووديان ثم صحراء قاحلة ، ويسرت لها بشريا عدة تنظيمات اجتماعية يقوم أغلبها على الحق الاقطاعى بسماته وقيمه الانتاجية المعروفة . ثم جاء الدين ليثبت ويعمق من تلك القواعد بالرغم من الضربة التى وجهها اليه

الحكم المصرى لبلاد الشام فى أوائل النصف الثانى من ق ١٩(١) .

ففى القسم الشمالى من جبل لبنـان وحول اللاذقيـة تقيم « النصيرية » بالمنطقة المعروفة باسمهم (سلسلة جبال النصيرية) عاشوا فى صراع دائم مع الدولة العثمانية . ولم ترسخ قدم السلطة فى دمشق فى تلك الجبال خلال الحكم العثمانى(٢) .

وفى الجنوب الشرقى من لبنان داخل سوريا يقيم « الدروز » فى « حوران » لا يبحثون الا على الرغبة فى السيطرة على ما عداهم ، فاذا وجدوا من كان أقوى من القوة الحاكمة بادروا الى مسـاعدته غير حافلين بالنتيجة ، وفى سبيل ذلك قاموا بثورات متعـددة ، كما حدث مثلا عام ١٨٩٦ م وعام ١٩١٠ م(٣) .

وعلى ساحل البحر المتوسط فى لبنان تتمركز أغلبية (مارونية) تتبع الكنيسـة الشرقية ، وارتبطوا بفرنسـا منذ زمن ليس بالقصـير ، وازداد رباطهم بها بقوة منذ القرن التاسع عشر ، وخلال ذلك ظل هؤلاء يشعرون بهامشية أهميتهم بالنسبة للدولة العثمانية ، وسارت علاقتهم معها تتأثر سلبا وايجابا بالعلاقات الفرنسية العثمانية(٤) .

---

(١) عبد العزيز عوض : الادارة العثمانية فى ولاية سـورية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢٩٠ .

(٢) د. احمد عزت عبد الكريم — حوليات كلية الآداب — جامعة عين شمس (التقسيم الادارى لسورية فى العهد العثمانى) ، المجلد الاول ، مايو ١٩٥١ م ، ص ١٣٧ .

(٣) استمرت ثورة الدروز منذ عام ١٨٩٣ — ضد محاولة الدولة اقرار النظام فى حوران ولم تخمد هذه الثورة الا عام ١٨٩٦ عندما قام « طاهر باشا » بحملته عليهم ، الا انهم عادوا اليها مرة اخرى عام ١٩١٠ باعتداءهم على اهل حوران ، فدفعت اليهم الدولة حملة بقيادة « سامى الفاروقى » ووجهت اليهم ضربة قوية .

انظر التفاصيل لدى محمد كردعلى ، خطط الشام ، ج ٣ ، دمشق ١٩٢٥ ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٤) ساطع الحصرى — محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ط ٤ ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ١٩٣ — ١٩٤ .

ثم تكتنف الصحراء من الجنوب والشرق عددامن القبائل حمل بعضها الصفات القبلية المحضة كالرولة . والسبعة والحسنة ، وتمتع شيوخها بسلطات غير محدودة ، كـ (عودة أبو تاية) مثلا(٥) ، وتقلب بعضها الأخر كـ (آل مرة) بين التحضر والتنقل ، لاقامتهم على أطراف القرى الزراعية ، فتمخض عن موقعهم هذا تقلبا آخر بين الرغبة في الحماية قبل السلطة فرارا من اغارات البدو ، أو ركونا الى هؤلاء هروبا من الضرائب(٦) .

وبالرغم من محاولات الدولة العثمانية احكام قبضتها على ذلك النطاق متعدد الأشكال والمصالح ، اما بالاعتماد على شيوخ وزعماء تلك الطوائف(٧) أو اقامة خطوط للمواصلات ، كخط حديد الحجاز(٨) ، الا أن تلك الجهود لم تفلح في تحطيم تلك الكيانات ، أو تتغلغل الى ثنائية التركيب الداخلى بها القائم على التقسيم الطبقى بين (عامة) يفلحون الأرض ويرعون الماشية و(ارستقراطية) متحكمة تجنى ثمار هذا الجهد وتحدد العلاقة بالسلطة الحاكمة ، وبرزت من تلك الأسر (آل العظم والعابد والجزائرى والايوبى والقوتلى)(٩) .

لقد أضحت بلاد الشام كتلة قاسية النتوءات ، متعددة الاهواء متضاربة المصالح ، ليس من السهولة قيادتها ، وتلك كانت أولى متاعب نواب الدولة العثمانية ، ومنهم (أحمد جمال باشا) .

ولهامشية الحكم العثمانى بعيوبه ومميزاته . ولخصوصية تلك

---

(٥) لورنس : اعمدة الحكمة السبعة ، ط ٣ ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٦) د. احمد عزت : المرجع السابق ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٧) عبد العزيز عوض : المرجع السابق ، ص ص ٢٩٤ — ٢٩٩ .

(٨) محمد كردعلى : خطط الشام ، جـ ٥ ، ص ١٨٩ — ١٩٣ .

(٩) نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ١٥٠ — ١٥٥ ، ولمزيد من التفاصيل انظر : بازيلى : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركى من الناحيتين السياسية والتاريخية ، ترجمة د. يسرى جابر ، بيروت ١٩٨٨ .

الأوضاع الطبيعية والبشرية لبلاد الشام . وبفعل المد الغربى داخل هذا الكيان الذى اتكأ فى أساليب تغلغله على أسباب دينية واقتصادية وسياسية . شهدت تلك البلدان يقظة جمعت فى طياتها تيارات متعددة الأشكال . ما بين (اسلامى) وآخر (قومى) وثالث (وطنى) بدأت فكرية ثم تبلورت فى شكل جمعيات ونوادى سياسية . (علنية وسرية)(١٠) وبالرغم من دلالة هذه اليقظة الا أنها حملت على عاتقها مشاكل المشرق عامة وسمات سورية خاصة . ثم مسالة تكييف علاقتها مع الدولة العثمانية أخيرا . ومن هذه المشاكل محدودية انتشار أفكارها وانحصاره داخل عناصر قليلة تربى أغلبها فى احضان المدارس التبشيرية أو العسكرية العثمانية فى الشام والاستانة(١١) اما بفعل انصراف العامة الى مشاكلهم الذاتية وتقوقعهم داخل الاطار التعليمى التقليدى . أو بحكم تارجح هؤلاء بين متطلبات بيئتهم التى نشأوا عليها وبين الثقافة الجديدة التى تلقوها .

ومع هذا العجز فى خلق كوادر للتغلغل وسط (العامة) تعددت أفرع تلك الجمعيات داخل الشام والعراق ومصر . وسهل هذا الانتشار للأفرع من مهمة متابعتها أو احتضار نشاطها (المنتدى الأدبى فى الاستانة) (المؤتمر العربى فى باريس ١٩١٣) (تدخل كتشنر للعفو عن عزيز المصرى) . مما سهل فى النهاية من مهمة الأتراك فى كشفهم . ثم اتهامهم بالتعاون مع أعداء الدولة بعد ذلك(١٢) .

---

(١٠) على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ١٠٩ .

(١١) مثل (رستم حيدر ، عونى عبد الهادى ، د. احمد قدرى ، عبد الغنى العريسى ومحمد المحمصانى) أعضاء « العربية الفتاة » من خريجى المدارس الفرنسية العليا . وعزيز على المصرى ، سليم الجزائرى ، لبين لطفى الحافظ ، (مؤسس ، القحطانية / العهد) من خريجى المدارس العثمانية العليا ، انظر : نافز القصبن ـ مذكراتى عن الثورة العربية ، دمشق ١٩٣٩ ، ص ص ٢١ ـ ٣٨ .

(١٢) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ص ٢٦٩ .

وعجز قادة اليقظة العرب حين عقدهم للمؤتمر العربى الأول فى باريس عام ١٩١٣ عن الوصول الى أسلوب عطى أمثل لعلاقتهم مع الدولة العثمانية ثم تحطمت أخيرا قرارات هذه البادرة للتجمع العربى ، اما باستقطاب رجال الاتحاد والترقى لزعماء المؤتمر ، أو عندما عصفت الحرب العالمية الأولى بكافة القرارات وتباين مواقف هؤلاء الزعماء تجاه هذا الموقف الجديد(١٣) .

على أن تلك اليقظة العربية ، قد تزامنت أيضا مع ما شـهدته الدولة العثمانية ذاتها من اصلاح ويقظة خلال ق ١٩ حتى الحـرب العالمية الاولى ، وتعددت توجهاتها أيضا بين مؤمن (بالجامعـة الاسـلامية) ومحبـذ (للعثمنة) وثالث يرنـو الى « الجامعـة الطورانية »(١٤) وباختصار — كانت المشكلة لدى قادة الدولة ، هو فى كيفية تحديد العلاقة مع (الملل) المنضوية تحت لوائها .

ومن هنا فاذا كانت المسألة (القومية) والاتجاهات الاصلاحية عند العرب ، هى مشكلة (ذاتية مفردة) فانها كانت بالنسبة للاتراك مشـكلة (مركبة مزدوجة) وسرعان ما تحول رعايا الدولة من خلال هذا المنظور — خاصة عند رجال الاتحاد والترقى من مجرد (أخوة فى الدين) الى (تابعـين) عليهم الطـاعة والامتثـال لسـياسة الدولة(١٥) .

---

(١٣) وافق رجال الاتحاد والترقى ظاهريا ومن حيث المبدأ على برنامج الاصلاح ، كما وافق « عبد الحميد الزهراوى » رئيس مؤتمر باريس على تعيينه عضوا فى مجلس الاعيان و« عبد الكريم الخليل » ممثلا للشبيبة العربية .

(١٤) احمد عبد الرحيم مصطفى ، فى اصول التاريخ العثمانى ، بيروت ١٩٨٢ ، ط ١ ، ص ص ٢٦٠ — ٢٧٣ .

(١٥) سليمان موسى : الحركة العربية ، بيروت ١٩٧٧ ، ط ٢ ، ص ٣١ .

من هنا طفى على السطح عقدة ثانية واجهت أحمد جمال فى الشام تمثلت فى هذا الصدام فى (المفهوم القومى) بين تطلعات العرب وسياسة الدولة العثمانية ·

وبلغ هذا التصادم قمته بهيمنة رجال الاتحاد والترقى على شئون الحكم (طلعت وجمال وقيادة أنور) فأضحت هيبة السلطة والحزب بصورة شاملة والرأى العام فى مهب الريح(١٦) على المستوى الداخلى ·

أما على المستوى الخارجى فقد مالت توجهات الدولة منذ أواخر ق ١٩ نحو صداقة الألمان وبلغ التعاون أشده مع أحداث لبنان لتعاطف الدول الأوربية مع ثوارها(١٧) حتى وقع (أنور باشا) حلفا سريا فى الثامن من أغسطس ١٩١٤ مع ألمانيا لم يعلم به سوى أقلية من قيادات الدولة(١٨) . وراودت البقية من رجال الاتحاد والترقى ومنهم (أحمد جمال باشا) الشكوك فيما كان يجرى من اجتماعات ومقابلات داخل العاصمة(١٩) · وأمام الاستفزازات المتبادلة بين

---

(١٦) يقول على فؤاد رئيس اركان الحملة الاولى على قناة السويس : « اصبحت المملكة العثمانية فى قبضة الاتحاديين والاتحاديون فى قبضة المركز العلم ، والمركز العلم فى قبضة الحكام الثلاثة ، طلعت وانور وجمال ، وكان الثلاثة فى قبضة أنور يسوقهم سوقا عنيفا ، أمام مقام السلطنة والقوى التشريعية وحزب الاتحاد والترقى والحكومة الرسمية والصحافة — والراى العلم ، فلم تكن الا اشباحا ماثلة وخيالات متصورة » انظر :
على فؤاد : كيف غزونا مصر ، ترجمة د. نجيب الارمنازى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣١ .

(١٧) توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى الثانى ، ص ص ١٨٣ — ١٩٥ .

(١٨) بالاضافة الى أنور باشا ، انحصرت أنباء وخطوات الاتصال التى أدت الى توقيع الحلف بين سعيد حليم رئيس الوزراء وطلعت باشا وزير الداخلية وخليل باشا رئيس مجلس النواب .

(١٩) أحمد جمال : مذكراتى ، تعريب على احمد شكرى ، القاهرة ١٩٢٣ ، ص ص ١٨٤ — ١٨٦ .

الدولة العثمانية من ناحية وانجلترا وفرنسا من ناحية أخرى . وافق مجلس المبعوثان ذو الأغلبية من رجال الاتحاد والترقى على خوض غمار الحرب الى جانب الالمان . واعتبرت الامة كلها ورعاياها مؤيدة لهذا الاتجاه(٢٠) .

أما العرب ، فقد أنقسموا الى أقسام ثلاث تبعا لشمولية رؤيتهم السياسية وعمق التجربة فى التعامل مع الأتراك .

ففريق أيد الدولة العثمانية وتعاطف معها . وضم العامة بدافع العاطفة الدينية الاسلامية كما لم تكن لديهم من قوة الادراك السياسى والمفاهيم العامة سوى ذلك(٢١) . ومعهم بعض وجهاء المدن أمثال محمد باشا العظم وأرسلان عبد الرحمن يوسف ، والزهاوى . حفاظا على ما لديهم من امتيازات ساندتهم الدولة العثمانية فى اكتسابها والحفاظ عليها(٢٢) وأغلبية من المصريين نكاية بالانجليز فى مصر(٢٣) .

---

(٢٠) الحتت انجلترا الطرادين (رشادية) و (عثمان) بقواتها بعد أن اتفقت على بنائها لحساب الدولة ، فردت السلطات العثمانية بايواء السفينتان الحربيتان الالمانيتان (جوبنى) و(برزلاو) داخل الدردنيل ، بعد أن قذفتا قواعد فرنسا بشمال افريقيا . وفى ٩ سبتمبر امر انور باشا بالغاء الامتيازات الاجنبية ، وفى اواخر اكتوبر ١٩١٤ قصف الاسطول العثمانى موانىء سيباستبول واوديسا ، واعلنت بريطانيا ضم جزيرة قبرص وحمايتها على مصر .

(٢١) أسعد داغر : مذكراتى على هامش القضية العربية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ص ٦٩ — ٧٢ .

(٢٢) توفيق على برو : العرب والترك فى الحرب العالمية الاولى ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة ، كلية الاداب ، عين شمس ١٩٦٠ ، ص ٤٤ .

(٢٣) بالرغم من أن « حسين رشدى » اخرج مصر عن حيادها بموجب قرار أصدره فى الخلص من اغسطس ، بادخال مصر فى الميدان الحربى مع الانجليز مستغلا وجود الخديو بالاستانة وانتشار اعضاء الجمعية التشريعية بالاقاليم ، الا ان قطاعا كبيرا من المصريين خاصة من اتباع الحزب الوطنى اتخذ موقفا معاديا للانجليز ، وتجلى ذلك عقب اعلان الاحكام العرفية فى ٢ نوفمبر ١٩١٤ بينما رأى فريق آخر — خاصة من اعضاء (حزب الامة) =

وتصرفات ايطاليا فى ليبيا وفرنسا فى المغرب العربى(٢٤) .

أما الفريق الثانى : فقد تردد بين التأييد والمعارضة . وأغلب هؤلاء من الرجال الاصلاحيين . وكانت معارضتهم للدولة من ثمار الشك والعداء لرجال الاتحاد والترقى من خلال العلاقات بينها قبيل نشوب الحرب وجاء تأييدهم لها على أمل أن تكون المساندة والتأييد سبيلا لتحقيق الأمانى العربية(٢٥) .

= الذى ينتمى معظمهم الى الاثرياء والذين ارتبطت مصالحهم بالانجليز ، ضرورة ارتباط مصر بمعاهدة مع انجلترا والوصول الى تفاهم مباشر معهم . لمزيد من التفاصيل : انظر :

د. لطيفة سالم : مصر فى الحرب العالمية الاولى ، القاهرة ٩٨٤ . ص ص ١٤ — ٢٧ وص ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

(٢٤) فى عام ١٩٠٠ عقدت ايطاليا اتفاقية مع فرنسا حول تحديد مناطق النفوذ بينهما فى البحر المتوسط تخلت بموجبها فرنسا لصالح ايطاليا عن جميع مطامعها فى طرابلس الغرب ، مقابل منح فرنسا حرية العمل فى مراكش واقرت هذه الاتفاقية فى عام ١٩٠٢ ، واعيد ابرامها مرة اخرى فى اكتوبر ١٩٠٩ ، وفى عام ١٩١١ قررت ايطاليا استغلال الازمة الدولية فى منطقة البلقان ، وقدمت انذارا لتركيا أعقبه اعلان الحرب فى ٢٩ سبتمبر ١٩١١ تساقطت معها طرابلس ودرنة وبنغازى والحمس ، وبالرغم من صلح لوزان فى ١٩١٢/١٠/١٥ بين تركيا وايطاليا الا ان السنوسيين اعلنوا الجهاد ضد ايطاليا التى استمرت حتى الحرب العالمية الاولى — انظر :

د. عترى انيس ميخائيل : العلاقات الانجليزية — الليبية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ص ٢٠ — ٤٧ .

(٢٥) كتب عبد الكريم الخليل رئيس حزب اللامركزية الى احد اصدقائه فى ١٩١٤/٨/١٦ « ايها العزيز : انا على وشك السفر الى سوريا لان التدابير التى اضطرت حكومتنا السنية الى اتخاذها درءا لخطر الحرب العظمى تقضى على كل عثمانى مخلص لدولته وامته ان يبذل جهده فى سبيل تنفيذها على احسن ما يرام وستكون مهمتى فى سوريا جمع الكلمة على شد ازر الحكومة والسعى لمنع كل ما يحتمل وقوعه من اسباب النفور بين العناصر العثمانية . وقد وعدتنى الحكومة بأن تشد ازرى فى هذه المهمة وتجيب الى كل المطالب العادلة التى اطلبها باسم الامة العربية ... » .

كما كتب « سليم الجزائرى » الى احد اصدقائه : =

أما الفريق الثالث : فقد عارض دخول الدولة الحرب لأسباب متعددة ، وكان على رأس هؤلاء الشريف حسين بن على ، الذى أعتبر دوخلها مغامرة ، خاصة مع الوهن العسكرى الواضح للقوات وندرة الامداد اللازم لها ، بالاضافة الى الشك المتبادل بينه وبين أعضـاء الاتحاد والترقى وبداية تنسيق سياسته مع الانجليز(٢٦) .

على أنه مع دخول الدولة العثمانية الحرب ، طغت سحابة من التأييد العربى لها حجبت المواقف المتعددة قبل الدولة وسياستها سواء من المؤيدين أو المعارضين ، عسى أن يكون هذا التأييد سبيلا لتحقيق الأمانى القومية ، أو انتقاما من بعض السياسيات الغربية تجاه بعض الأركان العربية(٢٧) .

= « لقد اخلصنا للاتحاديين فلا مجال للشك فى اخلاصهم لنا ، نعم ان الاتفاق الذى ابرموه مع الزهراوى وعبد الكريم **لا يسعدنا وليس فيه كل ما نحتاج اليه** ان الحالة السياسية حرجة جدا ايها العزيز ، فبقدر ما يسىء الاتحاديون الينا ، يجب ان تحسن اليهم حرصا على كيان هذه الدولة المنكودة الحظ » .

وكتب الزهراوى الى رشيد رضا :

« فالاتحاديون هم اولياء الامر مباشرة وهم اليوم يتسلحون بعزائم شديدة ماضية وينادون بنية قاطعة ان يجددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف **ويشتهون ان يخلص العرب اليهم ويساعدهم فضلاؤهم فى هـذه السبيل ويعترفون بخطيئاتهم الماضية ويودون الا يعودوا الى مثلها بقـدر الامكان** » .

انظر نص تلك الرسائل وبعض الرسائل الاخرى فى :

د. محمد بديع شريف وزكى المحاسنى ود. أحمد عزت عبد الكريم : (دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة) (اليقظة الفكرية والسياسية فى ق التاسع عشر) د. محمد بديع شريف ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ص ١١١ — ١١٢ .

(26) F. O. 686/6, Storis Report's (Sherif of Mecca) 10/10/1916.

وانظر كذلك : عبد الله بن الحسين : مذكراتى ، القدس ١٩٤٥ ، ط ١ ، ص ص ٩٨ — ٩٩ .

(٢٧) توفيق برو : العرب والترك فى العهد الدستورى ، المرجع السابق ، ص ص ٥٨٨ — ٥٨٩ .

عند هذه النقطة بالذات ، تباينت الأهـداف والاغراض ، بين العرب والترك .

فاذا كانت الأغلبية العربية قد اعتبر دخول الدولة ميدان الحرب وسيلة لتحقيق أمانيهم القومية ، فقد نظر اليها الأتراك على أنهـا سبيل للاصلاح الشامل للدولة ، وعلى كافة الرعايا وضع امكانياتهم وتناسى أمانيهـم ولو مؤقتا خدمة للمجهود الحـربى ، من هنا أتت **النقطة الثالثة للتصادم ولتباين وجهات النظر فى مهمة (أحمد جمال باشا) ومن ثم التطرف فى الحكم عليه ، عندما كان بالنسبة للاتحاد والترقى (قائدا عسكريا) له مطلق السلطات خدمة لأهداف المجهود الحربى ، كان بالنسبة للعرب (قائدا سياسيا) عليه التعامل مع الاحداث تبعا لخصوصية وتطلعات البلاد العربية .**

أعتبرت سوريا ، نظرا لموقعها ذات أهمية استراتيجية عظمى لملاصقتها حدود الدولة ، وامكانية اتخاذها قاعدة انطلاق للعمليات الالمانية بريا فى الشرق ، خاصة مع الحصار البحرى الذى ضـربه الحلفاء حول سـواحلها(٢٨) فأسندت قيادة قواتها بها الى (أحمـد جمال باشا) الذى وصل دمشق فى الخامس من ديسمبر ١٩١٤ ، بعد أن رأى مجلس الوزراء العثمانى أن يعهد بتلك المسئولية الى قائد لديه سلطات كافية وكاملة للتعامل اداريا واقتصاديا بما يخدم مواجهة أحداث الشرق والانجليز فى مصر على وجه الخصوص(٢٩) .

وتباينت الآراء فى الحكم على الرجل ، فهو عند البعض ملتزم بالمفهوم التركى البحت وعند الآخر(٣٠) ، يركز على اهتمامات أحمد جمال الاسلامية مع التركيز على العنصر التركى(٣١) .

(٢٨) محمد صبيح ، المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٢٩) احمد شفيق ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .
(٣٠) ساطع الحصرى ، المصدر السابق ، ص ص ٢٦١ — ١٦٢ .
(٣١) لورنس ، المصدر السابق ، ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

وقال رأى ثالث : « أنه لم يكن يمثل جمعية الاتحاد والترقى تمثيلا صحيحا لأنه كان من دعاة الاسلام المعروفين وكان يخالف دعاة الوحدة الطورانية اذ كان يؤمن ايمانا صادقا فى انشاء قومية عثمانية قائمة على التضامن الاسلامى من مزايا »(٣٢) .

ويقترب جمال نفسه فى مذكراته من تلك السمات خلال حديثه عن رواسخ سياسته عندما ذكر أن القوة الاسلامية يجب أن تقوم على عنصرين هما :

١ — الاتراك باعتبارهم قوة سياسية .

٢ — العرب باعتبارهم قوة دينية .

وأعتبر كلا الطرفين عمودى الاسلام وأن النزاع بينهما سوف يؤدى الى سقوط الدين(٣٣) .

ثم يضيف « أنطونيوس » الى ميوله ، أنه كان معروفا بميله الى الفرنسيين وكراهيته للالمان(٣٤) .

ونستطيع القول مع هذا التضارب الواضح فى تناول « أحمد جمال » بأنه كان شخصية غامضة ، عمق من هذا الغموض تقلده عدة مناصب متفاوتة المهام بدأ من تعيينه مفتشا عاما لخطوط المواصلات فى (شطالجة) حتى عام ١٩١٣ ثم عين فى يناير ١٩١٣ حاكما عسكريا للاستانة مع الانقلاب الذى قاده « محمود شوكت » فوزيرا « للنافعة » الاشغال العامة فى ديسمبر من نفس العام ، حتى تسلم وزارة البحرية فى فبراير ١٩١٤ خلفا لـ « شوروك سولو محمود باشا »(٣٥) .

---

(٣٢) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، تعريب على حيدر الركابى ، دمشق ١٩٤٦ ، ص ١٦٩ .

(٣٣) احمد جمال : مذكراتى ، المصدر السابق ، ص ص ٢٤٠—٢٤٢ .

(٣٤) انطونيوس : نفس المصدر ، ص ١٦٩ .

(٣٥) احمد جمال : المصدر السابق ، ص ٢ — ٧ وص ١٣٢ .

ومن هذا الغموض في شخصية أحمد جمال باشا ، ثم التنوع في المهام التي أسندت اليه ، تنوعت سياسته في الشام ولم تستمر على وتيرة واحدة ، فبدأ وديا ثم انقلب الى الشدة ، ثم المسالمة — تبعا لمقتضيات الظروف ، ومن هنا — وللاسباب السابقة جاء التطرف في الحكم عليه كما ذكرنا •

ولهذا كله لا نستطيع أن نتفق مع ما ذهب اليه البعض في تقسيم سياسة جمال باشا في سورية الى قسمين :

القسم الأول :

سياسة التعاون والوئام مع العرب خلال الأشهر الستة الأولى بعد توليه القيادة في سورية •

القسم الثاني :

سياسة العنف والارهاب بعد ذلك في ابريل ١٩١٥ ، متخذا اخفاق حملته على قناة السويس في فبراير ١٩١٥ حدا تلاعداد لهذا القسم الثاني(٣٦) •

أننا ننظر الى سياسة جمال باشا — **خلافا لهذا التقسيم من منظور آخر ، اذا وضعنا في الاعتبار — ما قدمناه من مسألة (التصادم) في التوجهات القومية ، ثم تباين المواقف تجاه المهام التي من أجلها عين جمال باشا في سورية ، خاصة مع ميل الاغلبية الساحقة من العرب التي تنادى المطالب القومية ، مع دخول الدولة العثمانية الحرب(٣٧)** •

وبهذا نستطيع تقسيم سياسة جمال باشا في سورية الى المراحل التالية :

---

(٣٦) سليمان موسى : المرجع السابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ •
(٣٧) أسعد داغر : المصدر السابق ، ص ٤٣ — ٤٤ •

مرحلة أولى :

تهدف الى اقرار الأوضاع الداخلية ، وتبدأ منذ وصوله بيروت واستمرت حتى شهر يونية ١٩١٥ م — أى بعد حملة القناة الأولى بأربعة أشـــهر .

مرحلة ثانيــة :

اتسمت بالصدام بينه وبين العرب وتبدأ من شهر يونية عندما تجمعت لديه مؤشرات مريبة تجاه رجال الاصلاح العرب دفعته الى اعدام الدفعة الأولى فى أغسطس ١٩١٥ .

مرحلة ثالثــة :

اتخذ فيها أحمد جمال أسلوب (المبادرة) بعد ما تكشف له خلال محاكمة الدفعة له من خيوط وتنظيم للجمعيات السرية العربية ، فآمن بأن الاقدام أولا وسريعا للقبض على أعضائها خير أسلوب لمواجهتها واستمرت حتى اعدام الدفعة الثانية فى مايو ١٩١٦ .

مرحلة رابعــة :

وفيها تحول من أسلوب (المخاشنة الى المحاسنة) مع قيام الثورة العربية وسحب القوات التركية من الشام لمواجهة أحداث الأناضول واستمرت حتى خروجه نهائيا فى أواخر عام ١٩١٧ .

تبدأ المرحلة الأولى لسياسة أحمد جمال فى الشـــام ، بتهيئة الأوضاع الداخلية لمواجهة التطورات الحربية وفيها ســـار على محورين :

الأول : سياسى : بالاتجاه نحو كسب تأييد الجبهة الداخلية (العربية) للسياسة التى كلف بتنفيذها .

الثانى : عسكرى : بالاعداد القتالى وتنفيذ الهجوم على قنـاة السويس .

فأما الأول ، فبعد احساس من قبل جمال باشا بالترحيب من قبل العرب لقدومه ، لبى دعوة لحفلة الاستقبال التى أقامها رجال الاصلاح العرب ووجهاء البلاد . ومن بينهم الدكتور عبد الرحمن شهبندر . وعبد الكريم الخليل الذى غادر استانبول الى الشام خصيصا لجمع المتطوعين من الشيعة أبناء طائفته وألقيت بالحفل خطب وقصائد تمنت بكريم أفضال العنصر العربى « وكادت الانشودة الوطنية العربية (نحن جنود لله شبان البلاد) تزلزل فوق رؤوسنا أسقف المكان الذى كنا فيه »(٣٨) ثم ألقى جمال باشا خطبة نادى فيها بالتخلص من الخونة وعلى تضييق الخناق حول الذين يعملون لصلحة العدو . وركز على أن الأمانى التركية والأمانى العربية لا يتعارضان مطلقا . وناشد الشبان الاتراك والعرب على نبذ ما يمكن ظهوره من خلاف باعتبارهما عمودى الاسلام ، وعلى المحبة والاحترام المتبادل . خاصة فى تلك الظروف التى يبغى الاعداء منها القضاء على الخلافة الاسلامية(٣٩) .

وعلى مستوى العامة توافد ما يقرب من (٦٠٠) من الوعاظ على حلب لتنسيق انتشارهم فى أنحاء سورية لحث الناس على التطوع والالتحاق بالجيش العثمانى(٤٠) . وركزت كبريات الصحف مقالاتها . خاصة (المقتبس) لصاحبها محمد كرد على و(المفيد) صحيفة جمعية العربية الفتاة برئاسة عبد الغنى العريسى فى الدعوة الى وحدة الصفوف ونسيان مطالب الاصلاح ومؤازرة الحكومة فى تلك الظروف التى تمر بها(٤١) .

وفى خارج سورية أيدت أكثرية من المصريين دولة الخلافة ، اما

---

(٣٨) مذكرات احمد جمال ، ص ٣٣٩ .
(٣٩) نفس المصدر ، ص ص ٣٣٩ — ٣٤١ .
(٤٠) انطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة على الركابى ، ص ص ١٥١ — ١٥٢ .
(٤١) موسى : المرجع السابق ، ص ص ١٠٢ — ١٠٣ .

كراهية للانجليز أو بفضل الدور الذى كان يلعبه الخديو عباس ورجال الحزب الوطنى فى الاستانة(٤٢) .

وبالرغم من معارضة الشريف اشتراك الدولة العثمانية فى الحرب . الا أنه مع عدم جدوى هذه المعارضة حينئذ . ولحاجة فى نفسه — بعدم الظهور بمظهر المعارض لدولة الخلافة . وهو رمز من رموزها ، فقد قابل الشريف رسالة جمال اليه — ظاهريا — بالقبول وتأييده (الجهاد) ورد على رسالة جمال بتعزيز فرقة الحجاز وتدعيمها بالموافقة والتقدير والمساندة للقوات الاسلامية(٤٣) . ولاستنفار العالم الاسلامى — اعلاميا . بعث الشريف — براية الرسول . فى مظاهرة حماسية دينية وصلت الى دمشق فى ١٥ ديسمبر ١٩١٤ م(٤٤) .

أما جمال : فبالرغم من قيام الموظفين الترك . بأمر من (خلوصى بك) والى سورية بتفتيش القنصليتين الفرنسيتين فى بيروت ودمشق .

---

(٤٢) أعد محمد فريد والخديو عباس ، منشورا كتبه الشيخ « جاويش » بالاستانة لاثارة حماس المصريين ضد الانجليز ، ولكن — نظرا — لتضارب الاهداف بين الاطراف المعنية — فيمن سيكون له الحق فى تولى مصر — اذا قدر للانجليز الخروج منها (الاتراك — الحزب الوطنى — الخديو) قدر لهذا المنشور الاحتجاب ، ونشر فقط فى صحيفة (فرانكفورت زيتونج) فى يناير ١٩١٥ .

انظر : أوراق محمد فريد : مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ — ١٩١٩ ، المجلد المجلد الاول ، اصدار مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ص ١٧٦ — ١٨٥ .

(٤٣) تبودلت العديد من الرسائل بين الشريف حسين وأنور باشا — كل يحاول تدعيم رأيه فى دخول الحرب اولا — واخيرا — أبدى الشريف موافقته حينئذ .

انظر : عبد الله بن الحسين : مذكراتى ، المصدر السابق ، ص ص ٩٣ — ٩٩ .

(٤٤) حملها السيد العلوى بالنيه واولاده الثلاثة ، وبعد وصولها الى دمشق مرت ببلاد الشام حتى وصلت الى المسجد الاقصى فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٤ .

انظر : انطونيوس : المصدر السابق ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

ومصادرة ما بها من وثائق ومراسلات تدين بعض الشخصيات العربية(٤٥) و (قيامهم باعمال يصعب تمييزها عن الخيانة) على حد قول أنطونيوس(٤٦) . الا أن جمال تنفيذا لتطبيق سياسة « الحشد العربي والاسلامى » أمام الاعداء وتهيئة الأوضاع الداخلية . أغفل التحقيق فيها (خشية تعرض الوحدة الاسلامية للخطر)(٤٧) بل أصدر منشورا ضمان فيه الكافة وشكوك المسيحيين . خاصة كبار الملاك منهم . تعهد فيه باحترام جميع امتيازاتهم القديمة . وعدم المساس بها . وأيد منشوره وخطواته — بطريرك الطائفة المارونية « بطرس الحايك » وأخبره بأن ما نشره (بعث روح الطمأنينة فى نفوس الطائفة وأنهم لن ينسوا هذا الجميل مطلقا)(٤٨) .

فى هذا الجانب السياسى . وتلك الخطوات التى اتخذها أحمد جمال . انسجمت التوجهات التركية والعربية بصورة جلية لتوائم النوايا بينهما فى هذا الاتجاه .

وصحيح أن أغلبية رجال الاصلاح أيدوا الدولة بدافع من طبيعة مصالحهم . أمثال (الخليل) رئيس المنتدى الأدبى والذى أتخذ من استانبول مقرا له ، والزهراوى بحكم عضويته فى مجلس المبعوثان . الا أن كافة المصادر بجمع أن سورية فى تلك الفترة قد شهدت حماسا منقطع النظير تأييدا ومؤازرة للاتراك(٤٩) . وكان التطبيق العملى لاستجابة العامة ورجال الاصلاح على حد سواء ، بل والشريف حسين

---

(٤٥) من بين تلك الشخصيات : « انور على عبد القادر ، شفيق المؤيد ، عبد الحميد الزهراوى ،يحيى الأطرش ، شكرى العسلى ، رشدى الشمعة » ، انظر : مذكرات جمال باشا ، ص ٣٣٧ .

(٤٦) انطونيوس ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٤٧) مذكرات احمد جمال ، ص ٣٣٥ .

(٤٨) المنار ، ج ٥ م ٢٣ « كوارث سورية فى سنوات الحرب » ، محمد رشيد رضا ١٩٢٢/٥/٢٧ ، ص ٣٧٣ .

(٤٩) برو : العرب والترك فى الحرب العالمية ، المرجع السابق ، ص ٤٣ — ٤٥ .

فى الحجاز لنداء (جمال) بالجهاد والتطوع خير دليل على ذلك . مما يدفعنا لعرض **المحور العسكرى** فى تلك المرحلة .

بدأ « جمال باشا » بتجهيز وتحصين الشام عسكريا . وكانت القوات الموجودة به حال قدومه مكونة من جيشين . كل جيش يضم فرقتين . تراوحت أعدادهم ما بين ٦٠ و ٧٠ ألف رجل . تكون منهم الجيش الرابع . بما فيهم الفرقة (٢٥) التى تألفت من العرب . ثم استدعى القسم الأكبر من الحامية التركية بالجزيرة العربية المؤلفة من أربعة فرق عسكرية(٥٠) . ثم أرسل الى الشريف حسين بتعبئة رجال القبائل بقيادة أحد أبنائه ، ووضعهم تحت امرة قائد حامية المدينة المنورة « وهيب بك »(٥١) .

كما أرسل الى ابن سعود لنفس الهدف . فبادر بجمع ما يقرب من الالفين من الابل(٥٢) .

وعندما قام جمال باشا بدافع الرغبة فى تأمين حدود الشـــام الشمالية فى مواجهة امكانية الزحف الروسى نحوها . فدفع ببعض الجند والضباط من العرب والاتراك حديثى التخرج ومن طلاب المدارس العسكرية . لقدرتهم القتالية المحدودة . دون الدفع بكافة المتطوعين من العرب تجاه الشمال كما كانت استراتيجية أنور باشا(٥٣) . بدأت أولى مظاهر التنافر بين رجال الاصلاح العرب وجمال باشا . عندما اعتقد الطرف الاول أن هذا الاجراء ان هو الا لتشتيت الشباب المتحمس

---

(٥٠) انطونيوس ، المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

(٥١) على فؤاد : كيف غزونا مصر ، ترجمة د. نجيب الأرمنازى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٦٤ .

(٥٢) مذكرات احمد جمال ، المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .

(٥٣) عبد الله بن الحسين " مذكراتى ، المصدر السابق ، ص ص ٩٣ — ٩٤ .

بعيدا عن الارض العربية(٥٤) •

ثم بدأ القادة الاعداد للحملة باتجاه قناة السويس . فاعتمدت رئاسة الأركان على (الفرقة ٢٥) العربية . وكتيبة من جنـــود ، الفرقة ٢٣ و٢٧) وخمس بطاريات من مدافع الميدان الجبلية وبطارية من مدافع الهاوتزر عيار ١٥ سم . وبلغ اجمالى رجال الحملة المقاتلين ٢٥ ألفا (٥٥) ، وقدرها « على فؤاد رئيس الاركان » بـــ ٣٥ ألفا(٥٦) ، على حين بلغت أعداد رجالها عند بعض المصادر الاخرى بـــ ٤٠ ألف رجل(٥٧) •

ونعتقد أن الاختلاف فى الارقام خاصة بين ما ذكره « جمال » و« على فؤاد » يرجع بالدرجة الاولى الى عدم التحديد الدقيق لاعداد المتطوعة من العرب . الذين لم يحددهم الاول ــ خاصة وقد أوكلت اليهم مهمة « التموين والامداد » واعترف أنهم كانوا من المتطوعة العرب مشيدا بهم وبما تدموه من انضباط والتزام كامل بما ألقى عليهم من أعباء فى تنفيذ تلك المهمة فيقول فى مذكراته :

« بل لم يوجد بينها ــ أى جنود الحملة ــ شخص واحد عضه الجوع أو العطش . فان فرق المؤن أدين الواجب عليهم بدقة تامة حتى لم تصل فرقة منهن الى نهاية الطريق الا فى الميعاد المضروب . ولكن مسألة المسائل التى تعتبر على جانب عظيم من الاهمية : هى **أنه لم تحدث حادثة خيانة واحدة أو فرار بين ــ عرب ســورية**

---

(٥٤) لم تذكر المصادر أسماء هؤلاء الطلاب من المدارس الحربية لامكانية معرفة انتسابهم الى الجمعيات الوطنية ام لا ، وان ذكر سليمان موسى فى كتابه ان عددهم ثالف من ثمانين شابا عربيا ، ص ١٠٣ .

(٥٥) جمال باشا ، المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .

(٥٦) على فؤاد : كيف غزونا مصر ، ص ٦٤ .

(57) F. O. 271/2486/Despatch from Majest's High Commissioner for Egypt, 15/2/1915.

وفلسطين ــ يقصد البدو المتطوعة ــ الذين تكونت منهم وحدهم فرق المــؤونة »(٥٨) ٠

ثم ذكر جمال أيضا ــ أن هناك جزء من العرب المتطوعة ، اشتركوا مع الجند المقاتل ــ خاصة الفرسان وقدر عدد هؤلاء بــ ١٥٠٠ رجل(٥٩) . ونعتقد أن البقية منهم ، والتى بلغت سبعة آلاف وخمسمائة والمجموع الكلى (٩٠٠٠) كان هو اجمالى المتطوعة من العرب ، من بلاد الشام(٦٠) ، بصرف النظر عن متطوعة الحجاز الذين توقفوا عند المدينة المنورة ٠

والمهم أيضا ما قام به بدو سيناء ، بدافع من الحماس الدينى ، من هجوم واقتحام لبعض المواقع الانجليزية بقيادة « ممتاز بك » فى العريش ، وقوة أخرى منهم أيضا على « قلعة نخل » بقيــــادة « أشرف بك » وسط صحراء سيناء(٦١) ٠

شرع جمال باشا فى القيام بحملته ومعجلا بها خلال فصل الشتاء نظرا لعوامل أساسية منها ضرورة القيام بها فى هذا الشهر المطر ، حتى يمكن التغلب على مشكلة المياه بالصحراء بالاضافة الى رغبة القيادة العامة تعجيلها ، لقطع خط الامدادات والمواصلات وفى اشغال القوات البريطانية وتعطيلها عن حملة الدردنيل والتى كانت مصر قاعدة أساسية من قواعد الانطلاق نحوها ، ثم لاعطاء الفرصة الكافية للقوات التركية هناك لأخذ أهبة الاستعداد وتحصين المواقع تجاه القــوات المهاجمة(٦٢) ٠

وبالرغم من أن الحملة التى تولى رئاسة أركانها الالمانى « فون

---

(٥٨) احمد جمال ، المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .
(٥٩) نفس المصدر ، ص ٢٥٨ .
(٦٠) نعوم شقير : تاريخ سيناء ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٧٤٢ .
(٦١) احمد جمال ، المصدر السابق ، ص ٢٥١ .
(٦٢) نفس المصدر ، ص ٢٦١ .

كريس » قد فشلت فشلا مبينا(٦٣) : الا أنها من وجهة نظر جمال قد حققت هدفها . بالنظر الى كونها (مجرد مظاهرة لافهام الانجليز من جهة اننا لا ننوى الوقوف موقف المتفرج على ضفة القناة . ومن جهة أخرى لاستبقاء عدد كبير من جنودهم فى مصر) الا أن هـذا التبرير . كان عاطفيا أكثر من اللازم كما نرى — لعدم بث اليأس فى جنوده . ثم لتغطية عدم مقدرته العسكرية كقائد كما وصفته بعض المصـادر(٦٤) .

على أننا ننظر الى الحملة ونتائجها بمنظار آخر . باعتبارها محكا

---

(٦٣) حاول الاتراك — عبور قناة السويس ليلة الثالث من فبراير ١٩١٥ . فتركتهم بطاريات الجيش المصرى » بقيادة الملازم — احمد حلمى » حتى أصبحوا فوقها عندها صبت عليهم المدفعية نيرانها ، ووقع البعض ممن اجتازوا القناة فى الاسر وقتل الكثير من الجند الاتراك ، فاصدر بعدها احمد جمال امرا بالانسحاب السريع وتفاوتت احجام الخسـائر عند تقديرها لدى الاطراف :

فعند احمد جمال كان بيان الخسـائر كالتالى :

		قتلى	جرحى	مفقودون (أسرى)
من الاتراك	ضباط	١٤	١٥	١٥
	جنود	١٧٨	٣٣٦	٧١٢

واورد احمد جمال ايضا التقديرات التى اذاعها الانجليز خسائر للاتراك :

١٠٠٠ قتيل و٢٠٠٠ جريح و٦٥٠ اسير .

بينما قدر الانجليز خسـائرهم بـ ٦٠٠ بين قتيل وجريح .

واورد نعوم شقير خسـائر المعارك على النحو التالى :

خسـائر الانجليز لم تتجاوز الستين بين قتيل وجريح .

انظر : شقير : المرجع السابق ، ص ٧٤٨ .

وكان من بين اهداف الحملة ايضا بالنسبة لجهاز الحكم فى الاستانة، رغبة طلعت وانور فى « اعادة عباس حلمى » الخديو اليها مرة اخرى بعد طرد الانجليز له ، بينما كان راى الصدر الاعظم « سعيد لحيم » غير ذلك .

انظر : أوراق محمد فريد : مذكراتى بعد الهجرة ، م ١ ، المصدر السابق ، ص ص ٩٩ — ١٠١ .

(٦٤) انطونيوس ، المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

حقيقيا للمواقف العربية والتركية على حد سواء .

فبالنسبة للشريف حسين كان احجامه عن دفع قواته من « المجاهدين » أكثر من حدود المدينة المنورة — بحجة الدفاع عنها . اعتراضا عمليا على الاتراك وسياستهم سواء تجاه دخولها الحرب بصفة عامة . وضرورة تحقيق الآمال العربية أولا(٦٥) . ثم ما أستيقنه الشريف نفسه تجاه نوايا رجال الاتحاد والترقى من تصرفات « وهيب باشا » والى الحجاز منذ فبراير ١٩١٤(٦٦) .

وبالنسبة لرجال الاصلاح . كما كان يسميهم جمال . فان استيائهم من توزيع القوات خاصة تجاه من أرسلوا الى شمالى العراق وسورية . ومما أصاب أهل سورية من ضغوط معيشية نتيجة لاجراءات التعبئة العسكرية التى بدأت تلقى بظلالها على البلاد فى نقص الحبوب والأغنام وزيادة الضرائب بما يتراوح بين ٢٥ و٥٠٪(٦٧) ، بدأ يوقع هؤلاء الرجال فى موقع التناقض بين التأييد الحماسى (النظرى) للدولة فى موقفها العام وطرح مسألة الخلاف القومى بينهم جانبا ، وبين معارضتهم للاجراءات (الواقعية الضرورية) التى بدأت تتخذ تنفيذا لمتطلبات الاعداد العسكرى . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بدأت الشكوك تسرى بفؤاد أحمد جمال نتيجة لاحساسه بهذا التذمر مع ما علمه فور وصوله من نشاط واتصال لهم بفرنسا من خلال وثائق قنصليتها . مما وضع هؤلاء الرجال فى (بوتقة الموقف المزدوج)

---

(65) A. B C. (Arab Bureau, Cairo), Summary of Historical Documents from Outbreak of War between Great Britian and Turkey, 1914, pp. 11—16.

(٦٦) مذكرات عبد الله بن الحسين ، المصدر السابق ، ص ٧١ — ٧٩ .

(٦٧) فائز الغصين : مذكراتى عن الثورة العربية ، دمشق ١٩٣٩ ، ص ٤٣ — ٤٥ .

— وكذلك : ناصيف بك ابى زيد : تاريخ العصر الدموى ، دمشق ١٩١٩ ، ص ١٣٠ — ١٣١ .

قبل جمال والاتراك(٦٨) .

أما بالنسبة للعامة . فقد اشتركوا بالحملة وتقبلوا الى حد كبير مؤثرات التعبئة العسكرية بدافع من الحماس الدينى(٦٩) وأشاد أحمد جمال بهم . بل بموقف العرب عامة . عقب عودة الحملة الى دمشـــق(٧٠) .

والملفت للنظر — عند هذا الحد أيضا بالنسبة لما أعقب حملة السويس الاولى . اغفال الاكثرية الغالبة . ممن تصدوا لتلك الاحداث . من ذكر أسباب عدم اقبال أحمد جمال باشا للانتقام من المصلحين مستغلا ما لديه من وثائق القنصلية الفرنسية وامكانية استغلاله النتائج السيئة للحملة فى تنفيذ انتقامه .

على أننا نلاحظ — استمرار أحمد جمال فى سياسة التهدئة والتقرب الى العرب باستثناء حالة اعدام واحدة للقس « يوسف الحايك »(٧١) حتى دفعه المصلحون بعد ذلك نحو اعادة النظر فى موقفه بصورة كلية .

هنا حدث تضارب عند أكثرية الآراء — تجاه هذه المسألة . ولم نجد عرضا موضوعيا لتأخر أحمد جمال تنفيذ سياسته العنيفة عقب العودة من الحملة . لو كانت الاسباب التى دفعت لاتخاذ هذه السياسة اتجاه له بالانتقام من العرب والنابهين منهم بصـــورة

---

(٦٨) عزيز بك : سورية ولبنان فى الحرب العالمية الاولى ، ترجمة فؤاد الميدانى ، بيروت ١٩٣٣ ، ص ص ٦٢ — ٦٤ . وانظر كذلك :

(٦٩) توفيق برو : العرب والترك فى الحرب العالمية الاولى ، المرجع السابق ، ص ٩٧ — ٩٩ .

(٧٠) جمال باشا : مذكراتى ، ص ٢٨٠ .

(٧١) حينما عرض على احمد جمال خطابات تؤكد بصورة قاطعة قيام القس المارونى (يوسف الحايك) اتصال برئيس مجلس النواب الفرنسى (المسيو دى شانيل) حثه فيها على أن تقوم فرنسا بعمل ما للقضاء على الاتراك وربط لبنان بفرنسا ، وقع عليه الحكم بالاعدام فى ١٩١٥/٣/٢٢ ، انظر : انطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٢١٠ .

خامسة(٧٢) ، أو باعتبار أن هؤلاء الزعماء الاصلاحيين في سورية هم أكثر المواطنين ملاءمة ليكونوا الضحية التي تتحمل وزر اخفاقه وهزيمته(٧٣) . أو الرغبة في القضاء بسرعة على الفكرة القومية وتتريك العرب(٧٤) .

على أن جمال استمر عقب عودته من الحملة باتجاه التنسيق مع القيادة في العاصمة لمواجهة العمليات الحربية على النحو التالي :

أولا : الاهتمام بتحصين خط المواصلات بين « بير السبع والاسماعيلية » من خلال اقامة هيئتين مستقلتين الاولى تسمى « تفتيش خط مواصلات الصحراء » ومهمتها انشاء القواعد وتمهيد طرق الاتصال والمواصلات عبر سيناء .

والثانية مركز « قيادة تجريد الصحراء » لحماية المباني وتحصينها في مواجهة هجمات الاعداء ، ثم القيام بمهام الاستطلاع ودفع المفارز للمقاومة المبكرة أمام الانجليز(٧٥) .

ثانيا : اعادة تنظيم القطاعات العسكرية في سورية ، فسميت فلسطين التي ضمت « سنجقي القدس وعكا » باسم « منطقة عمليات القدس » وعهد بادارتها لـ جمال باشا ـ المسمى بالصغير ـ وباعتباره قائدا عسكريا لها ، وبناء على هذا أدخل (قضاء بئر السبع وغزة) ضمن قيادة خط مواصلات الصحراء ، وتولى « فخري باشا » المسئولية العسكرية تحت مسمى (قائد الجيش الرابع) وشمل نطاق عملياته منطقة سورية الشمالية والوسطى وضمت ولاية بيروت ودمشق ، حلب وأطنة ، ثم نقل أحمد جمال ـ باعتباره نائب القائد العام في سورية ـ مقر قيادته الى القدس(٧٦) .

---

(٧٢) محمد صبيح ، المرجع السابق ، ص ٦٧ — ٦٨
(٧٣) سليمان موسى ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .
(٧٤) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص ١٢٨ .
(٧٥) مذكرات احمد جمال ، ص ٢٧٧ .
(٧٦) نفس المصدر ، ص ص ٢٧٧ — ٢٨١ .

المرحلة الثانية : الصدام بين أحمد جمال والعرب :

وإذا كان أحمد جمال قد استمر عقب الحملة مباشرة فى تنظيم شئونه العسكرية حسبما أقتضته رؤياه . فان العرب — وبخاصة رجال الاصلاح قد أستأنفوا من جديد اتخاذ الخطوات التى آمنوا بها لتحقيق أهدافهم القومية . وبدأوا بالتخلى عما أعلنوه فى بداية الحرب ، أما بتشجيع من قبل أعضاء (العربية الفتاة) و(اللامركزية) بالقاهرة(٧٧) . أو بحثا عن التنسيق مقابل تحقيق الأمانى القومية الذى تزعمه الشريف حسين بن على بواسطة نجله « فيصل »(٧٨) .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى لم يتخذ قادة الاصلاح من الوسائل والاساليب ما يكفل لهم الحفاظ على سرية الاتصالات بينهم داخل سورية أو خارجها فى مصر وبلاد الحجاز . ومن هنا فتحوا نوافذ الشك على مصراعيها قبلهم من جانب أحمد جمال على النحو التالى :

أولا : عندما عثر موظفوا قلم الاستعلامات فى دمشق على بعض الرسائل المرسلة من القاهرة . مستترة وراء أسماء وهمية تارة كرسالة باسم « سيد أفندى شكرى » مرسلة من القاهرة فى ٢٧ رمضان ١٣٣٢ ه / ١٩ وموقعة باسم وعنوان مستتر أيضا (شارع الدواوين — الشيخ حقى حالف — ناظر جامع الست الشامية هانم)(٧٩) أو غير مستترة تارة أخرى كرسالة حقى بك العظم الى محمود المحمصانى فى بيروت وأنصب مضمون تلك الرسائل عن تبادل

---

(٧٧) برو ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٧٨) عندما زادت الشكوك لدى الحسين من تصرفات وهيب بك بادر الاول بارسال نجله فيصل فى مارس ١٩١٥ لتحقيق مهمة مزدوجة ، لعرض شكوى الحسين على المسئولين بالاستانة والاطلاع على قوة الحركة العربية فى دمشق ، وامكانية التنسيق بينهما فى المواقف تجاه الاتراك .

انظر : موسى ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٧٩) مذكرات احمد جمال ، المصدر السابق ، ص ص ٣٥٨—٣٦٠ .

ن وجهات النظر بين هؤلاء الاعضاء فى الاسلوب الأمثل (للثـورة والتمرد) وكيفية ايجاد السبل البديلة عن تلك الرسائل ، من خـلال الافراد موضع الثقة لنقل التعليمات اللازمة(٨٠) .

ثانيـا : وسار فى خط متواز مع هذه الرسائل ما بدأت فى نشره صحف القاهرة بواسطة أعضاء (اللجنة المركزية) بأقلام من (آل العظم) بالهجوم وندد تصرفات الدولة العثمانية وقادتها . سـواء باندفاعها وخطيئتها بالدخول فى الحرب الى جانب الالمان . ثم هجوم الاتراك على قناة السويس(٨١) .

ثالثـا : وسار هذا الهجوم فى الصحف فى ذات الوقت مع بداية تأكيد الشكوك عند « أحمد جمال » قبل عبد الكريم الخليل من خلال حديثهما المتبادل فى كيفية ايقاف تلك الحملة الهجومية الاعلامية .

فعندما استفسر جمال من الخليل عن السبب الرئيسى وراء تلك الحملة فى صحف القاهرة من أعضاء اللجنة المركزية . أبدى الخليل استعداده للسفر الى مصر وحمل مترعميها التوقف عنها . ثم أردف حديثه بالقول « أنه سيجد وسيلة للوصول الى هناك » بالرغم من انقطاع سبل المواصلات بين الشام ومصر خاصة بعد دخول ايطاليا الحرب . فى نفس الوقت الذى بدأ تغفيه التقارير التركية تتوالى على قيادة الشام تؤكد أن هناك تحركات من قبل بعض العناصر الوطنية . خاصة بين أفراد الجيش . كما أن نزول قوات من الحلفاء على السواحل السورية بات وشـيكا وأن بعضـا من قوات الاعـداء تقترب من الشاطئ»(٨٢) .

وربط أحمد جمال بين تلك المؤشرات الداخلية من قبل السورية

---

(٨٠) توفيق برو : العرب والترك ؛ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٨١) انظر صحيفة الاهرام ، خلال شهور مارس وابريل ومايـو ويونية ١٩١٥ .

(٨٢) أنطونيوس ؛ المرجع السابق ؛ ص ٢١٠ .

وبين افراغ الشام من القوات التركية المرابطة به بعد دفعها نحو جبهة الدردنيل للاشتراك فى صد هجوم الحلفاء عليها . والذى بدأ فى شهر مارس ١٩١٥ . فلم يتبق فى تلك المنطقة الاستراتيجية من الكتائب سوى أقلية عربية ومعها بعض (الرديف) من الاتراك الذين لا يستطيعون جميعا مقاومة التمرد الداخلى أو امكانية مواجهة القوات المهاجمة عن طريق البحر(٨٣) .

لقد بدا أمام جمال باشا فى هذه الفترة فى منتصف عام ١٩١٥ م أن الجبهة التركية الحربية فى البلاد العربية عامة وفى بلاد الشام خاصة ؛ قد بدأت تميل بشكل واضح وغير مطمئن ضدهم . وبدأت الحلقة العربية المعادية حولهم تضيق بالخناق . فى العراق باستئناف الزحف الانجليزى داخل العراق(٨٤) ، ومع ابن سعود الذى بدأ فى نفس الفترة مباحثات لتوقيع معاهدة بينه وبين الانجليز(٨٥) .

---

(٨٣) فشل الاسطول البريطانى فى مارس ١٩١٥ عبور مضيق الدردنيل ، فاتبع هذا الفشل بانزال على (غاليبولى) فى ٢٥ ابريل من نفس العام بالتعاون مع فرنسا بقيادة السير ايان هاملتون Hamelton فى محاولة للوصول الى استانبول ، بتعليمات من تشرشل وزير البحرية آنذاك . واضطرت القيادة التركية والالمانية مع هذا الضغط المتواصل استدعاء معظم قواتها من الخارج ، خاصة من المنطقة العربية ، لوصل الدردنيل بناء على طلب من أنور باشا الفرق (٨) و(١٠) و(٢٠) و(٢٥) وكانت اغلبيتها من العرب ومعظمهم من المنتسبين الى « جمعية العهد » التى يعتمد عليها رجال الاصلاح فى القيام بالثورة .

انظر انطونيوس ، المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٨٤) عندما احتلت انجلترا ميناء البصرة فى بداية الحرب (نوفمبر ١٩١٤) توقفت عند هذا الحد ، ثم واصلت زحفها فى (يونية ١٩١٥) واحتلت العمارة ثم الناصرية فى يوليو ١٩١٥ ثم بدأوا فى حصار (الكوت) .

(٨٥) انظر : محمد رفعت : التوجيه السياسى للفكرة العربية الحديثة ؛ القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

كان عبد العزيز بن سعود قد بدأ مفاوضات سريع مع الانجليز مع اندلاع الحرب العالمية ، سرعان ما اتخذت الصورة العلنية فى شهر ابريل ١٩١٥ مع السير برسى كوكس للوصول الى معاهدة بينهما . وبالفعل =

مع هذا الاحساس بحرج الموقف العسكرى التركى . ومع تلاحق الأحداث وانسجامها مع شكوك أحمد جمال من تصرفات بعض العرب . بدأت ذاكرته استعادة ما تضمنته الوثائق التى حصل عليها من القنصلية الفرنسية ، ووصل تنوطه الى قمته فى أواخر يونية ١٩١٥ . فى ذات الوقت الذى بلغ فيه الاندفاع العربى غير الحذر من قبل زعماء الاصلاح ومشاهير البلاد الى حد العلانية فكانت الذريعة التى بدأ بها « جمال » حملته بالقبض على هؤلاء الزعماء ما تطوع به البعض من العرب أنفسهم . اما بدافع من المصلحة الذاتية أو لكراهية شخصية — أمثال — كامل الاسعد مبعوث بيروت والمقيم فى صيدا وأسعد شقير مفتى الجيش . كما أتهم فى هذا الصدد أيضا شكيب أرسلان لرغبته الوصول الى منصب (المستشار) لجمال باشا هذا من ناحية(٨٦) .

ومن ناحية أخرى قامت بعض المحاولات التخريبية المتناثرة فى منطقة صيدا كقطع خطوط التلغرافات بها فى نفس هذه الفترة فى أواخر يونية ١٩١٥(٨٧) . من هنا كانت استجابة أحمد جمال وتصرفاته السريعة كرد فعل لما أستيقنه هو شخصيا وأستخلصه من تلاحق الأحداث وبداية تأرجح الارضية العسكرية بالشام بإتجاه معاكس للاغراض العسكرية(٨٨) فبادر باعتقال « رضا الصلح » و« عبد الكريم الخليل » فى النصف الاول من يوليو ١٩١٥(٨٩) .

=

استطاع الطرفان توقيعها باسم معاهدة العقير فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ ؛ انظر نص المعاهدة ومقدماتها فى :

فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ط ٢ ، الرياض ١٩٦٨ ، ص ٣٨٠ — ٣٨١ .

(٨٦) جمال باشا الصغير : كيف جلت القوات العثمانية من بلاد العرب ، ترجمة فؤاد الميدانى ، بيروت ١٩٣٢ ، ص ٣٥ وص ٦٢ .

(٨٧) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص ٦٣ — ٦٤ .

(٨٨) نفس المصدر .

(٨٩) مذكرات احمد جمال ، المصدر السابق ، ص .

لم يعرف عدد الذين اعتقلوا فى ذلك الوقت بصورة محددة . ونعتقد — كما سنرى — أنه أقترب من المائة بحساب الذين حكم عليهم بالاعدام ونفذ فيهم ومن حكم عليهم بالسجن ممن كانوا حضورا أو غيابيا .

على أنه من الغريب حقا . أن تلك المحاكمة التى جرت خلال أشهر يونية ويوليو وأغسطس لم تشمل أسماء الذين ورد ذكرهم فى وثائق القنصلية الفرنسية . بل ضمت فقط أشخاص الذين عثرت السلطات التركية على أسمائهم خلال المراسلات التى تمت بين أعضاء الجمعيات السرية بين القاهرة والشام ومعظمهم من المنتمين الى عضوية حزب « الفتاة واللامركزية » والذين لخصت المصادر التهمة التى وجهت اليهم وهى (حجة التحريض على الثورة المسلمة ومساعدة الاعداء)(٩٠) . وكانت حجة جمال باشا فى تحديد تلك الشخصيات وتقديمهم الى المحاكمة مفادها أنه لم يشأ تقديم هؤلاء جميعا — من رجال الاصلاح — الذين لم يحل اليه بصددهم يقين العداء . حتى لا يظن المسلمون فى الهند والجزائر ومصر والمغرب أن الاتراك قد تملكتهم ثورة الانتقام . ثم قال أيضا أن السبب الثانى لهذا الاتجاه يعود الى ما ظنه قادة الاتراك من امكانية اقلاع هؤلاء الرجال المشتبه فى أمرهم عن ضلالهم وأخطاءهم(٩١) .

وليس لدينا شرح مفصل عما دار فى المحكمة العسكرية التى شكلت لهذا الغرض فى بلدة (عالية) بلبنان . وجرت اجراءاتها بصورة سرية ، سوى ما أصدره جمال باسم فى كتابه « ايضاحات عن المسائل السياسية التى جرى تدقيقها فى ديوان عالية » الذى لم يرد به سوى ملخص للتهم التى الصقت بهؤلاء المتهمين . وشكلت تلك المحكمة من لجنتين احداهما للتحقيق برئاسة ضابط يدعى « صلاح الدين » ،

---

(٩٠) الجيش الرابع : ايضاحات عن المسائل السياسية التى جرى تدقيقها فى ديوان « عالية » ، ص ٥٧ — ٥٨ .

(٩١) مذكرات احمد جمال ، ص ٣٢٥ — ٣٢٦ .

وأخرى للقضاة لاصدار الحكم برئاسة « شكرى بك »(٩٢) .

وجرت المحاكمة بلا مرافعات بل في هيئة أسئلة واجابات عن أسباب ما شهدته صيدا من قلاقل . وما حوته الرسائل المتبادلة بين أعضاء الجمعيات السرية ، ومراكز الاتصال والالتقاء لهؤلاء جميعا . ودور عبد الكريم الخليل باعتباره — كما رأت المحكمة — همزة الوصل بين أعضاء الجمعيات وأصدرت حكمها باعدام أحد عشر شخصا . وصدق على الحكم (أحمد جمال باشا) ونفذ فيهم صباح ٢١ أغسطس ١٩١٥(٩٣) .

يرى جمال باشا في مذكراته أن تلك الاحكام التى نفذت بالدفعة الاولى (قد أحدثت ذعرا كبيرا في نفوس العصاة وأدخلت الفزع في قلوبهم)(٩٤) .

أما بالنسبة للعرب فقد ظلت الاكثرية منهم — **وتلك ملاحظة جديرة بالاهتمام ، مؤيدة لهذه التصرفات ملتمسة العذر للاتراك فيما أتوه ، ولم تثر أحكام الاعدام — سخطا — بالحجم الذى كان متوقعا ،** يقول ساطع الحصرى :

« ان الاعتقالات الاولى بعد مرور سنة من الزمن — أى بعد تنفيذ أحكام أغسطس ، لم تثر هواجس القوميين كثيرا . لأنهم كانوا يقولون فيما بينهم (قد يكون هناك ما يبرر الاعتقال) »(٩٥) .

ويرى على فؤاد « أن جمال باشا لم يخطىء فيما أتخذه من

---

(٩٢) برو ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٩٣) شمت هذه الدفعة عبد الكريم الخليل ، صالح حيدر ، مسلم عابدين ، محمد ومحمود المحمصانى ، نايف تللو ، محمود العجم ، عبدالقادر الخرسا ، نور الدين القاضى ، على الارمنازى وسليم عبد الهادى . انظر : ناصيف بك أبى زيد : تاريخ العصر الدموى ، المصدر السابق ، ص ص ١٦٩ — ١٧٢ .

(٩٤) مذكرات احمد جمال ، المصدر السابق ، ص ٣٦٩ .

(٩٥) ساطع الحصرى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

اجراءات بتنفيذ الاعدام برجال القافلة الاولى لحرج موقفه » •

على أن ما أصاب البلاد من جراء الضغوط الحربية كان أعظم تأثيرا عند الاكثرية العربية . كما أدت اليه أحكام الاعدام فقد وقعت سورية أسيرة للمجاعة والكساد التجارى . أكثر من ذى قبل مع منتصف عا م١٩١٥ . وأرجعه البعض من المعارضين للاتراك الى مبادرة التجار خاصة الاغنياء منهم سحب ودائعهم من المصارف . خشية استيلاء الاتراك عليها(٩٦) . أو لتعسف أحمد جمال فى أسلوب الحصول على متطلبات جيشه داخل البلاد بكافة الطرق . من خلال اللجان أو الاعوان الذين اشتطوا فى أسلوب الجمع . حتى وصل الأمر الى حد السرقة والخطف وهواء شخصية تعود فى مجطها الى الرغبة فى تحطيم العنصر العربى على حد قول بعض الآراء(٩٧) •

وهناك رأى آخر من المتعاطفين مع الاتراك . يقول أن سبب المجاعة وما حل بالبلاد من أزمة اقتصادية انما يعود بالدرجة الاولى الى ظروف الحرب العامة ومتطلباتها ؛ والحصار البحرى الذى فرضه الحلفاء ؛ هذا بالاضافة الى أن انتاج جبل لبنان من الحبوب بطبيعة الحال لا يكفيه فى أوقات السلم أكثر من شهرين الى ثلاثة أشهر فى العام فى أوقات السلم . فلابد أن تسوء الاحوال وبالضرورة فى أوقات الحرب(٩٨) •

ويشيد هذا الفريق أيضا بالجهود التى بذلتها السلطات التركية فى مواجهة تلك الازمة باصدار الاوامر المشددة بشحن الحنطة والقمح ، حتى لأن مجلس ادارة الشام ـــ دمشق وادرة حلب يملان الدنيا صراخا لكون بلادهما لا تتحملان اخراج هذه الكميات . ثم الاوامر المتعددة

---

(٩٦) برو ، المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٩٧) نافز الغصين : مذكراتى عن الثورة العربية ، دمشق ١٩٣٦ ، ص ٤٣ ـــ ٤٥ .

(٩٨) المنار ، جـ ٤ ، م ٢٣ ، شكيب ارسلان : كوارث سورية فى سنوات الحرب ١٩٢٢/٤/٢٧ ، ص ٢٩٧ .

التى أصدرها جمال نفسه بأرسال كافة المقادير المطلوبة لسد احتياجات لبنان الضرورية(٩٩) .

على أنه بالرغم من ميلنا الى الرأى الثانى ونفى التعمد تجويع بلاد الشام كهدف فى حد ذاته . كما يدعى البعض . خاصة . وقد عانت بلاد أخرى من جراء تلك الظروف فى الحجاز مثلا عندما أكل الناس جلود الاشجار(١٠٠) وما حدث فى مصر من انتشار للبطالة والعسر المالى وارتفاع الاسعار خاصة على الطبقات الفقيرة(١٠١) ، الا اننا نستطيع القول أن أحمد جمال قد خرج من هذه المرحلة التى تميزت بالصدام بينه وبين العرب . بقناعة **مهدت للمرحلة الثالثة ، مفادها المبادرة أولا بالهجوم على الخصوم كأسلوب افضل من المهادنة وانتظار ما يثبت الادانة مستقبلا(١٠٢)** .

ويقول جمال باشا فى مذكراته :

« ان المبادرة بتنفيذ الحكم كانت فى نظرى الوسيلة الوحيدة للضرب على أيدى الخونة ، وفى بلاد العرب يرى الانسان لارباب الحيثيات نفوذا كبيرا حتى أن وجود أحدهم فى الغالب قد يكون له من التأثير ما ليس لفيلق من الفيالق فان أراد قائد مثلى ليس له الا القليل من الموارد أن يحافظ على سلطة الحكومة وسطوتها ونفوذها فى بلاد سممتها الدعوة الانجليزية والفرنسية عدة سنين كان من أهم الامور أن يكون بحيث يؤمن الاهالى الملكيون بمقدرته على الأخذ بناصية أى شخص كائنا من كان ومعاقبته أشد معاقبة بدون استئذان المراجع العليا فى الاستانة »(١٠٣) .

---

(٩٩) المنار ، المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .

(100) F. O. 371/6237 Leatter from Hussin to Mackmahon, 6/3/1916.

(١٠١) د. لطيفة سالم ، المرجع السابق ، ص ص ١٧٢ — ٢٠٠ .

(١٠٢) صحيفة الشرق : « بيان الى العالم الاسلامى » ، ٥ رجب ١٣٣٤ هـ — ٧ مايو ١٩١٦ م .

(١٠٣) مذكرات احمد جمال ، ص ٣٨٢ .

لقد بدأت بذور تلك المرحلة من خلال ما استخلصه جمال باشا من :

أولا : المحاكمات التي جرت منذ منتصف عام ١٩١٥ ، وأعدام الدفعة الاولى والحصول على اعترافات لبعض المعتقلين أمثال عبد الغني العريسي ورفيق رزق سلوم وسيف الدين الخطيب أعضاء حزب اللامركزية بانتشار بؤر عديدة من مؤيديهم ما زالوا أحرارا وعلى اتصال بالانجليز والاشراف بالحجاز(١٠٤) .

ومع هذا الخطر فانه وقد فضل عدم استخدام الوثائق التي عثر عليها عند قدومه الشام تمهيدا لتهيأة المسرح الداخلي وحتى لا يصطدم بالعرب منذ البداية ، فانه الآن وبعد الدروس المستفادة ، عليه أن يمهد الأرضية المناسبة باسلوب آخر هو أسلوب المباداة ، قبيل الاستمرار في تنفيذ استراتيجيته في الهجوم على قناة السويس(١٠٥) . وهنا كانت النقطة الثانية مما استخلصه جمال ونفى به التمهيد للقيام بحملته الثانية بالتمهيد لها عسكريا وسياسيا من خلال تلك القناعة والمرحلة الجديدة .

أولا : عسكريا : فبعد أن أعاد تنظيم قواته (تجريدة الصحراء) و(خط المواصلات) بعد الحملة الاولى في فبراير ١٩١٥ ، اتجه نحو اعداد خطة للقوات المهاجمة وما يمكن استخدامه من المعدات القتالية والذخيرة اللازمة ، وبالرغم من اقرار (هيئة أركان الحرب التركية العليا) لتلك الخطة الا أن القادة الالمان ، باعتبارهم أصحاب الرأي النهائي في استراتيجية الحرب لم يهتموا بها(١٠٦) . ولما كان معظم القوات المقاتلة قد أرسلت الى الدردنيل — كما سبق أن ذكرنا ، ولم

---

(١٠٤) جمال باشا الصغير (المرسيني) كيف جلت القوات العثمانية من بلاد العرب ، ترجمة فؤاد الميداني ، بيروت ١٩٣٢ ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(105) Zeine (N.) Arab — Turkish Relations, Beirut, 1958 pp. 122 — 132.

(١٠٦) مذكرات احمد جمال ، ص ٢٨٢ .

يبق بسورية سوى أثنتا عشرة كتيبة دون ما مدفعية أو رشاشات . ومعظمهم من عرب الشام وفلسطين ، اتجه جمال باشا ، الى اسلوب دفاعى آخر يعتمد على تحصين مواقعه ابتداء من المنطقة الشمالية الممتدة من (مرسين وتبرق قله ودورت يول) ثم بامتداد شـاطىء الاسكندرونة . وفى مواجهة بيروت وحيفا ويافا وجبل لبنان وجبـل الكرمل ، مع جمع مزيد من الجنود العرب للتدريب واحلالهم محل الفرق المرسلة الى الاناضول(١٠٧) ، بناء على قانون الخدمة العسكرية الصادر فى ٢٩ أبريل ١٩١٤ بفرض التجنيد الاجبارى على البالغين ممن تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و ٤٥ عاما(١٠٨) ثم استدعى (أنور باشا) من الاستانة لاطلاعه على تلك الاستعدادات . فحضر بالفعل فى فبراير ١٩١٦ وتجول بفلسطين وصحراء سيناء ثم الحجاز .

ثانيا : التوجه السياسى : وفيه سار جمال على محورين أحدهما خارجى والآخر داخلى .

أما الخارجى فقد بدأ بارسال رسائل الى بعض الزعماء العرب يحثهم فيها على تقديم بعض المساعدة ، كالشريف حسين وعبد العزيز ابن سعود ، وبالرغم من مواقفهما السابقة والحالية ، الاول من خلال موقفه من الحملة الاولى والشك فى تصرفاته اجمالا ، والثانى باستمراره الاتصال بالانجليز ، الا أننا نعتقد أن جمال باشا أراد الظهور بمظهر الحريص على (الوحدة الاسلامية) كما كان يعتقد أو لمحاولة تجنب أخطار هؤلاء حين قيامه بالحملة بالرغم من ريبه فى تصرفاتهم ، فيقول عن الحسين « وسيعلم العالم الاسلامى حتى أطلع على الأجوبة التى تسلمتها من الشريف حسين فى سياق المراسلات التى دارت بيننا كيف كان هذا السيد يلعب دورين متناقضين فى آن واحد » .

ثم يقول عن موقف ابن سعود « ولم يكن باستطاعته ان يمد لنا

---

(١٠٧) مذكرات احمد جمال ، ص ٢٨٥ — ٢٨٧ .
(١٠٨) برو : العرب والترك ، ص ٧٨ .

يد المساعدة المباشرة لقربه من الانجليز الذين كان فى استطاعتهم ايصال الأذى اليه . الا أنه كان شخصيا نافعا جدا لنا — اذا — أرسل الجمال للجيش وسمح بتصدير التجارة من بلاده الى سورية »(١٠٩) .

وهكذا ظل جمال يحاول كسب تلك الاطراف الى جانبه — بدفعهم نحو الموقف الحيادى قدر الامكان — اذا لم تكن لديهم النية أو القدرة للوقف موقفا ايجابيا .

وأما على المستوى الداخلى ، وانطلاقا من مبدأ (المبادأة) فقد سار من خلالها على محورين أساسيين :

الأول : اجتثاث جذور الاسر التى ينتمى أهلها الى حزب اللامركزية ممن وردت أسماؤهم فى اعترافات عبد الغنى العريسى والزهراوى باعتبارهم — كما ظن — قاعدة وموردا يعتمد عليها هؤلاء كآل المؤيد والعظم والجزائرى والكيلانى والشمعة والمطران والعابد(١١٠) وبلغ عدد تلك الاسر حسبما أوردته بعض المصادر (٣٠٠) أسرة من مختلف المدن السورية(١١١) ، وذلك بنفيهم الى الاناضول ، معللا ذلك فى رغبته لم شمل الاسر وتدبير حياتهم المعيشية دون ما عناء ، وأن تنسيق الاتصالات بين هؤلاء وموطنهم الاصلى سوف يتم بواسطة (مديرية المهاجرة) التى أصدر قرارا بقيامها فى دمشق وعين لها « نورى بك » مديرا لها ، وأسس لها فرع آخر فى « حلب » وأسند ادارتها الى « أحمد أيوب »(١١٢) .

ثانيا : تقديم من جاء ذكرهم فى وثائق القنصيلة الفرنسية الى المحاكمة — بتهمة أساسية هى (الانتساب الى حزب اللامركزية) ،

---

(١٠٩) مذكرات احمد جمال ، ص ٢٨٢ .
(١١٠) فائز الغصين ، المصدر السابق ، ص ٥٠ .
(١١١) د. محمد بديع شريف : دراسات فى النهضة العربية الحديثة ، اليقظة الفكرية والسياسية فى القرن التاسع عشر ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ١٢٢ .
(١١٢) برو ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

والعمل على اقتطاع سورية والعراق وفلسطين عن البلاد العربية واقامة امارة اسلامية بهم ، وبذل الجهد لتأسيس خلافة اسلامية بمساعدة الانجليز في مصر(١١٣) .

وعلى نفس المنوال الذي جرت عليه محاكمة الدفعة الاولى — سارت أيضا محاكمة تلك الدفعة الثانية — فقد كانت النية مبيتة — مقدما — لدى أحمد جمال في اعدام . كل من تحوم حوله الشبهات المؤكدة أو ورد اسمه في السجلات أو الرسائل المتبادلة بين الشام ومصر — وأنطلق عنف الاحكام ومحور تحديدها تبعا لما جاء على لسان الدكتور أحمد قدري ، أحد الذين برأتهم ساحة المحكمة بقوله :

« وحدث أنني اجتمعت بكمال بك ، مستنطق ديوان الحرب — أي الناطق باسمه — وذلك قبل يومين من الافراج عني ، فكان مما قاله لي : أننا نحكم بالشنق على كل من يؤتى به الى هنا ، كي لا يبق في بلاد العرب من يفكر بالانتقاض على الدولة العثمانية »(١١٤) .

ومع ما تأكده العبارة من سياسة « للمبادرة » التي اتبعها جمال في تلك المرحلة ، الا أنها تؤكد في ذات الوقت أيضا ، أن قوة الاحكام قد اعتمدت أيضا على مقدار ما يمثله الرجل من ثقل داخلي بين مواطنيه يقول أحمد جمال :

« أما أنا فكنت أرى عقاب الخائن لدينه ووطنه ينبغي أن يكون مناسبا للمركز الاجتماعي الذي يشغله لأنه لا يتأتى في هذه الحال أن تعزى أعمال مثل ذلك الرجل الجنائية الى جهله أو حمقه وكذلك النتائج التي تترتب عليها فانها تكون بطبعها أشد خطرا وأعظم ضررا ، فخيانة ذي المقام الرفيع اذن هي من قبيل تعمد الاذى المحض »(١١٥) .

---

(١١٣) ايضاحات ، المصدر السابق ، ص ١١٤ — ١٢٠ .

(١١٤) د. احمد قدرى : مذكراتى عن الثورة العربية ، دمشق ١٩٥٦ ، ص ص ٥٤ — ٥٥ .

(١١٥) مذكرات احمد جمال ، ص ٢٧١ .

وبصرف النظر عن مقدار حجم التهمة التى ألصقت بهؤلاء وهى « الخيانة » الا أنه يستطرد فى موضع آخر ليؤكد هذا الاتجاه وتلك السياسة بقوله :

« لقد خولت السلطة القانونية فى أن أفعل ما فعلت وثانيا أن المبادرة بتنفيذ الحكم كانت فى نظرى الوسيلة الوحيدة للضرب على أيدى الخونة »(١١٦) .

على انه ايضا من الخطا بمكان الاعتقاد بان ما اتخذه جمال — من سياسة لمبادرة لمواجهة التمرد والثورة كانت — فقط هى السبب الأوحد لعنف الاحكام والتصميم على تنفيذها مباشرة .

فقد كان اندفاع الحسين بن على والمجاهرة بمطالبه فى ذلك الوقت بالذات فى أوائل عام ١٩١٦ من الاسباب القوية التى دعمت هذا الاتجاه لدى الاتراك .

فعقب زيارة « أنور باشا » ومعه جمال للبلاد العربية ، كما ذكرنا ، والتى لم يستقبلهما فيها — الحسين — حال وجودهم بالحجاز ، مدأ الأخير يظهر حقيقة توجهاته للقيام بثورة . من خلال ما أرسله من برقيات الى الاتحاديين خلال شهرى فبراير ومارس ١٩١٦ ورد فيها « اذا كنت حقا ترغب فى التزامى جانب الهدوء » والسكينة فينبغى الاعتراف باستقلالى فى سائر الحجاز من تبوك الى مكة المكرمة ، وجعلى أميرا وراثيا ، كما ينبغى أيضا العدول عن العرب المتهمين واعلان العفو العام فى سورية والعراق ، وطالب الشريف فى برقياته أيضا بضرورة القضاء على ابن سعود قبل مبادرته باتخاذ موقف أو اقدام على عمل يسبب له الازعاج والمضايقة ، وانه — أى الحسين — لن يرسل المجاهدين بقيادة نجليه الى العراق وسورية — الا — بعد

---

(١١٦) نفس المصدر ، ص ٣٨٢ .

أن يقضى على أى زعامة غير موالية له بشرق الحجاز(١١٧) .

وهكذا أضحى الشريف حسين فى هذا الوقت — يميل ميلا واضحا باتجاه الانجليز — مبتعدا عن الدولة العثمانية . وبدأ أمام قادة الدولة أن هذا التوجه الجديد . يمثل خطرا يتوازى مع بقية الاخطار التى تهدد الدولة من قبل الروس فى الشمال الذين بدأوا أيضا فى ذات الفترة هجومهم على أرضروم ووان . مع الوضع فى الاعتبار امكانية استمرار زحفهم باتجاه الجنوب — أى نحو سورية والعراق(١١٨) ، ومن خلال قناعة أحمد جمال فى تلك المرحلة الثالثة لسياسته ؛ ومع تطور الاحداث بالحجاز وشمالى سورية . أصدرت المحكمة العسكرية فى عالية والتى استمرت من سبتمبر ١٩١٥ حتى مايو ١٩١٦ حكمها بالاعدام على (٢٠) من المعتقلين ونفى (٣) وسجن «٥» وبراءة «٣١» رجلا(١١٩) .

---

(١١٧) عبد الله بن الحسين : مذكراتى ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ ، وكان الشريف خلال هذه الفترة ، قد أوشك على الانتهاء من مراسلاته مع الانجليز والاتفاق على دوره للقيام بالثورة ، معتمدا على وعود البريطانيين ، وآمن ان تلك الوعود قد منحته حق تزعم و— الملكية — على العرب والسيادة عليهم ، وسحب الاعتراف بهم ، وكان من بين هؤلاء عبد العزيز بن سعود . انظر :

David Howarth, The Desert king, A life of Ibn Saud, London 1964, pp. 136 — 141.

(١١٨) مجلة الحرب العالمية الاولى ، مجلد ٣ ، ص ٦٦ — ٦٧ .

(١١٩) أعدم كل من : شفيق العظم — عمر عبد القادر — عمر مصطفى حمد — رفيق رزق سلوم — محمد حسين الشنطى — شكرى العسلى — عبد الغنى العريسى — عارف محمد الشهابى — توفيق البساط — سيف الدين الخطيب — احمد حسين طبارة — عبد الوهاب احمد الانلجيزى — سعيد فاضل عقل — بترو باولى — جرجى موسى الحداد — سليم محمد سعيد الجزائرى — على محمد حاجى عمر — رشدى احمد الشمعة — أمين لطفى الحافظ — جلال سليم النجارى .

وحكم بالنفى على : رياض رضا الصلح بالنفى المؤبد ، واستمرار نفى رضا الصلح واسعد حيدر .

وحكم بالسجن على كل من : سالم مصطفى مظلوم خمس سنين =

ونتيجة لتلك الأحكام أنسحب بعض الأعضاء العرب من مجلس المبعوثان احتجاجا عليها وهم عبد القادر الجزائرى وفارس الخورى(١٢٠) . وخيم جو من الخوف والحذر على الحياة العامة فى سورية . فتسابق البعض من البارزين . خشية وحذرا وتأمينا لأنفسهم . كفيصل بن الحسين . الذى كان مقيما وقتها فى أوائل مايو ١٩١٦ . بدمشق للتنسيق للثورة . فأظهر — امتعاضه — ظاهريا من جرم هؤلاء الاملاحيين وحتى يأمن لنفسه الخروج بعيدا عن يدى أحمد جمال . وخرج بدعوى رغبته قيادة القوات المتطوعة والتمركز فى المدينة المنورة استعدادا لحملة القناة الثانية(١٢١) .

وبادرت أيضا بذات الموقف . بعض الزعامات المحلية أمثال كامل بدر الدين مفتى دمشق وأسعد شقير . وعبد القادر الخليل خطيب جامع « أوميادة » . كما أرسل زعماء الطوائف المسيحية رسائل تأييد للاحكام أمثال « بطرس الحويك » بطريك الموارنة . وبطريرك الارثوذكس « غريجوريوس الرابع » و« ديمتريوس » بطريرك

= وتوفيق محمد الناطور — يوسف سلمان بعشر سنين — وحسنين خليل حيدر خمسة عشر سنة ، وطاهر احمد الجزائرى بعشر سنين .

وبرا كل من : محمد كامل الهاشم — ابراهيم القاسم — سلمى العظم — جمال الدين الخطيب (عبد الحميد معلم الرسم) — محيى الدين فريحة — حسين صبرى — رشدى الغزى — عاصم بيبو الغزى — عزت الاعظمى — مصطفى الكيلانى — عبد الرحيم حنون — الدكتور حسام الدين — نجيب شقير — الشيخ فتح الله — الدكتور أحمد قدرى — سليم طبارة — جميل الحسينى — المفتى سعيد الباتى — سليم الشمعة — سليم النجارى — فائز الخورى — رشيد الخشيمى — عمر الاتاسى — البكباشى على رضا — الدكتور أمين قزما — سعيد عدرة — الدكتور عبد الحفيظ — اليوزباشى جميل — فريد باشا اليمانى — عثمان العظم .

انظر :

جمال باشا الصغير : كيف جلت القوات العثمانية من بلاد العرب ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(١٢٠) برو ، المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(١٢١) د. محمد بديع شريف ، المرجع السابق ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .

الكاثوليك . خشية على أنفسهم(١٢٢) .

أما جمال فقد بدأت الظنون لديه تميل الى امكانية قيام الشريف حسين (بعمل ما) ضد الدولة العثمانية بالرغم ما أرسل اليه بالحجاز من معونات مالية قدرت بألف ليرة ذهبية بالاضافة الى ما يزيد على العشرين ألف بندقية لتزويد متطوعى الحجاز بها أرسلت الى حامية المدينة المنورة . ولم يستأنف ارسالها الى مكة المكرمة . لنفس الشكوك التى راودت الاتراك فى ذلك الوقت(١٢٣) .

غير أنه يدعى — لقول — أنه لم تكن لديه — ما يحول ظنونه الى يقين لقيام الشريف بثورته فيقول :

« وانى وأيم الله لو علمت ذلك وقتئــذ . — يعنى بما نشرته الصحف من ترتيبات بعد قيام الثورة — من أن الحسين كان على اتفاق مع الانجليز منذ أول يناير ١٩١٦ م لكنت أمرت غير متــراخ بالقبض على فيصل فى دمشق وعلى أخيه فى المدينة ، ولأرسلت فرقة تركية على جناح السرعة الى مكة للقبض على الشريف حسين وأولاده والقضاء على تلك الثورة المشئومة فى مهدها ، ولكن ماذا عساى كنت أفعل فى تلك الظروف ، ولم تكن لدى بعد البراهين الكتابية على التدابير الجنائية التى كان يقومبها أولئك الاشخاص »(١٢٤) .

لقد أصبح جمال فى هذه اللحظة أمام مفترق العديد من الطرق هى :

أولا : ظنونه تجاه الشريف الذى ينوى أو على الأقل تنبىء تصرفاته بشىء ما ، وان كان غير مؤكد .

ثانيا : استمرار الزحف الروسى بعد سقوط أرضروم فى شهر

---

(١٢٢) المنار : (كوارث سورية فى سنوات الحرب) ، ج ٤ و ٥ ، م ٢٣ ، ص ص ٣٧٣ — ٣٨٢ وص ٥٢٢ — ٥٤٨ .

(١٢٣) فائز الغصين ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(١٢٤) مذكرات احمد جمال ، ص ٢٨٨ .

فبراير ١٩١٦ وأعقبها سقوط ، تبليس فى مارس وامكانية فصل الاناضول من العرب بما يمثله من خطورة وضغط متزايد على الجيش الرابع ، الذى أفرغ من قواته الاساسية فى سورية وأرسلت الى المعارك فى « غاليبولى » والتى انتهت بهزيمة وانسحاب الانجليز وحلفائهم فى يناير ١٩١٦ .

ثالثا : الخشية من تحول الضغط الانجليزى بعد الفشل فى جبهة الاناضول الى الجبهة الجنوبية لبلاد الشام انطلاقا من مصر ، مع ما بدأ من امكانية الاتفاق بين الروس والانجليز لتطويق القوات التركية فى سورية(١٢٥) .

من هنا — اذا أيقنا بما أحيط بالاتراك بسورية من مخاطر أمام تلك الضغوط ، وبالرغم مما أيقنه جمال من موقف فيصل ، ومدى ردود الافعال لما أقدم اليه قبل رجال الاصلاح بسورية الا أن الأمل فى الاعتماد على الشريف ظل قائما ، لذا كان قيام الثورة أمرا أعظم مما كان يظنه جمال باشا .

جمال باشا والثورة العربية :

قامت الثورة العربية فى العاشر من يونية ١٩١٦ فى وقت بالغ السوء بالنسبة للاتراك كما ذكرنا ، ولم يتمكن الجيش الرابع الا من دفع ألفين من الجنود من الفرقة (٥٨) عن طريق الخط الحديدى الى المدينة المنورة ، معتمدا على قوة فخرى باشا الذى عينه قبل شهر تقريبا قائدا لقوات المدينة بالاضافة الى القوات المرسلة بقيادة « خيرى بك » ولتى كانت وجهتها قبل أحداث الثورة نحو اليمن(١٢٦) .

وبالرغم من رد لفعل العصبى لجمال باشا على النطاق الداخلى بسورية حين علمه بقيام الثورة والقاءه القبض على أربعين شخصا ممن ظن فيهم ميلا نحو الثورة أمثال « شكرى الايوبى » و« عبد الحميد

---

(١٢٥) مذكرات احمد جمال ، ص ٣٥٣ .
(١٢٥) سليمان موسى ، المرجع السابق ، ص ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .

التلطلقجي » و «زكى المعظم » و(فارس الخورى) وغيرهم(١٣٧) .
الا أن التهديد الذى أعلنه فيصل بأنه سيثار من الاتراك الاسرى فى مكة المكرمة والطائف . لكل من يعامل معاملة سيئة من العرب ، كان له الأثر البالغ فى الحد من امكانية اندفاع جمال باشا نحو مزيد من الانتقام(١٣٨) خاصة ما أكده التهديد الآخر الذى وجهه الشريف حسين الى أنور باشا عن طريق « ويلسون » الرئيس الامريكى بالكف عن المعاملة السيئة لعرب سورية . والا فان الاشراف سيثأرون لكل من يعدم أو يموت من العرب بمثله من الضباط الاتراك الاسرى فى مكة والطائف(١٣٩) .

وفى المقابل : تأكد الاتراك والالمان من بدأ الاستعدادات العسكرية للانجليز فى الضفة الشرقية للقناة ، من خلال بناء الاستحكامات فى منطقة القناة والاسماعيلية ، ونشاطهم المكثف فى دفع مفارز للاستطلاع باتجاه الخط الحديدى من الاسماعيلية(١٣٠) .

ومن هنا أسقط فى يد جمال باشا فى سورية مع عجزه العسكرى ، فلم يبق أمامه الا اتباع اسلوب آخر ، خاصة مع افراغ البلاد من البؤر التى يمكن أن تمثل خطرا على الاوضاع لعامة ، ويقين الجميع بعدم القدرة على العصيان بفضل اليد الحديدية التى استخدمها فى المرحلة السابقة .

عند هذه النقطة بدأت المرحلة الرابعة لسياسة جمال باشا فى سورية **وهى مرحلة التقرب الى العرب مرة أخرى .**

ويعبر شكيب أرسلان بايجاز عنها كما يلى : **« لما ثار الشريف بالحجاز خاف جمال العواقب ، فعدل عن المخاشنة الى**

---

(١٢٧) انطونيوس ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .
(١٢٨) نفس المصدر ، ص ٢٢٧ .
(١٢٩) احمد عزت الاعظمى : القضية العربية ، ط ١ ، ج ٦ ، بغداد ١٩٣٢ ، ص ص ١١٣ — ١١٤ .
(١٣٠) د. لطيفة سالم : المرجع السابق ، ص ص ٢٤٥ — ٢٤٧ .

المحاسنة »(١٣١) .

من هنا فاذا كان هناك عجزا عسكريا فى مواجهة الثورة ، وأوكل أمر التصدى لها لقوات الحجاز . فانه من خلال هذه القناعة الجديدة التى فرضتها الاوضاع المحيطة بجمال ، فقد سار لتحقيق سياسة « المحاسنة » على محورين أساسيين :

الأول داخل سورية عندما جند مفتو بلاد الشام فى ولايات حلب (محمد العبيسى) وبيروت (مصطفى نجا) والقدس « كامل الحسينى » لاصدار الفتاوى الدينية ، بأن خروج الشريف حسين على الدولة العثمانية هو خروج عن اجماع المسلمين(١٣٢) .

لقد كان بامكان الاتراك تجنيد موظفى الدولة لتحقيق خطتهم تجاه حركة الشريف ولكن ظلت هناك أكثرية من العرب مؤيدة لجمال والدولة العثمانية بدليل أن نطاق الثورة ظل محدودا ببضع قبائل كالرولا والقرشية والسردية والسراحين وأهل حوران وجبل الدروز(١٣٣) ، الذين أرتبطوا بالشريف واعتمد عليهم هو الآخر فى فعالية الثورة داخل سورية .

والثانى بالحجاز ، لكسب تأييد بعض القبائل الحجازية للدولة العثمانية فى محاولة للحد من قوة الثورة وانتشارها ، فأرسل وفدا من وجهاء وعلماء سورية الى المدينة المنورة باعتبارها معقل القوة العسكرية المؤثرة للاتراك بالحجاز وضم هذا الوفد بعض الشخصيات البارزة مثل « محمد فوزى العظم ، وعبد الرحمن اليوسف وأسعد الشقيرى »

---

(١٣١) المنار ، جـ ٣ ، م ٢٣ ، « كوارث سورية فى سنوات الحرب — مشاهدات ومجاهدات شاهد عيان ، شكيب ارسلان » ، ص ٢٠٩ .

(١٣٢) نفس المصدر .

(١٣٣) لورنس : اعمدة الحكمة السبعة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٩ م ، ص ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

لهذا الغرض(١٣٤) • ويبدو أن مهمة هؤلاء ، أصابت نجاحا ملحوظا . عندما لعب « شيخ رابغ — حسين بن مبيريك » دورا رئيسيا فى الحد من وصول المساعدات العينية الى قوات الثورة كالمؤن وبعض العتاد المرسل من القاهرة وكبطاريات المدفعية لمواجهة قوات الاتراك(١٣٥) •

ومع نهاية عام ١٩١٦ ، كانت قوة اندفاع الثورة قد شابها شىء من الخمود لبداية استعادة الاتراك زمام المبادرة ولو مؤقتا بعد المفاجأة التى أصيبوا بها فى البداية . وعندها تجاذبت جمال باشا — فيما يبدو — خطتان خروجا من الازمة التى أطلت برأسها بالحجاز على النحو التالى :

أولهما : ما راوده من أمل للقضاء على الثورة فى مهدها ، بالرغم من سقوط أكثرية مدن الحجاز الرئيسية (جدة ، مكة المكرمة والطائف) ، مع ما أبدته قوات فخرى باشا حول المدينة المنورة من دفاع مستميت ، وتحول القوات التركية بها من الدفاع الى الهجوم ، ودفع قوات فيصل وعلى أبناء الحسين(١٣٦) ، بعيدا عنها حتى رابغ ، مما أعطى بريقا من الأمل عند أحمد جمال وأشار الى ذلك فى مذكراته مشيدا بها بقوله :

« فبسالة هؤلاء الشرذمة واقدامهم — أمثال — فخرى باشا وضباطه البواسل أمثال حاكم المدينة بصرى باشا وجمال باشا والذى يسميه العرب — جمال باشا الثالث والقائمقام نجيب بك والملازم كمال بك ••• وغيرهم ، أحبطت كل ما بذله أولاد الشريف حسين من الجهود وردتهم على أعقابهم بالخسائر وليس شىء أدل على نجاحها من أن المواصلات ظلت مفتوحة بين سورية والمدينة المنورة من يونيه ١٩١٦ الى ديسمبر ١٩١٧ »(١٣٧) وتوالت فى ذلك الوقت استغاثة الشريف

---

(١٣٤) امين سعيد : اسرار الثورة العربية الكبرى ، القاهرة ١٩٣٥ ، ص ١٥٥ •

(١٣٥) سليمان موسى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٩ •

(136) F. O. 88/13, Letter from Hussan to Mc Mahon, 15/11/1916.

(١٣٧) مذكرات احمد جمال ، ص ٢٩٢ •

مكماهون وونجت بسرعة ارسال قوات للخروج من المأزق الذى وصلت اليه الثورة فى ذلك الوقت بعد شهرين من قيامها .

ثانيهما : اعتقد أحمد جمال أن بداية تدفق الامدادات الالمانية المكثفة بوصول عدد من كتائب المشاة اليه ، ومعها فرقة من الرشاشات وبعض البطاريات منذ بداية ابريل ١٩١٦ . بالاضافة الى النشاط المكثف للطائرات الالمانية لتتبع تحركات القوات البريطانية على ضفاف قناة السويس(١٣٨) ، أن بامكانه مع هذا الاهتمام الالمانى — القيام باستئناف الهدف الذى من أجله أتى الى البلاد العربية ، وهو مواجهة الانجليز فى مصر .

ورغبة منه فى التفرغ لمراقبة الموقف الشمالى باتجاه الروس ، والجنوبى فى أحداث الثورة ، فقد ترك للقائد الالمانى (فون كريس) مهمة التنفيذ والتخطيط للحملة مشترطا عليه « على شرط أن لا توضع الحملة فى خطر لأنها القوة الوحيدة التى يمكننا الاعتماد عليها فى الدفاع عن فلسطين »(١٣٩) .

على أن هذا (التوازن) الذى ظنه جمال ، بين « أحداث الحجاز » و« أحداث سيناء » كان توازنا خادعا الى حد كبير فى توجهاته وتقديراته ، أما فيما يتعلق بأحداث الحجاز ، فبالرغم من تعثر تحركات قوات الثورة حتى الشهور الاولى لعام ١٩١٧ ، وتوقف نجاحها عند حدود بعض النقاط المتناثرة شمال الحجاز ، فان الحسين بن على قد استثمر — بالتعاون مع الانجليز ، الفترة التى قاربت على العام وحتى يونيه ١٩١٧ ، فى اعادة تنظيم قواته واستراتيجيتها القتالية كبداية تكوين مفارز نظامية بدلا من الاعتماد كليا على البدو ، كما بدأت ايضا بعض المعونات العسكرية والمستشارين الانجليز بالوصول

---

(138) F. O. 371/6267, Letter from Macmahon, To. F. O. 15/5/1716.

(١٣٩) مذكرات احمد جمال ، ص ٢٩٤ .

الى الحجــاز(١٤٠) .

وعلى الجانب الآخر ، فيبدو أن جمال باشا ، قد أصبح عاجزا عن الوصول الى ما تخططه قيادته فى العاصمة بزعامة « أنور باشـا » بالتعاون مع الالمان الذى بدأ منذ اشتداد معركة « الســوم Somme منذ بداية يوليو واستمرت حتى أكتوبر ١٩١٦(١٤١) . وما تلقــاه الألمــان خلالها من صدمات ومفاجآت ، فاتجهوا بعد موافقة قادة الدولة العثمانية على ربط العمليات العسكرية فى الشرق والغرب على حد سـواء بين ألمانيا . بعد أن كانت منوطة قبل ذلك فى الشرق بين الاتراك . وكانت مهمة الالمان عندها (**استشارية**) (١٤٢) . ومع هذا الاتفاق الاستراتيجى تحول الموقف القيادى العام ، وبالتالى ، بدأ الالمان والقيادة التركية فى (نزع) مسئوليات أحمد جمال العسكرية بصورة تدريجية ، وهو لا يدرى . من هنا فبالرغم من وحدة الهدف بين جمال من جهة والقيادة العليا ومعهم الالمان من جهة ثانية فى مهاجمة واستمرار الضغط على الانجليز فى مصر ، الا أن (رأى) الطرف الأول أصبح عديم الجدوى فى التخطيط أو التنفيذ وتقوقع عند حدود المساهمة فقط .

ومن هذا الاتجاه الجديد كانت حملة القناة الثانية فى أغسطس ١٩١٦ م بقيــادة الالمانى « فون كريس »(١٤٣) وانتهى مصـــيرها

---

(١٤٠) المؤرخ المصرى : اصدار قسم التاريخ ، آداب القاهرة ، العدد الاول ، يناير ١٩٨٨ « دور القبائل الحجازية والشامية فى الثورة العربية » ، د. عبد العليم ابو هيكل ، ص ٢٨٨ .

(١٤١) بدأت انجلترا فى تلك المعركة داخل النطاق الاوربى الجغرافى محسوسا واضحا من خلال التنسيق العسكرى الانجليزى الفرنسى فى الهجوم على « الســوم Somme » وانزلوا بالالمان ضربة قاسية مع استخدام الدبابة لاول مرة فى الحرب .

(١٤٢) مجلة الحرب العالمية ، م ٣ ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(١٤٣) تألفت القوات المهاجمة للقناة من :

١ ـــ فرقة المشاة الثالثة وهى : مكونة من ثلاث كتائب ، وثلاث صفوف وكتيبة راكبة وبطاريتان جبليتان وكتيبة من المهندسين .

=

بفشل زريع فى « قاطية » و« رمانة » ثم تعقبت القوات الانجليز . الجنود المنسحبة حتى أجبرتها على الجلاء عن العريش فى السادس عشر من ديسمبر من نفس العام . واستمرت القوات التركية تعانى الضغط المستمر ، حتى اضطر أنور باشا الحضور الى فلسطين فى ١٥ مارس ١٩٩١٧ . وقرر اتخاذ الخط الممتد من غزة — تل الشريعة بير السبع . كخط دفاعى لبلاد الشام جنوبا . واستمر « فون كريس » مسئولا عنه . فخاض أمام القائد الانجليزى « أرتشيبالد مورى » معركتى غزة الاولى والثانية(١٤٤) . كما وقعت سورية منذ بداية ١٩١٧ . مع هذا الحصار تحت طائلة الضائقة الاقتصادية أكثر من ذى قبل مع ضغوط الثورة العربية بالحجاز حتى ذلك الوقت .

وتأزم الوضع الداخلى — نتيجة لهذا الموقف السيء . فازدادت مظاهر المجاعة خاصة مع بداية ابريل ودخول فصل الصيف . ويصف أحد زعماء الحركة العربية الموقف فى شهر يوليو ١٩١٧ ببيروت بقوله :

« لا ترى فى شوارعها الا نفرا قليلا من الاغنياء الذين اشتروا حياتهم بالمال أو بعض الفقراء يتقلبون على بلاط الشوارع » ثم يصف

=

٢ — كتيبة رشاشات (ثمانية بلوكات) .
٣ — بطاريتان هاوتزر جبليتان نمساويتان .
٤ — بطارية المانية من عيار ١٠ سم .
٥ — بطارية المانية من عيار ١٥ سم .
٦ — فرقتى مدافع ضد الطائرات .
ومجموع افراد تلك القوات (١٠,٠٠٠) رجل .
انظر المذكرات أحمد جمال ، ص ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(١٤٤) معركة غزة الاولى : دارت تلك المعركة ليلة ٢٦ مارس ١٩١٧ ، باتباع اسلوب الحصار والضغط على القوات التركية بها ، وظلت العمليات العسكرية ذات طابع الكر والفر حول المدينة حتى اليوم التالى ، فانسحبت القوات الانجليزية من حولها . ثم عاودت القوات الانجليزية مرة اخرى هجومها على غزة يوم ١٧ ابريل واستمر القتال اربعة ايام ، وبنفس الاسلوب السابق ، دون ان تحقق نجحا يذكر ، فاضطر الى الانسحاب بعيدا عن المدينة .

أحمد جمال المشهد بالحديث اليه « أرأيت السكون المخيم فوق سماء سورية ؟ ان منظر البؤس الذى تراه يخيفنى كثيرا »(١٤٥) .

وفى مواجهة هذا الموقف ، دفعت الادارة التركية موظفيها لجمع الغلال من منازل الاغنياء بارغام كل شخص منهم دفع (ربع) ما لديه من أغنام وحبوب الى مخازن الادارة فى بيروت أو دمشق أو حلب ، ثم يقوم الموظفون بتوزيعها بما تراه أنفسهم(١٤٦) .

واسترسالا فى أسلوب (المحاسنة) أو اللين — لوحظ توقف أسلوب النفى أو الاعتقال أو المحاكمات العسكرية . بل وأعيدت بالفعل بعض العائلات الى موطنها كآل المؤيد وآل العظم ، وبقية من نفى الى بلاد الاناضول(١٤٧) .

أما من الناحية السياسية ، فقد أصدر أحمد جمال قرارا فى يونية ١٩١٧ ، ألغى فيه الامتيازات الخاصة بالحكم الذاتى للبنان الذى أقر لها منذ عام ١٨٦٤ م ، بما رأى فيه من دمج هذا الاقليم فى دفة ادارية واحدة مع بقية البلاد السورية ، لمواجهة هذه الازمة العاصفة(١٤٨) .

على أنه فى ذات الفترة من يونية ١٩١٧ ، بدأت الأحداث تسير نحو منعطف جديد ، ليس فقط نحو تلك الأزمة الداخلية التى بدأت تضغط بقوة على داخل سورية ، بل فى الأوضاع العسكرية أيضا ، فاذا كانت القيادة العامة التركية قد وصلت الى قناعة مفادها ، الغاء التفويض المطلق لسلطات « جمال باشا » بصورة تدريجية وجعل أمر التوجهات العسكرية فى بلاد الشام — يقع ضمن نطاق الاستراتيجية العامة ، فقد رأت أيضا فى ذات الوقت طرح تلك القناعة على بساط المناقشة أمام قيادة الاتراك فى تلك البقاع للكشف عما خططت له

---

(١٤٥) احد اعضاء الجمعيات العربية ، ثورة العرب ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٦ .

(١٤٦) ماثر الغصين ، المصدر السابق ، ص ص ٤٢ — ٤٥ .

(١٤٧) امين سعيد ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(١٤٨) انطونيوس ، المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

بصورة عامة ، بعد ما تأزم الوضع العسكرى فيها ، ففى العراق ، عندما سقطت بغداد بيد الجنرال (مـود Mood) فى الحادى عشر من مارس ١٩١٧ واستمر الهجوم البريطانى بالزحف باتجاه الشمال ، حتى تم الاتصال فى الشهر التالى (ابريل) بالجيش الروسى المتقدم الى حدود ما بين النهرين عن طريق ايران(١٤٩) • وفى مصر ، مع ما بدأ فى الافق من رغبة لدى الانجليز فى اعادة النظر بأمر قيادتها ، فعزلت « موراى » وقررت تعيين الجنرال « اللنبى » بدلا منه لقيادة ما أسموه بـ (قوة الحملة المصرية)(١٥٠) مع ما صاحب ذلك من تمهيد عسكرى من أجل اعادة الكرة بالهجوم على غزة مرة أخـرى بالتخطيط لمـد خط للسكك الحديدية من قطية الى فلسطين(١٥١) • وفى الحجاز أخذت الثورة مع بداية عام ١٩١٧ ، تستعيد نشاطها مع الدور الذى بدأت تلعبه القوات النظامية والتركيز الانجليزى بوصول بعض المستشارين إلى الحجاز أمثال « ولسون Wilson » و« جارلند Garland » و« لورنس Lowrence » الى الحجاز ، وبعض المدفعية من مصر ، كما بدأت تلك القوات بالتعاون مع القبائل البدوية فى الزحف شمالا فاستولت على الوجه فى يناير ، ثم (ضبا والمويلح) فى مارس ١٩١٧ وسقطت بهذا آخر ثغور الحجاز شمالا ، وبدأت القوات تضغط حول ميناء العقبة(١٥٢) •

لهذه الضغوط العسكرية حول الشام وبعد أن أضحى موقف القوات التركية فى الولايات الشرقية ضعيفا للغاية ، دعت القيادة — أو « أنور باشا » على وجه الخصوص الى عقد مؤتمر عسكرى فى حلب فى الرابع والعشرين من يونية لبحث الموقف ووضع خطة ملائمـة

---

(١٤٩) لنشوفسكى: الشرق الاوسط فى الشئون العالمية ، جـ ١ ، ترجمة جعفر خياط ، بغداد ١٩٦٤ ، ص ٩٢ •

(١٥٠) لمزيد من الايضاح عن اللنبى وشخصيته وتفكيره انظر :
Wavell (A.) Allenby in Egypt. London 1943.

(151) Lloyed (6.), Egypt Since Cromer, London, 1933 pp. 226—230.

(١٥٢) المؤرخ المصرى ، المرجع السابق ، ص ص ٢٩٣ — ٢٩٥ •

لصيانة الحدود والدفاع من البلاد(١٥٣) . وخلال هذا المؤتمر تضاربت مواقف القادة الحضور في اختيار الاسلوب الأمثل أو الاتفاق على الخطة المطلوبة بين مؤيد لارسال قوات لصد الهجمات عن العراق . أو تحصين وتقوية الدفاع عن سورية خشية الضغط عليها من جهة مصر أو زحف قوات الثورة من الجنوب الغربي . وكان جمال باشا ومعه أحمد عزت قائد جيوش القفقاس من مؤيدي الرأي الأخير(١٥٤) . بينما أيد أنور باشا ومعه القادة الالمان الرأي الاول . انسجاما مع ما تم التفاهم بشأنه قبل ذلك منذ أمد ليس بالقصير .

وبدا واضحا — أن هذا المؤتمر . قد كشف حقيقة ما تنطوي عليه توجهات قيادة — أحمد جمال ، الذي أدرك بصورة واضحة أن هناك شيئا ما يجري من وراء ظهره وبات يفكر جديا في أمر الاستقالة فيقول في مذكراته :

« ولن أنسى ما حييت مجلس الحرب هذا ... كما أنني لن أصفح عن نفسي لتساهلي ذلك اليوم في الدفاع عن آرائي بالقوة اللازمة .. فان كان في جميع أوقات حياتي وقت قضت فيه الحوادث أن أستقيل فقد كان اجتماع حلب هو ذلك الوقت »(١٥٥) .

لقد أدرك « جمال » عندئذ أن آراءه العسكرية المتعلقة بسورية ، أمست عديمة الجدوى ، من جهة . ومن جهة أخرى نجح القادة الاتراك في العاصمة في تقليص أو ازاحة قيادة الجيش الرابع عن مسئولياتها

---

(١٥٣) عقد هذا المؤتمر برئاسة « أنور باشا » الوكيل العام للقيادة العلية ، وحضره أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع واحمد عزت باشا قائد جيوش القفقاس ومصطفى كمال باشا قائد الجيش الثاني وخليل باشا قائد الجيش السادس وبرونزوار باشا رئيس اركان الحرب العام ، ومحمود كامل باشا مستشار وزارة الحربية وعلى فؤاد بك رئيس أركان حرب الجيش الرابع ، وفون فالكنهاوزن وقرة شمار بك .

انظر : أحد أعضاء الجمعيات العربية ، ثورة العرب ، ص ٩ — ١٠ .

(١٥٤) أحد أعضاء الجمعيات ، المصدر السابق ، ص ١٠ — ١١ .

(١٥٥) مذكرات أحمد جمال ، ص ٢١٥ — ٢١٦ .

دون خشية من ردود الفعل التى يمكن احداثها من قبل تلك القيادة ، ومن ثم كانت الخطوة الأخيرة ، عندما عقد مع نهاية « مؤتمر حلب العسكرى » اجتماعا فى الثلاثين من شهر يونيه برئاسة الصدر الأعظم « سعيد حليم » وحضره أنور باشا ، وطلعت وخليل باشا ، قرروا فيه الغاء الجيش الرابع الذى تنحصر مهمته بسورية وفلسطين وشرق الاردن ، وتأليف جيش يتولى ادارة القوات العثمانية فى جميع البلاد العربية تحت اسم « جيش الصاعقة » تحت قيادة المشير « فون فالكنهاين » وصدر بالفعل فى اليوم الثانى من شهر يوليو ١٩١٧ مرسوما سلطانيا بتأليف هذا الجيش(١٥٦) •

وبالرغم من هذا كله فقد ظل أحمد جمال يوالى بث برقياته الى القيادة العامة يحثها على تدعيم القوات التركية بسورية خشية امتداد الثورة اليها بالتعاون مع قوات الحلفاء(١٥٧) . وشكوكه المتزايدة قبل الجند العرب المالفة منهم الفرقة (٣٦) ومقرها درعا والفرقة (٣٧) و(٢٨) ومقرهما بئر السبع(١٥٨) •

---

(١٥٦) ثورة العرب ، المصدر السابق ، ص ١١ — ١٢ .

(١٥٧) وجاء فى برقية احمد جمال ان التشكيلات السورية السرية اخذت الآن شكلا منظما ورجالها على اتصال تام بالاعداء ، وكان اتفاقهم الاخير مع الحلفاء يرمى أولا : فى حالة مهاجمة الحلفاء لمنطقة فلسطين وشرق الاردن يقوم السوريون بثورة ضد الجيش العثمانى ثانيا : تطع خط الرجعة مع الجيش العثمانى اذا حاول التراجع ، والرجالات السوريون الذين يقومون بهذه التدابير على اتصال تام ببعض رجال القبائل المؤيدة لهم لهذا أرى : اولا : ان تنقل الفرقة (٢٦) الموجودة فى « درعا » الى يافا حيث الالايين الموجودين فى الرملة لا يكفيان لمقاومة هجمات الاعداء الذين يريدون انزال جنودهم الى يافا .

انظر نص البرقية فى نفس المصدر ، ص ٧ — ٨ ، وهى البرقية المرسلة من بحمدون تحت رقم ٢٠٩٨ ، فى ١٣٣٣/٧/٧ (١٩١٧) .

(١٥٨) برقية تحت رقم (٢١٠٥) مرسلة من « عالية » فى ٩ يوليو ١٩١٧ ، ومنشورة فى كتاب ثورة العرب .

وأصمت القيادة العامة أذنيها عن تلك الاستغاثات المتتالية للاسباب التى أوردناها سابقا . فلم يجد « أحمد جمال » بدا من السفر الى الاستانة فى منتصف أغسطس ١٩١٧ ، للاستفسار عن حقيقة الموقف بصورة مباشرة ، فعقد مجلس عسكرى تألف منه ومن أنور باشا وفون فالكنهاين ــ انتهت جلساته فى ٣١ أغسطس ، وعاد الخلاف بين هؤلاء القادة جميعا بشأن الجبهة الاولى بالهجوم ، وأستقر قرار الجميع على حل وسط مفاده . قيام القائد الالمانى بزيارة لجبهة سيناء وتقديم تقرير عنها(١٥٩) .

والغريب أنه فى ذات الوقت استدعى « أحمد جمال » لزيارة الجبهة الالمانية ومركز القيادة بها ثم مصانع « كروب » ، وقدم كل من فالكنهاين ومصطفى كمال تقريرين متضاربين بناء على اختلاف وجهتى نظرهما ، فجاء فى تقرير الأول أنه حتى يمكن مقاومة زحف الثورة العربية ــ يجب استخدام المال لعرب جبل الدروز وحوران وشرق الاردن . ثم تقوية الحكومة الادارية بتشكيل فرقة للدرك وزيادة عدد رجال الشرطة وتنظيم أمور القضاء ــ وتلك الوسائل كفيلة بصد قوات الثورة التى يدفعها الانجليز ، وبالتالى يجب التركيز على الهجوم باتجاه العراق بعد ارسال قوات الجيش السابع الموجودة فى حلب التى يقودها مصطفى كمال الى فلسطين تحت امرة « قرة سى »(١٦٠) وواضح تماما من خلال هذا التقرير ، ومن الاستدعاء المفاجىء لأحمد جمال لزيارة الجبهة الالمانية ، أن القادة الالمان أرادوا اقصاء هؤلاء القادة ذوى الطموح بعيدا عن الهدف الالمانى . ومن هنا كان تقرير مصطفى كمال ــ بعد اطلاعه على التقرير السابق ــ الذى أشار فيه الى رغبة فالكنهاين انزال رتبته العسكرية أو (الى أن الالمان يريدون نزع السيطرة من يد القواد الاتراك ووضعها بيدهم

---

(١٥٩) ثورة العرب ، المصدر السابق ، ص ١٨ — ١٩ .

(١٦٠) تقرير فالكنهاين ، حلب فى ٢٠ سبتمبر ١٩١٧ ، ومنشور فى كتاب ثورة العرب ، ص ص ٢٦ — ٣١ .

والعمل على قطع هذه البلاد عن جسم الدولة التركية وضمها الى مستعمرات الامبراطورية الالمانية) وأن سحب الجيش السابع من حلب سوف يترك فراغا عسكريا بها يتيح للعدو فرصة سانحة للزحف نحو سورية(١٦١) .

ويبدو أن « أنور باشا » أخذته الحيرة بين رأى الالمان ووجهة نظر قادته الاتراك . فلم يعبأ بتقرير مصطفى كمال وأستمر « فالكنهاين » فى تنفيذ خطته بنقل قوات الجيش السابع . فلما أستفسر الاول عما حدث بصدد تقريره أجابه أنور بأنه « معتقد تماما أن — القائد الالمانى — الذى عهدت اليه ادارة الجيوش العامة فى فلسطين سوف يدير الحركات الحربية بكل دقة وانتباه »(١٦٢) فبادر « مصطفى كمال » الى تقديم استقالته من قيادة الجيش السابع فعين قائد الجيش الثانى فوزى باشا مكانه .

أما « أحمد جمال » فقد وصلته أبناء بداية الهجوم بجيش الصاعقة ، وهو فى ألمانيا ، فعاد الى الاستانة ، ولم تجد توسلاته لدى أنور استجابة . بل مال الأخير وبقوة لتأييد رأى الالمان ، ودعا الى اجتماع عسكرى للهيئة الالمانية ورئيس أركان حربه وأحمد جمال ، وحتى يرضى الجميع قرر فى ٣٠ سبتمبر ١٩١٧ : أولا : استبدال اسم الجيش الرابع والذى ألغى فى اجتماع الثلاثين من يونية باسم قيادة جيوش سورية وبلاد العرب على أن يكون مقره دمشق ، وتمتد صلاحية هذا الجيش من سورية ولبنان الى منطقة عسير واليمن بما فيها بلاد نجد والحجاز ويعين الفريق أحمد جمال قائدا لها .

---

(١٦١) تقرير مصطفى كمال ، حلب فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٧ ، منشور بنفس المصدر ، ص ص ٣٥ — ٣٧ .

(١٦٢) برقية مرسلة من الاستانة فى أول أكتوبر ١٩١٧ من أنور باشا الى مصطفى كمال قائد الجيش السابع ومنشورة بنفس المصدر السابق ، ثورة العرب ص ٤١ .

ثانيا : الغاء قيادة جبهة سيناء وتحويلها الى الجيش الثامن وتولية الجنرال فون قرة سى باشا قيادة هذا الجيش •

ثالثا : يتم فصل منطقة فلسطين عن سورية بعد أن تضم اليها منطقة ما وراء الاردن وتؤلف فيها قيادة عامة يتولاها فون فالكنهاين وتكون تحت قيادته "الجيوش السادسة والسابعة(١٦٣) •

وهكذا نجح الالمان فى تنفيذ مخططتهم فى الامساك بمقاليد الحركة العسكرية فى البلدان العربية أولا . كما أدت ضغوطهم المتتالية على أنور باشا من خلال قرارات مؤتمر حلب العسكرى الى تقليص أو أبعاد القيادات التركية الرئيسية التى يمكن أن تقف حجر عثرة أمام تحركاتهم ثانيا •

وأمام هذا كله كان من الطبيعى أن يتمخض عن احتواء القيادة الالمانية لأنور باشا أثرا سيئا من الناحية العسكرية والنفسية على طبيعة الأوضاع داخل سورية وفلسطين بعد ما أفرغت من اهتمامها الرئيسى عندما دفعت باتجاه العراق ، وأمست قيادة أحمد جمال العسكرية ، فارغة من مضمونها ، وبالتالى عجزه عن مواجهة قوات الثورة ، فلم يتبق أمامه سوى الاسلوب السلمى لاسترضاء عناصرها •

وعند عودته الى حلب فى منتصف نوفمبر ١٩١٧ كانت الثورة الروسية قد أذاعت أنباء ما تم من اتفاق « سايكس / بيكو » المعروف بشأن البلاد العربية ، واقتسامها بين انجلترا وفرنسا ثم المنطقة الدولة فاستغله جمال باشا بأسلوبين سياسيين على النحو التالى :

أولا : القى فى بيروت خطابا فى الثلاثين من نوفمبر ١٩١٧ ، مزج فيه بين ما يربط العرب والاتراك من الدين والمصلحة السياسية ، وما ترتب على (تمرد) الشريف حسين من آثار ضارة ، بتشتيت الجهد الاسلامى الذى كان بالامكان توحيده ، لمواجهة الحلفاء ، الذين خططوا لاقتسام البلاد العربية ، مما ساعد على تفرق كلمة المسلمين •

---

(١٦٣) قرار القيادة العامة الصادر فى الاستانة فى ٣٠ سبتمبر ١٩١٧ ، ومنشور فى نفس المصدر السابق ثورة العرب .

كما أستثار عامة العرب ، الذين ما زالت تراودهم أحلام التخلى عن الدولة ومعهم الشريف حسين بالعودة مرة أخرى الى الانضواء تحت راية الخلافة التى تدافع الدولة العثمانية عنها(١٦٤) .

ثانيا : ثم بعث بثلاث رسائل الى فيصل وعبد الله نجلى الشريف حسين والى جعفر العسكرى ، ولم يخرج محتواهم جميعا عما جاء فى خطابه ببيروت بالحديث عن أهمية الترابط والتمسك بالوحدة الدينية الاسلامية ، خاصة وأن الهدف من الحرب كان لتحقيق هذه الغاية . التى يتحتم تحقيقها وانتصار العالم الاسلامى ، أو الاستشهاد فى سبيلها . ولا يمكن بلوغ هذا الهدف — كما قال أحمد جمال — من خلال الثورة ، التى تعاونت مع أعداء الدولة الذين أقتسموا العالم العربى والاسلامى ، وما قدم (خدماته) للعرب الا تحقيقا للهدف الدينى ، ولما كان هذا الهدف النبيل هو مبتغى الجميع فبالامكان مناقشة ما بدر من أخطاء ، وعودة التفاهم مرة أخرى ، واقترح جمال باشا امكانية عقد لقاء معهم أو مع من يمثلهم من أجل تحقيق هذا الهدف(١٦٥) .

كما أوفد أيضا رسولا من قبله يدعى « محمد سعيد » شقيق « عبد القادر الجزائرى » الى فيصل ، لعرض تقديم شروط الصلح اذا كانت هناك ثمة رغبة فى تحقيقه فعرض على فيصل استقلال الحجاز الذاتى ، ثم ألحقوا به سورية واستمر « سعيد » فى المزيد فعرضوا الموافقة على اعلان الشريف حسين ملكا . وذهبت هذه العروض كلها سدى(١٦٦) .

وبالرغم مما أثارته تلك الاساليب من شكوك عند بعض مؤيدى الثورة وعمدها الرئيسية أمثال « نورى الشعلان » مثلا ، الا أن بريطانيا أستطاعت الالتفاف حول ما جاء فى هذا الاتجاه ، ولم يستطع

(١٦٤) موجز الخطاب منشور فى كتاب سليمان موسى « الحركة العربية » ، ص ٢٨٦ .
(١٦٥) نص الرسائل الثلاث منشور بنفس المرجع ، ص ٢٧٦—٢٧٨ .
(١٦٦) لورنس : اعمدة الحكمة السبعة ، ص ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

الحسين أو أنجاله الفكاك من التوجه السياسى الذى وضع نفسه فيه . بصرف النظر عما أورده البعض من أسباب لرفض هذه العروض السلمية بهدف زيادة الشقة بين التيار الوطنى الذى كان يمثله مصطفى كمال والدينى الذى كان أحمد جمال أحد رموزه(١٦٧) .

وتجمعت فى هذا السبيل ضرورات دفعت جمال باشا فى نهاية الأمر لتقديم استقالته ، فمع الاعراض عن الصلح من قبل قادة الثورة العربية ، بما يعنى الفشل فى أحد المهام الرئيسية التى أسندت اليه من خلال مهام منصبه الجديد الذى أقره مجلس الاستانة العسكرى فى ٣٠ سبتمبر ١٩١٧ ، ثم ما استبانه من طموح جامح لدى « فالكنهاين » بالاستحواذ على كافة مقاليد الحركة العسكرية بالمشرق العربى ، يقول أحمد جمال :

« كذلك كان مصطفى كمال باشا يرى أنه لا يستطيع أن يبق قيد أوامر القائد فون فالكنهاين ، وأيقنت أن النفوذ الذى كان لى فى سورية خلال السنوات الثلاث الماضية سيضعف كثيرا ما دام هذا القائد لالمانى فيها وفى ذلك الضرر كل الضرر على الوطن »(١٦٨) وبالرغم مما ذكره فى مذكراته ، أنه ظل فى منصبه حفاظا على المصلحة فى هذا الوقت العصيب ، الا أنه غادر سورية بعد بضعة أيام ، فى بداية شهر ديسمبر عام ١٩١٧ م ، بطلب وضغط من القائد الالمانى ، عندما أدرك الاخير أن أحمد جمال سيصبح فى هذهاللحظة التى بدأ فيها اللنبى هجومه على فلسطين ، عقبة أمام خطط الالمان فى مواجهة الضغط الانجليزى من مصر .

وهكذا غادر أحمد جمال سورية ، بينما استمرت مواقفه وأساليب حكمه مثار تساؤلات عديدة ، وموضع اتهامات متبادلة بين الطموحات العربية والمصالح العثمانية .

---

(١٦٧) نفس المصدر ، ص ٣٥٤ .
(١٦٨) مذكرات احمد جمال ، المصدر السابق ، ص ٣٢٢ .

. ومن الخطأ بمكان بعد ما قدمنا من عرض للكيفية التى وضع فيها جمال خلال سنوات ثلاث أشياء صفة معينة أو أسلوب محدد لسياسته ، فقد تعددت تلك الاساليب بين الود والانسجام مع العرب ، إلى الحذر والشدة ثم المبادرة بالهجوم على ما ظن فيهم جبهات معادية ، وأخيرا محاولة اصلاح ذات البين ، وكل تبعا لما كان يراه موائما لتطور الاحداث المتعلقة بمعارك الحرب وانسجام الظروف الداخلية فى سورية والبلاد العربية معها ، وباعتباره (تركيا) بالدرجة الاولى ، وباعتبار العرب — عند التيار الاسلامى الذى يمكن أن يلعب دورا مؤثرا فى تطور الاحداث ، وانسجاما مع التأييد والحماس الذى قوبل به حين وصوله سورية عندما أعلن هؤلاء مؤازرة الدولة فى الحرب باعتبارها مدافعة عنهم وعن الكيان الاسلامى بصرف النظر عن تحفظات البعض من قياداتهم .

ومن هنا ، فلا يمكن — كما نرى — أن يكون أحمد جمال هو الشخص الذى يمكن وضعه وحيدا فى قائمة المسئولية للاحداث خلال المدة من ١٩١٤ — ١٩١٧ ، ولا نستطيع أعفاء العرب — فى المقابل — من مسئولية دفع الرجل دفعا نحو اتخاذ سياسة عنيفة فى احدى مراحل حكمه للاسباب التالية :

أولا : الظروف الاستثنائية التى تولى خلالها الحكم فى سورية ، وهى الحرب العالمية الاولى مع ما تمثله من خطورة فى تحديد مصير الدولة العثمانية .

ثانيا : ما كانت تمثله سورية وتشذ من أهمية استراتيجية عسكرية لموقعها وضرورة الحفاظ على إستقرار الاوضاع الداخلية بها وتأمينها ، مع ما تضمه تلك البقعة من تنوع واضح وملحوظ فى التركيبة الطبيعية والبشرية والتكتلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وما تمخض عن ذلك من تنوع فى التوجهات والميول والافكار عند رجال الاصلاح الذين كانوا يعبرون عن الطموح العربى بصفة عامة ، فضلا عن العامة .

ثالثا : عندما اعتقد زعماء الاصلاح العرب أن بامكانياتهم الذاتية المحدودة والضعيفة يمكن قيادة العرب ككل ، فى حين أن قدرتهم التنظيمية داخل جمعياتهم أو بين بعضهم البعض كانت ضئيلة الى حد بعيد ، فخرجت خططهم وأساليبهم الى العلانية ثم أنهم بعد ذلك ظلوا فى منأى جغرافيا عن القاعدة العربية العريضة التى يمكن أن تكون لهم ظهيرا ، أما لهذا الضعف التنظيمى أو لندرة الوعى القومى لدى الاغلبية الساحقة من العامة .

رابعا : فى تلك المرحلة من التاريخ العربى برزت الى السطح طموحات قومية ووطنية متعددة . فبالاضافة الى الآمال التى أعلنتها الجمعيات والنوادى العربية السابقة جاء الاشراف فى الحجاز ليتسلقوا الاهداف العربية لتحقيق طموحهم الذاتى وكان ذات الطموح يدب بقوة بين الادارسة ، كما مثل عبد العزيز بن سعود فى نجد نفس الهدف ، ومع قصور الامكانيات الذاتية لدى تلك القوى ، فقد راحت من جانبها تتلمس أسباب القوة ووسائل تحقيق أهدافها من خلال الاعتماد على قوة أجنبية (انجلترا) فى المقام الرئيسى ، والعدو الرئيسى للاتراك خلال الحرب العالمية وذات فترة حكم أحمد جمال ، مما دفعه الى استشعار مدى خطورة وحرج موقفه داخل الشام فأضيف هذا الاطار المعادى الى عامل ضغط الظروف الحربية التى تمر بها الدولة العثمانية والمقدرات الصعبة للبيئة التى أنيط اليه حكمها ، خاصة وأن اتصالات تلك القوى العربية الطموحة المحيطة كانت تتم على رؤوس الاشهاد ، حتى تمكن الأتراك من كشفها .

مصـــادر الموضـــوع

أولا : الوثائق :

I (P. R. O.) F. O. (Public Record Office) Foreign Office

1 — F. O. 371/6336, 213, 1915.

2 — F. O. 371/2486, 1916.

3 — F. O. 371/6237, 1916.

4 — F. O. 371/6267, 1916.

5 — F. O. 686/61, 1916.

6 — F. O. 882/13,1916.

II A. B. C. Arab Bureau Cairo

Summary of Historical Documents, from Outbreak of war between Great Britian and Turkey, 1914.

ثانيا : المذكـرات :

١ ــ أحمد جمال باشا : مذكراتي ــ تعريب علي أحمد شكري ، القاهرة ١٩٣٣ .

٢ ــ أحمد جمال باشا الصغير : كيف جلت القوات العثمانية من بلاد العرب ، ترجمة فؤاد الميداني ، بيروت ١٩٣٢ .

٣ ــ أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، جـ ٢ ، ط ١ ، القاهرة ١٩٣٦ .

٤ ــ أحمد قدري : مذكراتي عن الثورة العربية ، دمشق ١٩٥٦ .

٥ــ أسعد داغر : مذكراتي على هامش القضية العربية ، القاهرة ١٩٥٩ .

٦ ــ عبد الله بن الحسين : مذكراتي ، ط ١ ، القدس ١٩٤٥ .

٧ ــ عزيز بك : سورية ولبنان في الحرب العالمية الاولى ، ترجمة فؤاد الميداني ، بيروت ١٩٣٣ .

٨ — على فؤاد الركابي : كيف غزونا مصر ، ترجمة د. نجيب الارمنازى بيروت ١٩٦٥ .
٩ — فائز الغصين : مذكراتى عن الثورة العربية ، دمشق ١٩٣٦ .
١٠ — لورنس (ت ١٠) : أعمدة الحكمة السبعة ، ط ٣ ، بيروت ١٩٧٩ .
١١ — محمد فريد : مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ — ١٩١٩ ، المجلد الاول ، القاهرة ١٩٧٨ .
١٢ — أحد أعضاء الجمعيات العربية : ثورة العرب ، القاهرة ١٩٣٢ .
١٣ — الجيش الرابع : ايضاحات عن المسائل التى جرى تدقيقها فى ديوان عالية ، بيروت ١٩١٩ .

ثالثا : الكتب العربية والمترجمة :

١ — أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى . بيروت ١٩٨٢ .
٢ — أحمد عزت الاعظمى : القضية العربية ، ط ١ ، بغداد ١٩٣٢ .
٣ — د. أحمد عزت عبد الكريم ود. محمد بديع شريف ود. زكى المحاسنى : دراسات تاريخية فى النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٤ .
٤ — أمين سعيد : أسرار الثورة العربية الكبرى ، القاهرة ١٩٣٥ .
٥ — بازيلى : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركى ، ترجمة د. يسر جابر ، بيروت ١٩٨٨ .
٦ — توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ١٩٠٨ — ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٦٠ .
٧ — : العرب والترك فى الحرب العالمية الاولى ، رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية الآداب ، جامعة عين شمس ١٩٦٧ .

٨ — تومس (دافيد) : تاريخ العالم ١٩١٤ — ١٩٥٠ ، ترجمة حسين كامل أبو الليف ، القاهرة ١٩٥٦ .

٩ — جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، تعريب على حيدر الركابي ، دمشق ١٩٤٦ .

١٠ — ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ، بيروت ١٩٥٩ .

١١ — سليمان موسى : الحركة العربية ، بيروت ١٩٧٧ .

١٢ — عبد العزيز عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ — ١٩١٤ ، القاهرة .

١٣ — على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ، بيروت ١٩٨٣ .

١٤ — فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ط ٢ ، الرياض ١٩٦٨ .

١٥ — د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ — ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٧٩ .

١٦ — محمد صبيح : بطل لا ننساه — عزيز المصري وعصره — بيروت ١٩٧١ .

١٧ — محمد كرد على : خطط الشام ، جـ ٣ و ٤ ، دمشق ١٩٢٥ .

١٨ — ناصيف أبي زيد : تاريخ العصر الدموي ، دمشق ١٩١٩ .

١٩ — نعوم شقير : تاريخ سيناء ، القاهرة ١٩٨٦ .

٢٠ — د. لطيفة سالم : مصر في الحرب العالمية الأولى ، القاهرة ١٩٨٤ .

٢١ — د. هنري أنيس ميخائيل : العلاقات الانجليزية الليبية ، القاهرة ١٩٧٠ .

رابعا : الافرنجيـــة :

1 — Lloyed (G.) Egypt Since Cromer. London, 1933.

2 — Miller (W.) The Ottoman Empire and its Successors, London, 1960.

3 — Zeine (N.) Arab Turkish Relations, Beirut, 1968.

4 — Wavell (A.) Allenby in Egypt. London, 1943.

خامسا : المجلات والصحف :

١ — صحيفة الشرق ، مايو ١٩١٦ .

٢ — الاهرام . مارس — ابريل — مايو — يونية ١٩١٥ .

٣ — المنار ، جـ ٣ و ٤ وه م ٢٣ ، ١٩٢٢ .

٤ — المؤرخ المصرى ، العدد الاول ، آداب القاهرة ١٩٨٨ .

٥ — حولية كلية الآداب — جامعة عين شمس ، م ١ ، مايو ١٩٥١ .

٦ — مجلة الحرب العالمية الاولى ، مجلد ٣ ، بيروت ١٩١٧ .



الصناعة فى عهد اسماعيل

١٨٦٣ — ١٨٧٩

دكتور اسماعيل محمد زين الدين
كلية الاداب — جامعة القاهرة

مقـــــدمة :

لما كان محمد على منذ بدء ولايته يهدف الى تكوين دولة قوية ، فقد أدرك أن استقلاله السياسى يعتمد أساسا على مقدرته العسكرية ، التى تتطلب بالضرورة وجود قاعدة صناعية لامداد قواته بما تحتاجه من الاسلحة والمعدات الحربية ، مما جعله يوجه اهتمامه الخاص الى الصناعات الحربية ، فأنشأ العديد من مصانع الاسلحة المختلفة ، اضافة الى الترسانة البحرية ، التى تعد من أكثر مشروعاته الصناعية نجاحا من ناحية التنظيم والادارة وحسن الأداء ، هذا بالاضافة الى جودة انتاجها الذى ضارع الانتاج الأوروبى(١) •

وبانهيار تجربة محمد على الصناعية الرائدة ، طويت صفحة مهمة من تاريخ مصر الاقتصادى الحديث ، واندمجت مصر كوحدة زراعية فى السوق الاقتصادية الدولية ، حيث تخصصت فى انتاج وتصدير القطن فى اطار سياسة التخصص التى تستند الى مبدأ الحرية الاقتصادية • وقد ظهر ذلك واضحا عقب ابرام معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، والتى بموجبها ، فرضت الظروف الموضوعية انهيار خطط التنمية الاقتصادية ، حيث حددت حجم الجيش ، وألزمت مصر باتفاقية بلطة ليمان التى عقدت بين انجلترا والدولة العثمانية عام ١٨٣٨ م ، والتى كانت تقضى بالغاء نظام الاحتكار الذى كان يتيح للدولة السيطرة على الاقتصاد والامساك بزمام قيادته ، مما

(1) Mengin. F : Histoire de L' Egypte Sous Mohemed Ali. vol. 3, p. 133.

ترتب عليه فتح الباب على مصراعيه أمام السلع والمنتجات الاوروبية كى تتدفق الى الأسواق المصرية .

وبالاضافة الى الأسباب الخارجية كانت هناك عوامل أخرى داخلية أطاحت بتجربة التصنيع فى عهد محمد على . أهمها افتقار مصر الى المواد الخام اللازمة للتصنيع . خاصة الفحم . وعدم توافر الاستثمارات فى مجال الصناعة الوطنية . هذا الى جانب سوء الادارة وعدم اهتمامها بتحسين وزيادة الانتاج . مع خفض نفقاته . ونقص العمالة الفنية المدربة . وعدم الاقتصاد فى استخدام المواد الأولية . وتلف بعض الآلات والمعدات المستوردة من الخارج بأسعار باهظة نتيجة للظروف والعوامل المناخية . وجهل المسئولين بادارتها .

وقبل الحديث عن تجربة اسماعيل الصناعية . والتى كانت امتدادا للاسلوب الذى نهجه محمد على . تجدر الاشارة فى ايجاز الى البنية الاساسية التى ساهمت فى دفع عجلة التنمية الاقتصادية خلال الفترة موضوع دراستنا .

فقد تابع اسماعيل سياسة محمد على فى التنمية . اذ توسع فى مشروعات الرى الدائم . كما زاد من اهتمامه بميناء الاسكندرية للحفاظ على مركزها التجارى الهام . فعهد فى عام ١٨٧١ م الى شركة انجليزية مهمة القيام بادخال الاصلاحات والتوسعات اللازمة التى تتلاءم مع متطلبات العصر والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى حدثت خلال هذه الفترة .

والى جانب الاهتمام بتطوير مشروعات الرى الدائم . والاصلاحات التى تمت بميناء الاسكندرية . بالاضافة الى موانئ الشحن الأخرى بالسويس وبورسعيد ودمياط . تم وضع برنامج واسع لانشاء واستكمال خطوط السكك الحديدية . وذلك لربط المدن والاقاليم بشبكة من خطوط السكك الحديدية . وربطها بالقاهرة والاسكندرية . وقد بدأ التوسع بمنطقة الدلتا . لخدمة التجارة الداخلية . وتشجيعا للتوسع فى زراعة القطن عقب اندلاع الحرب الاهلية الامريكية

(١٨٦١ — ١٨٦٥) • وقد زادت شبكة خطوط السكك الحديدية فى عهد اسماعيل من ٤٩٠ كيلو مترا الى ٢٤٩٠ كيلو مترا(٢) •

وفى عام ١٨٦٧ . شرع اسماعيل فى مد خطوط السكك الحديدية من القاهرة الى الوجه القبلى . فيما عرف بخطوط الدائرة السنية . وذلك لخدمة مشروعه الخاص بانتاج السكر . فتوسع فى مد خطوط السكك الحديدية من القاهرة الى أسيوط لربط مصانع الانتاج فى ببا ومغاغة ومطاى والمنيا وأبى قرقاص والروضة وأرمنت والمطاعنة(٣) •

ووفقا لما ذكره كروتشلى ، مستندا الى بعض الاحصاءات والتقارير الرسمية . قدرت التكاليف الاجمالية التى أنفقها اسماعيل على المشروعات العامة . والتى كانت تخدم فى الاساس جفالك الدائرة السنية وكبار الملاك من الأجانب والمصريين . بالاضافة الى التجار . بنحو ٥١٫٣٩٤٫٠٠٠ جنيه مصر ، كان مصدرها الرئيسى قروضا حكومية واستثمارات أجنبية(٤) •

وكان من النتائج الهامة التى ترتبت على تلك المشروعات زيادة مساحة الاراضى الزراعية فى مصر من ٤٫٠٥٣٫٣٤٧ فدانا فى عام ١٨٦٢ الى ٤٫٨١٠٫٠٠٠ فدان عام ١٨٧٩ • وفى نفس الوقت ارتفع عدد السكان من ٤٫٨٣٣٫٠٠٠ نسمة الى ٥٫٥١٩٫٠٠٠ نسمة خلال تلك الفترة • كذلك حققت الدولة فائضا فى ميزانها التجارى فيما بين عامى ١٨٦٣ ، ١٨٧٥ قدر بنحو ٨٣٫٨٩٩٫٥٣٧ جنيها(٥) •

---

(٢) حسين خلاف : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٣) معية سنية عربى ، دفتر ١٩٢٧ اوامر كريمة ، ص ٨٢ ، ١٦ رجب سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م ، دفتر ١٩٣٢ ، ٢٠ شوال ١٢٨٦ هـ / يناير ١٨٧٠ م ، دفتر ١٨٥٢ ، ص ٣٧ ، ١١ رمضان ١٢٨٨ هـ / نوفمبر ١٨٧١ م .

(4) Crouchley, A. E : The Economic development of Modern Egypt, p. 117.

(٥) قدر حجم الصادرات خلال تلك الفترة بنحو ١٤٥٫٩٣٩٫٢٧٣ جنيها ، بينما كانت الواردات تقدر بنحو ٦١٫٨٣٩٫٧٣٦ جنيها .

الصناعات القائمة فى عهد اسماعيل :

حين قام الخديوى اسماعيل بمتابعة تجربة التصنيع وجه اهتمامه الى الصناعات المرتبطة بالاقتصاد الزراعى والتى تقوم على ما توفره الزراعة من مواد أولية فنشطت فى عهده صناعة السكر وحلج القطن وعصر الزيوت وصناعة أنواع رخيصة من الاقمشة القطنية على نطاق محدود • وقد قدر لهذه الصناعات أن تعمر طويلا • وقدمت جفالك الدائرة السنية نماذج متعددة للمشروع الزراعى المتكامل بمفهوم الكلمة الاقتصادى • ففى تفاتيش ببا والروضة والمنيا ومطاى وأبى قرقاص خصصت مساحات واسعة لانتاج محاصيل بعينها تقوم عليها فى نفس الوقت صناعة تحويلية • فقد خصصت مساحات كل تلك التفاتيش لانتاج القصب وتوفير المادة الخام اللازمة لصنع السكر القائم بالتفتيش والذى كانت تستخدم فيه آلات انجليزية وفرنسية حديثة الصنع • كذلك خصصت بعض أطيان التفاتيش لانتاج القطن الذى قامت عليه محالج تولت حلجه وكبسه فى بالات تعد للتصدير(٦) •

ويمكن تقسيم الصناعات التى قامت ابان تلك الفترة الى ثلاثة أنواع رئيسية ، ارتبط النوع الأول بالمنتجات الزراعية كحلج القطن وكبسه وعصر الزيوت . وهو ما يعرف بالصناعات التجهيزية والتى تعتمد أساسا على ما تقدمه الأرض الزراعية من خامات • أما النوع الثانى ، فقد اصطلح على تسميته بالصناعات التحويلية كصناعة السكر ومشتقاته ، والمنسوجات القطنية والصوفية ؛ بالاضافة الى المواد الغذائية وبعض السلع الاستهلاكية الأخرى • وأطلق على النوع الثالث ، الصناعات الحربية ، والتى قامت فى الاساس لامداد الجيش والبحرية بما يحتاجان اليه من الاسلحة والمعدات المختلفة • وسوف نستعرض كلا منها من حيث مساهمتها فى الانتاج الاقتصادى ، ومدى ارتباطها بالبنية الاقتصادية آنذاك •

---

(٦) رؤوف عباس حامد : النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة ، ص ١٦١ — ١٦٣ •

أولا ــ الصناعات التجهيزية :

حلــج القطن وكبســه :

أتاحت الحرب الأهلية الامريكية (١٨٦١ ــ ١٨٦٥) فرصــة كبيرة لزيادة انتاج وتصدير القطن المصرى الى الخارج . خاصة بعد أن تطلع غزالو لانكشير الى مصر من أجل الحصول على حاجتهم من انتاجها . وذلك بعد انقطاع صادرات القطن الامريكى اليهم • وقد انتهز اسماعيل هذه الفرصة وعمل على التوسع فى زراعة محصــول القطن . لذا أدخلت سلالات جديدة ذات خواص جيدة ، بالاضافة الى اكتشاف أنواع جديدة من القطن . وتحسين طرق زراعته ، مما أدى الى ارتفاع معدلات الانتاج من ٧٢١٫٠٥٢ قنطارا فى عــام ١٨٦٣ الى مليونين من القناطير عام ١٨٦٥ م واضطردت الزيادة حتى بلغت ٣٫١٢٣٫٥١٥ قنطارا عام ١٨٧٩(٧) • وفى نفس الوقت استجابت أرقــام الصــادرات للارتفــاع الطارىء للمحصــول فزادت من ٣٫١٠٠٫٠٠٠ جنيه عام ١٨٦٠ الى حوالى ١٣ مليونا من الجنيهات فى عام ١٨٦٥ • وقد زادت صادرات القطن المصرى فى الســـنوات العشر الأول من حكم اسماعيل من ١٫١٥٠٫٠٠٠ قنطار يبلغ متوسط ثمنها ٦٫٦٠٣٫٠٠٠ جنيه الى ٢٫١٠٤٫٠٠٠ قنطار ثمنها ١٠٫٠٧٠٫٠٠٠ جنيه • وظل متوسط قيمته بقية عهده ما بين سبعة ملايين ، ثمانية ملايين من الجنيهات سنويا(٨)

وقد تطلب التوسع فى زراعة محصولْ القطن زيادة عدد المحالج التى تدار آلاتها بالبخار فى مصر . فبعد أن كان عدها ٢٤ محلجا فى يونية عام ١٨٦٢ بها ١٫١٠٠ آلة من آلات الحلج ، أصبحت نحو ٥٠ محلجا فى نوفمبر من نفس العام • وقد زاد عدد المحالج فى عهــد

---

(٧) حسن صدقى : القطن المصرى زراعته وتجارته وصناعته ، ص ٣٨ .

(٨) تيودور روزشتين : تاريخ المسألة المصرية ، ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ، طبعة ثانية ، ص ٢١٠ .

اسماعيل حتى بلغ حوالى ١٥٠ محلجا متكاملا موزعين فى كافة أنحاء البلاد . كان أكثرها فى المنصورة . نظرا لخصوبة تربتها وانتاجها الوفير من القطن . حيث وجد بها ٨٠ محلجا . بالاضافة الى العديد من المكابس والغرابيل لتنظيف البذرة • كما وجدت معاصر للزيوت(٩) •

والى جانب صناعة حلج القطن وكبسه وتنظيف وفرز بذرته . قامت صناعة حلج الكتان الذى نمت زراعته فى عهد اسماعيل . حيث بلغت المساحة المنزرعة فى عام ١٨٧٥ حوالى ٣٣٫٤٦٧ فدانا . كما أنشأت الحكومة مدبغة ومصنعا للجلود فى الاسكندرية . تراوح انتاجهما السنوى ما بين ٣٠ ، ٤٠ ألف قطعة من جلود البقر والجاموس والخراف والماعز . استخدمت لسد حاجة الاستهلاك المحلى . ولسد احتياجات الجيش من الأحذية . وذلك بعد أن استوردت الآلات والماكينات الخاصة بصناعتها(١٠) • كما قامت على تلك الصناعة أيضا حرفة السروجية •

وبالاضافة الى هذه الصناعات . أنشأت الحكومة بكل من القاهرة والاسكندرية وبعض الاقاليم الأخرى عدة مصانع لانتاج المواد الغذائية بمختلف أنواعها كانت تدار كلها — تقريبا — بالبخار ، حيث وجد خلال هذه الفترة حوالى ٧٠٠ مصنعا لطحن الحبوب وصناعة المواد الغذائية من مشتقاته(١١) •

ثانيا — الصناعات التحويلية :

صناعة السكر :

كانت صناعة السكر فى مقدمة الصناعات التى خصها اسماعيل

---

(9) Mac Coan : Egypt as Itis p. 308.

(١٠) اوامر عربى ، دفتر ٢٨٠٩ ، ص ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١٧ محرم ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ م •

(11) Mac Coan. op. cit., p. 303.

كذلك احمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، ص ٢٠٤ •

بالكثير من عنايته واهتمامه • وكان محمد على أول من أدخل صناعته فى مصر وفقا للنظم الحديثة ، حين أنشأ ثلاثة مصانع لانتاج السكر وتكرير الروم بالريرمون وساقية موسى والروضة (مركز ملوى) • وقد استعانت الدولة ببعض الخبراء والفنيين الأجانب لادارة وتشغيل تلك المصانع ، وتعليم المصريين طرق صناعته ، غير أن انتاجها كان محدودا ولم يلعب دورا كبيرا فى سد حاجة الاستهلاك المحلى ؛ نظرا لجودة وانخفاض سعر السكر الوارد من الخارج ، مقارنة بالمنتج محليا •

وقد قدرت مساحة الاراضى الزراعية المخصصة لزراعة القصب فى نهاية عهد محمد على بنحو ٢٥٢ فدانا من المساحة الكلية • وفى عام ١٨٧٥ بلغت تلك المساحة المنزرعة قصبا حوالى ٧٤٫٨٥٥ من الأفدنة ، من بينها ٤٧٫٦٩٦ فدانا كانت تشغلها الدائرة السنية ومزارعها بالوجه القبلى ، بينما خصصت المساحة المتبقية لكبار الملاك فى الدلتا والوجه القبلى(١٢) • وقد أدرك اسماعيل — بفكره الاقتصادى — أهمية الاستفادة بالكميات الهائلة التى تنتجها مزارع القصب بالدائرة السنية وأراضى كبار الملاك ، ويفيض انتاجها عن حاجات الاستهلاك المحلى ، فى اقامة مشروعات صناعية متكاملة تقوم على أساس الاستفادة من هذا الانتاج الوفير • وكانت لاسماعيل غاية مزدوجة من تشجيع هذه الصناعة ومنحها الكثير من الامتيازات المادية والمعنوية ، والتى كان من بينها اعفاؤها من الضرائب الكثيرة والمتنوعة التى أثقلت كاهل الصناعا تالاخرى ، باعتبارها من الصناعات التى كانت تحتكرها الدائرة السنية ، لامداد البلاد بحاجتها من السكر للاستهلاك المحلى ، بالاضافة الى امكانية الحصول على قدر من الموارد المالية الناجمة عن تصدير فائض الانتاج الى الخارج • فقام باستيراد بعض النباتات الاستوائية وأصناف عديدة من قصب « جامايكا » — احدى جزر الهند الغربية — والتى كانت تلائم أقاليم الوجه القبلى ،

(12) Mac Coan. op. cit. p. 200.

ووفر لها وسائل الرى الصيفى (الدائم) . حيث قام بشق ترعة الابراهيمية من أسيوط الى المنيا . وقد بلغ طولها ٢٦٧ كيلو مترا . وأمكن بواسطتها رى حوالى ٧٠٠ ألف فدان ريا دائما . مما ترتب عليه ضمان استمرارية نمو المحصول . الذى أصبح يحتل المرتبة الثانية بعد محصول القطن . بعد أن كان يعد رابع المحاصيل الزراعية الصيفية .

وكان من النتائج الهامة التى ترتبت على الاهتمام بتحسين الانتاج الزراعى : زيادة انتاجية الفدان المنزرع قصبا من ٣٥ الى ٤٠ قنطارا . تبعا لنوع التربة ودرجة خصوبتها . ومدى توافر وسائل الرى المختلفة .

وقد بدأ اسماعيل منذ عام ١٨٦٧ م فى انشاء المصانع الخاصة بانتاج السكر ومشتقاته . فانشأ فيما بين عامى ١٨٦٧ ، ١٨٧٥ نحو ٦٤ مصنعا لانتاج وتكرير السكر ، وصناعة الكحول والعسل والروم (المشروبات الروحية) بكل من الفيوم وبنى سويف والمنيا وأسيوط وسوهاج وقنا . حيث تكثر زراعته بالوجه القبلى(١٣) . وتولت مصانع كاى ونيف ليل بباريس مهمة الاشراف على انشاء هذه المصانع وتنظيمها وفقا للانظمة المعمول بها فى مصانعها . الى جانب امدادها بفريق من الخبراء والمهندسين والفنيين للاشراف على ادارة وتشغيل المصانع . بالاضافة الى تدريب العمال المصريين على كيفية استخدام وتشغيل تلك الآلات . كذلك ساهمت الخبرة الانجليزية فى امداد مصانع الانتاج بحاجتها من الآلات الحديثة المتطورة ، الى جانب مجموعة من المهندسين والفنيين(١٤) .

---

(١٣) كان يتم الانتفاع بنفايات تلك المصانع فى تسميد الارض الزراعية بدلا من استيراد المخصبات الصناعية ، وذلك لتقليل نفقات الانتاج الزراعى .

(١٤) معية سنية عربى ، دفتر ١٩٢٧ ، ص ٦٩ ، ٨ ذى الحجة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م ؛ ص ٨٣ ، ١٩ محرم ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م . وحول تفاصيل هذه المصانع ومستلزماتها وتكلفة انشائها ، انظر دفاتر الدائرة السنية .

وحرصا على مسايرة الانتاج العالمى . صدرت الأوامر بتوجيه بعض الأجانب . الذين تمت الاستعانة بهم الى الدول المتقدمة فى مجال التصنيع للوقوف على أحدث الطرق لادارة وتشغيل أدوات الانتاج . مما كان يمثل عبئا على ميزانية الدولة . ويؤدى الى زيادة نفقات الانتاج • فعلى سبيل المثال . بلغت مصروفات سفر واقامة اثنين من هؤلاء الأجانب بفرنسا والولايات المتحدة الامريكية نحو ٣٧٠ جنيها مصريا(١٥) •

وقد أنشئت بكل دائرة زراعية خطوط للسكك الحديدية الزراعية لربط الأراضى التى خصصت لزراعة القصب بمصانع الانتاج والتكرير . بها آلات وعربات صغيرة لنقل المحصول الى داخل المصانع ، تراوح عددها بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ عربة صغيرة كانت تدار بالبخار(١٦) • وقد بلغ طول خطوط السكك الحديدية الزراعية المستخدمة فى هذا المشروع حوالى ٣٠٠ ميل ، ربطت احدى عشرة دائرة زراعية بالوجه القبلى بتكلفة تقدر بنحو مليون جنيه استرلينى ؛ دون أن تتضمن أجور العمال . الذين كانوا يعملون سخرة فى انشاء مثل هذه المشروعات(١٧) •

وتبدو مدى أهمية هذا المشروع فى تجارة مصر الداخلية والخارجية . فخلال ست سنوات من انشاء هذا المشروع . أنشىء سبعة عشر مصنعا تقدر طاقتها الانتاجية بنحو ٢٫٣٥٠٫٠٠٠ قنطار من

---

(١٥) معية سنية عربى ، دفتر ١٩٢٧ ، ص ٨٣ ، ١٩ محرم ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م ، دفتر ١٩٣٠ ، ص ١٣١ ، ٢٠ رجب ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م ، دفتر ١ ، ص ٤٧ ، ٧ صفر ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م •

(16) MacKenzie Wallace : Egypt and the Egyptian Questions, p. 343.

كذلك دفتر ٢٠ معية سنية عربى ، ص ٩ ، ١٥ محرم ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م . امر عال باستلام ٦٠٠٠ متر سكة حديد نقالى من مصنوعات كوربين ، ٣٠٠ عربة صغيرة بلوازمها من محطتى ابو حمص ودمنهور وتوزيعها على فابريقات ببا وسمالوط والمنيا .

(17) MacKanzie Wallace, op. cit, p. 344.

السكر سنويا • وفى عام ١٨٧٣ وصل اجمالى الانتاج الى ٠٠٠ر٥٠٠ر١ قنطار . صدر منها ٨٥١ر٤٥٦ قنطارا الى الخارج . واستخدم الجزء المتبقى من الانتاج فى الاستهلاك المحلى(١٨) • وقد زادت صادرات السكر المصرى الى الخارج من ٠٩٠ر١ قنطارا عام ١٨٦٦ الى٦٣٥ر٩٨٥ قنطارا عام ١٨٧٥ على النحو الذى يوضحه الجدول التالى (١٩)

السنة	الصادر بالقنطار	السنة	الصادر بالقنطار
١٨٦٦	٠٩٠ر١	١٨٧١	٤٦٨ر٣٥٦
١٨٦٧	٩٨٢ر٥٤	١٨٧٢	٨٥١ر٤٥٦
١٨٦٨	٢١٢ر١٥٤	١٨٧٣	٢٧٤ر٩٢٣
١٨٦٩	٢٧٩ر٢٩٣	١٨٧٤	٦٠٥ر٩٨٦
١٨٧٠	٨٢٨ر٢٨٣	١٨٧٥	٦٣٥ر٩٨٥

وقد تراوحت الأسعار بين ٥ر٨٧ ، ٥ر١١٨ قرشا للقنطار الواحد من السكر الخام ، تبعا لتقلبات الأسعار فى الاسواق البريطانية والفرنسية . والتى كان يتجه اليها معظم صادراته(٢٠) •

ويبدو أن عدم اهتمام المسئولين بتعبئة وتخزين السكر المصرى أثرهما فى منافسة السكر الأجنبى للانتاج الوطنى فى الأسواق الخارجية . على عكس ما ردده بعض مؤرخى هذه الفترة من أن السبب

(18) Crouchley op. cit, p. 135, 136.

(١٩) أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادي فى القرن التاسع عشر ، ص ٢٠٦ . وقد أشار ماك كون فى معرض حديثه عن هذا المشروع الى أن مصر حاولت أن تكون فى مصاف الدول المتقدمة بانتاجها الوفير من السكر . Mac Coan, op. cit, p. 167.

(20) Mac Coan, op. cit, p. 168.

وكان يوجد بمصانع الانتاج فرازين لتصنيف السكر الى درجات مختلفة وفقا لجودته . معية سنية عربى ، دفتر ١٤٨ ، ص ٢٤ ، ٢٠ ذى الحجة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م .

راجع الى نقص سعره بالاضافة الى جودته . ففى احدى الوثائق التى تم العثور عليها . وهى رسالة من أحد التجار يوضح فيها الأسباب التى حدت بالتجار الى الاقبال على شراء السكر الأجنبى . على الرغم من ارتفاع أسعاره . مقارنة بالمنتج المصرى . الذى يتفوق عليه من حيث الجودة أيضا . وهو تعبئته فى « جوالات فيلتقط الغبار والأتربة فى الجمارك وفى طريقه الى الميناء فيتغير لونه » . ورأى « أن الاقبال عليه يكون أكثر من السكر الأجنبى اذا تمت تعبئته فى براميل خاصة بذلك »(٢١) .

وفضلا عن انتاج السكر وتصديره . كانت هناك صناعات أخرى تقوم على الاستفادة بجزء من الانتاج فى صناعة العسل الأسود . الذى استخدم جزء منه فى الاستهلاك المحلى وصناعة الكحول والمشروبات الروحية (الروم) . وصدر الفائض الى أوروبا بأسعار كانت تقدر بنحو ٣٠ قرشا للقنطار الواحد .

والجدير بالملاحظة . أن الدائرة السنية أنشأت ستة مصانع لاستخراج الكحول من عصير القصب فى ببا ومغاغة ومطاى والمنيا وأبى قرقاص والروضة . وكانت لا تنتج من الكحول الا أنواعا لا تزيد درجتها على ٩٠ درجة . وقد استخدم جانب من الانتاج كوقود للانارة والحاجات المنزلية الأخرى(٢٢) .

صناعة الغزل والنسيج :

حذا اسماعيل حذو محمد على من ناحية الاهتمام بصناعة المنسوجات القطنية . نظرا لتوافر المادة الخام اللازمة للانتاج .

---

(٢١) محفظة ٤٢ (الفلاح) ، وثيقة ٤٧٣ ، ١٩ شوال ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م . ووفقا لما ورد بالوثيقة كان يباع السكر الاوروبى بأسعار تتراوح بين ٢٧٠ ، ٣٠٠ قرش للقنطار الواحد ، بينما كانت أسعار السكر المصرى المكرر تتراوح بين ١٨٠ ، ٢٤٠ قرشا للقنطار الواحد .

(٢٢) الدائرة السنية ، دفتر ٨٥٠١ ، سجل الوابورات البخارية والعمليات ، ج/٨/٣ . بدون تاريخ .

بالاضافة الى رخص العمالة المصرية المستخدمة . فأعاد تجديد بعض مصانع النسيج التى أغلقت فى عهدى عباس الأول ومحمد سعيد بناحية المحلة وفوة . كما أنشأ مصنعين لانتاج المنسوجات التيلية أحدهما فى شبرا والآخر فى بولاق . لسد احتياجات الجيش والبحرية من الملابس . كذلك أنشأ بجانبهما مصنعين آخرين لغزل القطن وانتاج الأقمشة البيضاء بلغ استهلاكهما السنوى من القطن حوالى ثلاثة آلاف قنطار . تنتج ما يقرب من ٣٥ ألف ثوب من الأقمشة القطنية .

وكانت مصانع النسيج التابعة لدائرة « الوالدة باشا » فى بولاق وشبرا وفوة تنتج حوالى ٥٠٫٠٠٠ طربوش ، ٣١٥٫٠٠٠ ثوب من المنسوجات الصوفية سنويا . وقد خصص الجانب الأكبر من هذا الانتاج لسد احتياجات الجيش وللاستهلاك المحلى . أما الفائض من المنسوجات الصوفية ، فقد كان يتم تصديره الى الخارج ، خصوصا الى انجلترا التى كانت تحصل على نحو ٧٥٪ من اجمالى صادراته(٢٣) .

والى جانب هذه المصانع التى كانت تابعة للدائرة السنية . وينتج بعضها أنواعا من الأقمشة القطنية الراقية . أنشأ اسماعيل بالقاهرة ٦٠ مصنعا لنسج القطن والكتان ، ٢٠ للصوف ، ٢٨ للأبسطة . ١٠٧ للحياكة ونسج البفتة . كما أنشأ فى الاسكندرية ٣٨ مصنعا لنسج القطن ، ٣١ للأبسطة . وفى دمياط أقيم ١٦٦ مصنعا لنسج الحرير . ٦٢ للاقمشة الحريرية والأصباغ . وقد اهتم الأفراد من طوائف الحرف ببنى سويف بصناعة الاكلمة والاقمشة التيلية الثقيلة التى كان يستخدمها الفلاحون وأهالى الريف المصرى(٢٤) .

وبالاضافة الى صناعات الغزل والنسج التى كانت تعتمد أساسا على ما توفره المنتجات الزراعية من مادة خام ، ممثلة فى القطن والكتان ، والتى كانت تعد من أكثر القطاعات الاقتصادية نشاطا ،

---

(٢٣) حسين على الرفاعى : تطور الصناعات فى مصر ، ص ٥٣ .
(٢٤) المرجع السابق ، ص ٥٣ .

لتخصصها فى انتاج وتصنيع أصناف معينة من الأقمشة الرخيصة التى تلقى رواجا فى الأسواق المحلية ، ولا تقوم المصانع الاوروبية بتصنيعها .
أنشأت الحكومة فى قليوب معملا لضرب الطوب الأحمر بلغ متوسط ما ينتجه سنويا نحو ٧٠٠,٠٠٠ ,٤ لبنة حمراء . تبلغ قيمة كل ألف منها حوالى ٩٠ قرشا ، وكان اعتماد مصر الاساسى فى انشاء المبانى خلال تلك الفترة ينصب على استخدام الطوب النسيء والأحجار البلدى والأحجار المنحوتة . وبذلك ظهر نوع جديد من طرق البناء الحديثة التى تعتمد على الانتاج الصناعى ، باستعمال الآلات والماكينات الخاصة بذلك(٢٥) .

وفى عام ١٨٧٠ ، أنشأت الدائرة السنية مصنعا لانتاج الورق بالقرب من مطبعة بولاق . كان يدار بالبخار ، وبلغ متوسط ما ينتجه سنويا ١٨ طنا من الورق العادى المستخدم فى تغليف السكر ، ٧٠٠,٠٠٠ رزمة من الورق الجيد المستخدم فى الطباعة والكتابة الخاصة بالادارات والمصالح الحكومية وعمل الدفاتر الخاصة بالتجار وطبع المؤلفات العلمية .

وكانت الحكومة قد قامت باستيراد بعض الماكينات والآلات الخاصة بالطباعة ، واستدعت بعض الخبراء والفنيين الأجانب لتعليم المصريين ذلك الفن ، وتم التوسع فى الطاقة الانتاجية للمطبعة الاميرية لتقوم بطبع ما تحتاج اليه الحكومة ، وكان يعمل بها نحو ١٥٠ عاملا ، كذلك أنشأت الحكومة مطبعة أركان حرب الجيش المصرى وبعض المطابع الأخرى .

وبالاضافة الى ما تقدم ، أنشأت الحكومة حوالى عشر مصانع صغيرة لانتاج الزجاج بالقاهرة ، بطاقة انتاجية تقدر بنحو ١٠,٠٠٠ قطعة متنوعة من الخزف ، ٢٠,٠٠٠ قطعة زجاجية للمصابيح ، والتى أصبح استخدامها على نطاق واسع مع بداية عام ١٨٧٦ .

(٢٥) اسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته ، ص ١٣٢ .

وكذلك أقيمت ثلاثة مصانع أخرى لانتاج الصابون والكبريت وصناعة الأحذية(٣٦) .

وكان من بين المشروعات الصناعية التى أولاها اسماعيل عنايته ، صناعة التفريخ . فقد عمل على التوسع فى انشاء معامل حديثة متطورة للتفريخ فى بعض الأقاليم . وصل انتاج معاملها نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢ دجاجة سنويا . هذا بالاضافة الى المعامل التى أنشئت لضرب الأرز وتبييضه(٣٧) .

ثالثا — الصناعات الحربية :

مع قيام الدولة العثمانية بمنح اسماعيل الحق فى زيادة عدد الجيش والأسطول من ١٨ ألف جندى ، وهو العدد الذى تحدد وفقا لمعاهدة لندن عام ١٨٤١ ، الى ٣٠ ألف جندى بموجب فرمان مايو ١٨٦٦ . ثم زيادته فيما بعد دون تحديد ، والتصريح له بتصنيع كافة أنواع الاسلحة والمعدات والسفن الحربية ، فيما عدا المدرعات التى كان يتطلب تصنيعها ضرورة الحصول على موافقة الباب العالى . بالاضافة الى اتجاه اسماعيل نحو الاستقلال عن الدولة العثمانية ، والاستعداد لمواجهة القوة بالقوة اذا تطلب الأمر ذلك . أثره فى استقدام مجموعة من الضباط الأجانب للاشتراك على تدريب الجيش المصرى ، والاهتمام بالصناعات الحربية والمرتبطة بها . فقد أعاد فتح وتحديث مصانع الأسلحة والمدافع والذخيرة التى أغلقت فى نهاية عصر محمد على بكل من القاهرة والاسكندرية(٢٨) . كذلك

---

(٣٦) دفتر ٣١ مجلس خصوصى ، ص ١٠٨ ، ١٦ ربيع ثانى ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م .

(٣٧) أمين سامى : تقويم النيل ، المجلد الثانى ، جـ ٣ ، ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ .

(٢٨) أوامر عربى ، دفتر ١٩١١ ، ص ١٣ ، ١٧ جماد الاول ١٢٨١ هـ / ١٨٦٥ م . وقد تركزت الصناعات الحربية فى منطقة القلعة وطرة بالقاهرة .

أنشأ ثلاثة معامل لسبك المعادن الخاصة بتصنيع الأسلحة والقنابل وصب المدافع ، كما أصلح معمل الأسلحة بالاسكندرية ووسع نطاقه حتى بلغ ما يستهلك به سنويا لعمل الأسلحة ما يقرب من ٤٣٫٠٠٠ أقة من المعادن الخاصة بذلك . هذا بالاضافة الى الورش الخاصة للصيانة واصلاح ما يصيب الأسلحة والمعدات الحربية من أعطال فنية وامدادها بقطع الغيار اللازمة . كما أقام مصنعا آخر لتصنيع بارود الألغام ، التى كانت تستخدم فى التفجيرات وصناعة المفرقعات .

ورأى اسماعيل ضرورة الاهتمام بتجديد واعادة بناء الأسطول المصرى ، فقام بفتح العديد من الورش الخاصة بصناعة السفن التجارية والحربية المتطورة ، وجلب لها الآلات والمعدات اللازمة من الخارج . واستعان ببعض الفنيين الأجانب للعمل بترسانة الاسكندرية ، وحشد عددا كبيرا من العمال المصريين ، كما أنشأ مصنعا لانتاج الحبال والأدوات اللازمة للسفن . وتعاقدت الحكومة أيضا مع شركة جرينفلد واليوت الانجليزية Green Field and Eliot لانشاء حوضا عائما من الحديد بميناء الاسكندرية لاصلاح السفن الكبيرة الحجم ، هذا بالاضافة الى اتمام الحوض الذى بدأ العمل فيه فى عهد محمد سعيد باشا لانشاء واصلاح السفن بميناء السويس .

ويؤخذ على برنامج اسماعيل فى التصنيع غلبة الطابع التحويلى المرتبط بالانتاج الزراعى ، دون الاهتمام بقدر كبير بالتصنيع الحربى ، على نحو ما فعل محمد على ، مما ترتب عليه اعتماد الدولة على الخارج لسد حاجتها من الأسلحة والمعدات الحربية ، التى عجزت — لظروف عديدة — عن تصنيعها محليا ، مما كان يمثل عبئا على الخزانة المصرية .

التمويل والاستثمارات الصناعية :

بينما كان النشاط الاقتصادى فى عهد محمد على يقوم على الاستثمار الحكومى ، وعدم اللجوء الى الاقتراض من الخارج ،

اعتمادا على ما كان يستطيع تعبئته من فائض الانتاج الزراعى واستثماره فى الصناعة • فقد تغير الحال فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، نتيجة لتغير الوضع الاقتصادى فى مصر ، بعد أن غاب دور الدولة كموجه للنشاط الاقتصادى •

ففى عهد اسماعيل ، تنوعت رؤوس الأموال المستخدمة فى مجال التصنيع ، فبالاضافة الى الاستثمارات الحكومية فى هذا المجال والتى كانت تعتمد اعتمادا شبه تام على القروض الأجنبية • طرق بعض الأفراد من الاجانب والمصريين هذا المجال ، حيث أقاموا بعض المشروعات الصناعية ، خدم بعضها الوجود الأجنبى فى البلاد ، كما قامت بعض البيوت المالية الأوروبية باقراض الحكومة والخديو ، الى جانب أعمال الوكالة بالعمولة وتصدير المنتجات لحساب الحكومة واستيراد حاجتها من الأسلحة والمعدات والآلات الخاصة بالمشروعات الصناعية التى تم تخلال هذه الفترة •

وكان بنك ديرفيو وأوبنهايم Edward Dervieu ، باعتبارهما مندوبى اسماعيل المفضلين فى الأعمال المالية ، يقومان بتمويل وتسديد صفقات اسماعيل وحكومته بقدر كبير ، الى جانب توريد بعض مستلزمات الانتاج الصناعى كالماكينات البخارية ومحالج الأقطان التابعة للدائرة السنية ، مقابل حصولهما على فائدة كبيرة لقاء ذلك(٢٩)• وتدل وثائق هذه الفترة علي وجود علاقات مالية وتجارية بين الحكومة وبعض البيوت المالية الأجنبية • فنجد فى احداها « العقد المبرم مع الخواجات فرانسوا كابل وشركاهم بشأن توريد آلات ومهمات فابريقتى السكر التابعتين للدائرة السنية وثمن كل منها واحد مليون وتسعمائة خمسة وسبعين ألف فرنك ، وفقا للشروط التى توضحت عن ذلك ، وبناء على تعريف الموسيو مونيه الباشمهندس »(٣٠) • وأمرا

---

(٢٩) دفاتر الدائرة السنية ، سجل الوابورات البخارية والمكينات ، دائرة زراعات محمد توفيق ، دفتر ٨٥٠١ ، بدون تاريخ •

(٣٠) اوامر عربى ، دفتر ١٩٢٧ ، ص ٦٩ ، ٨ ذى الحجة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م • وكان الفرنك يعادل ٣٫٨٥ قرش •

آخر « بعقد كونتراتو بين الحكومة والخواجة استن واندرسن وشركاه بالتوصية على توريد آلات ومهمات فابريقة سكر مستجدة بالوجه القبلى وفقا لما تم الاتفاق عليه »(٣١) . كذلك صدرت الأوامر للخواجة ألفريد شايمن « بتوريد الأدوات والآلات اللازمة لاضاءة فابريقة الفشن بالنور الغازى والتوصية على جلبها من انجلترا ومحاسبة المذكور على أثمانها »(٣٢) . كما قام الخواجة سكاكيني « بتمويل وتوريد الآلات والمعدات اللازمة لورشة الصلاحة التابعة لدائرة محمد توفيق »(٣٣) . وقد حقق هؤلاء . وغيرهم أرباحا طائلة نتيجة لقيامهم بهذه الأعمال . فعلى سبيل المثال . « حصل الخواجات روسو اخوان على فائدة سنوية قدرها ٧٪ مقابل قيامهم بتوريد كراكات وآلات بخارية بمبلغ ١١٫٠٠٠ ليرة . تسدد على ثلاث سنوات »(٣٤) .

والى جانب هؤلاء الممولين الأجانب ، الذين أثروا على حساب الدولة ثراءا فاحشا ، كانت هناك بعض القروض التى عقدتها الحكومة ، والقروض الخاصة التى عقدها اسماعيل بضمان أملاك الدائرة السنية لاستكمال المنشآت الصناعية وتمويل مصانع السكر التابعة للدائرة ؛ وكان من بين الأموال التى استخدمت فى قرض ١٨٦٤ مائة ألف جنيه لشراء آلات ومعدات انجليزية لمصانع الغزل والنسج . كذلك استخدم جانب من قرض ١٨٦٦ لتحسين وتوسيع خطوط السكك الحديدية . أما قرض ١٨٧٠ . فقد استخدم جزء كبير منه لتسديد تكاليف انشاء مصانع السكر والتى قدرت بأكثر من ستة

(٣١) أوامر عربى . دفتر ١٩٣٠ ، ص ١٥٤ ، وثيقة ٣٤ ، ١٤ جماد آخر ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م .

(٣٢) أوامر عربى ، دفتر ١٠ ، ص ٧٢ ، وثيقة ١٤٢ ، ٢٠ صفر ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م .

(٣٣) دفاتر الدائرة السنية ، سجل الوابورات البخارية والماكينات ، دفتر ٨٥٠١ بدون تاريخ .

(٣٤) أوامر عربى ، دفتر ١٩٣٩ ، ص ٧٠ ، وثيقة ٦١ ، غاية رمضان ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م .

ملايين من الجنيهات(٣٥) .

وقد استثمر بعض الأجانب من مصدرى الأقطان بالاسكندرية رؤوس أموالهم فى انشاء محالج ومكابس خاصة بهم لتجهيز القطن واعداده للتصدير فى بالات خاصة بذلك ، وكان يوجد بالاسكندرية أربع بيوت تجارية ، وهم خوريمى Choremi . وبناكى Benachi . وشركة أخوان كارفر Carver Brother Co. ، والشركة المحدودة Ltd Co. وبيل وشركاه Peel and Co. Ltd . كما امتلك بعض المصريين من كبار الملاك ، بالاضافة الى الاسرة الحاكمة ، آلات بخارية ومحالج لتجهيز المحصول للتصدير(٣٦) .

وفى مجال المصنوعات الجلدية ، اتجه بعض الاجانب والمصريين الى استثمار رؤوس أموالهم فى صناعة دبغ الجلود وتصنيعها ، نذكر منهم على سبيل المثال ، اليونانى (جورجى فالسيطة) والخواجة بلوناكى ، وحسن على الطويل . وقد أنشأ هؤلاء بكل من القاهرة والاسكندرية فيما بين عامى (١٨٦٥ ، ١٨٧٥) ٣٠ مصنعا لتجهيز الجلود ودبغها ، بلغ متوسط انتاجها سنويا ٢٠٠ر٠٠ قطعة من الجلود(٣٧) . كذلك استثمر عدد من اليونانيين رؤوس أموالهم فى تأسيس بعض المصانع لانتاج الدخان بالقاهرة . كما استثمرت بعض رؤوس الأموال الاجنبية فى المشروعات الصناعية التى كانت تخدم فى الأساس الوجود الاجنبى فى البلاد ، فتأسست فى بورسعيد عام ١٨٧٧ م شركة لصناعة الثلج والتبريد ، سميت بشركة بورسعيد للاعمال الهندسية Port Said Engineering Worles Co. . كذلك أنشأ المسيو شكتران (سويسرى الجنسية) فابريقة لانتاج البيرة ، وكل من الخواجة

---

(35) Crouchley, op. cit, p. 119, 120.

(٣٦) أوامر عربى ، دفتر ١٩٤٣ ، ص ١ ، ١٠ رجب ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٣ م .

(37) Mac Coan, op. cit p. 303.

كذلك دفتر ٣١ مجلس خصوصى ، ص ٩٠ ، وثيقة ٢٦٧ ، ٢٠ ربيع ثانى ١٢٩١ هـ / ١٨٧٥ م .

لوزاج جوبيتس وبورنات (فرنسيين) مصنعا بالاسكندرية لانتاج الأسمدة والمخصبات برأسمال أجنبي(٣٨) • وقد طرق رأس المال الوطني بعض المجالات الصناعية الخاصة بالمجهود الحربي والمدني ، حيث أنشأ كل من حسين عفيفي وعبد القادر مصطفى ، معامل خاصة لسبك المعادن بأنواعها المختلفة ، وكانوا يقومون بتوريد جانب من انتاجهم الى الحكومة(٣٩) • وكان يوجد بالقاهرة ٨٥ مسبك للحديد والرصاص ، ٧٣ للنحاس ، ٨٠ لأعمال التبييض ، كذلك وجد بالاسكندرية ست مسابك للحديد ، ٤٣ للحدادة ، ١٠٠ ورشة للسمكرة ، ٩٣ للصباغة(٤٠) •

والجدير بالملاحظة ، انخفاض حجم الاستثمارات الوطنية والأجنبية في مجال التصنيع ، نظرا لاتجاهها الى استثمار فائض رؤوس أموالها في شراء المزيد من الاراضي الزراعية والأدوات والآلات الخاصة بالزراعة والري ، بالاضافة الى اهتمامها ببعض الأنشطة التجارية والربوية والتي كانت تحقق أرباحا طائلة ، دون أن تحاول مواجهة المنافسة الأجنبية في هذا المجال •

المواد الخام ومصادرها :

على الرغم من وفرة الانتاج الزراعي اللازم لعمليات التشغيل كالقطن والقصب والكتان • فقد افتقرت البلاد الى المواد الخام الهامة لاستكمال العملية الانتاجية ، وادارة مصانع الانتاج ، كالحديد والفحم بأنواعه المختلفة ، مما كان يمثل عائقا أمام الصناعة المصرية • وقد قامت الحكومة بتكليف مجموعة من الخبراء والفنيين للكشف عن معدن الفحم ببعض جهات اليمن ، في محاولة للتغلب على هذه المشكلة ،

---

(٣٨) دفتر ٥٥ مجلس خصوصي ، ص ١ ، ٢٠ شعبان ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٦ م • أوامر عربي ، دفتر ١٩٤٧ ، ص ٦٩ ، ١٢ صفر ١٢٩١ هـ / ١٨٧٥ م •

(٣٩) دفتر ١٦ مجلس خصوصي ، ص ١١٦ ، ١٣ محرم ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٤ م •

(٤٠) حسين على الرفاعى ، المرجع السابق ، ص ٥٦ •

كلفت الدولة نحو ١٠٫٦٤٣ جنيه(٤١) • غير أن الوثائق لا تمدنا بأدلة حاسمة حول مدى نجاح هذه الاكتشافات • وقد أدى ذلك الى قيام الدولة باستيراد نصف مليون طن سنويا من الفحم الحجرى وفحم الكوك من انجلترا ، كما اعتمدت البلاد على تركيا وسوريا لسد حاجتها من الفحم النباتى ، مما ترتب عليه ارتفاع نفقات الانتاج وتعرض بعض المصانع لخسائر مادية ، مما أدى الى عجزها عن الاستمرار فى العمل والانتاج ، كما حدث لمصنع الورق الذى أنشأته الدائرة السنية ، بتكلفة تقدر بنحو مائة ألف جنيه . واضطر الى التوقف عن الانتاج ، بعد أن بلغت خسائره الاسبوعية حوالى خمسمائة جنيه(٤٢) . وعادت الدولة الى استيراد حاجتها من الاوراق بما يقرب من ٦٠٫٠٠٠ جنيه سنويا • كذلك أغلق مصنع المنسوجات بملوى ، وحول مع جانب من أطيان التفتيش الى ثكنة عسكرية للجيش(٤٣) • ويبدو أن هذا الأجراء الذى اتخذته الادارة باغلاق المصنع كان ناجما عن ارتفاع نفقات الانتاج به ، والأزمة المالية التى تعرضت لها البلاد خلال هذه الفترة وانعكست على توجهات الدولة نحو الاهتمام بالصناعات القائمة •

وحتى تتجنب الدولة ارتفاع أسعار الفحم الوارد من انجلترا ، بالاضافة الى مصاريف النقل والشحن والتفريغ داخل الموانىء المصرية ، قام المسئولون باجراء بعض التجارب الفنية والعلمية على الفحم الحجرى الذى كان يرد من اليونان بأسعار مناسبة ، فى محاولة لتقليل نفقات الانتاج ، ولكن اتضح عدم صلاحيته للتشغيل ، نظرا لاحتوائه على مواد ترابية(٤٤) • كما جرت محاولات حثيثة من جانب الخبراء

---

(٤١) أمين سامى ، تقويم النيل ، المجلد الثالث ، جـ ٣ ، ص ١٠٣١ .

(٤٢) المرجع السابق ، المجلد الثالث ، جـ ٣ ، ص ١١٠٥ .

(٤٣) معية سنية عربى ، دفتر ٢٠ ، ص ٦٤ ، ١٠ رجب ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م . وكانت المساحة التى اخذت من اطيان التفتيش تقدر بنحو ١٩ فدانا .

(٤٤) معية تركى ، محفظة ١١١ ، ٢٢ محرم ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م .

الأجانب الذين تمت الاستعانة بهم للاستفادة بمخلفات الانتاج الزراعى من القصب والقطن والكتان كوقود لادارة وتشغيل الآلات والماكينات ، بعد أن ثبت — بالتجربة — أن هذا الأمر سيحقق تخفيضا فى نفقات الانتاج يقدر بنحو ٤٣٨٠ جنيها سنويا لكل مصنع من مصانع انتاج السكر ومشتقاته . هذا بالاضافة الى محاولة الاستعانة بقوة دفع المياه الناجمة عن انشاء القناطر الخيرية وترعة الابراهيمية فى توليد الطاقة اللازمة لتشغيل بعض مصانع الغزل والنسج . غير أن ذلك كان يتطلب اجراء بعض التغييرات والتعديلات الضرورية على الآلات والماكينات التى تم استيرادها من الخارج ومصممة للعمل باستخدام الفحم كوقود لتشغيلها ، مما ترتب عليه استبدالها بآلات جديدة ، كانت تكلف الدولة مبالغ طائلة . فعلى سبيل المثال ، قدرت تكاليف احداث مثل هذه التغييرات نحو ٤٤٤٥ جنيه استرلينى لكل مصنع من مصانع انتاج السكر(٤٥) .

وعلى الرغم من صدور الأوامر باستخدام مخلفات القصب وحطب القطن والكتان كوقود بدلا من استخدام الفحم فى ادارة وتشغيل كافة مصانع السكر ، بعد أن تم اجراء التعديلات الجديدة فى الماكينات وآلات التشغيل حتى تتلاءم والخامات المستعملة(٤٦) ، نجد بعض المسئولين عن ادارة وتشغيل هذه المصانع يعودون مرة ثانية لاستخدام الفحم ، على نحو ما حدث فى تفتيش بنى مزار ، حين طلب التفتيش من المسئولين ضرورة صرف ٤٥٠٠٠ قنطار من الفحم لاستخدامه فى ادارة مصانع السكر التابعة للتفتيش ، نظرا لعدم توافر مخلفات القصب وحطب القطن والكتان(٤٧) ، مما ترتب عليه العودة مرة أخرى الى استعمال

---

(٤٥) معية سنية عربى ، دفتر ١٩٢٧ أوامر ، ١١ شوال ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م .

(٤٦) معية سنية عربى ، دفتر ١٩٤٢ اوامر كريمة ، ص ٣٠ ، ٢٤ رجب ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م .

(٤٧) معية تركى ، دفتر ٤٧ ، ص ١ ، ٩ رمضان ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م ، دفتر ١٩٣٤ اوامر عربى ، ص ٣٢ ، ١٥ ذى القعدة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م .

الفحم كوقود في تشغيل بعض المصانع . ويرجع هذا الى عدم التنسيق بين كافة التفاتيش . ورعاية الاقتصاد في التشغيل . بحيث يمكن سد حاجتهم من الخامات المتوافرة محليا . دون الحاجة الى استيراد البديل من الخارج بنفقات باهظة .

أدوات الانتاج :

لم يحاول اسماعيل اتباع الاسلوب الرخيص في التصنيع . على نحو ما فعل محمد على . لتقليل نفقات الانتاج ، بحيث يؤدى ذلك الى انتاج سلعة تقل تكلفتها عن مثيلتها المستوردة ، وذلك باستخدام بعض الآلات والمعدات التقليدية والتى يمكن تصنيعها محليا . فالمصانع التى تم انشاؤها زودت بأحدث الآلات والمعدات المستوردة بأسعار مرتفعة . وتولت مصانع الانتاج العالمية في انجلترا وفرنسا توريد هذه الآلات والمعدات . وكذا قطع الغيار اللازمة . فعلى سبيل المثال . تولت مصانع كاى وفيف لبل بباريس انشاء مصانع السكر التابعة للدائرة السنية . وفقا للأنظمة المعمول بها في مصانعها . وزودتها بالمحركات البخارية والعصارات الضخمة وأجهزة التكرير المتطورة(٤٨) .

وفى دائرة محمد توفيق (الخديو توفيق فيما بعد) . بناحية أطسفابوم ، كانت توجد ورشة حلاجة حديثة الصنع متكاملة ، بها وابورين يعملان بقوة ١٤ حصانا . وماكينات لعصر الزيوت ، وغرابيل لتنظيف البذرة ، ودواليب حلاجة ، ووابورات للحرث ، ومكابس لكبس الأقطان في بالات خاصة لاعدادها للتصدير ؛ وطلمبات لاطفاء الحريق ، وأوناش تتحرك على طنابير . كما وجدت ماكينات خاصة بتنظيف الحنطة ، بالاضافة الى ورش متنقلة ومتكاملة لاصلاح الآلات والمعدات وتركيب

(٤٨) محية سنية عربى ، دفتر ١٩٢٧ ، ص ٦٩ ، ٨ ذى الحجة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م ص ٨٣ ، ١٩ محرم ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م وحول تكاليف انشاء هذه المصانع وآلاتها واجور الشحن والتفريغ ، ومنشآت المهندسين الاجانب ومستلزماتهم ؛ انظر دفاتر الدائرة السنية ، سجل الوابورات البخارية والماكينات والعمليات .

قطع الغيار اللازمة ومعالجة ما يصيبها من عطب وأعطال فنية . وقد استوردت هذه الآلات والمعدات وتركيب قطع الغيار اللازمة ومعالجة ما يصيبها من عطب وأعطال فنية . وقد استوردت هذه الآلات والمعدات من انجلترا وفرنسا بتكلفة تقدر بنحو عشرة آلاف جنيه(٤٩) . كذلك وجد بتفتيش أبو كساه — فيوم — فابريقة لانتاج السكر . تعمل بعصارتين . استوردتا من فرنسا . وبها معمل لتقطير الكحول وونش خاص ، وورش للاصلاح والصيانة . قدر ثمنها ، اضافة الى منشآت الفابريقة وكافة مستلزماتها بنحو ١٠٧ر١٤٣ جنيها . وفى تفتيش المنيا وبنى مزار . استوردت آلات انجليزية الصنع خاصة لنقل وتفريغ القصب بداخل الفابريقتين . وقد تطلب ذلك انشاء بعض الاساسات الجديدة لتركيب تلك الآلات(٥٠) .

وكانت هذه الآلات والمعدات يتم استيرادها من الخارج عن طريق الموردين لحساب الدائرة السنية . بعد أن يقوم أصحاب البيوت المالية الأجنبية بتسديد أثمانها نقدا ، ثم يحصلونها بعد ذلك على أقساط من الحكومة والخديو ، مضافا اليها العمولة ، الى جانب الفوائد والأرباح الباهظة .

وبالنسبة لصناعة الغزل والنسيج ، فقد تم جلب ورش متكاملة لتصنيع المنسوجات القطنية والكتانية وبعض أنواع من الحرائر . وقد تضمنت الأوامر الصادرة الى المسئولين عن التعاقد لاستيراد تلك الآلات والماكينات ، تفصيلات واضحة بقوتها وقدرتها الانتاجية ، وضرورة انتقائها من الأنواع التى تدار باستخدام القوة المائية ، بعد أن تم اعداد وتجهيز ترعة الابراهيمية وقناطر الدلتا لتركيب آلات تلك المصانع وادارتها بواسطة قوة دفع المياه ، بدلا من الفحم الحجرى لتعذر وجوده داخل البلاد ، مما كان يكلف الدولة — كما سبق أن

---

(٤٩) الدائرة السنية ، سجل الفابريقات والوابورات البخارية ، دفتر ٨٥٠١ ، ح/٨/٣/١ ، حتى ١٨٨٠ م .

(٥٠) أمين سامى : تقويم النيل ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، ص ٩٦٧ .

أوضحنا — نفقات استيراده من الخارج(٥١) • غير أننا لم نعثر فى وثائق تلك الفترة على أدلة حاسمة تؤكد أن المصانع كانت تعطل بقوة دفع المياه . مما يوضح بجلاء مـدى حرص الدول الاوروبية التى استوردت منها هذه الآلات والمعدات . وكلفت الدولة أموالا طائلة . على اعاقة نمو وتطور الصناعة القائمة . لأن استمرارية الاعتماد على استيراد المواد الخام والآلات وقطع الغيار سيخلق نوعا من التبعية الفنية . اضافة الى ارتفاع نفقات انتـاج السلعة المصنعة محليـا مقارنة بالمستورد • وقد ظهر ذلك واضحا جليا فى مصنع الورق الذى انشأته الحكومة — كما سبق وأوضحنا — واستوردت كافة آلاته ومعداته من الخارج . بتكلفة تقدر بنحو مائة ألف جنيه . وكان يدار باستخدام الفحم . ثم اضطر الى التوقف عن العمل والانتاج . بعد أن بلغت خسائره الاسبوعية ما يقرب من خمسمائة جنيه ، وعادت الدولة الى استيراد ما يلزمها منه . نتيجة لارتفاع تكاليف انتاجه بالمصنع . وحدوث تلك الخسائر الجسيمة(٥٢) • ومن الغريب أن اسماعيل أدرك هـذه الحقيقة . حين أشار الى المسئولين عن عقد مثل هذه الصفقات . بأن « الغرض الاساسى من تكليفهم بشراء وتدارك الآلات والفابريقات اللازمة لتشغيل الأصناف المطلوبة (مصانع الغزل والنسج) هـو الحصول على المزايا الناتجة من تيسير صناعتها بمصر وبيعها بتكاليف وأثمان تقل عن مثيلتها الواردة من الخارج » • ثم أكد على ضرورة تجنب شراء آلات مصانع الغزل والنسج . مثل آلات وماكينات مصنع الورق — السابق الاشارة اليه — . بعد أن تراءى له أن الآلات والماكينات التى تدار بالفحم ليس لها فائدة اقتصادية نظرا لارتفاع نفقات الانتاج بها(٥٣) •

---

(٥١) معية سنية عربى ، دفتر ١٩٤٢ ، اوامر كريمة ، ص ٣٦ ، ٢٧ شعبان ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م .

(٥٢) أمين سامى : تقويم النيل ، عصر اسماعيل ، مجلد ٣ ، ج ٢ ، ص ١١٠٥ . وجدير بالملاحظة ان الحكومة كانت تقوم باستيراد حاجتها من الاوراق بنحو ٦٠,٠٠٠ جنيه سنويا .

(٥٣) أمين سامى ، المرجع السابق ، ص ١١٠٥ .

العمالة ونظم العمل والأجور والادارة :

استعانت الدولة بفريق من المهندسين والفنيين الأجانب من انجلترا وفرنسا وبعض الدول الأخرى صاحبة السبق فى مجال التصنيع للاشراف على ادارة وتشغيل مصانع الانتاج الرئيسية . وتدريب المصريين على ادارة وتشغيل هذه الآلات والماكينات الحديثة • وقد منح هؤلاء الأجانب صلاحيات واسعة . تتعلق بنظم العمل . وطرق اختيار العمالة الفنية . وتحديد الأجور . وفصل من يرون عدم صلاحيتهم للعمل والانتاج •

وكانت مرتبات المهندسين والفنيين الأجانب تحدد وفقا للكفاءة والخبرة ومستوى الأداء • وقد تراوحت مرتباتهم بين عشرين وأربعين جنيها . هذا بخلاف بدلات الاقامة والاعاشة وبعض الخدمات الأخرى التى كانت تقدم لهم(٥٤) • هذا فى الوقت الذى لم تزد فيه مرتبات المهندسين المصريين . الذين أتوا من بعثات خارجية وعينوا فى مصانع الانتاج ، وفقا لتخصصاتهم الفنية . عن اثنى عشر جنيها شهريا(٥٥) •

وباستثناء بعض المهندسين والفنيين الأجانب . الذين تمت الاستعانة بهم . كان هناك عدد كبير من الأيدى العاملة الرخيصة — من رجال ونساء وأطفال — . يتم جلبها من بين فلاحى وعمال الريف المصرى ، وكان عليها أن تتحمل مصاريف قوتها طوال فترة استغلالها • فقد كانت هناك جماهير غفيرة من الفلاحين والعمال تعمل فى مزارع القطن والقصب وتقوم أيضا بالعمل فى المصانع الخاصة بحلج الأقطان

---

(٥٤) اوامر كريمة ، دفتر ١٩٣٥ ، ص ١٩٥ ، ١٦ ربيع أول ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م •

(٥٥) اوامر عربى ، دفتر ١٩٤٧ ، ص ١٢١ ، وثيقة ٢٣ ، ١٧ جمادى ثان ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م . وحول استعانة الدولة بالاجانب وعلاقتهم بالمصريين فى الادارة ونظم العمل والاجور والمكافآت ، انظر رسالتنا للماجستير بعنوان : الموظفون الاجانب ودورهم فى الادارة المصرية ١٨٢٠ — ١٨٨٢ ، جامعة القاهرة ١٩٨٣ •

وصناعة المنسوجات وانتاج السكر ومشتقاته تحت وطأة السخرة والعمل الاجبارى • ففى مصانع السكر التى أنشأتها الدائرة السنية بالوجه القبلى . بلغ عدد هؤلاء نحو ألفى عامل فى كل مصنع من مصانع الانتاج • وقد اكتسب بعضهم مهارة وخبرة عالية تؤهلهم لأن يحلوا محل بعض الفنيين الأجانب فى تشغيل وادارة هذه المصانع . على الرغم من انخفاض أجورهم ، مقارنة بما كان يتقاضاه نظراؤهم من الأجانب • فقد تراوحت أجور العاملين المصريين بمصانع السكر ومشتقاته بين ستة قروش وأحد عشر قرشا يوميا . فى الوقت الذى زادت فيه ساعات العمل نتيجة لاستخدام الاضاءة بالغاز داخل الفابريقات . مما ترتب عليه ارتفاع معدلات الانتاج ، وبالتالى زيادة الارباح(٥٦) • وكان جانب من هذا الأجر الذى يتقاضاه العمال يصرف عينا من السكر أو العسل . بالاضافة الى جراية الخبز •

وفى مصانع الغزل والنسيج ببولاق وشبرا وقوة ، بلغ عدد العاملين بها نحو ١٤٣٨ عاملا ، تراوحت أجورهم بين ٤ ، ٤ر٥ قرشا • أما أجور العاملين بالمصانع الحربية وترسانة الاسكندرية ، فقد تراوحت بين سبعة ، عشرة قروش يوميا(٥٧) • بينما بلغ عدد العاملين بمصنع الورق نحو ٢٢٠ عاملا(٥٨) •

وعلى الرغم من انخفاض مستوى الأجور مع زيادة ساعات العمل ، وارتفاع تكاليف وأعباء المعيشة فى مصر آنذاك ، فان عددا كبيرا من هؤلاء العاملين لم يتقاضوا أجورهم بصورة منتظمة ، نتيجة لقيام المسئولين والمشايخ بعدم صرف مستحقاتهم المتأخرة فى مواعيدها

---

(٥٦) أوامر عربى ، دفتر ١٩٢٩ ، ص ٧٠ ، وثيقة ٦١ ، غاية رمضان ١٢٨٨ هـ / ١٨٧٢ م.

(٥٧) محفظة ٣٠ معية تركى ، وثيقة ٢٧٦ ، ٢٤ ذى القعدة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٣ م •

(٥٨) كان هناك نحو ١٩٨ طائفة من اصحاب الحرف والصناعات المختلفة فى عهد اسماعيل وبلغ عدد العاملين بها ما يقرب من ٦٢ر٤٨٧ عاملا .

المحددة ، وذهبت تظلماتهم من عدم صرف أجورهم مقابل عملهم أدراج الرياح ، تماما كما حدث للعاملين بفابريقات السكر التابعة لتفتيش المنيـا(٥٩) • كما تضرر العاملون بمصنع النسيج ببولاق من انخفاض أجورهم . مما دعا شيخ الطائفة الى مطالبة المسئولين باتخاذ الاجراءات اللازمة لهؤلاء المتضررين(٦٠) • هذا بالاضافة الى أن جانبا آخر من العمال كان يعمل وفقا لنظام السخرة بتفاتيش الدائرة السنية وداخل مصانع وورش الانتاج(٦١) •

لذا لم يكن غريبا والحال كذلك ، مع تدنى الأحوال الاجتماعيـة للعمال والفلاحين من العاملين بهذه المؤسسات الانتاجية ، نتيجـة انخفاض أجورهم . واستبداد الادارة بهم ، وكانت خليطا من الأتراك والأجانب وبعض المصريين ، الى جانب سوء معاملتهم ، ، أن تتفشى ظاهرة هروب العاملين من المصانع . وامتناع البعض الآخر عن العمل ، مما ترتب عليه توقف بعضها عن العمل ، وحدوث عجز فى انتاج بعضها الآخـر •

ففى فابريقات السكر الكائنة بالروضة وأبى قرقاص والمنيـا والمعصرة ومطاى وبنى مزار ومغاغة والفشن « حدث نقص فى انتاجها من السكر لفرار العمال منها آخذين معهم أدواتهم وجمالهم » . فصدرت الأوامر التى تقضى « باتخاذ الاجراءات والتدابير اللازمة لتمكين هذه الفابريقات من انتاج الكميات المقررة من السكر كما كانت عليه »(٦٢) • ويبدو أن تكرار مثل هذه الظاهرة قد دفع الحكومة الى تكليف بعض ضباط الجيش للاستعانة بهم فى السيطرة على العمال ومراقبة انتظام

---

(٥٩) اوامر عربى ، دفتر ١٩٣٤ ، ص ٦٠ ، ٢١ ذى الحجـة ١٢٨٦ هـ / ١٨٧١ م •

(٦٠) معية سنية عربى ، دفتر ١٢ ، ص ٢ ، ٢٥ محرم ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م •

(61) Blanchard Jerrold : Egypt under Ismail Pacha, p. 171.

(٦٢) محفظة ٤٢ (الفلاح) ، امر عال من المعية السنية بتـاريخ ٢٥ محرم ١٢٩١ هـ / ١٨٧٦ م •

سير العمل والانتاج داخل المصانع ، وفقا للمعدلات المحددة(٦٣) •

ولم تتبع الحكومة نظام المكافآت والحوافز للعاملين بمصانعها لحثهم على المزيد من العمل والانتاج . فحين تحققت أرباح عالية بفابريقات المنيا وأرمنت والمطاعنة . بعد اجراء الموازنة المالية لعام ١٨٧٥ ، صدرت الأوامر بصرف خمسة آلاف فرنك لمهندسى تلك المصانع الأجانب ، دون النظر بعين الاعتبار الى مكافأة جهد العاملين المصريين بها ، وهما العامل الأساسى فى زيادة الانتاج . بينما كان يعاقب هؤلاء — أى المصرين — فى حالة تقصيرهم عن أداء المهام المسندة اليهم أو تقاعسهم عن العمل(٦٤) •

وقد امتدت التفرقة المادية والمعنوية بين العمال المصرين والأجانب فى اصابات العمل والطرق التى تتبع فى صرف مكافآت العجز والتقاعد عن العمل • ففى أحد تفاتيش الوجه القبلى ، أصيب أحد العاملين المصريين أثناء تأدية العمل المكلف به بفقد ساعده الأيمن ، فصدرت الأوامر الى المسئولين عن ادارة التفتيش بصرف مرتب عام له ، بواقع ستة قروش يوميا كتعويض عن العجز الذى أصابه(٦٥) ، بينما حصل نظيره الأجنبى ، الذى كان يعمل مستخدما بمعصرة أبى قرقاص ، وأصيب ساعده فقط ، دون أن يفقده ، على ٣٦٠ جنيه كتعويض له عن الاصابة التى لحقته ، بالاضافة الى تحمل الحكومة كافة مصاريف سفره الى بلده فرنسا(٦٦)•

---

(٦٣) معية سنية عربى ، دفتر ١٩٣٦ ، أوامر ، ص ٢١ ، ٢٤ ربيع ثانى ١٢٨٨ هـ / ١٨٧٣ م . وقد تم تعيين أربعة من ضباط الجيش بكل فابريقة .

(٦٤) الدائرة السنية ، دفتر ٣٩/١٠١ ، ص ١ ، ١٩ شوال ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م ، معية سنية عربى ، دفتر ٨ ، جـ ١ ، ص ٣١ ، ١٩ رمضان ١٢٩٢ هـ . وجدير بالملاحظة أن الفرنك الفرنسى كان يعادل حوالى ٣٫٨٥ قرش خلال هذه الفترة .

(٦٥) أوامر عربى ، دفتر ١٩٤١ ، ص ٢١ ، ١٢ ربيع أول ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م .

(٦٦) أوامر عربى ، دفتر ٨ ، ص ٨٥ ، ٦ صفر ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٧ م .

واذا كانت هناك تفرقة واضحة بين العمال المصريين والأجانب من ناحية الأجور ومكافآت الانتاج واصابات العمل ، فقد نقض كثير من هؤلاء الأجانب الشروط المبرمة بينهم وبين الحكومة من ناحية الأجور والانتاج ، مستغلين حاجة الدولة اليهم . وهذا وضع تعانى منه الدول المتخلفة ، على نحو ما فعل العاملون بالصناعات الحربية ، يحن امتنعوا عن أداء المهام المسندة اليهم . بدعوى « انخفاض مرتباتهم والتى قدرت بألف فرنك شهرى لكل فرد من هؤلاء »(٦٧) • وتقدم وثائق المعية السنية والدوائر السنية صور واضحة لمدى الخسائر الفادحة التى أصابت مصانع السكر ، التى أدارها الأجانب فى تفاتيش الروضة والفيوم وأبى قرقاص خلال تلك الفترة ، وتعمدهم تعطيل دولاب العمل والانتاج بتلك المصانع . مما حدا بالحكومة الى اتخاذ اجراءات فورية بالاستغناء عن خدماتهم واحلال المصريين محلهم فى ادارة وتشغيل هذه المصانع(٦٨) •

ففى فابريقات الروضة وأبى قرقاص وأبو كساه ، قدرت الخسائر الناجمة عن سوء الادارة وعدم الاهتمام بالانتاج من جانب المسئولين فى عام ١٨٧٦ بنحو ١٣٫٠٥٥ جنيه ، بالرغم من حصولهم على أجود أصناف القصب(٦٩) • كما ظهرت بعض الاختلاسات من جانب هؤلاء • فقد صدرت الأوامر التى تقضى « بتعيين محمد رشدى من مستخدمى الدائرة السنية سابقا لشونة ابوجه القبلى بدلا من الناظر المرفوت،

---

(٦٧) محفظة ٣٠ معية تركى ، وثيقة ١٢٣ ، ٢٩ شوال ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٣ م . وقد طالب هؤلاء الحكومة ان يقوموا بالعمل لمدة عشر سنوات مقابل صرف خمسة وعشرين الف جنيه لكل واحد منهم ، ولم تفلح محاولات القنصل التابعين له فى اقناعهم بقبول الاستمرار فى العمل .

(٦٨) معية سنية عربى ، دفتر ٥ اوامر كريمة ، ص ٣٤ ، ١٩ رجب ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م .

(٦٩) معية سنية عربى ، دفتر ١٨٦٢ ، ص ٢٠ ، ٢٨ ذى الحجة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م ، دفتر ١٠ ، اوامر عربى ، ص ٣٥ ، ١٩ ذى القعدة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م .

نتيجة للعجز الذى ظهر فى صنف العسل الأسود وغيره »(٧٠) . كما تعمد آخرون تعطيل واعاقة الانتاج . متعللين ببعض الحجج والأسانيد الواهية « فالمسيو دمولان مهندس فابريقة معصرة سمالوط كان يتصف بالأخلاق الصعبة وعدم الاصغاء للاقتراحات التى تعرض عليه من جانب المسئولين . مما ترتب عليه تعطل الفابريقة . وقد برر ذلك « بادعائه عدم وجود المياه الكافية وعطل السكة الزراعية » . فصدرت الأوامر الى مفتش جنالك قبلى « بتسلم ادارة الفابريقة من المدعو وتوجهه لحال سبيله ومعاملته وفقا للتعاقد الذى أبرم بينه وبين الحكومة »(٧١) .

على أننا يجب أن نضع فى اعتبارنا وجود بعض المعوقات الفنية والادارية من جانب المسئولين ، أدت بدورها الى غل يد الأجانب فى ادارة وتشغيل مصانع الانتاج .

وقد بلغ سوء الادارة والتخطيط مداه فى مصانع السكر التى توسعت الدائرة السنية فى انشائها . دون الحاجة اليها . أو الاستعداد الكافى لادارتها . فقد ذكر Blanchard Jerrold أن مصنع الضبعية — على سبيل المثال — والذى بلغت تكلفة انشائه مائة ألف جنيه لم يعمل سوى ثلاث سنوات ثم تعرض — كغيره — الى التوقف لعدم توافر الادارة الجادة والخطوط الانتاجية التى تغذى المصنع بمتطلبات الانتاج والمواد الخام اللازمة للتشغيل(٧٢) . كذلك توقفت عن العمل « عاصرتان من العصارات الأربع التى تعمل بمصنع أبى قرقاص . لعدم قدرة المراجل على تشغيلها » ، ويرجع ذلك الى مخالفة المسئولين لاقتراحات المهندس المختص و« ادارتهم المعصرة وفقا لآرائهم وأهوائهم »(٧٣) .

---

(٧٠) معية سنية عربى ، دفتر ١٩٣٦ ، أوامر ، ص ٧ ، غرة ربيع ثانى ١٢٨٨ هـ / ١٨٧٢ م .

(٧١) معية سنية عربى ، دفتر ١٨٦٢ ، ص ٢٠ ، وثيقة ٩٤ ، ٢٨ ذى الحجة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م .

(72) Blanchard Jerrold, op. cit, p. 171.

(٧٣) محفظة ٤٢ (الفلاح) ، وثيقة ٢٢ ، ٢٥ محرم ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م .

- وقد بلغ عدد المصانع فى نهاية عهد اسماعيل حوالى ٦٤ مصنعا . تمثل زيادة على ما يتطلبه الانتاج . مما ترتب عليه توقف بعضها عن العمل ، وعدم اشتغال البعض الآخر . الأمر الذى أدى الى تعرض آلاتها للصدأ والبلى نتيجة الاهمال وعدم الصيانة . بالرغم من استيرادها من الخارج بتكاليف باهظة .

وكان من بين الأخطاء التى تعرضت لها صناعة السكر . نتيجة سوء الادارة . وعدم الاقتصاد فى التشغيل ، والتى ساهمت بدورها فى زيادة نفقات الانتاج . تتمثل فى سوء اختيار المواقع الملائمة لانشاء تلك المصانع فيها . فقد روعى فى انشائها قربها من الخطوط الرئيسية للسكك الحديدية . بدلا من انشائها وسط المزارع الخاصة بانتاج القصب ؛ مما ترتب عليه زيادة نفقات الانتاج . نتيجة نقله على ظهور الجمال أو بواسطة القاطرات البخارية ، وما يتبع ذلك من فقدان جزء كبير من الكميات المحملة خلال تحركها الى مواقع الانتاج . وقد أشار Mac Coan فى معرض حديثه عن ذلك بأن بعض آلات المصانع التى تم جلبها من الخارج وكلفت الدولة أموالا طائلة ، أقيمت قبل تحضير الأراضى واعدادها لزراعة القصب اللازم لتشغيل وادارة هذه المصانع(٧٤) . هذا بالاضافة الى استيراد بعض الآلات والمعدات وقطع الغيار اللازمة للتشغيل من الخارج ، على الرغم من توافر امكانات تصنيعها محليا ، وبنفقات تقل كثيرا عن نفقات شرائها(٧٥) .

التسويق ومعوقات التصنيع :

- اذا كانت مقومات التصنيع تتطلب ضرورة توافر المواد الخام والقوى المحركة والعمالة الفنية المدربة . بالاضافة الى الادارة الجيدة ورؤس الأموال المستثمرة . فانه من الضرورى ، واستكمالا لهذه العوامل توافر الأسواق الداخلية والخارجية لتسويق تلك المنتجات . حتى تزدهر الصناعة القائمة وتستمر .

---

(74) Mac Coan, op. cit, p. 152, 153.

(٧٥) اوامر كريمة ، دفتر ١٩٣٥ ، ص ٥ ، ١٨ جماد آخر ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م .

وكان الانتاج الصناعى . خلال تلك الفترة موضوع الدراسة . يستهلك أغلبه محليا . كما كان يقوم بسد احتياجات الجيش والبحرية من المنسوجات والأحذية والملبوسات بمختلف أنواعها ، بالاضافة الى الاسلحة والمعدات الحربية . وأما الفائض من الانتاج فقد كان يتم تصديره الى الحجاز وشبه الجزيرة العربية والهند . فى حين سلك الجانب الأكبر من صادرات السكر المصرى طريقه الى الأسواق البريطانية والفرنسية . حيث كانت تتم عمليات تصديره عن طريق المزادات التى كانت تعقدها الدائرة السنية سنويا بحضور التجار الأجانب ووكلاء البنوك التجارية بالاسكندرية(٧٦) .

وقد واجهت الصناعة المصرية القائمة بعض المعوقات ، التى وقفت حائلا أمام ازدهارها واستمرارها . ومن بين تلك المعوقات عدم قيام الحكومة باتخاذ التدابير اللازمة لحمايتها واستمرار نشاطها وتطورها ؛ وذلك بفرض رسوم جمركية عالية على الواردات الأجنبية وهذا ما لم تفعله الحكومة ولم تقم باتباع سياسة جمركية تؤدى الى تحقيق هذا الغرض . مع أن اسماعيل قد نال بعض الامتيازات التى كانت تتيح له عقد المعاهدات التجارية مع الدول الأجنبية ، غير أن هذه الدول لم تكن تسمح له باتباع مثل هذه السياسة ، بدا هذا واضحا فى مدى حرص واصرار هذه الدول ، وخاصة انجلترا ، على ضرورة تطبيق وتنفيذ السياسة الجمركية التى فرضت على مصر ، وفقا لاتفاقية بالطة — ليمان الشهيرة (١٦ أغسطس ١٨٣٨) بين انجلترا والدولة العثمانية ، والتى نصت على الغاء الاحتكار ، وتحديد الضرائب الجمركية على الواردات والصادرات .

وقد قضت التعريفات الجمركية التى تحددت بعد عصر محمد على بأن السلع والبضائع المصرية يدفع عنها ٩٪ واذا ما صدرت من الميناء زيد عليها ٣٪ رسم التصدير . أى أن السلعة المصرية حتى تصل الى

---

(٧٦) معية سنية عربى ، دفتر ٢٠ ، ص ٢٦ ، ١٥ صفر ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م .

ميناء التصدير كالاسكندرية يدفع عنها ١٢ ; ثم تخرج بعد ذلك للأسواق الخارجية وفى هذا ارهاق للسلع المصرية اذ لا يساعد ذلك على تشجيع حركة الصادرات لأنها تتحمل ضريبة عالية . فتصل الى الأسواق ورسومها مرتفعة . مما ترتب عليه انهيار الصناعة المحلية . ونافستها الواردات فى الأسواق المحلية وكسبت هذه السوق الى حد معين(٧٧) .

وكانت عوائد أو رسوم الدخولية تمثل العائق الآخر فى وجه الصناعة المصرية . وعلى الرغم من أن الحكومة فى بداية عهد اسماعيل قد أصدرت أوامرها لنظارة المالية بالغاء رسوم الانتاج المقررة على الأقمشة والمنسوجات بكافة أنواعها . وكذا النحاس والحصر والجلود فى كافة أنحاء البلاد وذلك لتشجيع الصناعة القائمة وتحسين أحوال أربابها والمشتغلين بها(٧٨) . غير أنها ما لبست أن تراجعت عن قرارها السابق الاشارة اليه . وأصدرت أوامرها بمضاعفة رسم الانتاج فى حالة التهرب من سداده على كافة المشغولات والمصنوعات المحلية . وحين أنشىء مصنع للصابون وآخر للكبريت بالاسكندرية ، طالبت المحافظة بفرض عوايد دخولية على انتاجهما(٧٩) . هذا فى الوقت الذى أعفى فيه أصحاب المصانع الاوروبيون من أداء هذه العوايد ورسوم الانتاج ، التى تقررت على الصناعات الوطنية دون غيرها ، مما كان يمثل عبئا عليها . وقد أدى ذلك الى تظلم أرباب الصناعات المصرية . وطالبوا الحكومة بمعاملتهم بالمثل أسوة بالأجانب ، أو تحصيل الدخولية ورسم الانتاج منهم(٨٠) . هذا بالاضافة الى قيام بعض

---

(٧٧) امين مصطفى عفيفى : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى ، ص ١٦٢ — ١٦٤ .

(٧٨) امين سامى : تقويم النيل : عصر اسماعيل ، المجلد الثانى ، جـ ٣ ، ص ٥١١ .

(٧٩) مجلس خصوصى ، دفتر ٣١ ، ص ١٠٨ ، ١٦ ربيع ثانى ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م .

(٨٠) محفظة ٣٠ معية تركى ، وثيقة ٢٤٤ ، ١٨ ذى القعدة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٣ م .

التجار الأجانب بالتهرب من دفع الرسوم الجمركية المقررة عليهم ، وتغاضى الحكومة والمسئولين عن الجمارك . نتيجة لسوء استخدام الامتيازات الاجنبية من جانبهم . الى جانب الاعفاءات الجمركية التى تمتع بها بعض المستثمرين الأجانب الذين أقاموا بعض المشروعات الصناعية . لخدمة الوجود الاجنبى بالبلاد . كاعفائهم من الرسوم الجمركية على الآلات والمعدات الواردة من الخارج وما الى ذلك .

وكان من الممكن أن تقوم الحكومة بوضع نظام خاص بالحصص للواردات الأجنبية . حماية للصناعات المصرية ، وتشمله بنظام خاص بالمنح والاعانات للصادرات المصرية للدول المجاورة ، على نحو ما كان يحدث فى أوروبا آنذاك . وكما كانت تفعل الحكومة الفرنسية مع مصدرى السكر الفرنسى ، حيث تمتع هؤلاء المصدرون بتلك الاعانات من حكومتهم ، لتعويضهم عما يدفعونه من رسوم جمركية لم تكن تزيد بحال من الأحوال عن ٥٪ ، وفقا للاتفاقات الدولية .

كذلك لم تقم الحكومة بانشاء البنوك أو المؤسسات الائتمانية الوطنية ، لتمويل الصناعات القائمة ومساندتها على اجتياز العقبات التى قد تعترضها ، اضافة الى التوسع فى مشروعات التصنيع . واقتصرت جهود البيوت المالية الأجنبية على اقراض الحكومة والخديو وبعض كبار الملاك بضمان أراضيهم الزراعية . ولم تقم بالمساهمة فى دفع حركة التصنيع القائمة . واتجهت الاستثمارات الصناعية الأجنبية الى المجالات التى تخدم الجاليات الأجنبية كمشروعات المياه والمبانى وخطوط المواصلات السلكية واللاسلكية والغاز وما الى ذلك(٨١) .

ولا نستطيع أن ننهى الحديث عن الصناعة فى عهد اسماعيل دون أن نشير الى طبيعة المرحلة التى كانت تحول دو ناتاحة الظروف

---

(٨١) وجدير بالملاحظة ان كبار الملاك من المصريين والاجانب حرصوا على استثمار فائض رؤوس أموالهم فى شراء المزيد من الاراضى الزراعية والتأنق فى المظهر والمعيشة ، دون ان يحاول هؤلاء تشجيع الصناعة الوطنية القائمة والمساهمة فى تطويرها ، واكتفوا بالحصول على احتياجاتهم من المنتجات المستوردة .

الموضوعية الملائمة لتطور الصناعة المصرية . بعد أن فقد الاقتصاد المصرى استقلاليته التى تحققت على مدى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وتمت عملية ادماج الاقتصاد المصرى فى الاقتصاد العالمى كاقتصاد تابع بخطى سريعة . فى اطار سياسة التخصص التى تستند الى مبدأ الحرية الاقتصادية . وكان ذلك عن طريق القروض والاستثمارات الأجنبية فى مجالات الرهن العقارى وتجارة القطن واقراض الفلاحين بفوائد مرتفعة .

ويؤخذ على برنامج اسماعيل فى التصنيع غلبة الطابع التحويلى المرتبط بالانتاج الزراعى . دون الاهتمام بالتصنيع الحربى . ويرجع ذلك الى توافر المادة الخام الرئيسية ممثلة فى القطن والقصب ، مما ترتب عليه ضعف الصناعات الحربية واضمحلالها . وبالتالى الاعتماد على الأسلحة والمعدات الحربية المستوردة . بخلاف ما كان عليه الحال فى عصر محمد على . وأيضا عدم الاهتمام بتدريب وتربية الكوادر الفنية والعمالية على نحو ما فعل محمد على . بعد أن غاب دور الدولة كموجه للنشاط الاقتصادى . هذا بالاضافة الى سوء الادارة وعدم اهتمامها بالانتاجية عامة . الى جانب عدم الاقتصاد فى استعمال المواد الخام الأولية فى الانتاج ، مما ترتب عليه زيادة نفقات التصنيع .

مما سبق يتضح أن الصناعة المصرية فى عهد اسماعيل قد تعرضت للعديد من الصعوبات ، التى وقفت حائلا دون نموها وتطورها وامكانية منافستها للسلع المستوردة . منها ما كان يتعلق بالطبيعة والادارة والعمل ، ومنها ما كان يتعلق بظروف العصر وطبيعة المرحلة التى كانت تحول دون نمو وتطور الصناعة المصرية ، بعد عمليات التعويق التى حدثت . وآتت ثمارها بتسوية لندن الشهيرة (١٨٤١) . وأصبحت مصر خاضعة لشروط الدول الصناعية وبيوت المال الاوروبية . مما ترتب عليه تعميق التبعية الاقتصادية للخارج . وقد ظهر ذلك واضحا بعد الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ م . فمنذ الفترة المبكرة من الاحتلال ، تم اغلاق مصانع الاسلحة والذخيرة (١٨٨٤) ، ودار سك النقود ومعامل الورق ببولاق

(١٨٨٥) ، ولقى الاسطول النهرى وترسانة بولاق نفس المصير ، وفى عام ١٨٨٧ م ، تم بيع آلات ومعدات مصانع الغزل والنسج لمقاولين أغلبهم من الانجليز ، أما المشروعات التى استمرت فكانت امتدادا طبيعيا لخدمة النشاط الاقتصادى للاجانب .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : وثائق غير منشورة :

(أ) الوثائق المودعة بدار الوثائق المصرية بالقلعة وتشمل :

— دفاتر المعية السنية عربى (عصر اسماعيل) .

— دفاتر الدايرة السنية (أوامر صادرة وواردة للاقاليم) .

— سجلات الوابورات البخارية والماكينات والعمليات .

— دفاتر ديوان الأشغال العمومية .

— محافظ التجارة والسكة الحديد .

ثانيا : وثائق منشورة :

— أمين سامى : تقويم النيل ، عصر اسماعيل ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، القاهرة ١٩٣٦ .

— : تقويم النيل ، عصر اسماعيل ، المجلد الثالث ، ج ٣ ، القاهرة ١٩٣٦ .

— جورج جندى ، جاك تاجر : اسماعيل كما تصوره الوثائق ، القاهرة ١٩٤٧ .

ثالثا : المراجع العربية :

— أحمد أحمد الحتة ، الدكتور : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ، دار النهضة ، ١٩٥٥ .

— أمين مصطفى عفيفى ، الدكتور : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ، القاهرة ، الأنجلو ، ١٩٥١ .

— أنور عبد الملك ، الدكتور : نهضة مصر ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٣ .

— تيودور روزشتين : تاريخ المسألة المصرية ، تعريب عبد الحميد العبادى ، ومحمد بدران ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨١ .

— حسن صدقى : القطن المصرى زراعته وتجارته وصناعته ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

— حسين خلاف ، الدكتور : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٢ .

— حسين على الرفاعى : تطور الصناعات فى مصر ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

— دافيد لاندز : بنوك وباشوات ، ترجمة الدكتور عبد العظيم أنيس ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ .

— راشد البراوى ، الدكتور ومحمد حمزة عليش : التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، القاهرة ، دار النهضة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٤٨ .

— رءوف عباس حامد ، الدكتور : النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة ١٨٣٧ — ١٩١٤ ، القاهرة ، دار الفكر الحديث ، ١٩٧٢ .

— عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، جزءان ، دار النهضة ، ١٩٣٢ .

— علي الجرتلي ، الدكتور : تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ .

— محمد دويدار ، الدكتور : الاقتصاد المصري بين التخلف والتطوير ، الاسكندرية ، دار الجامعات : ١٩٧٨ .

— محمد فهمي لهيطة ، الدكتور : تاريخ مصر الاقتصادي الحديث ، القاهرة ، دار النهضة ، ١٩٣٨ .

— وزارة المعارف العمومية : اسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

رابعا : المراجع الأجنبية :

— Crouhley, A. E : The Economic Development of modern Egypt, London, 1938.

— Jerrold, Blanchard : Egypt Under Ismail Pacha London, 1879.

— Mac. Coan : Egypt as Iris London, 1878.

— Mengin Felix : Histoire de L'Egypte Sous Le Gouvernement de Mahemed Ali, vol. 3, Paris, 1839.

— Wallace, Mackenzie : Egypt and the Egyptian Question, London 1883.

بعض التأثيرات الآسيوية
على العمائر والفنون الاسلامية فى اليمن(*)

دكتور / مصطفى عبد الله شيحة
كليه الآثار — جامعة القاهرة

شهدت بلاد اليمن عدة حضارات راقية قبل العصر الاسلامى كنتيجة طبيعية لعدة عوامل اجتمعت لتساهم فى بناء الحضارة اليمنية ، ومن هذه العوامل موقع اليمن(١) الذى احتل أهمية خاصة فى طرق التجارة العالمية القديمة ، ومن هذه العوامل أيضا ظهور الكتابة بخط المسند بها فى وقت مبكر نسبيا وانتشاره فى بعض الامارات والجماعات الشمالية والغربية فى شبه الجزيرة العربية وفى جنوب الشام ، هذا فضلا عن سخاء البيئة ذاتها ووفرة مواردها المتنوعة(٢) •

واذا كانت العوامل السابقة أو بعضها يكفى لقيام حضارة معينة ،

(*) بحث القى فى ندوة آسيا والعرب المنعقد فى ابريل ١٩٨٩ ، كلية الاداب — جامعة القاهرة .

(١) ينفصل اليمن عن القارة الآسيوية — الاوربية الخليج العربى من جهة الشرق ومن جهة الشمال نهر الفرات ونهر العاصى الذى ينبع من اعالى نهر الفرات ويصب فى البحر المتوسط . وينفصلها عن القارة الافريقية البحر الأحمر من جهة الغرب ، ويحدها المحيط الهندى من جهة الجنوب .

هذا وقد اطلق على بلاد اليمن تسميات وصفات عديدة منها : بلاد العرب السعيدة والعربية الغنية وبلاد العرب الخضراء والبلاد المقدسة وبلاد القصور وبلاد الطيب وبلاد العطور .

— انظر يوسف محمد عبد الله : فى صفة بلاد اليمن (من كتاب اوراق فى تاريخ اليمن وآثاره) الطبعة الاولى ، ١٩٨٥ ، ج ١ ص ٧ — ١٧ ، وايضا : محمد الاكوع : اليمن الخضراء مهد الحضارة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢ ، ص ٣٢ — ٣٣ ، عدنان ترسيسى : اليمن وحضارة العرب ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ١٢.

(٢) عبد العزيز صالح ، تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٣٠.

فانه على الجانب الآخر لا يمكن اغفال الدور الحضارى لطبيعة الانسان اليمنى ذاته واستعداده الخاص فى نمو وتطوير حضارته . بل وأخذه لدور قيادى فى شبه الجزيرة العربية حتى اذا ما كان بدء انتشار الاسلام . ظهر دور اليمنى فى المشاركة فى الفتوحات الاسلامية فى شرق العالم وفى غربه وفى استيطانه فى بلاد عديدة خارج بلاده . كذلك كان لطبيعة موقع اليمن أثر خاص فيما تعرض له هذا البلد من غزو ومطامع عبر تاريخه وهو أمر آخر انعكس تأثيره على جانب من جوانب العمارة والفنون فى اليمن . ومن ثم فان الدارس فى مجال العمارة والفنون الاسلامية فى اليمن يستطيع أن يجد بعض التأثيرات الفنية الواضحة والوافدة على هذا البلد خلال العصر الاسلامى بحكم ما تعرضت له بلاد اليمن من أحداث سياسية كثيرة . شملت قيام الدويلات المستقلة المختلفة فيها والتى تطاحنت وتنازعت بشكل كبير وبحكم التبعية السياسية فى بعض الأحيان للخلافة الأموية بدمشق وللخلافة العباسية ببغداد أو بفعل العلاقات الطيبة الودية بين بعض الدويلات اليمنية وغيرها فى بعض البلاد الاسلامية . وفى أحيان أخرى كان لبعض التأثيرات وضوحها فى اليمن كنتيجة حتمية للغزو والمطامع والاحتلال . ويستطيع الدارس أيضا للآثار الاسلامية فى اليمن أن يتبين شيئا هاما فى شمال اليمن وجنوبه . حيث كان للزيدية(٣) دورهم الكبير فى شماله ولأهل السنة أهميتهم فى جنوبه . وهو أمر يتصل بطبيعة المنشآت الدينية فى شمال اليمن وجنوبه . لذلك تبدو التأثيرات الحضارية والفنية فى اليمن واضحة

---

(٣) الزيدية احدى فرق الشيعة واكثر فرق المسلمين عددا بعد جمهور السنة وتنسب الى الامام زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب ، ويجمعها من اهل السنة الاعتقاد بأن عليا رضى الله عنه احق بالامامة والخلافة بعد رسول الله (ص) وتنقسم الزيدية الى ثلاث فرق رئيسية هى : الجارودية والسليمانية والبترية .

انظر الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، دار المعرفة بيروت جـ ١ ص ١٥٤ — ١٦٢ ، البغدادى : الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ ، احمد صبحى : الزيدية ، طبعة بيروت ١٩٨٣ ، ص ٧١ — ٨١ .

خلال العصر الاسلامى من مكة والمدينة ودمشق وبغداد وايران وتركيا فضلا عن اتصالات وتاثيرات أخرى من بلاد غيرهما(٤) • لذلك فان هذا البحث يتناول بايجاز بعض هذه التأثيرات فى مجال العمارة والفنون الاسلامية من خلال تأسيس المساجد الأولى واقامة بعض الحواضر اليمنية وطبيعة أماكن الهجر والتأثير السورى والعراقى والايرانى فى بعض مظاهر العمارة والفنون فى بلاد اليمن بايجاز •

لقد كان لانتشار الاسلام فى اليمن أكبر الأثر الدينى والحضارى فى وضع أول لبنات الحضارة الاسلامية فى اليمن . فقد كان التأثير مباشرا على العمارة والفنون اليمنية قادما من مكة والمدينة — من الشمال الى الجنوب — وكان لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة أثره الواضح ليس فى اليمن وحدها بل فى كل بلاد وعواصم العالم الاسلامى الجديد فى القرن الاول الهجرى . فقد أسس الرسول صلى الله عليه وسلم مسجده فى المدينة عقب الهجرة مباشرة ، حيث خطط المسجد وأعدت مواد البناء من حجارة وطوب لبن وجذوع نخيل وغير ذلك واشترك النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة فى أعمال البناء حتى تم(٥) • وظل هذا المسجد النموذج الاول الذى احتذاه بناة المساجد فى الأقطار الاسلامية الأخرى طوال القرون الاربعة الاولى للهجرة مثل مسجد البصرة ومسجد الكوفة ومسجد الفسطاط ومسجد القيروان(٦) • واذا كان دارسو العمارة الاسلامية يعتبرون المساجد الاربعة السابقة هى النماذج الأولى للمساجد الجامعة فى تاريخ العمارة الاسلامية ، والتى انتقل اليها تأثير مسجد الرسول مباشرة . فانه على الجانب الآخر يبدو لى أهمية المسجد (الجامع الكبير) بصنعاء الذى يتقدم المساجد الأربعة السابقة من حيث تاريخه حيث تشير النصوص التاريخية أن

---

(٤) هناك تاثيرات فنية اخرى عديدة وافدة على اليمن من مصر وشمال افريقيا وغيرها ولا يتسع المقام هنا لذكر بعض مثل هذه التاثيرات الفنيـة .

(٥) حسن الباشا : المدخل الى الاثار الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٣٣ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٣٤

بنائه كان بأمر من رسول الله (ص) بل أن الرسول (ص) هو الذى حدد وصفه . وبذلك يكون لليمن السبق المعمارى فى هذا الشأن متأثرة بحكم الجوار بالمؤثرات القادمة من مكة والمدينة فى الشمال . من خلال استجابتهم لدعوة الرسول فى الدخول فى الاسلام(٧) . ومن ثم فان دراسة هذا الأمر يتطلب الاشارة الى تأسيس المساجد الاولى فى اليمن . من خلال بناء هذه المساجد الاولى وارتباطها بالنصوص التاريخية الواردة فى بطون المصادر القديمة . بل أن هناك من بين هذه النصوص ما يفيد أو يرجع بناء المساجد فى اليمن الى العام الأول من الهجرة(٨) .

والواقع أن تاريخ بناء المساجد الأولى فى اليمن كالجامع الكبير فى صنعاء وجامع الجند جنوب مدينة تعز وجامع صعدة القديم وجامع رأس جبل صيد . بل وغيرهما من المساجد الاولى ، تتقدم بتواريخ تأسيسها عن بناء جامع البصرة فى العراق (١٤ هـ) والكوفة « ١٧ هـ »(٩) والفسطاط « ٢١ هـ »(١٠) والقيروان « ٥٥ هـ »(١١) ورغم أنه لا يوجد فى المساجد الاربعة اليمنية السابقة من الآثار المادية ما يؤكد ارجاعها الى عصر التأسيس الأول ، فان شأنها فى

---

(٧) عصام الدين عبد الرءوف : اليمن فى ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢ ، ص ٢٢ — ٣٠

(٨) يذكر النص : قال الكشورى : « ذكر بعض المشايخ ان مسجد ضهر بنى سنة سنة يعنى فى أول سنة التاريخ . ومسجد صنعاء سنة ست من التاريخ » .

انظر الرازى : تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق حسين بن عبد الله العمرى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ، ص ٧٩ ، والواقع أن هذا النص يحتاج لمزيد من الدراسة والتحقق حتى يمكن اصدار حكم ثابت فى هذا الموضوع الهام .

(٩) انظر : كريزول : الآثار الاسلامية الاولى ، تعريب عبد الهادى عبلة ، دار قتيبة ، دمشق ١٩٨٤ ، ص ٢٣

(١٠) سعاد ماهر : مساجد مصر واولياؤها الصالحون ، طبعة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، ج ١ ، ص ٥٥ — ٧٦

(١١) كمال الدين سامح : العمارة فى صدر الاسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٢ — ١٣٧

ذلك شأن المساجد الأربعة الاخرى السابقة خارج اليمن • حيث لم يبق بها جميعا سوى المساحات البسيطة الاولى والتى أدخلت ضمن مساحاتها الحالية فضلا عن بقاء النصوص التاريخية التى تشير الى أهمية تأسيس بعض المساجد الأولى فى اليمن أكثر من غيرها فى البلاد الاسلامية الأخرى . اضافة الى ما ارتبط بهذه المساجد الأولى فى اليمن من عادات وتقاليد دينية وثقافية واجتماعية لازمتها من عصر البناء الأول وظلت متواترة بين أهل اليمن حتى اليوم •

وسواء كان تأسيس المساجد الاولى فى اليمن مرتبطا بقصة الناقة التى بركت فى أماكن تأسيسها(١٢) أو بقصة الأذان الذى سمع من مكان ما . ووصل أثره الى مكان آخر بنى فيه المسجد(١٣) ، أو غير ذلك من الروايات المتواترة عند أهل اليمن ، فان الحقيقة الثابتة هى أن هذه المساجد الاولى كانت هدفا واضحا لتسجيل بصمات فى التاريخ السياسى لليمن ، بما أضفاه الخلفاء والأمراء والولاه وغيرهم من حكام اليمن ، على امتداد العصور الاسلامية من رعاية واهتمام ، شمل الاضافة والتجديد والتعمير . بل والتسجيل التاريخى بواسطة الكتابات الأثرية على الجدران وغيرها . اضافة الى ارتباط هذه المساجد الأولى فى اليمن بانشاء المدن الجديدة والتوسع حولها •

يعتبر الجامع الكبير بصنعاء ، هو المسجد الجامع الاول الذى بنى فى بلاد اليمن وتتركز أهميته الدينية والأثرية فى المقام الأول فى بنائه بأمر رسول الله (ص) وبتوجيه منه فى حياته . ويزيد من أهميته أيضا وصف الرسول (ص) وتحديده لموضع البناء فيه . بحيث يعتبر المسجد الثالث فى الاسلام ، بل المسجد الأول الذى بنى بعد مسجد قباء ومسجد المدينة المنورة • والحق أن النصوص التاريخية العديدة التى جمعها

---

(١٢) الخزرجى : العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ، مخطوط مصور ورقة ٩ .

(١٣) الرازى : تاج صنعاء ، ص ٥١٠

المؤرخ (أبى العباس أحمد بن عبد الله الرازى) المتوفى عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م . تؤرخ جميعها لبناء المسجد فى حياة الرسول (ص) وبأمره . وان اختلفت هذه النصوص حول شخصية المؤسس على وجه الدقة فمنها ما يشير الى أن البناء كان على يد الصحابى وبر بن يحنس الانصارى . حين بعثه الرسول (ص) والياه على صنعاء(١٤) ، فيذكر النص :

« أدعهم الى الايمان فان أطاعوا لك به . فاشرع فى الصلاة فان أطاعوا لك بها فمر ببناء المسجد لهم فى بستان باذان(١٥) من الصخرة التى فى أصل غمدان(١٦) واستقبل بها ضين »(١٧) وينسب النص التاريخى الثانى بناء هذا المسجد الى الصحابى فروة بن مسيك المرادى(١٨) حين بعثه الرسول (ص) الى صنعاء وأمره أن يبنى مسجد صنعاء ما بين القلعة الململة الخضراء الى غمدان فبناه(١٩) . أما النص التاريخى الثالث فينسب تأسيس عمارة مسجد صنعاء الى الصحابى ابان

---

(١٤) المصدر السابق ص ٧٥ ، العرشانى : كتاب الاختصاص ذيل تاريخ مدينة صنعاء ص ٤٩٩

(١٥) نسبة الى باذان عامل الفرس على صنعاء ونواحيها ، وقد اعتنق باذان الاسلام عام ٦ هـ تقريبا ودخل معه فى الاسلام الأبناء من الفرس المقيمين فى اليمن ومن والاهم .

انظر عصام عبد الرءوف : اليمن فى ظل الاسلام ص ٢٢ — ٢٧

(١٦) انظر عن قصر غمدان : الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد الاكوع ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣ ، ص ٣١٢ ، ٣٢٢

(١٧) ضين : جبل معروف فى شمالى صنعاء فى راسه مسجد قديم مشهور بالبركة ، ولعله المقصود فى نص الرازى السابق الاشارة اليه فى الحاشية رقم (٨) .

انظر الحجرى : مجموع بلدان اليمن وقبائله ، تحقيق اسماعيل الاكوع ، الطبعة الاولى ١٩٨٤ ، جـ ٣ ، ص ٥٥٥

(١٨) يذكر الرازى عنه أنه اول ولاة صنعاء من قبل الرسول (ص) ، الرازى : تاريخ صنعاء ص ١٤٠ .

(١٩) الرازى : تاريخ صنعاء ، ص ٧٧ — ٨١ ، العرشانى : كتاب الاختصاص ، ص ٤٩٨ — ٤٩٩

ابن سعيد العاصى القرشى(٢٠) حسب توجيه الرسول (ص) بأن : « يجعل لهم حائط باذان مسجدا . ويجعل من الصخرة الى مؤخر جدره فبناه وصلى لهم فيه »(٢١) كما ورد أيضا فى بعض المصادر ما يفيد بأن سيدنا معاذ بن جبل هو الذى أسس هذا المسجد(٢٢) .

والواقع أن النصوص السابقة تؤكد جميعها أسبقية بناء الجامع الكبير بصنعاء فى فترة مبكرة تقع ما بين عام ٦ هـ وعام ٩ هـ ، بحيث يسبق بناء هذا الجامع غيره من الأمثلة الأخرى المتعارف عليها من المساجد الجامعة الاولى كالبصرة والكوفة وغيرهما . ومن ثم فاننا لا نستبعد ما ذهب اليه المؤرخ العرشانى المتوفى عام ٦٢٦ هـ فى كتابه الاختصاص من نسبته الى الصحابى فروة بن مسيك الذى بنى جبانة صنعاء(٢٣) ، حيث تسهب النصوص التاريخية فى ذكر أعماله بصنعاء قبل الفتح وبعده(٢٤) ، خاصة وأن اليمن كانت من أول البلاد التى دخلها الاسلام ، وحتى يكون هذا المسجد بمثابة المركز الدينى لتجمع كلمة المسلمين فى اليمن . هذا وقد اتخذ هذا المسجد أهمية تاريخية أخرى من الناحية الدينية تفرد بها : اذ يوجد بالجانب الغربى من الجامع « قبلى المنارة »

---

(٢٠) يذكر ايضا المؤرخ الرازى الذى جمع هذه النصوص التاريخية ان الرسول (ص) امر ابان ان يبنى المسجد حين استخلفه على صنعاء ومخاليفها فبناه ما بين غمدان الى الحجر الململة ، فوجدت الحجر فى زقاق ابن شالة فكبر الناس ، الرازى : تاريخ صنعاء ، ص ٧٦

(٢١) المصدر السابق ص ٧٦

(٢٢) العرشانى : كتاب الاختصاص ، ص ٥٠٠

(٢٣) يذكر المؤرخ الرازى نقلا عن طاووس اليمانى : « ان الرسول امر فروة بن مسيك المرادى أن يبنى المسجد ما بين الاكمة والقلعة الململة ، ويضع جبانتها فى مقدمتها بالحديبية فابتنى المسجد ثم خرج فابتنى لهم الجبانة ، ثم قال فروة ان هذه الجبانة ، اول جبانة وضعت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

انظر الرازى : تاريخ صنعاء ، ص ٧٧

(٢٤) العرشانى : كتاب الاختصاص ، ص ٥٠١ — ٥٠٢

الغربية قبر لنبى يسمى حنظلة بن صفوان مدفون به(٢٥) . ويضاف الى هذه الاهمية التاريخية أيضا ما طرأ عليه من أعمال الاضافة فيه اعتبار من العصر الأموى . حيث ظلت أعمال التوسيع والترميم والتجديد والاضافة تتعاقب عليه خلال العصور الاسلامية المتتابعة(٢٦) على اعتبار أهميته الدينية والتاريخية فى صنعاء خاصة واليمن عامة .

واذا كان الجامع الكبير بصنعاء يحتل هذه الأهمية التاريخية والتى تتعلق خاصة بانتشار الاسلام فى اليمن فى بداية الدعوة الاسلامية . رغم الاختلاف حول شخص مؤسسه فانه على الجانب الآخر يتاكد تأسيس جامع الجند(٢٧) بمؤسسة معاذ بن جبل رضى الله عنه حيث تشير أيضا النصوص التاريخية الى بنائه أو تأسيسه فى عهد رسول الله (ص) عام

---

(٢٥) قيل انه كان رسولا لاهل مارب « فقتلوه فاهلكهم الله فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » .

انظر الرازى : تاريخ صنعاء ، ص ٢٠٥ وحاشية رقم (١) بنفس الصفحة .

ويذكر المؤرخ الحجرى انه « راى فى بعض المجاميع أن القبر متصل من المنارة ، وعليه بناء بالاجر والجص مرتفع نحو ذراع ، شوهد ذلك أيام الوزير مراد باشا فى عام ٩٨٥ هـ ، وانه كان فى العقد الصغير بالجدار قبلى المنارة كوة نافذة الى الضريح سدت عام ١٠٤١ هـ » .

انظر : الحجرى : مساجد صنعاء ، طبعة بيروت ١٣٩٨ هـ ص ٣٠

(٢٦)انظر عن عمارة هذا المسجد :

مصطفى شيحة : مدخل الى العمارة والفنون الاسلامية فى الجمهورية العربية اليمنية ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٢٩ ، ص ٣٦ ، شكل ١ ، ٢ ، اللوحات ١ — ٧ ، الحجرى : مساجد صنعاء ص ٢٢ — ٣٢

وايضا

Serjeant, K. & Lewock, R. : SAN'A an Arbian Islamic City, England, 1983, PP. 323 - 350.

(٢٧) الجند بلد مشهورة من أعمال تعز الى الشرق الشمالى منها بمسافة ٢٢ كم ، وكانت أعظم اقسام اليمن الثلاثة واوسطها مخلاف صنعاء وادناها مخلاف حضرموت ونسب اليها كثير من اهل الفقه والعلم وهى حاليا بليدة صغيرة .

انظر المقحفى : معجم البلدان والقبائل اليمنية ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٩ هـ) وهو بذلك يسبق فى تاريخه أيضا جامعى البصرة (١٤ هـ) . والكوفة (١٧ هـ) وهو يعتبر من المساجد العتيقة فى بلاد اليمن(٢٨) وان اختلفت النصوص التاريخية حول تاريخ البناء بالنسبة للفترة الزمنية بين هذا المسجد وبين مسجد صنعاء السابق الاشارة اليه فبعضها يذهب الى بنائه بعد جامع صنعاء بستة أشهر . وبعضها بسنتين(٢٩) ، وان كان الرازى يذكر فترة التحديد أكثر من ذلك بقوله « أن الرسول (ص) بعث وبرا فى بناء مسجد صنعاء قبل الفتح وبعث معاذا بعد الفتح»(٣٠) مما يرجع بناء الجامع الى عام (٩ هـ) على الأقل . وقد ظل هذا المسجد يحظى بالأهمية المتتابعة خلال العصور الاسلامية • لقد كان لسيدنا معاذ بن جبل دوره المؤثر فى اليمن وارتبط باسمه أيضا بعض المساجد الأولى والتى أشار ببنائها منها جامع مدينة صعدة(٣١) القديم والذى يتردد ذكره كثيرا على أنه من المساجد الاولى فى اليمن ، وان كنت أرجح أن يكون بناء جامع صعدة ربما يسبق فى تأسيسه جامع الجند لأنه وفقا للرواية التاريخية والطبيعية أن معاذا قد نفذ الى اليمن عن طريق صعدة أولا وأمر أهلها ببناء المسجد(٣٢) . كما ارتبط اسمه بمسجد من

---

(٢٨) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى بتاريخ المستبصر ، تحقيق اوسكر لوفقرين ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ ، ص ١٦١ — ١٦٤ ولوحة ٧

(٢٩) المرشانى : الاختصاص ص ٥٠٠

(٣٠) الرازى : تاريخ صنعاء ص ٧٨

(٣١) تقع مدينة صعدة شمال صنعاء بمسافة ٢٤٣ كم ، وهى حاليا مركز الادارة المحلية للواء صعدة الذى يتبعه العديد من البلاد والقرى ولهذه المدينة تاريخ هام . اذ ازدهرت كمدينة علم وثقافة وتجارة وزراعة الى جانب اهميتها الرئيسية فى قيام دولة الائمة الزيدية بها فى اواخر القرن الثالث الهجرى / ٩ م .

انظر عن هذه المدينة : مصطفى شيحة : شواهد قبور اسلامية من جبانة صعدة باليمن ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٥ — ٣٢

(٣٢) الخزرجى : المسجد المسبوك ، ورقة ٩

المساجد الأولى فى اليمن أيضا وهو مسجد رأس جبل صيد(٣٣) ، حيث يذكر النص التاريخى « وأما جبل صيد فانه يروى أن معاذا صعده وأذن فيه فسمع الآذان الى بلد بعيد منه فوضع فى موضع الآذان مسجدا وكان صغيرا من أحجار غير محكمة ولا متقنة وبناء ضعيفا وسقفا غير محكم »(٣٤) .

وما من شك فى أن طبيعة البناء فى هذه المساجد الاولى كانت بسيطة للغاية تتمشى مع حالة البساطة الاولى فى الاسلام : مساحة بسيطة من الأرض وجدران من الطوب اللبن أو الحجر وسقف من جذوع النخل . هذا وقد تبع بناء هذه المساجد الاولى فىاليمن بناء مساجد أخرى فى مواضع يمنية أخرى كثيرة . من ذلك على سبيل المثال الجامع الكبير فى مدينة ذمار(٣٥) . وان كان الرازى يذكر « كان بين عمارة مسجد صنعاء وبين مسجد ذمار أربعون يوما ثم مسجد الجند ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلهما »(٣٦) ، وليس بالمستبعد حقا أن تبنى مساجد عديدة فى مواضع كثيرة من أرض اليمن خلال القرن الاول للهجرة / ٧ م . خاصة وأن اليمنيين كان لهم السبق فى الدخول فى الاسلام ، بل وتحمسوا لنشر هذا الدين فى مشارق الارض ومغاربها ، وهو الامر الذى لا زال يتردد الى اليوم فى ربوع اليمن ،خاصة فى المدن الكبيرة ، حيث تنسب فيها المساجد الجامعة الى الرعيل الاول من الصحابة(٣٧) ، وان كان من الصعب التسليم برأى المؤرخ أحمد بن عبد الله الرازى من وجود مسجد

---

(٣٣) صيد : بسكون الياء : معقل وجبل يشتهر اليوم باسم نقيل سمارة وهو بين حقل يريم والمخادر ومنه تشرع طريق صنعاء — تعز . انظر : المقحفى : المعجم ، ص ٤٠٠

(٣٤) جدد هذا المسجد عام ٦٠١ هـ على يد الامير علم الدين ورد سار الشاكالى . انظر العرشانى : الاختصاص ، ص ٥١٦

(٣٥) انظر عن هذا المسجد : مصطفى شيحة : مدخل الى العمارة ص ٥٢ — ٥٧ ، شكل ٥ اللوحات ١٨ — ٢٢

(٣٦) الرازى : تاريخ صنعاء ، ص ٨٩

(٣٧) انظر : محمد بن احمد الحجرى ، مساجد صنعاء ، ص ٥٩ ، ٦٦ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١٢١

يسمى بمسجد ضهر(٣٨) بنى عام « ١ هـ »(٣٩) .

لقد كن لطبيعة الدويلات المستقلة فى اليمن وتبعيتها فى بعض الاحيان لمركز الخلافة الاسلامية فى بغداد أثره الواضح على العمائر والفنون الاسلامية فى بلاد اليمن . ويبدو تأثير الطراز الاموى واضحا فى المسجد الجامع بصنعاء فيما أجراه من عمارة « أيوب بن يحيى الثقفى » والى صنعاء بأمر الوليد بن عبد الملك بن مروان(٤٠) ، حيث يبدو انتقال تأثير طراز الخلافة الاسلامية فى مجال العمارة والفنون من دمشق الى صنعاء بل يسجل هذا المسجد تاريخا آخر فى بداية العصر العباسى هو عام ١٣٦ هـ كاضافة جديدة لأعمال الدولة العباسية فى بداية عهدها فى اليمن حين جدد وعمر مساجد اليمن الامير على بن الربيع(٤١) . والواقع أن بلاد اليمن حين دخلت فى حوزة الخلافة العباسية ببغداد . زادت الفتن والحروب نتيجة لبعض المذاهب الدينية المختلفة التى شقت طريقها الى هذه البلاد(٤٢) . ووجدت فيها أرضا خصبة لدعواتها . وقد شهد العصر العباسى الاول العديد من المنازعات السياسية والدينية فى اليمن . حيث لم يكن هناك استقرار سياسى . مما جعل الخليفة العباسى المأمون يقلد أعمال اليمن للامير اليمنى محمد بن عبد الله بن زياد لتبدأ بذلك أول دولة مستقلة فى اليمن وهى الدولة الزيادية (٢٠٥ — ٤٠٣ هـ / ٨٢٠ — ١٠١١ م)(٤٣) . ويذكر

---

(٣٨) ضهر : وادى مشهور من ناحية همدان على مقربة من صنعاء .

(٣٩) الرازى : تاريخ صنعاء ، ص ٧٩ ، وراجع الحاشية رقم (٨) .

(٤٠) Serjeant, Op. Cit. P. 323.

(٤١) انظر : مصطفى شيحة : مدخل ، ص ٢١ شكل ١

(٤٢) كانت بلاد اليمن مسرحا ايضا لبعض الحركات المناهضة خلال تبعيتها للحكم الاموى لاسيما حركة الخوارج الاباضية ، وهى الحركة التى انتهت باستيلاء عبد الله بن يحيى عليها عام ١٢٩ هـ .

انظر نشوان الحميرى : الحور العين ، تحقيق كمال مصطفى ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، الكبسى : اللطائف السنية فى اخبار الممالك اليمنية ، طبعة القاهرة ، ص ٦ ، الجراق : المتطف فى تاريخ اليمن ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ ، ص ٦ — ١٦ .

(٤٣) عصام عبد الرءوف : اليمن فى ظل الاسلام ص ٨٧ — ٩٧ .

المؤرخ ابن الديبع انه كان من جملة وصايا الخليفة المأمون للامير الزيادى « أن يحدث له مدينة باليمن ببلاد الاشاعر بوادى زبيد »(٤٤) هذا وقد عنى أمر هذا الامير الزيادى الذى اتخذ مدينة زبيد(٤٥) حاضرة لدولته الجديدة . كما زاد ملكه حتى ملك اقليم اليمن كله الجبال والتهائم(٤٦) . خطط الامير الزيادى هذه المدينة وجعلها مستديرة الشكل(٤٧) وأصبحت من أمهات المدن اليمنية بعلمائها وفقهائها وطلبة العلم الذين يفدون لها من كل حدب وصوب . فضلا عما اجتمع لها من عمائر ضمت الاسوار والابواب والمساجد والقصور والمنازل والحمامات . وغير ذلك مما تتطلبه حركة العمران . بحيث ظلت هذه المدينة فى حركة من العمران والاتساع خلال العصور الاسلامية المتعاقبة .

ويبدو أيضا الأثر الفنى المتبادل بين هذه المدينة الحديثة وبين مدينة سامراء الحاضرة الجديدة أيضا للخلافة العباسية (٢٢١ هـ — ٢٧٦ هـ) فى سيادة الزخارف الجصية الجدارية على غيرها من أنواع الزخارف الأخرى ، اذ تتميز مساجد زبيد ومنازلها ومدارسها الاسلامية القديمة ، بوضوح عناصر الزخرفة النباتية والهندسية فضلا عن أشرطة الكتابة الجصية التى تزدان بها جدران المنشآت المختلفة بالمدينة مما يوضح أثر انتقال الزخارف الجصية من مدينة سامراء بالعراق الى مدينة زبيد باليمن خلال فترة الدولة الزيادية . بل وان هذه الزخارف التى أستخدمت على نطاق واسع فى زبيد ظل استخدامها متصلا خلال العصور الاسلامية المتعاقبة على المدينة ومن المعروف أن مدينة سامراء كان لها دور هام فى تكوين الخصائص الجديدة والطرز

---

(٤٤) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى اخبار مدينة زبيد ، تحقيق يوسف شلحد ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٥١

(٤٥) انظر عن التاريخ الدينى والعلمى لهذه المدينة : الحجرى : مجموع بلدان اليمن جـ ٢ ص ٣٨١ — ٣٩٣ .

(٤٦) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن المسمى المفيد فى اخبار صنعاء وزبيد ، تحقيق محمد بن على الاكوع ، الطبعة الثالثة ١٩٧٩ ، ص ٤٦ — ٤٧

(٤٧) انظر : ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ، ص ٨٢ — ٨٣

الفنية الخاصة بالفن الاسلامى والتى انتقلت منها الى مدن عديدة فى العالم الاسلامى . الا أن انتقالها الى زبيد خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى كان — فى رأينا — له أهمية خاصة . تجلت كما تقدم فى استخدام هذا النوع كمادة وزخرفة على نطاق واسع وظل هذا الاستخدام مستمرا بعد نهاية الدولة الزيادية فى اليمن عام ٤٠٣ هـ بحيث يستطيع الزائر الى زبيد بآثارها الاسلامية الكثيرة أن يلحظ بوضوح طابع وموضوع الزخارف الجصية على جدران المساجد والمدارس والمنازل الأثرية بالمدينة .

ومثلما انتقلت التأثيرات المعمارية الاولى من مسجد الرسول (ص) فى المدينة المنورة الى صنعاء فى أوائل القرن الاول الهجرى ، فاننا نعتقد ايضا بانتقال تأثير آخر من الجنوب الى الشمال فى شبه الجزيرة العربية متصل بحركة الانشاء التى قادها أحد أمراء الدولة الزيادية وهو القائد الحسين بن سلامة الذى ظهر على مسرح الاحداث السياسية للدولة الزيادية فى الربع الاخير من القرن الرابع الهجرى ، فى وقت كان الضعف والانحلال قد تطرق الى عضد هذه الدولة فأعاد لها هيبتها وقوتها وارتبط اسمه بحركة التعمير والبناء حيث اختط مدينة الكدراء(٤٨) ومدينة المعقر(٤٩) . ويصفه المؤرخ الوصابى بقوله « وهو الذى أنشأ الجوامع الكبار والمنارات من حضرموت الى عدن عشرين مرحلة . ثم من عدن الى مكة أربعون مرحلة .. وله على طريق

---

(٤٨) اختط الحسين بن سلامة مدينة الكدراء عام ٤٠٠ هـ ، وهى من مدن تهامة القديمة الخربة وموقعها بالتحديد فى الجنوب الشرقى من المراوغة بستة اميال ، وكان لهذه المدينة شهرة كبيرة ، ويقال ان مكانها حاليا قرية الحدادية .

انظر : الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، حاشية ٢ ، ص ٩٧

المقحفى : معجم البلدان والقبائل اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ ص ٥٥٢ .

(٤٩) ظلت مدينة المعقر التى اختطها الحسين بن سلامة عامرة حتى القرن الثامن الهجرى / ١٤ م .

انظر الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، حاشية (١) ، ص ٩٧

الجبال وطريق تهامة ، فى كل مرحلة جامع وبئر وله على جبل الرحمة بعرفات مسجد وطول المسافة التى بنى فيها ستين مرحلة »(٥٠) . وقد كان هدفه تعمير طريق الحج وزيادة نمو التجارة اليمنية ، وقد تبع هذا بطبيعة الحال تأثير حضارى خاصة بين بلاد اليمن فى الجنوب وبلاد الحجاز فى الشمال . وتبدو كذلك الاهمية التاريخية لآثار الدولة اليعفرية (٢٥٧ هـ — ٣٩٣ هـ) فى اليمن عامة وفى مدينة شبام خاصة ، **وتعكس آثار هذه الدولة فى اليمن الاتصال الحضارى بين اليمن وبغداد عاصمة الخلافة الاسلامية** ، اذ تبعت هذه الدولة الدولة العباسية فى بغداد من الناحية السياسية ، حين عهد الخليفة العباسى المعتمد للامير اليمنى محمد بن يعفر الحوالى عام ٢٥٧ هـ حكم صنعاء ومخاليفها ، وقد اتسمت هذه الدولة باتساع ملكها وبكثرة العمائر وتشييد المساجد الفخمة وبتعبيد الطرق خاصة طريق الحج على نجد العليا(٥١) .

تسجل الآثار الاسلامية لعصر أمراء هذه الدولة دورهم الكبير فى حركة العمران واقامة المنشآت الدينية خاصة عطهم المعمارى الكبير فى الجامع الكبير بصنعاء . والذى أسهبت فى وصفه المصادر التاريخية ، منها ما يذكره المؤرخ عمارة اليمنى بقوله « بلغ ما أنفق فى عمارة مسجد صنعاء خمسة وعشرون ألف خزانة ، فى كل خزانة عشر ألف مثقال يعفرى »(٥٢) بخلاف تأسيسهم للجامع الكبير بحاضرتهم مدينة شبام

---

(٥٠) وجيه الدين الحبيشى الوصابى : تاريخ وصاب : الاعتبار فى التواريخ والآثار تحقيق عبد الله الحبشى ، الطبعة الاولى ١٩٧٩ ، ص ٢٧ — ٢٨ ، عمارة : تاريخ اليمن ، ص ٧١ — ٧٩ ، ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٥٣

ويعتبر هذا النص فى غاية الاهمية نظرا لمجموع المساجد التى انشاها هذا الرجل بأمره وبمفرده فهى تربو على الخمسين مسجدا فقط فى الطرق الرئيسية ، فضلا عما انشاه او جدده فى داخل البلاد اليمنية .

انظر : يوسف عبد الله : المدينة اليمنية : فى كتاب : اوراق فى تاريخ اليمن وآثاره ، الجزء الثانى ص ٢٨ — ٢٩

(٥١) عمارة : تاريخ اليمن ، ص ٥٦ — ٥٧

(٥٢) المصدر السابق ، ص ٥٧

فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / ٩ م ، ويوضح هذا الجامع أيضا الارتباط الفنى بين العمارة والزخرفة العباسية فى مدينتى بغداد وسامراء وبين تأسيسه فى مدينة شبام اليمنية(٥٣) .

هذا وقد شهد القرن الثالث الهجرى فى اليمن قيام دولة جديدة ، قادها الامام الهادى يحيى بن الحسين الذى قدم الى بلاد اليمن من الحجاز عام ٢٨٠ هـ ، وبدأ فى نشر مذهبه الزيدى فى أنحاء اليمن ، وتحقق له النجاح بدخول صنعاء عام ٢٨٨ هـ . وبذلك دخلت بلاد اليمن فى مرحلة خطيرة من الصراع السياسى المتمثل بين الشيعة فى الفرع الزيدى وبين أهل السنة لاسيما فى جنوب اليمن . وكان نتيجة لقيام هذه الدولة التى تمركزت فى مدينة صعدة شمال اليمن وظلت قائمة فى اليمن حتى هذا القرن(٥٤) ، بقاء بعض الآثار الاسلامية الهامة التى تفيد تاريخيا ، بجانب قيمتها الأثرية فى التأريخ لاحداث هذه الدولة كأسوار المدينة القديمة وبواباتها ومسجدها الجامع القديم ومساجدها الاخرى الاثرية(٥٥) . فضلا عن بقاء جبانة هامة أثرية(٥٦) .

وتبدو الاهمية التاريخية فى المسجد الجامع القديم بمدينة صعدة فى احتوائه على كثير من قبور الأئمة الزيدية ، ممن كان لهم دور كبير

---

(٥٣) انظر : مصطفى شيحة ، مدخل ، ص ٤١ — ٤٥ ، لوحة ١٠ — ١٢ ، شكل ٣ ، وانظر أيضا :

Finister, B : Die Freitags Moschee Von Sibâm - Kaukaban, pp. 193 - 202.

(٥٤) ظلت دولة الأئمة الزيدية قائمة فى اليمن حتى قامت الثورة اليمنية عام ١٩٦٢ م .

(٥٥) من هذه المساجد الاثرية بصعدة : مسجد النزارى ومسجد زايدان ومسجد النصر ومسجد الذويد ومسجد التوت ومسجد الذهب ومسجد البلى ومسجد القلعة ومسجد الحاكم ابن حلبس ومسجد الناصر ومسجد النور وغيره .

انظر : عبد الرحمن الحضرمى : مدينة السلام صعدة ، مجلة اليمن الجديد ، يونيو ١٩٨٦ ، ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٥٦) انظر : عن هذه الجبانة : مصطفى شيحة : شواهد قبور اثرية من جبانة صعدة باليمن ، ج ٩

فى أحداث اليمن السياسية تتقدمها الشواهد أو الألواح التى كتب على بعضها نثرا وشعرا بعض أعمالهم .

لقد شهدت صعدة وتوابعها خلال العصر الاسلامى كثيرا من مجالس العلم والعلماء فى أماكن المدن والقرى أطلق عليها فى المصطلح اليمنى **الهجـــر** . حيث يفد الطلاب عليها لتلقى العلم فى فنـــونه المختلفة على أيدى العلماء الذين تخصصـوا فى شتى ميادين الفكر والثقافة . وقد كانت أماكن الهجر هذه عبر التاريخ اليمنى من الاماكن المحرم الاعتداء عليها عرفا بين القبائل تقديرا واحتراما للعلم والعلماء(٥٧) . **ونعتقد أن أماكن الهجر هذه وفق ما يطلق عليها فى اليمن كانت بمثابة المدارس الاسلامية الاولى والتى ربما وفد تأثيرها العلمى سواء كان هذا التأثير فى علوم الدين أو فى غيره من العلوم الاخرى من مكة أو المدينة منذ القرن الاول الهجرى ، والذى استمر بعد ذلك بها لمدة ثلاثة قرون ثم تحول الى بغداد ، فيما عرف فيها بدور العلم وبيوت الحكمة ، حتى وصل هذا النظام الى قمة ازدهاره على يد الوزير نظام الملك فى عهد السلاجقة فى مدن نيسابور وبغداد · وطوس وغيرها وفق نظام معمارى خاص بأسلوب عمارة المدارس الاسلامية ·**

واذا كان كثير من الباحثين يرجعون الاصل فى تخطيط المدرسة الاســلامية الى الدور الســكنية الاولى فى مــكة والمدينــة(٥٨) ، **فاننا نعتقد بانتقال هذا التأثير الى شمال اليمن فى البداية بحكم قرب الموقع المتاخم من مكة والمدينة الى مدينة صعدة فى الشمال فى بعض دورها السكنية ثم ما لبث أن انتقل الامر الى الحاقها بالمساجد حيث تكون بمثابة قاعة صغيرة للدرس ملحقة بالمسجد اشبه بالمعلامة ، ويتم**

---

(٥٧) عبد الرحمن الحضرمى : المرجع نفسه ، ص ١١٥

(٥٨) انظر : عباس حلمى : المدارس الاسلامية ودور العلم وعمارتها الاثرية ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الاســلامية — مكة المكرمة — الســنة الثالثة — العدد الثالث ، ١٣٩٨ هـ ، ص ١٥٥ — ١٥٦

فيها تدريس العلوم الدينية وغيرها(٥٩) ، ثم جرى بعد ذلك تطورها داخل نظام المدرسة الاسلامية فى اليمن ، خاصة خلال العصر الأيوبى فى جنوب اليمن(٦٠) ، وفق التطور المعمارى الذى حدث فى نظام المدرسة الاسلامية والتى قادها الاتابكة فى الموصل ودمشق وصلاح الدين فى شمال العراق ومصر وسوريا(٦١) .

وبايجاز فانه يمكن القول بأن القرون الأربعة الاولى للاسلام فى اليمن قد شهدت الكثير من الاحداث السياسية التى تبعتها بعض مظاهر التأثيرات الفنية الوافدة عليها من مراكز ومدن هامة فى القارة ذاتها . وقد تركت هذه التأثيرات بدورها مظاهر فنية استمرت فى تطورها الطبيعى بعد ذلك على العمائر والفنون اليمنية وفى مقدمة هذه التأثيرات :

أولا — كان للتأثير المباشر القادم من مكة والمدينة الاهمية الاولى فى انتشار الاسلام فى اليمن فى السنوات الاولى من بداية انتشاره وكذلك ما تبعه من تأسيس المساجد الاولى التى تأثرت مباشرة بتخطيط مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة حيث انتقل هذا

---

(٥٩) من امثلة اماكن الهجر الاولى فى صعدة وحدها (شمال اليمن) : هجرة محنكة ، هجرة فلة ، هجرة قطابر ، هجرة معين ، هجرة يالم ، هجرة حيدان ، هجرة رغافة ، هذا وقد انجبت مثل هذه الهجرات المختصة بمجالس العلم والعلماء فى حلقات المساجد وغيرها علماء المذاهب فقها واصولا وفى علوم القرآن والحديث والعربية بفروعها وكذلك العلوم الفكرية كالفلك والرياضيات وغيرها .

انظر : عبد الرحمن الحضرمى ، ص ١٠

(٦٠) انظر : مصطفى شيحة ، مدخل ، ص ٨٢ — ١٠٧ ، والاشكال من ١١ — ١٦ .

(٦١) انظر : Creswell, K. : The Muslim Architecture of Egypt vol, II pp. 104 - 143.

Creswell, K. : The Origin of the crucifororm plan of Cairne Madarasas, p. 8.

Hoag, J. : Western Islamic Architecture, New York, 1963, p. 32.

وايضا حسن الباشا : المدخل الى الآثار الاسلامية ص ١٥٧ — ١٦٣ وحسن الباشا ايضا : دراسة جديدة فى نشأة الطراز المعمارى للمدرسة المصرية ذات التخطيط المتعامد ، تونس ١٩٨٧ م .

التخطيط المبكر الى الجامع الكبير بصنعاء وجامع الجند بتعز وغيره من المساجد الاولى التى أسست فى بداية العصر الاسلامى فى اليمن ، **وكان أيضا لأثر استخدام الدور السكنية فى مكة والمدينة فى عقد الحلقات الدينية** والتعمية بها أثره المباشر والذى انتقل الى مدن اليمن خاصة فى الشمال حيث عرف هذا النظام فى اليمن **بالهجر** ، وكان بداية لنشأة وتطور نظام المدرسة الاسلامية بعد ذلك بطرازها المعمارى الخاص فى مدن اليمن الجنوبية كجبلة واب وتعز ورداع وزبيد وغيرها .

ثانيا — بدأ التأثير السورى فى الانتشار على العمائر اليمنية عندما تبعت البلاد الدولة الاموية من الناحية السياسية . حيث قدم لها هذا التأثير مباشرة من مدينة دمشق مركز الخلافة الاسلامية ولعل العمل المعمارى الكبير الذى أمر به الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان (٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٥ م) خير شاهد على ذلك . ويذكر النص التاريخى الذى أورده الرازى فى ذلك الشأن قوله « ولما أفضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك بن مروان كتب الى أيوب بن يحيى الثقفى بالولاية على صنعاء واليمن . وأمره أن يزيد فى مسجد صنعاء ويبنيه بناء جيدا محكما . فبناه أيوب بن يحيى وزاد فيه من نحو قبلته الاولى الى موضع قبلته اليوم وحضر وهب بن منبه ذلك »(٦٢) . ويؤكد هذا التأثير الوافد من الطراز الاموى بقاء بعض الحشوات الخشبية بالمسجد المزدان بالزخارف المحفورة من أوراق العنب وعناقيده والتى تشبه الى حد كبير مثيلاتها ضمن زخارف قبة الصخرة (٧٢ هـ / ٦٩١ م) (٦٣) [شكل ١/أ] وكذلك على العتب الخشبى للمدخل

---

(٦٢) أورد أيضا نفس المؤرخ ما يفيد وجود كثير من الزخارف والنقوش الجصية كانت قائمة بمحراب هذا الجامع خلال العصر الاموى ، الا انها ازيلت فى ولاية يحيى بن عبد الله بن كليب والى القضاء باليمن (المتوفى عام ٣٤١ هـ) بقوله « ان ذلك لم يكن جائزا لانه مكروه وهو يشغل المصلى بالنظر اليه وقد نهى عن تزويق المساجد » .
انظر الرازى : تاريخ صنعاء ص ٨٥ — ٨٦

(٦٣) Serjeant. Op. cit, p. 346 - 347. fig. 18/45. fig 17/1.

الرئيسى للمسجد وسط الواجهة الجنوبية . حيث يضم هذا العتب عدة زخارف من الطراز الاموى تشمل أوراق العنب والورود وغيرها . اضافة الى بعض الكتابات الكوفية والتى تعكس صدى أهمية الخط الكوفى وانتشاره فى أقاليم الخلافة الاسلامية خلال العصر الاموى .

ثالثا — يبدو وضوح التأثيرات العباسية الوافدة على اليمن من مدينتى بغداد وسامرا فى النواحى المعمارية والفنية سريعا فى اليمن ، ولما كان الجامع الكبير فى صنعاء يحتل أهمية خاصة . بل كان بمثابة الواجهة المعمارية والدينية لأهل اليمن على اعتبار انه أول المساجد بها . فمن ثم يبدأ مباشرة الاهتمام به وفق ما ذكره المؤرخ ابن الديبع فى كتابه الفضل المزيد حيث « أحدث بالجامع أبوابه »(٦٤) .

كما تسجل الكتابات الاثرية بالخط الكوفى فى عام ١٣٦ هـ بعض التجديدات والترميمات فى هذا المسجد الهام على يد الامير العباسى على بن الربيع (شكل ١/ب) .

ونعتقد بأن تخطيط مدينة زبيد ، كان متأثرا الى حد كبير بنفس الشكل المستدير الذى كانت عليه مدينة بغداد ، وأن هذا التأثير المباشر ربما كان ناتجا ضمن وصية الخليفة المأمون العباسى للقائد الزيادى الأمير محمد بن عبد الله الزيادى بأن يحدث له مدينة باليمن ببلاد الاشاعر بوادى زبيد ، والتى يصفها المؤرخ ابن الديبع بقوله « وأما صفتها ومحلها فهى مدينة مدورة الشكل عجيبة الوضع على النصف فيما بين البحر والجبل »(٦٥) (شكل ٢) **. ونعتقد أيضا بأن التأثير الزخرفى باستخدام مادة الجص الذى غلب بل ساد العمائر المتنوعة**

---

(٦٤) يذكر النص فى ذلك كان داود بن عبد المجيد بن عبد الرحمن اول من قدم الى اليمن نائبا لبنى العباس فلما اقام بصنعاء بوب جامعها ولم يكن له باب قبل ذلك » .

انظر : ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٤٢

(٦٥) المصدر السابق ، ص ٤٧ ، ٥١

هذا وتعد مدينة زبيد من أمهات المدن اليمنية بفضل الدولة الزيادية ، =

بهذه المدينة بالذات ودمغها بطابع زخرفى واضح طوال تاريخها فى العصر الاسلامى كان متأثرا بطابع زخارف الجص فى مدينة سامراء العراقية خاصة الطراز الثالث الذى انتقل الى طراز الاخشاب الطولونية فى مصر(٦٦) ، حيث تطور هذا الاسلوب بعد ذلك ، وان كانت مدينة زبيد فى رأينا قد استقت هذا التأثير مباشرة من مدينة سامراء العراقية ، بسبب طبيعة الاتصال السياسى بل التبعية السياسية للدولة العباسية فى بغداد ، دون مرور وانتقال هذا التأثير من مصر ، وهو الامر الذى يظهر بوضوح على بعض حشوات منبر الجامع الكبير بمدينة ذمار ، على اعتبار مدينة ذمار ضمن مناطق حكم الدولة الزيادية · ويبدو هذا التأثير الوافد مباشرة من مدينة سامراء على بعض الحشوات القليلة الباقية بمنبر هذا الجامع العتيق(٦٧) ، (شكل : ٣/أ ، ب ، ج) حيث يتمثل

= فقد اتسعت هذه المدينة لتشمل المساجد والقصور والمنازل والحمامات والوكالات وغيرها من المنشآت العديدة المعروفة فى مجال العمارة الاسلامية وقد ادار القائد الحسين بن سلامة حولها سور كبير فى عصر هذه الدولة ، وفى سنة بضع وعشرين وخمسمائة ادار عليها سور ثان الوزير ابى منصور الفاتكى : ثم أضيف اليها سور ثالث فى ايام بنى مهدى ثم ادار عليها سيف الاسلام طغتكين بن ايوب ، السور الرابع فى عام ٥٨٩ هـ ، وركب على السور اربعة ابواب : باب الشبارق وباب سهام وباب النخل وباب القرتب انظر ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ، ص ٨٢ — ٩٠ ، ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٤٩ .

(٦٦) Pauty E. : Catalogue General du Musée Arab du Caire, Les Bois sculptes jusqua L'Epoque Ayyoubides, Le Caire, 1931, pe. III, No, 4614, pl, XIII, No, 8109 6215, pl, XVIII, No, 4618 pl, XXI, No, 4141, pl, XXIII, No, 551, pl, XXVIII, No, 4636.

(٦٧) يعتبر هذا الجامع من اهم المساجد بمدينة ذمار ، اذ تأتى اهميته وفقا لما ورد فى بعض المصادر من ان بنائه كان بعد الجامع الكبير بصنعاء بأربعين يوما ، حيث يتردد اسم دحية الكلبى الصحابى فى رواية تأسيسه وورد ايضا انه بنى فى خلافة سيدنا ابى بكر الصديق رضى الله عنه .

انظر عن هذا المسجد : مصطفى شيحة : مدخل : ص ٥٢ — ٦٠ ، شكل ٥ ، اللوحات ١٨ — ٢٢ .

فى هذه الزخارف البعد عن صدق تمثيل الطبيعة بالتحوير عن أصولها الهلنستية الاولى وغيرها(٦٨) . خاصة فى غلبة العناصر الزخرفية النباتية والهندسية وهو ما يظهر فى الطراز الثالث من طرز الزخرفة الجصية بهذه المدينة . ومن أمثلة بعض العناصر الزخرفية المتمثل وجودها على حشوات هذا المنبر الورقة الجناحية والاوراق النخيلية الكاملة والمقسومة والأوراق الثنائية والثلاثية الكاملة والمقسومة أيضا . كما يظهر ضمن زخارف هذه الحشوات النباتية والهندسية بعض العناصر الاخرى التى جرى تطورها بعد ذلك فى الفن الاسلامى خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين كعنصر الكلوة(٦٩) . وجميع العناصر السابقة ساهمت فى نشأة الطراز الخاص والمتميز للفن الاسلامى . بعد أن تخلص من معظم العناصر الزخرفية الهيلنستية والساسانية . يضاف الى ذلك أيضا استخدام أسلوب الحفر المشطوف من الناحية الصناعية والذى يعد من أهم مميزات الاسلوب الثالث من زخارف مدينة سامراء ، خاصة وأن هذا الاسلوب الفنى استخدم على مادة الخشب كأصل لزخارف

---

(٦٨) من المتعارف عليه فى الدراسات الاثرية فى نشأة الفن الاسلامى اعتبار طرز سامرا الثلاثة فى الزخارف الجصية هى الأصل فى نشأة العناصر الزخرفية الاسلامية البحتة فى الفن الاسلامى بعد انصهار المؤثرات الفنية الهيلنستية والساسانية خلال القرنين الاولين للهجرة ، ويعد الطراز الثالث والاخير منها هو الاساس الفنى للعناصر الزخرفية الاسلامية . وكانت مدينة سامرا العراقية التى انشاها الخليفة المعتصم بالله عام ٢٢١ هـ هى مكان نشأة هذه العناصر الزخرفية على مادة الجص ، وظلت الحياة مستمرة فى هذه العاصمة الجديدة حتى عام ٢٧٦ ، حيث عادت مدينة بغداد تأخذ دورها من جديد كحاضرة للخلافة العباسية .

انظر : حسن الباشا ، المدخل ص ٨٤ — ٨٨ ، Shafi.i , F. : Simple calyx ornament in Islamic Arts, Cairo, 1956 pp. 8 - 12.

(٦٩) انظر فريد شافعى مميزات الاخشاب المزخرفة فى الطرازين العباسى والطولونى فى مصر ، مجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، ج ١ ، مايو ١٩٥٤ ص ٦٢ — ٦٤ ، شكل ٩ — ١٢ .

هذا الطراز لاستخراج القوالب السلبية منه(٧٠) .

كذلك يلاحظ أنه فى الوقت الذى كان يجرى فيه استخدام الاسلوب الثالث من زخارف سامراء على الخشب فى اليمن . كان هناك فى الوقت نفسه ذلك الاسلوب المحلى فى زخارف أخشاب السقوف اليمنية ، وهو أسلوب متطور للغاية سبقت فيه اليمن غيرها من البلاد الاسلامية . من حيث الصناعة والزخرفة . وهو ما يظهر فى السقوف الخشبية ذات المستويات المتعددة والذى يعرف فى اليمن بأسلوب المصندقات الغنى بالعناصر الزخرفية النباتية والتشكيلات الهندسية المتنوعة كما فى سقوف مساجد شبام والجامع الكبير فى مدينة ذمار وجامع ذى أشرق بالقرب من مدينة اب وغيرها(٧١) . ومن العناصر النباتية القريبة من الطبيعة والتى تظهر على العديد من حشوات مصندقات السقوف للمساجد السابقة عنصر الوردة ببتلاتها المتعددة والاوراق الثنائية والثلاثية والمراوح النخيلية وأنصافها والاشكال الصلبانية والاوراق الكأسية ، اضافة الى محاولة الفنان فى بعض الاحيان لاظهار ورقة اللوتس على زخارف بعض الحشوات وهو أمر فريد من نوعه فى تشكيلات فنية بديعة اضافة الى التشكيلات الهندسية المتميزة على حشوات أخشاب هذه السقوف اليمنية خاصة فى محاولة الاتجاه الى شكل الطبق النجمى

---

(٧٠) يذكر الدكتور فريد شافعى أن ظاهرة وجود أسلوب الحفر المائل (المشطوف) قد بدأ ظهورها فى الطراز الاول من سامراء ثم ساد هذا التأثير فى الطراز الثالث وان كان يرى ايضا ان هذه الظاهرة قد ظهرت من قبل فى بعض العناصر الزخرفية فى مدينة الحيرة قبل انشاء مدينة سامراء . ويذكر العالم ديماند ايضا ان هذا الاسلوب الفنى يرجع الى ما قبل ذلك بكثير . اذ يرجعه الى فنون قبائل السيت بسيبيريا والتى يصل بعضها الى القرن الثالث الميلادى .

انظر فريد شافعى : زخارف وطرز سامراء ، ص ١٣ ، ديماند ، الفنون الاسلامية ترجمة احمد عيسى ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٣٥

(٧١) انظر : بربارة فنستر : تقارير اثرية من اليمن ، ترجمة عبد الفتاح البركاوى ، المعهد الالمانى للآثار بصنعاء ، ١٩٨٢ ، ج ١ ، الاشكال : ١٢ — ١٥ ، ٢٠ — ٢٢ ، ٢٤

قبل ظهوره فى بلاد أخرى(٧٢) . وهذا ما يجعلنا نعتقد تماما بظهور هذا الاسلوب المتطور فى اليمن قبـل الامثلة المعروفة منه فى البلاد الاسلامية الاخرى . **وربما كان الانتشار فيه من اليمن الى غيره من البلاد الاسلامية الاخرى ، وهـو الامر الذى يتجه اليه الآن بعض الدارسين فى مجال الفن الاسلامى فى اليمن .**

رابعا — تبدو أيضا التأثيرات الفنية الوافدة على اليمن من سوريا والعراق وايران فى مجـال المنحوتات اليمنية المتمثلة فى زخارف بعض تيجان الاعمدة القديمة التى ترجع الى القرون الثلاثة الاولى للهجرة . اضافة الى ما يظهر من تأثيرات سامرا أيضـا على بعض الاشرطة الجصية القديمة بالجامع الكبير بصنعاء فى القرن الثالث الهجـرى والواقع أن العناصر الفنية القديمة على مجموعة التيجان المنحوتة الاولى يظهر فيها تأثير العناصر الهلنستية والساسانية التى بدأت تنصهر فى الاسلوب الاسلامى الجديد (شـكل ٣/د) فالزخارف الحلزونية المتداخلة بشـكل دائرى على بعض التيجان فى الجامع الكبير بصنعاء وزخارف الاجنحة الساسانية الاصل على بعض الافاريز الجصية فى نفس الجامع ؛ بل والعناصر اللوتسـية المحفورة على بعض التيجان القديمة فى جامع تيشد(٧٣) باليمن وكذلك عناصر المراوح النخيلية بهيئة التفريعات الدائرية أو التشكيلات الزخرفية الاخرى المتموجة والمتداخلة مع السيقان والاشكال الحلزونية وغيرها من العناصر السابقة(٧٤) لها ما يقابلها من أمثلة فى قبـة الصخرة وفى واجهة قصر المشتى وقصر الطوبة ، وتبدو أصولها الاولى فى قلعة كهنة فى فارس وفى طاق بستان ، وقد أصبحت مثل هذه العناصر الزخرفية من مميزات الاسلوب العباسى

---

(٧٢) Finister B. : , Op. cit, Abb, 5, 6, 9, 12, 13.

(٧٣) انظر عن هذا الجامع : بربارة فنستر ، تقارير أثرية ، جـ ١ ، ص ٤١ — ٤٢ ، وشكل رقم (٩) .

(٧٤) Serjeant, Op. cit, fig, 18/28, 18/59.

وانظر أيضا : ديماند : الفنون الاسلامية ص ٩١ — ٩٢ ، شـكل ٥١ — ٥٢

الذى ساد فى العمائر والفنون الاسلامية حيث تظهر أمثلتها الاولى فى الطراز العباسى فى زخارف قصر الجوسق الخاقانى الذى بدأه المعتصم فى عام ٢٢١ هـ وقصر بلكوارا الذى بناه المعتز فى حوالى عام ٢٤٧ هـ وقصر العاشق . بل ان ظاهرة استخدام الدعائم فى حمل السقف مباشرة والارتكاز على هذه الدعائم مباشرة فى كثير من مساجد اليمن تظهر أصولها الاولى فى جامع سامرا الكبير وجامع أبى دلف فى العراق(٧٥) .

وعلى الرغم من تشابه العناصر اليمنية السابقة مع مثيلاتها فى الطراز العباسى فاننا نعتقد بامكانية تواجد مثل هذه العناصر الفنية فى اليمن خاصة تلك التى ترجع الى أصول هيلنستية قديمة فى الفترة الحضارية التى ترجع الى ما قبل العصر الاسلامى ، فاليمن لم يكن خلو من الحضارة وانما شهد عدة حضارات راقية ويؤكد ذلك الامر فيما يتعلق بهذه العناصر الزخرفية السابقة ، وجود منحوتات حجرية عديدة عليها زخارف نباتية وهندسية وحيوانية وبعض مناظر الطيور فى المتحف الوطنى بصنعاء وأيضا فى متحف قسم الآثار بجامعة صنعاء(٧٦) ، وثيقة الصلة بأسلوب النحت الهيلنستى . فالزخارف قريبة من الطبيعة ويتمثل فيها دقة تناسب العناصر المعروفة فى هذا الفن ، وان كان تقرير مثل هذا الرأى لا زال يحتاج الى كشف المزيد من هذه المنحوتات من خلال حفائر علمية تتم فى مواقع عديدة باليمن ، خاصة وأن اليمن احتفظ بأسلوبه المحلى والخاص فى نطاق مدرسة الفن الاسلامى شأن غيره من البلدان الاسلامية الاخرى التى تأثر بعضها بمؤثرات متفاوتة تبعا للموقع أو التبعية السياسية الاسمية أو الاستقلال الكامل خلال هذه الفترة .

---

(٧٥) فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الاسلامية — عصر الولاة — المجلد الاول ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٢١ — ٢٢٢ ، ص ٤٠٣

(٧٦) انظر : عبد الحليم نور الدين : ملامح الفن اليمنى القديم ، رسم ، نحت ، نقوش ، مجلة اليمن الجديد ، ١٩٨٥ ، العدد السابع ، ص ٧٦ — ٨٨ ،مصطفى شيحة ، شواهد صعدة ، لوحة رقم (١٠٩) .

خامسا — يلاحظ ظهور التأثيرات العراقية والسورية والايرانية (السلجوقية) بصورة فنية كبيرة مرة أخرى فى أوائل القرن السابع الهجرى / ١٣ م فى أثر دينى هام باليمن هو المسجد الجامع فى مدينة ظفار ذيبن اليمنية(٧٧) : حيث يرجع تأسيس هذا الجامع فى الفترة ما بين عام ٦٠٠ هـ — وعام ٦١٤ هـ على يد الامام المنصور عبد الله بن حمزة الزيدى المذهب(٧٨) • وهو شخصية دينية كبيرة كان لها دورها المتميز على مسرح الأحداث السياسية . اذ التف حوله أهل اليمن **للخلاص من الدولة الايوبية(٧٩)** •

والحق أن هذا المسجد يتميز بوضوح طابع عمارته وزخرفته رغم ما أصابه من تلف حاليا : تخطيطه مستطيل الشكل يتكون من أربعة أروقة أعمقها رواق القبلة وبالمسجد ضريحان ، أحدهما الرئيسى فى الناحية الجنوبية على محور المحراب للامام المنصور عبد الله بن حمزة والآخر فى الزاوية الجنوبية الشرقية للامام عز الدين بن الامام المنصور بالله ، اضافة الى مئذنة المسجد الهامة فى الناحية الشرقية (شكل ٤) .

وفيما يلى عرض موجز لأهم التأثيرات الفنية الوافدة على بعض عناصره المعمارية والزخرفية :

(أ) تنفرد مئذنة هذا المسجد بوجود موضوع زخرفى عليها مكرر

---

(٧٧) ظفار اسم مشترك بين جملة بلدان فى اليمن ، والمقصود هى ظفار ذى بين جنوب مدينة يريم بحوالى ١٧ كم وهى مدينة مرتفعة جدا ومحصنة بها آثار قديمة واسلامية وكانت مركزا محصنا للامام المنصور بالله وقد تبقى بها حاليا العديد من الآثار الاسلامية تشمل عدة قلاع وحصون وبقايا القصر وعدة منازل ، اضافة الى المسجد الجامع بها .

انظر كريستيان روبان : التقرير الاولى للبعثة الاثرية الفرنسية عن منطقة ظفار ذيبن ، فى كتاب الآثار الاسلامية فى الوطن العربى ، تونس ١٩٨٥ ، ص ١٢٧ — ١٣٤ .

(٧٨) انظر سيرة هذا الامام فى : المحلى : : مخطوط الحدائق الوردية فى مناقب الائمة الزيدية ، دمشق ١٩٨٢ ، جـ ٢ ، ص ١٣٣ وما بعدها ، الجراق : المقتطف ص ١٢٨ — ١٢٩

(٧٩) عصام عبد الرءوف : اليمن فى ظل الاسلام ، ص ٢١٥ — ٢١٨

بواسطة استخدام قوالب الاجر المائل بحيث تؤلف أشــكالا لافاعى متقابلة ومتدابرة « فاغرة فاها » (لوحة ١) على نحو زخرف غريب وفريد من نوعه فى المآذن الاسلامية عامة بحيث تنفرد هذه المئذنة دون مآذن العالم الاسلامى كله بهذا الموضوع الزخرف الغريب والمؤلف من قوالب الاجر المائلة الرأسية الشكل . ونعتقد بأن الغرض من تكوين هذا المنظر الفريد على البدن الاسطوانى الذى يعلو قاعدتها هو الاشارة الى قوة الامام المنصور بقصد تخويف وارهاب من يحاول من أعداء الامام الاقتراب من منطقة وجوده ككل من خلال مئذنة المسجد الشامخة ولا يستبعد أن يكون مثل هــذا العمل الزخرفى كنوع من التمائم أو الطلاسم لحفظ المنطقة كلها . أسوة ببعض الطلاسم التى وجدت على بعض الآثار المدنية فى بغداد وكذلك على سور مدينة قونية ، ولكن يبقى هذا العمل الزخرفى الغريب على مئذنة اسلامية رهن المزيد من الأبحاث الاثرية فى هذا الشأن . والتى ربما يكون لها علاقة معينة بين المذهب الشيعى عامة وبين استخدام الموضوعات الزخرفية والاكثار من وجودها وان كان هذا الامر يحتاج لمزيد من الدراسات الأثرية كما تقدم حتى يمكن الوصول فيه الى نتيجة علمية ثابتة . كما انه يلاحظ استخدام مادة الطــوب فى تكوين أشــكال زخرفية بأسلوب (هزرباف) اضافة الى استخدام الطوب المزجج فى الزخرفة على هذه المئذنة(٨٠) .

(ب) استخدمت بلاطات القيشانى الملونة ضمن العناصر الزخرفية فى هذا المسجد على هيئة أقراص صغيرة مقعرة ومقوسة من ألوان زرقاء وخضراء مما يعد من التأثيرات السلجوقية الوافدة على هذا الاثر(٨١) .

---

(٨٠) الواقع ان تكوين الرسوم بواسطة التاليف بين الطوب المكسو بطبقة من الميناء قد استخدم قبل العصر الاسلامى فى الواجهات الخارجية للمبانى العراقية القديمة وقد أخــذه الفرس عن العراقيين كما فى زخرفة حوائط قصر سوسة .

انظر حسن الباشا : تاريخ الفن فى العراق القديم . الطبعة الاولى ١٩٦٥ ، ص ١٠٧ — ١٠٩

(٨١) انظر : بريارة فنستر : تقارير اثرية / ص ٨٢ — ٨٤ ، ٨٦ — ٩٧ ، الاشكال ٢٩ — ٣٤ .

اذ أنه من المعروف استخدام بلاطات القاشانى فى بعض المساجد الايرانية التى ترجع الى هذه الفترة .

(جـ) **يلاحظ أيضا استخدام العقود المفصصة** ضمن العناصر المعمارية والزخرفية فى عمارة هذا المسجد (لوحة ٢) . ويبدو الاسلوب الفنى فى عمل هذه العقود اذ تقص حوافها من الداخل بواسطة سلسلة من أنصاف دوائر اتخذت لاغراض معمارية أو زخرفية . ابتكرها العرب المسلمون فى مبانيهم . والنوع المرتبط بالعمارة منها أصلا ترتبط فصوصه بتقويس العقد نفسه بحيث يقسم الى أنصاف دوائر متجاورة ، وأول أمثلته تظهر فى مدخل مسجد الاخيضر المطل على الصحن (القرن ٢ هـ / م) وفى نوافذ جدار القبلة لمسجد سامرا الكبير (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) وفى قصر العاشق بسامرا (٢٦٤ هـ)(٨٢) .

(د) **تعددت العناصر الزخرفية النباتية والهندسية الجصية والخشبية** خاصة فى رواق القبلة بهذا المسجد وكذلك فى الضريحين الملحقين به ، وهى بصفة عامة تتشابه الى حد كبير مع مثيلاتها من العناصر ذات الزخارف المشابهة على الآثار المعمارية التى ترجع الى عصر السلاجقة فى آسيا الصغرى(٨٣) .

والواقع أن هذا المسجد يحتوى على كثير من التفاصيل المعمارية والزخرفية التى تشير عامة الى تأثيرات فنية عديدة وافدة من بلاد آسيوية عديدة . مما يرجح معه وجود صناع وعمال مهرة وفدوا الى اليمن من العراق وايران وسوريا فى تلك الحقبة التاريخية .

على أنه يمكن القول بايجاز بأن اليمن قد تعرض خلال الفترة

---

(٨٢) انظر : عبد الستار العزاوى : مزايا العقد والقبو فى العمارة العربية فى العراق فى كتاب الآثار الاسلامية فى الوطن العربى ، تونس ١٩٨٥ ، ص ٩٤ — ٩٥ .

(٨٣) Pope, A. : A Survey of Persian Art, Vol. IV. p. 2694, f. 90/2 p. 2695, f. 903. Vol. II, pl 266, pl, 269/8, pl. 324, 369, 379.

اللاحقة من حكم الايوبيين فى اليمن الى تأثير قوى آخر تمثل فى نشأة المدرسة الاسلامية ذات التخطيط المعمارى المتميز والمتأثر الى حد كبير بعمارة المدارس الاسلامية فى مصر ودمشق وقد ترك هذا التأثير الهام أثره على ما بنى من مدارس كبيرة وصغيرة بعد ذلك فى جنوب اليمن خلال عهد الدولة الرسولية . حيث دخلت العمارة والفنون الاسلامية فى طور جديد آخر خلال عهدهم (٦٢٦ — ٨٥٨ هـ) (٨٤) استمر أيضا خلال عصر الدولة الطاهرية فى اليمن (٨٥٨ — ٩٣٣ هـ) ثم كان أخيرا الفتح العثمانى لليمن عام (٩٢٣ هـ) حيث دخلت المؤثرات الفنية المعمارية والزخرفية على نطاق واسع فى بلاد اليمن . كان من أهمها استخدام القبة المركزية فى بعض المدارس اليمنية كالمدرسة البكيرية بصنعاء (١٠٠٥ هـ) فى بنية الصلاة(٨٥) .

واذا كانت المؤثرات الفنية الوافدة على بلاد اليمن كثيرة ومتنوعة فانه على الجانب الآخر لا يمكن اغفال دور اليمن فى تصدير بعض فنونها الى خارج بلادها خاصة فى مجال صناعة المنسوجات والسيوف اليمنية التى ذاعت شهرتها فى شبه الجزيرة العربية خاصة وفى بعض البلدان الأخرى عامة ، فمن المعروف أن الكعبة كانت تكسى ببعض المنسوجات اليمنية خاصة ذلك النوع المسمى بالوصايل(٨٦) وغيرها

---

(٨٤) انظر مقالنا فى هذا الموضوع : مصطفى شيحة ، اضواء على تاريخ العمارة الدينية فى مصر بنى رسول باليمن ، مجلة المؤرخ المصرى ، العدد الثانى ١٩٨٨ ، ص ٢٧ — ٦٢

(٨٥) انظر : Serjeant, Op. cit, pp. 375 382, f. 19/7.
والحجرى : مساجد صنعاء ، ص ١٧ — ٢١ ، حسين السيالى : معالم الآثار اليمنية صنعاء ١٩٨٠ ، ص ٢٤ ، مصطفى شيحة : مدخل ، ص ١٠٢ — ١٠٧ ، شكل ١٦ ، اللوحات ٥٩ — ٦٣

(٨٦) يذكر ابن هشام فى ذلك قوله عن حسان بن تبان اسعد ابى كرب « انه راى فى المنام ان يكسو البيت فكساه الخصف ثم راى ان يكسوه احسن من ذلك فكساه المعافر ثم راى ان يكسوه احسن من ذلك فكساه الملاء والوصائل . وكان تبع فيما يزعمون أول من كسى البيت واوصى به » .
انظر : سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، ص ٢٣ طبعة وتستنلد ، وفيه

وفق ما كان ينتج فى دور الطراز اليمنية التى تعددت فى المدن والقرى كصنعاء وزبيد وسحول وريدة والعدنية وغيرها(٨٧) كنتيجة لتوافر المواد الخام اللازمة للنسيج كشعر الماعز والصوف من الضأن والقطن والحرير والكتان والوشى (من كل لون) وما يتصل بذلك أيضا من توافر أدوات الصناعة بأساليبها المختلفة(٨٨) . وكانت ايران على سبيل المثال وهى من البلاد المتميزة فى صناعة تصدير منسوجاتها كانت تستورد بعض أنواع المنسوجات من اليمن(٨٩) . ومن أنواع المنسوجات التى اشتهرت بها اليمن أيضا البرود اليمنية التى كانت تصنع من الكتان وكذلك الحلل اليمنية والثياب السعيدية بصنعاء والشروب وهى منسوجات رقيقة تصنع من الكتان أيضا . ويدخل فى لحمتها خيوط الذهب . وكان يتم تصدير نبات الورس ، وهو نوع من الاصباغ النادرة يتميز باعطائه صفرة فاقعة . حيث كان يجرى استخدامه فى الصناعة(٩٠) . كذلك اشتهرت اليمن بجودة سيوفها قبل العصر الاسلامى وخلاله خاصة فيما أنتجته مدينة صعدة من سيوف تميزت بجودة نصالها حيث كان يتم تصدير السيوف اليمانية الى شبه الجزيرة العربية وغيرها من بلاد العالم(٩١) . **ورغم ذلك فان التأثير الايرانى والتركى** كان قويا فى

عزى : نماذج من الفنون الاسلامية فى اليمن ، مجلة المجلة ، العدد ٧١ ، ديسمبر ١٩٦٢ ، ص ٢٧ ، ٢٨ ، ربيع خليفة : منلسج الطراز الخاصة بمدينة صنعاء ، مجلة الاكليل ، العدد الثانى ، ١٩٨٨ ، ص ٤٨

(٨٧) انظر : جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٧٨ ، جـ ٥ ص ٢٦١ ، عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٢٠

(٨٨) واضح الصمد : الصناعات والحرف عند العرب فى العصر الجاهلى : الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٨١ ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٨٩) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٥٨٢

(٩٠) يوسف عبد الله : اللبان والعقيق والجنبية ، طبعة وزارة الثقافة والاعلام باليمن ص ٧٤ .

(٩١) عبد الرحمن زكى : السيف فى العالم الاسلامى ، دار الكتاب العربى مصر ، ص ٩٧ ، ص ١١٠ — ١١٢ .

هذا المجال على تأثير السيوف اليمنية به من حيث الشكل والصناعة والزخرفة(٩٢) .

ولعل السيف المقوس المعروف بالشمشير(٩٣) ، كان من أكثر أنواع السيوف الايرانية انتشارا فى اليمن وكذلك النوع المعروف بالقليج(٩٤) ، كما كان لنوع السيوف المعروفة بطراز الياطقان التى استخدمت فى تركيا العثمانية(٩٥) أهمية أخرى فى وجود هذا الطراز بكثرة فى اليمن ، وقد تبع وجود مثل هذه الطرز الفنية من السيوف العديدة المختلفة فى اليمن احترائها أيضا على طراز الزخارف المعروف فى الفنون الايرانية والفنون التركية(٩٦) ، اضافة الى ستخدام أسلوب من الزخارف المعروفة على مادة المعدن كالتكفيت والتذهيب وغيرهما ، ويحتفظ المتحف الوطنى بصنعاء بكثير من أمثلة السيوف السابق الاشارة اليها .

---

(٩٢) انظر مصطفى شيحة : دراسة زخرفية لسيف الوزير ناصر بالسودان واربعة سيوف يمانية ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٢٠ — ٢٥ ، اللوحات ١١ — ٢٢ ، والاشكال ٧ — ١٢

(٩٣) هو سلاح للقطع ضيق النصل ولكنه سميك ذو حد واحد وتمتاز قبضته ببساطتها وخفتها وله واقية على شكل الصليب وتنتهى من اعلى بتبيعة .

انظر عبد الرحمن زكى : السيف ، ص ١٥٣ — ١٥٥

(٩٤) هو طراز من النصال يتحول فيه الظهر او ينتقل من نصل ذى حد واحد قبيل الطرف الى حدين .

انظر عبد الرحمن زكى ، السيف ، ص ١٤٩ .

(٩٥) أنظر : حسين عليوة ، الاسلحة الاسلامية بمتحف قصر المنيل ، دراسة اثرية ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٦ — ٧ .

والياطقان ذو نصل واحد مزدوج الانحناء — انظر عبد الرحمن زكى السيف ، ص ١٥٢ .

(٩٦) انظر : سعاد ماهر ، الخزف التركى ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٦٥ — ٦٦ ، محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الاسلامية فى العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٧٧ .

وبعد ، فان موضوع التأثيرات الآسيوية على الفنون الاسلامية اليمنية ، يعد من الموضوعات الصعبة التى تتطلب من الباحث فى هذا المجال الدراسات الميدانية المقارنة حتى تتضح مثل هذه التأثيرات والتى حاولت ذكر بعضها فى هذا البحث المتواضع نتيجة لمشاهداتى وملاحظاتى وكتاباتى خلال عملى فى اليمن فى فترة من الزمن .

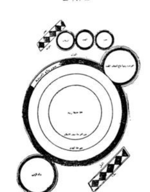
والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .



(أ) زخرفة حصين من الجامع الكبير بصنعاء — القرن ٣ هـ

(ب) النص الكوفى التأسيسى للجامع الكبير بصنعاء
فى بداية العصر العباسى ١٣٦ هـ

شكل (١)



شكل (٢)

تخطيط مدينة زبيد ، نقلا عن ابن المجاور — القرن السابع الهجري/١٣ م

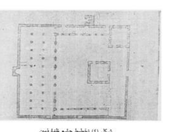
(أ)

(جـ)

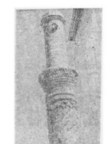
(ب)

(د) تيجان اعمدة من الجامع الكبير بصنعاء القرن ٣٠٢ هـ

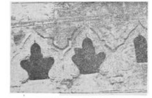
(شكل ٣) حشوات من منبر جامع زمار القرن ٤٠٣ هـ



شكل (٤) تخطيط جامع ظفارذيبين



لوحة (١) مئذنة جامع ظفار ذيبين



لوحة (٢) العقود المفصصة بجامع ظفار ذيبين

المصـــادر والمراجع العربية

-- أحمد صبحى : الزيدية . بيروت ١٩٨٣

-- بربارة فنستر : تقـــارير أثرية عن اليمن . ترجمـــة عبد الفتاح البركاوى ، المعهد الالمانى للآثار بصنعاء . ١٩٨٢ ، جـ ١

-- البغـــدادى : (عبد القاهر بن طاهر بن محمد) ت ٤٢٩ هـ الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم . الطبعة الأولى ١٩٧٣ .

-- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام . الطبعـــة الثانية . بغداد ١٩٧٨ ، جـ ٢ .

-- حسن الباشا : (أ) تاريخ الفن فى العراق القديم ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ .
(ب) المدخل الى الآثار الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٩
(جـ) دراسة جديدة فى نشـــأة الطراز المعمارى للمدرســة المصرية ذات التخطيط المتعامد . تونس ١٩٨٧ .

-- حسين عبد الرحيم عليوة — الأسلحة الاسلامية بمتحف قصر المنيل دراسة أثرية ، القاهرة ١٩٨٤ .

-- حسين السياغى : معالم الآثار اليمنية . صنعاء ١٩٨٠ .

-- الخزرجى : (شمس الدين أبو الحسن) ت ٨١٢ هـ العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك / مخطوط مصور / دمشق .

— ابن الديبع : (عبد الرحمن بن على بن محمد) ت ٩٤٤ هـ الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، تحقيق يوسف شلحد ، بيروت ١٩٨٣ .

— ديماند : الفنون الاسلامية ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٨٣

— الرازى : (أحمد بن عبد الله) ت ٤٦٠ هـ
تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق حسين العمرى ، الطبعة الثانية ١٩٨١ .

— ربيع خليفة : مناسج الطراز الخاصة بمدينة صنعاء ، مجلة الاكليل ، العدد الثانى ١٩٨٨ .

— زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ .

— سعاد ماهر محمد : (أ) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، طبعة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، جـ ١
(ب) الخزف التركى ، القاهرة ١٩٧٧
(جـ) العمارة الاسلامية عبر العصور — جزءان — جده ١٤٠٥ هـ .

— الشهرستانى : (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم)
الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، دار المعرفة ، بيروت ، جـ ١

— عباس حلمى : المدارس الاسلامية ودور العلم وعمارتها الأثرية ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، مكة المكرمة ، السنة الثالثة ، العدد الثالث ، ١٣٩٨ هـ .

— عدنان ترسيسى : اليمن وحضارة العرب ، مكتبة الحياة ، بيروت .

— عبد الرحمن الحضرمى : مدينة السلام صعدة ، مجلة اليمن الجديد ، يونيو ١٩٨٦ .

— عبد الرحمن زكى : السيف فى العالم الاسلامى ، دار الكتاب العربى ، مصر .

— عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، بيروت ١٩٧٠

— عبد العزيز صالح : تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٨٨

— عبد الحليم نور الدين : ملامح الفن اليمنى القديم ، رسم ، نحت ، نقوش ، مجلة اليمن الجديد ، صنعاء ، العدد السابع ١٩٨٥ .

— عبد الستار العزاوى / مزايا العقد والقبو فى العمارة العربية بالعراق / كتاب الآثار الاسلامية فى الوطن العربى . تونس ١٩٨٥

— عبد الكريم الجراق : المقتطف فى تاريخ اليمن ، الطبعة الثانية ١٩٨٣

— عصام الدين عبد الرءوف : اليمن فى ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢ .

— عمارة اليمنى : (نجم الدين محمد) ت ٥٦٩ هـ
تاريخ اليمن المسمى المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ، تحقيق محمد الاكوع ، الطبعة الثالثة ١٩٧٩ .

— فريد شافعى : (أ) زخارف وطرز سامرا ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٣ ، ج ٢ ، ديسمبر سنة ١٩٥١ .
(ب) مميزات الاخشاب المزخرفة فى الطرازين العباسى والفاطمى فى مصر ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، ج ١ ، مايو ١٩٥٤ .
(ج) العمارة العربية فى مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٠ .

— كريزول : الآثار الاسلامية الاولى ، تعريب عبد الهادى عبلة ، دار قتيبة ، دمشق ١٩٨٣ .

— كريستان روبان : التقرير الاولى للبعثة الأثرية الفرنسية عن منطقة ظفار ذبين / كتاب الآثار الاسلامية فى الوطن العربى . تونس ١٩٨٥ ، ص ١٢٧ — ١٣٤ .

— كمال الدين سامح : العمارة فى صدر الاسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .

— ابن المجاور : (محمد بن مسعود بن على) ت ٦٩٠ هـ صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المسمى بتاريخ المستبصر ، تحقيق أوسكر لوفرجرى ، ليدن ١٩٥١ .

— محمد بن اسماعيل الكبسى : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، القاهرة ، الطبعة الاولى .

— محمد بن أحمد الحجرى : (أ) مجموع بلدان اليمن وقبائله ، تحقيق اسماعيل الاكوع ، الطبعة الاولى ١٩٨٤ ، أربعة أجزاء .
(ب) مساجد صنعاء ، طبعة بيروت ، ١٣٩٨ هـ .

— محمد بن على الأكوع : اليمن الخضراء مهد الحضارة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢ .

— محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية فى العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٧٤ .

— المحلى (أبو عبد الله المحلى الشهيد) ت ٦٥٢ هـ مخطوط الحدائق الوردية فى مناقب الأئمة الزيدية ، مخطوط مصور ، دمشق ١٩٨٣ .

— مصطفى عبد الله شيحة : (أ) مدخل الى العمارة والفنون الاسلامية فى الجمهورية العربية اليمنية ، القاهرة ١٩٨٧ .

(ب) دراســـة زخرفية لســـيف الوزير ناصر بالسودان وأربعة سيوف يمانية . القاهرة ١٩٨٤ .

(جـ) شـواهد قبور اســـلامية من جبانة صعدة باليمن ، الجزء الاول . القاهرة ١٩٨٨ .

(د) أضواء على تاريخ العمارة الدينية فى عصر بنى رسول باليمن . مجلة المؤرخ المصرى ، العدد الثانى . يوليو ١٩٨٨ ، ص ٣٧ — ٦٢ .

— نشوان الحميرى : (ابن سعيد الحميرى) ت ٥٧٣ هـ
الحور العين — تحقيق كمال مصطفى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ .

— الهمدانى : (ابن محمد الحسن بن أحمد) توفى حوالى عام ٣٥٠ هـ
صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد الاكوع ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣ .

— واضح الصمد : الصناعات والحرف عند العرب فى العصر الجاهلى . الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨١ .

— الوصابى : (وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد) ت ٧٨٢ هـ
تاريخ وصاب : الاعتبار فى التواريخ والآثار ، تحقيق عبد الله الحبشى ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

— وفيــة عــزى : نماذج من الفنون الاســـلامية فى اليمن ، مجلة المجلة ، العدد ٧١ ، ديسمبر سنة ١٩٦٢ .

— يوسـف محمد عبد اللـــه : (أ) أوراق فى تاريخ اليمن وآثاره ، جزءان ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٢ .
(ب) اللبان والعقيــق والجنبية (طبــع وزارة الاعلام اليمنية) .

المراجـع الأجنبيـة

Creswell, K. A. C. : The Muslim Architecture of Egypt, Vol. II. The Origin of the cruciferm plan of carine Madrasas. " Bulletin de L'institut francais D'Archeologie oriental, T, XXI. "

Finister, B. — Die Freitags Moschee von SIBAM - Kaukaban Baghdader Mitteilungen, Band 10, 1979 - (193-228).

— Die Moschee von SARHA Baghdader Mitteilungen, Band, 10, 1979, 229-242.

Hoag, J. — Western Islamic Architecture, London, 1968.

Pauty, E. — Catalogue General, Le Bois sculptees Juqu'a L'epoque Ayyoubide, Le Caire, 1931.

Pope, A. — Survey of Persian Art, London 1939.

Serjeant, R. Lewock, R. : SAN'A an Arabian Islamic City, England, 1983.

Shafi'i, E. — Simple calyx ornament in Islamic Art, Cairo, 1956.

العمارة الهندية
من خلال
التصاوير الاسلامية

د. محمود ابراهيم حسين
كلية الآثار – جامعة القاهرة

ظهرت المبانى المعمارية فى الكثير من التصاوير الاسلامية للمدرسة المغولية الهندية(١) . وكان ظهور العمارة تارة كاطارات(٢) للتصاوير بمعنى أن المصور حدد موضوعه التصويرى بمبان معمارية تقع على جانبى الصورة ، وأحيانا كان المصور يعبر عن أماكن بعينها قصد أن يراها المشاهد . أى أن العمارة فى الحالة الثانية كانت تمثل جزء من موضوع الصورة(٣) .

ومن الجدير بالملاحظة أن المصور فى المرحلة الأولى من عصر المدرسة

---

(١) عن تاريخ المغول فى الهند انظر :

Brockelmann, Karl, Geschichte der islamischer Volker, Leipzig, 1940.
Kuhn, Hors, Geschichte der national Bewllgungen im Orient, Leipzig, 1930.
Havell, E. The History of Argan. Rule in India, London.
احمد محمود الساداتى ، تاريخ شبه القارة الهندية وحضارتهم ، القاهرة ١٩٨٠ .
Binyon, L. Painting of Emperors and Princes of the House of timur Burl. Mag. 1929.
Jannar, Tarikh - i - Humagus, Private Memoirs of the Mogul Emperor Humayun, Stewart, London, 1832.
The Embassy of Sir Thaas Roe to the Court of the Great Mughal, London 1909.

(٢) Josff Strzygowski Asiatische Miniaturmalerei, Wien, 1933, S. 67.

(٣) Gotz H. Bilderatlas zur Kulturgeschichte Indiens in Grabmoghul-Zeit, Berlin, 1930, S. 151.

المغولية الهندية قد رسم العمائر من خلال ملاحظة واقعية للبيئة المحيطة به . وخاصة حين عبر عن مباني الأباطرة أو الحكام بصفة عامة . والواقع أن المباني المعمارية التي ظهرت في تصاوير المرحلة المبكرة تتشابه الى حد كبير مع عمارة المرحلة نفسها(٤) . حيث أن طرازها المعماري كان واحدا سواء في التصاوير أو في الواقع . وكانت العمارة في تلك المرحلة تعكس تأثرا واضحا بالعمارة الايرانية سواء في أشكال هذه العمائر أو في الزخارف التي تزينها(٥) .

وعلى أية حال فان منظومة الأمير حمزة تمثل البدايات الأولى للمدرسة المغولية الهندية في التصوير(٦) ، وبالنسبة للعمائر التي ظهرت في قصة حمزة كانت كلها واضحة الهوية بمعنى أن المشاهد كان يستطيع بسهولة معرفة وظيفة المبنى ولأي غرض يستخدم(٧) .

---

(٤) تتميز العمارة الاسلامية في الهند بميزات عامة أهمها ضخامة المباني ، بالاضافة الى وجود بركة ماء تتوسط المباني وفي معظم الاحيان درج عريض يصعد به الى المبنى المعماري .

والواقع اننا لا نجد اختلافا في مسقط المباني التي كانت في الأصل مبان معمارية هندية ، ثم حولت لخدمة وظائف جديدة وفقا للديانة الاسلامية ، وقد استخدمت ايضا الكثير من العناصر المعمارية الهندية القديمة ، مثل بعض الاعمدة في مبان اسلامية .

J. Franz Pascha, Die Baukunst des Islam, S. 32.

(٥) Kuhnel E., Miniaturmalerei im islamischen Orient, Berlin 1923 Taf. 110.

Strzygowski, J., Die Kunst Asiens, S. 441.

(٦) تحتفظ المكتبة التابعة للمتحف النمساوي بنحو ٦٠ ورقة من ما يعرف باسم « دستان الامير حمزة » وهي رواية تتناول حياة البطل حمزة الذي ينتمي الى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ففي وجه الصفحات نجد التصاوير ، وفي ظهر الصفحات نجد النص وهو مؤلف من ١٩ سطر بالخط التستعليق ، وهذه الأوراق من قماش القطن ومقاسها ٧٨ × ٦٢٫٥ سم ، أما مقاس الصور نفسها فنحو ٥٦ × ٥١ سم في المتوسط ، ويلاحظ ان كثير من التصاوير قد تطرق اليها التلف واعيد ترميمها من جديد .

(٧) Gerhart, E., Der Hamza Roman, Wien 1969, S. 6.

Ibid., Taf. 2 12, 13, 14, 25.

وأحيانا أخرى يجد المشاهد نفسه فى حيرة وخاصة فيما يتعلق بتلك المبانى ذات الطابع الزخرفى البحت . الأمر الذى يجعل من الصعب أن ننسب هذه المبانى الى طراز معمارى بعينه(٨) . والواقع أن هذا الأمر يذكرنا بالعمائر فى المدرسة المغولية للتصوير(٩) وكذلك المدرسة التيمورية(١٠) فى ايران وهى عمائر أثرت الى حد كبير فى مدارس التصوير التالية لها . الا أنها فى الواقع لم تكن مرسومة بناء على ملاحظة واقعية للبيئة المحيطة بالمصور ، بقدر ما كانت قائمة على أساليب غير واقعية . فعلى سبيل المثال اذا حاولنا الحصول على مسقط أفقى لعمائر تلك الفترة من خلال فن التصوير . وذلك لمقارنتها بمثيلتها فى الطبيعة لوجدنا أن الأمر فى غاية التعقيد . ففى العصر المغولى وجدنا نماذج من عمائر عبر عنها الفنان المصور بواسطة الرمز لها بحائط أو سور أو بوابة أو قوس معمارى أو مجموعة من الأعمدة (شكل ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) . وفى العصر التيمورى نجد الأمر نفسه بالاضافة الى الحوائط الضخمة المغطاة ببلاطات القيشانى الملونة بمختلف الألوان التى كانت معظم عناصرها الزخرفية وكذلك تصميماتها المعمارية غير واقعية ولا أساس لها فى الواقع(١١) شكل (٤ ، ٥) ، لوحة [١] .

ويبدو أن هذه التصميمات غير الواقعية العمائر فى التصاوير المغولية الهندية والتى تصادفنا فى بعض التصاوير كانت أثر من التأثيرات الايرانية على المدرسة المغولية الهندية . وقد تمثلت المظاهر الغير واقعية فى المدرسة المغولة الهندية فى بعض تصميمات القباب والسقوف ذات

---

(٨) Martin, F., The Miniature Painting and Painters of Persia, P. 135.
Gerhart, E., Op. Cit., Taf. 5, 10 19, 32.
Kuhnel, E., Op. Cit., 102, 109 114.

(٩) انظر حسن الباشا ، التصوير الاسلامى فى العصور الوسطى ، ص ٢٠٧ .

(١٠) انظر جمال محرز ، التصوير الاسلامى ومدارسه ص ١٥ .

(١١) Strzygowski, J., Asiatische Miniaturen Malerei, Abb. 76, 213 223.

النوافذ(١٢) . وكذلك فى بلاطات وعقود كلها كانت ملونة بألوان غير واقعية(١٣) لوحة [٢٠٣٠٢ ٤٠] . حققت للمصور أهدافه فى توضيح الموضوع ولذلك شغلت مساحة كبيرة من تصاويره(١٤) • وبالاضافة الى ما سبق نجد أن المصور الهندى قد استخدم بكثرة الأرضيات الرخامية(١٥) فعلى سبيل المثال فى تصوير ترجع الى نهاية القرن السادس عشر الميلادى محفوظة بمتحف الدولة فى برلين ، تبلغ أبعادها ٢٨ × ١٥٫٧ سم ورقم السجل Inv. Nr. 14596 نشاهد فى هذه التصاوير أحد الأمراء وهو الشخص الرئيسى فى التصوير يتوسط التصويرة داخل قصره وحوله مجموعة من الأشخاص يحملون عصى تنتهى برؤوس حيوانات اعتبرتها السيدة / هيكمان Hickman أقنعة يرتديها الحرس أو أولئك المحيطين بالحاكم أحيانا بسبب الترفيه عنه ، أو بسبب اضفاء الرهبة على جو المكان فى حالة وجود غرباء ، وقد نسبت السيدة هيكمان هذه التصويرة الى عصر أكبر ، وذلك للتشابه بينهما وبين تصاوير « أكبر نامه » فيما يتعلق ببلاطات القيشانى الرخامية التى تغطى أرضيات الصورة ، بالاضافة الى التصميمات الزخرفية التى تزين هذه الأرضيات الرخامية . وذلك أن عصر أكبر تميز بالتوسع فى ظاهرة تغطية الأرضيات والحوائط بالبلاطات الرخامية (شكل ٦ ، ٧ ، ٨) التى تزينها كما هو الحال فى هذه الصورة — زخارف أشكال هندسية متعددة الأضلاع ، وأشكال نجمية ، كما تميز هذا العصر أيضا برسم العمائر من البيئة الهندية سواء فيما يتعلق بالأسوار التى

---

(١٢) Ibid., Taf. 10, Abb. 30, Taf. 16, Abb. 46, Taf. 17, Abb. 51, Taf. 28, Abb. 83.

Gerhart E., Op. it., Taf. 11, 18 25.

(١٣) Islamische Kunst, Meisterwerke aus dem Museum of Art. New York, S. 286.

Islamische Albumblater, Miniaturen und Kalligrafien aus der Zeit Mogtulkaiser, Leipzig 1979, S. 19.

(١٤) Eggar, G., Op. Cit, Taf. 6. 8. 20.

(١٥) Ibid., Taf. 2, 6, 8, 10, 19 20.

أحاطت بقصر هذا الامير ، والتى تتألف من صفوف متراصة من أحجار صغيرة تتخللها نوافذ ضيقة تشبه المزاغل ، ويعلو سور القصر شرفات مسننة على هيئة عقود منفوخة من نوع Kiel Arch ، كما تتميز بوابة القصر بالشكل الهندى التقليدى فى العمارة ، خاصة فى تلك الاعمدة الملتصقة بالمدخل فى جانبيه ، والتى تنتهى بقباب بصلية الشكل وخلف المدخل مباشرة توجد قاعة أو غرفة تعلوها قبة على هيئة ناقوس مقلوب ثم رسم المصور صالة واسعة والتى سبق وصف أرضيتها الرخامية وزخارفها ، والى جوار تغطية الأرضيات بالرخام استخدم الفنان الهندى فى تلك الفترة أيضا أنواع مختلفة من السجاجيد فى تغطية أرضيات الغرف الداخلية فى المبان(١٦) • ومما هو جدير بالذكر أن هذه العناصر سبق وأن لعبت دورا كبيرا فى التصاوير الايرانية ، على أن اللاوقعية والبعد عن الطبيعة كانتا فى المخطوطات الايرانية المزوقة بالتصاوير أكثر منه ، فى التصاوير المغولية الهندية المبكرة فكما أشرنا كان المصور الايرانى يرسم فقط الجزء المعمارى الذى يتناوله بالحديث فى التصويرة أى الذى له علاقة مباشرة بما يدور فى التصويرة أو أن يجعل العمارة نفسها تشكل اطارا للتصويرة يحصر فى داخله شخصياتها المختلفة(١٧) • وقبل أن نترك العمارة الهندية المبكرة فى تصاوير المدرسة المغولية الهندية يجب الاشارة الى أن تصاوير « حمزة نامة » لا تعد النموذج أو المقياس فى الحكم على المصور الهندى ، فيما يتعلق باتباعه أساليب واقعية فى رسم العمارة أو غيرها من عناصر التصويرة(١٨) ففى

---

(١٦) Islamische Albumblatter S. 9, 24, 29, 33, 39, 51, 57, 59, Kuhnel, E., Op. cit., S. 102, 110, 111, 125.

(١٧) Ibid., S. 25, 44, 45.

(١٨) Diez, Op. cit. Abb. 207 (Fath pur Sikribei Agra, S. 159.
يلاحظ انتشار الاعمدة المدببة فى معظم الابنية المعمارية المتعلقة بصور مدينة فتح بورسكرى او فى تصاوير العمائر الهندية بوجه عام ، وعلى اية حال فقد اشار الكثير من علماء الاثار الى ظاهرة هذه الاعمدة على انها نمط معمارى متاثر بالعمارة الايرانية .

صورة تمثل بناء مدينة (فتح بور) نجد أن العمارة هنا لا تعدو أن تكون عبارة عن بناء ديكور فى مسرح — ليوحى بموضوع الصورة أكثر من كونها قد نقلت نقلا واقعيا فالمصور يترك للمشاهد أن يستنتج بنفسه بقية عناصر الصورة(١٩) . وعلى أية حال فان العمارة التى ازدهرت فى السنوات الأخيرة من عصر أكبر تعتبر طرازا كلاسيكيا تقليديا بدأ مسيرته فى عهد أكبر . ثم ازدهر فى عصر جهانجيز . وبلغ أوج ازدهاره فى عصر شاه جهاه . نتبين ذلك كله من خلال الزخارف المعمارية (شكل ٩) التى وجدت على هذه العمائر والتى بواسطتها استطعنا أن نتعرف على الطراز المعمارى الذى ساد فى عصر هؤلاء الأباطرة . وقد يعود السبب فى التسمية السابقة (طراز كلاسيكا) للدلالة على العمارة فى الفترة السابقة . الى مواد البناء المستخدمة . ففى عصر جهانجيز على سبيل المثال استخدم فى البناء الرخام والمرمر . وكذلك الحجر الجيرى الأبيض .

أما فيما يتعلق بالحوائط الخارجية فكانت كلها عبارة عن أقواس وعقود ولم نر فى تلك الفترة الحوائط المسطحة الخالية من الزخارف وحتى عندما ظهرت تلك الحوائط فكانت تزخرف من الخارج بمجموعات من العقود الفارسية المنفوخة ، Kiel Arch بالاضافة الى دخلات فى جسم الحوائط تنتهى بنفس العقود ، كما هو الحال فى صورة تمثل مناقشات لجموعة من العلماء(٢٠) وكذلك صورة تمثل الاحتفال بالعيد

= وكانت هذه الاعمدة مستخدمة فى البوابة الموجودة فى فتح بور سكرى والمعروفة باسم Dschamic Maschschid وذلك البوابة الموجودة فى تاج محل ، على أن Diez يعتقد أن التشابه الموجود بين العقود الايرانية المدببة ومثيلاتها الهندية لا تخلو من الفروق الدقيقة .

(١٩) Strzygowski, Op. Cit., Taf. 38, Abb. III
Ibd., Taf. 38, III

(٢٠) تعتبر شخصية اكبر من اهم الشخصيات فى التاريخ المغولى الهندى تنقسم فترة حكمه تاريخيا الى ثلاث مراحل ، الفترة الأولى من سنة ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م حتى سنة ٩٨٣ هـ / ١٥٧٦ م والفترة الثانية من عام =

بالمسجد وفى هذه التصويرة نشاهد القيصر جهانجير جالسا مع أحد أبنائه وجمع غفير من رجال البلاط أثناء صلاة العيد ، والواقع أن هذه الصورة لها أهمية خاصة ليست لأنها دليلا على العنصر المعمارى الذى نناقشه فحسب ، بل لأنها من التصاوير النادرة التى تعطينا مشاهد مما يدور فى داخل المسجد ، الذى لم يقترب منه المصور الا فيما ندر(٢١) .

ونلاحظ فى الصورة أن جهانجير وابنه يتوسطان المسجد وهما جالسان القرفصاء على سجادة الصلاة ، وحول بوابة المسجد يقف بعض الحراس والجنود المصاحبين لموكب القيصر وابنه . لوحة [٤] .

واذا قمنا باحصاء عدد الأشخاص المرسومين فى هذه الصورة نجدهم خمسة وسبعون شخص ، ويعتبر ذلك نوعا من الواقعية فصلاة العيد يتجمع لها أعداد كبيرة من الناس فى مكان واحد ، وتتجلى مهارة الفنان هنا فى وضع الأشخاص فى تكوينات تتوائم فيها أوضاع هؤلاء

= ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م حتى سنة ١٠٠٩ هـ / ١٦٠١ م وفى المرحلة الاولى من حكم اكبر بسط نفوذه على الهندستان كلها وفى المرحلة الثانية استطاع تأمين حدود الهند الشمالية الغربية ومناطقها وفى المرحلة الثالثة توغل فى الدكن حتى تم له ضم اغلب مناطقها لملكه ، وكان لاكبر هذا سياسة خاصة تجاه الهنود الذين عاملهم على قدم المساواة مع باقية رعاياه ورفع عنهم بعض الضرائب المفروضة عليهم واستطاع بواسطة هذه السياسة ان يكتسب الهنود الى صفه ، واستطاع اقامة دار للعبادة « عباد خانة » مدينة فتحبور حاضرته الجديدة . تم بناؤها عام ٩٨٣ هـ / ١٥٨٥ م لتكون منتدى للفقهاء المتصوفة من رجال الدين وصفوة رجال الدولة يتدارسون فيها كتاب الله الكريم وعلوم التفسير والحديث ومسائل الفقه والتصوف والفلسفة ويذكر بعض المؤرخين ان اكبر يدرك ان بلاده الواسعة لا يمكن حكمها الا بقيام المؤاخاة والالفة بين اهلها على اختلاف مللهم وتباين عروقهم .

وانظر :

Lane-Pool, St. Medieval India under Mohameden Rule, London 1917, P. 260-62.

احمد محمود الساداتى ، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ص ٣٠١ .

(٢١) Strzygowski, J. Op. cit., Taf. 38, Abb. 112 - 113.

الأشخاص الاجتماعية (رجال البلاط — الحرس — عامة الناس) مع المساحة الممنوحة لهم فى داخل التصويرة . وبصفة عامة فان كثير من العناصر الفنية فى التصويرة موروث منذ عهد أكبر . وان كانت هناك ملامح تربطه بمخطوط جهانجير نامه .

على أن عمارة المسجد هنا بسيطة . فهى عبارة عن سور مبنى من حوائط مغطاة ببلاط بنى اللون بها أشكال دخلات على هيئة عقود من النوع الفارسى المعروف باسم Kielarch ويعلو سور المسجد افريز أبيض اللون أما ابوابة نفسها فهى خالية من الزخارف الا فيما يتعلق بشكلين زخرفين على هيئة زهور على جانبى المدخل . أما داخل المسجد فهو عبارة عن فناء واسع معطى بألواح الرخام . ويغطى هذا الرخام سجاجيد كبيرة الحجم وصغيرة الحجم . ثم درج يرمز الى المنبر الذى وقف عليه أحد الوعاظ يخطب خطبة العيد .

أما السقف فيظهر وكأنه قماش سميك مشدود بحبال الى أعمدة خشبية مثبتة بالأرض .

ويبدو هنا أن الأمر يتعلق بمصلى العيد أكثر من كونه يتعلق بمسجد (شكل ١٠) .

كما تتضح نفس طريقة زخرفة حوائط الأبنية فى صورة أخرى بمتحف الدولة ببرلين تحت رقم سجل In. V. Nr. I. 4596 fal. 25 توضح موكب « دار شيكو(٢٢) » ومن المعروف أن هذه المواكب كانت سمة من سمات حياة البلاط عند الأباطرة المغول بالهند والصورة محفوظة ومقاسها ٣ر٢٤ × ٥ر٣٤ سم ؛ ونشاهد فى الصورة الأمير دار شيكو ومعه أعداد غفيرة من أتباعه فى موكب بالمدينة ؛ ويمتطى الأمير فيلا

---

(٢٢) عن عمارة المسجد من خلال المخطوطات الاسلامية انظر :
Mahmoud I. Hussein, The Architecture of the Mosque in Islamic Manuscripts, Amman 1985 (Annual of the Department of Antiquties of Jordan XXIX).

مزينا بزينات مختلفة . وهو يجلس فى هودج ويحيط برأسه هالة والملاحظ أن موكب الأمير يسير الى جوار سور أحد القلاع . والسور مرتفع ويتألف من جزئين أساسيين الجزء الأول العلوى من السور به عند الحافة مزاغل على مسافات متساوية ، والجزء الثانى فى أعلى سور القلعة شرفات مسننة أخذت أشكال العقود الفارسية المنفوخة أيضا . كما أخذت الشكل نفسه بوابة القلعة ، التى زخرف مدخلها أشكال لعقود ودخلات أسفلها رسم فيل فى وضع السير [لوحة ٦] .

والملاحظ أن السور مبنى بالحجر الأبيض (شكل ١١) كما نلاحظ تشابه العمارة فى التصاوير السابقة مع بعض الوجهات التى تمثل عمارة الحدائق فى ذلك الوقت .

ومناظر الحدائق من المناظر التى تكررت بكثرة فى التصاوير المغولية الهندية ويبدو أن الأباطرة المغول أنفسهم كانوا يقومون بالعناية بالأشجار والنباتات والزهور . كما تشير الى ذلك المصادر التاريخية التى أرخت لعصورهم . وفى صورة ترجع الى الربع الأخير من القرن السادس عشر ، ومحفوظة بمتحف الدولة ببرلين تحت رقم سجل Nr. 14506 Fal. 25 ومقاسها ٣ر٢٩ × ١٨ سم ، وفيها نشاهد أن الحديقة مقسمة الى قنوات رئيسية ، وبالاضافة الى نافورة فى وسط هذه القنوات . وهذه التقسيمات كلها أخذت أشكال المربعات ، والملاحظ أن الحديقة كانت مليئة بأشكال الأشجار بالاضافة الى الحشائش التى تغطى مساحات واسعة من أرضيتها .

ويبدو أن العمائر المرتبطة بالحدائق كانت دائما بسيطة ، فهى هنا عبارة عن جواسق تبدأ بمساحات واسعة فى الطابق السفلى ثم مساحة أقل فى الطابق الذى يليه ثم مساحة أقل فى الجزء العلوى الذى ينتهى بقبة من أعلاه ، والملاحظ أن الجواسق مفتوحة من الجهات الأربعة وسقفها يقوم على أعمدة رفيعة . ويبدو أن فكرة تغطية الحوائط بألواح الرخام الملون هو أمر تأثر فيه المصور الهندى بالمصور الايرانى

خاصة التيمورى(٢٣) شكل (١٢ ، ١٣) • وقد تطور أسلوب البناء المعمارى عند المصور المغولى الهندى فى المرحلة التالية فنجد أنه استعمل التبين فى الألوان للدلالة على الدخلات المعمارية السابقة(٢٤) • وأما فيما يتعلق بالزخرفة فنجده ينتقل من أسلوبه الذى كان يتجه فيه الى رسم التفاصيل الداخلية فى العمائر (فعلى سبيل المثال كان يرسم الزخارف فى السجاجيد وكأننا أمام سجاجيد حقيقية وهو أمر سبقه اليه المصور الايرانى) الى أسلوب اختفاء المبالغات الزخرفية من تصاويره . كما بدأ أيضا فى مرحلة ما بعد « أكبر » ظهور بعض الخصائص المعمارية المحلية مثل الدعامات الأفقية والرأسية التى كانت ميزة من خصائص العمارة الهندية (شكل ١٤) والتى سبق وأن رأيناها فى تصاوير أجانتا Adschanta وبدأنا نلاحظ ميل الفنان الى رسم العمائر بكثرة عن الفترات السابقة ؛ وخاصة فيما يتعلق بتلك الدعامات والأعمدة التى أصبحنا نراها فى مقدمة الصورة . وأصبحت الصورة تحوى كما هائلا من العمائر يذكرنا بما كانت عليه التصاوير فى المدرسة المغولية فى ايران ونلاحظ اتجاه المصور الى الاهتمام بالعمارة الداخلية وحتى يمكننا ادراك الفروق بين التصاوير المغولية الهندية وبين التصاوير الايرانية . نقوم بعقد مقارنة بين تصويرة من عمل المصور المغولى الهندى توضح عملية بناء مدينة « فتح بور » وبين تصويرة أخرى من عمل الفنان الايرانى بهزاد توضح بناء مسجد وفيها نجد أن بهزاد

---

(٢٣) يعد الأمير دار شيكو من الاشخاص ذوى المكانة الخاصة فى تاريخ المغول بالهند وقد ولد دار شيكو فى ١٦١٥ اثناء حكم قيصر جهانجير وهو احد ابناء القيصر شاه جهان وزوجته ممتاز محل والتى بنى لها بعد وفاتها فى ١٦٣١ الضريح المعروف باسم تاج محل فى اجر ودار شيكو جمع فى ذاته مجموعة من الصفات الايجابية منها التسامح فيما يتعلق بالدين وحب الطبيعة ، وحب الجمال والفن ، ولقد تبقى من عصر دار شيكو اثنين من الحدائق التى انشأتها فى كشمير بالاضافة الى العديد من الاعمال الفنية المصورة .

S Crowe, S. Haywood, The Gardens of Mughul India. London 1972.

(٢٤) Kuhnel, E., Op. cit., S. 44, 45 81.

رسم عناصر معمارية متنوعة فى صورته كى يجعل المشاهد يتفهم طبيعة الموضوع . بينما نجد المصور المغولى الهندى أحجم عن رسم كثير من العناصر المعمارية التى كانت ضرورية بدورها لكى يتفهم المشـاهد ما يدور فى الصورة ومن أمثلة ذلك تصويرتين لقلعة . يعطينا المصور فى المثال الأول كل ما يريد توضيحه . ولكن فى ايجاز شديد الى درجة أنه يعطينا فقط العناصر الضرورية جدا لفهم موضوع التصويرة وهو يتعلق بعملية اقتحام قلعة ونترك للمشاهد أن يستنتج التفاصيل بمفرده(٢٥) .
أما المثال الثانى والذى يؤكد حرص الفنان على ايجاز واختصار رسم العمارة فى تصويرته . والتى يدور موضوعها حول زيارة الامبراطور أكبر لبعض المساجين فى احدى القلاع . نجد فيه أن المصور قد رسم أسوار القلعة وبعض أجزائها الداخلية المتعددة والتى يتوسطها أكثر من ساحة(٢٦) شـكل (١٥) واذا كانت صورة القصر والتى سـبق أن عرضنا لها لم تعطنا سوى تفاصيل عن شكل السور الخارجى . بالاضافة الى الساحة الداخلية خلف الأبواب الا أن هناك صورة توضح أحد القصور الهندية بطوابقه الثلاث . طابق سفلى . وطابق أوسط . ثم طابق علوى . وربط المصور بين الطوابق الثلاث بواسطة بوابات . وقد أوضح لنا المصور أن الطابق السفلى قد ضم المخازن المختلفة للقصر . أما الطابق الأوسط فهو القصر ذاته ومركز اقامة صاحبه ، وأما الطابق العلوى فيشمل الحدائق وأماكن التسلية لسكان القصر(٢٧) شـكل (١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) والى جوار تصاوير قصـور الأباطرة والأمراء والنبلاء أصبحنا نرى فى التصاوير المغولية الهندية بعض التصاوير التى حوت مبان بسيطة ربما كان تخص عامة الناس ومن الملاحظ أن هذا النوع من المبان كان لا يتغير بتغير موضـوع الصـورة بالاضافة الى أن هذه العمائر ظهـرت بكثرة فى مدرسـة ...

---

(٢٥) Ibid., Taf. 7.

(٢٦) Strzygowski, Op. cit., Abb. 114.

(٢٧) Ibid., Taf. 6, Abb. 17.

الراجبوتا(٢٨) ومن المعروف أن معظم العمائر التى ظهرت فى تلك المدرسة (مدرسة الراجبوتا) لوحة [٧] كانت تعرف بالطابع الشعبى(٢٩) فى العمارة . وان كان قد ظهر بعضا من هذه العمائر فى تصاوير « حمزة نامه » وعلى أية حال فان بعضا من هذه المبان كانت عبارة عن أكواخ بسيطة من القش . مضافا اليها بعض العقود والمظلات المسقوفة أما بعضها الآخر كان بدون سقوف . كما أنه من الملاحظ أيضا أن هذه العناصر المعمارية كانت ذات جذور عميقة فى التاريخ المعمارى الهندى(٣٠) لوحة [٨] وعلى الرغم من كون هذه العمائر ذات صلة بالشعب وبحياته البسيطة الا أن مثل هذه المظلات قد وجدت فى عصر شاه جهان بصفة خاصة وأيضا فى عمارة الحدائق ، وكذلك العمائر ذات الطابع الدينى على سبيل المثال ظهرت فى عمارة القبة المعروفة باسم القبة المقدسة « للاله شيفا »(٣١) لوحة [٩] وفى بعض تصاوير تتعلق بنساك وزهاد مثل تصويرة توضح مجموعة من الزهاد يجلسون أمام النار وترجع الصورة الى الربع الأول من القرن السابع عشر الميلادى [لوحة ١٠] ، محفوظة بمتحف برلين تحت رقم سجل Im V 14596 Lal. 34 ومقاسها ١٦ × ٢١ سم ، ونشاهد فى التصويرة ستة من الزهاد حول النار وخلفهم كوخ من جذوع النخيل الضخم . أما السقف فهو عبارة عن ألواح خشبية الى جوار بعضها البعض . والجدير بالملاحظة أن الفنان رسم فى خلفية الصورة أجزاء من أبنية حجرية للدلالة على وجود مدينة بالقرب من هذا الكوخ الخشبى (شكل ٢٣ ، ٢٤) .

واذا كنا قد تحدثنا عن الحدائق الملحقة بمبان فان عمارة الحدائق

---

(٢٨) Ibid., Taf. 22 Abb. 70.
Gotz, Bilderatlas, S. 54.

(٢٩) يقصد بهذا التصوير ، مدارس محلية نشأت فى ظل رعاية الرجات اى حكام الولايات وبعض الأغنياء بها .

(٣٠) Strzygowski., Op. Cit. Taf. 27, Abb. 82.

(٣١) Diez, E., Die Kunst Indiens, Abb. 93.

نفسها كما ظهرت فى رسم المصور المغولى الهندى تستوجب أن يلقى عليها الضوء خاصة أن كثير منها كان نتاج لفكرة الامبراطور نفسه ؛ وعلى أية حال فانه من الثابت أن بابر قد جاء بالعديد من الأفكار حول عمارة الحدائق من ايران الى الهند(٣٢) وقد تطورت عمارة الحديقة حتى أصبحت مزارا تذكاريا . وكان يحدها من الخارج أربعة قنوات تأتيها المياه من حوض مركزى(٣٣) واعتبارا من القرن السابع عشر الميلادى ظهرت لنا أشكالا أكثر تطورا الا أنها كانت تتشابه مع النماذج الواقعية مثل حديقة قبر تاج محل(٣٤) • وعلى أن اختلاف مساحة الحديقة لم يمنع من أنها كانت تتألف من قنوات فرعية تقسم الحدائق الى أحواض ثانوية(٣٥) وبالاضافة الى عمارة الحدائق فان عمارة القنوات المائية التى كانت تمر أسفل جواسق مفتوحة أمر كثر ظهوره فى التصاوير المغولية الهندية •

وهكذا نجد أن المصور المغولى الهندى استطاع أن يجعل تصاويره ميدانا هاما لدراسة العمارة فى الهند بأنواعها المختلفة •

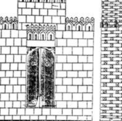
---

(٣٢) Strzygowski. Op. cit. Bild I, T. 21 A.

(٣٣) La Roche, /ndische Baukunst. III Abb. 204.

(٣٤) انظر مناظر متشابهة
Luise Gotheim. Indische Garten
Gotz. H.. Op. Cit., S. 64.

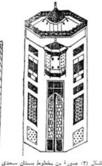
(٣٥) Gluck, E., Diez E., Die Kunst des Islam S.
Gotz. H., Op. Cit., Taf. 8, C.



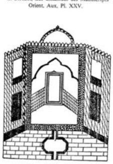


شكل (١) صورة من مخطوط الآثار الباقية للبيروني
E. Blochet, Les Enlamues des Manuscripts Orient. Aux Pl. XV

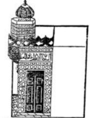
شكل (٢) صورة من مخطوط تاريخ المغول لرشيد الرمى المؤرخ ١٣١٠
E. Blochet, Les Enlamues des Manuscripts Orient. Aux. Pl. XXV.



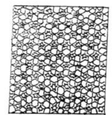
شكل (٣) صورة من مخطوط بستان سعدى للمصور بهزاد — محفوظ بدار الكتب المصرية
د. محمد مصطفى : بهزاد



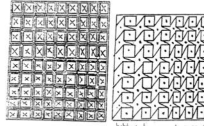
شكل (٤) شكل لأحد القاعات من الداخل — مخطوط ايرانى لمير على شيرنوائى ١٥٣٦
E. Blochet, Les Enlamues des Manuscripts Orient. Aux. Pl. LI.



شكل (٥) صورة لاحد التصور الايرانية من الخارج — ايران نهاية القرن الخامس عشر
E. Kuhnel, Miniaturmalrei in Islamischen Orient, S. 44

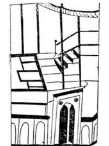


شكل (٦) صورة من مخطوط سيرة النبى — محفوظ بمتحف طوبقو استنبول
Arnold, The islamic Book.



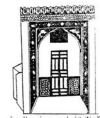
شكل (٧) تفصيل من صورة من مخطوط سيرة النبى المحفوظ بمتحف طوب كابوا استنبول
Arnold, The islamic Book.

شكل (٨) تفاصيل من مخطوط سيرة النبى المحفوظة بمتحف طوبقو باستنبول
I. Arnold, Islamic Book

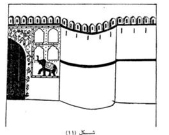




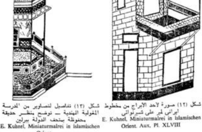
شكل (١٠) تفاصيل من صورة المدرسة المغولية الهندية توضح شكل المسجد من الداخل
E. Kuhnel, Miniaturmalrei in islamischen Orient.



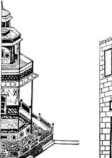
شكل (٩) تفاصيل من صورة من المدرسة المغولية الهندية – مجموعة فنية بمتحف موسكو
E. Kuhnel, Miniaturmalrei in islamischen Orient.



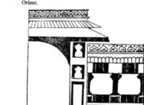
شكل (١١)
تفاصيل لشكل سور من المدرسة المغولية الهندية
E. Kuhnel, Miniaturmalrei in islamischen Orient.



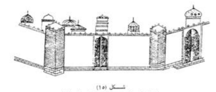
شكل (١٢) صورة لأحد الأبراج من مخطوط إيراني لمير علي شيرنوائي
E. Kuhnel, Miniaturmalrei in Islamischen Orient. Aux, Pl. XLVIII



شكل (١٣) تفاصيل لتصاوير من المدرسة المغولية الهندية ـ توضح منظر حديقة محفوظة بمتحف الدولة ببرلين
E. Kuhnel, Miniaturmalrei in Islamischen Orient.



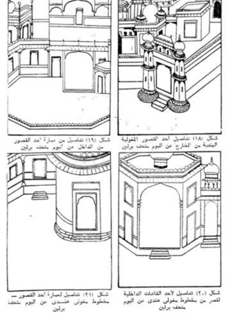
شكل (١٤)
تفاصيل من صورة من المدرسة المغولية الهندية ـ توضح مناظر لعمارة داخلية
R. Hickman, Indische Album Blatter



شكل (١٥)
تفاصيل لصورة سور من الخارج لاحد المدن
E. Kuhnel, Miniaturmalrei in islamischen Orient.

شكل (١٦) تفاصيل من صورة من مخطوطة مغولية هندية توضح شكل عمارة احد القصور من الداخل — عن البوم متحف برلين

شكل (١٧) صورة توضح تفاصيل واجهات القصور المغولية الهندية عن البوم متحف برلين

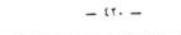


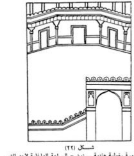
شكل (١٨) تفاصيل أحد القصور المغولية الهندية من الخارج عن ألبوم بمتحف برلين

شكل (١٩) تفاصيل من عمارة أحد القصور من الداخل عن ألبوم بمتحف برلين

شكل (٢٠) تفاصيل لأحد القاعات الداخلية لقصر من مخطوط مغولي هندي عن ألبوم بمتحف برلين

شكل (٢١) تفاصيل لعمارة أحد القصور — مخطوط مغولي هندي عن ألبوم بمتحف برلين





شكل (٢٢)

تفاصيل لصورة مغولية هندية — توضح الساحة الداخلية لاحد القصور عن البوم متحف برلين



لوحـــة (١)

E. Kuhnel. Miniaturmalrei
in islamischen Orient.



لوحـــة (٢)

عن البوم متحف برلين



لوحـــة (٣)

Basil Gray, Indian Painting



لوحـــة (٤)

E. Kuhnel, Miniaturmalrei
in islamischen Orient



لوحـــة (٥)
E. Kuhnel, Miniaturmalrei in islamischen Orient.



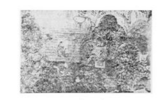
لوحـــة (٦)
عن ألبوم متحف برلين



لوحـــة (٧)
عن ألبوم متحف برلين



لوحـــة (٨)
Basil Gray, Indian Painting



لوحـــــة (٩)
Basil Gray. Indian Painting



عن ألبوم متحف برلين
لوحـــــة (١٠)

Bibliographie

Anand Goetz, Indische Miniaturen, Dresden 1967.

Bethhge, H. Die Indische Harfe, Berlin 1920.

Binney, E., Persian and Indian Miniatures from the collection of Edwin Binney, 3 rd exhibited at portland Art Museum Portland Maine 1962.

Browne, P., Indian Painting under the Mughals A. D. 1550 to A. D. 1750 Oxford 1924.

Hickmann, R., Geschichte der indischen Miniaturmalerei Leipzig 1975.

Hkhziri, S., Indische Miniaturen der Islamischen Zeit Berlin 1921.

Hussein, I. Mahmoud, Annual of the Department of Antiquities of Jordan, The Architecture of the Mosque in Islamic Manuscripts., Amman 1985.

Kuhnel E., Miniaturen malerei in islamischen Oreint, Berlin 1923.

Kuhnel, E., Moghul - Malerei Berlin 1955.

Pinder - Wilson, R. H., Paintings from the Muslim Courts of India., London 1976.

Strzygowski, J., Die indischen Miniaturen in Schlosse schonbrunn, Wien, 1923.

Strzygowski, J. Asiatisch Miniatureenmalrei in Anschlub an Wesen und werden der Mogulmalerei Klagenfuhrt 1933.

Swarup, S., The Arts and crafts of India and Pakistan, Bombay 1957.

Tyulayew, S., Miniatures of Babur Namah, Moscow 1960.

Welch, S. C., Early Mughal Miniature Paintings from two private collections shawun at the Fogg Art Museum, Ars orientalis Voll. III 1950.

Welch, S. C., Indische Buchmalerei unter dem GroBmaghulen 16. bis 19 Jahrhundert, Munchen 1978.

Welch, S. C., The Art of Mughal India, New York 1963.

Wilkinson, J. V. S., Mughal Painting, London 1948.



المراجعات والتقــارير وعرض الكتب



بحوث فى تاريخ الاسلام وحضارته(*)

تأليـف

الاستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور

استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

عرض : محمد نجيب الوسيمى

ما زال ـ وسـيظل ـ تاريخ الدولة الاسـلامية وحضارتها فى العصور الوسطى موضع اهتمام الباحثين المسلمين وغير المسلمين . ويبدو هذا الاهتمام فى عديد الموسوعات والمؤلفات والبحوث التى تظهر بين يوم وآخر ، أو فى الكثير من الندوات والمؤتمرات التى تعقد بين فينة وأخرى ، وكلها تستهدف القاء ضوء على جانب من جوانب تلك المسيرة التاريخية والحضارية الضخمة .

وقد كان لاستاذنا الجليل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشـور شرف الاسهام فى تلك الجهود على مدى الأربعين سنة الأخيرة ، فنشر عددا من البحوث حول تاريخ الاسلام وحضارته فى العصور الوسطى ، كما شارك فى عدد من الندوات والمؤتمرات ـ العالمية والاقليمية والمحلية ـ التى استهدفت تفسير ما استغلق من الظواهر المرتبطة بعالم الاسلام . وظهرت هذه البحوث والدراسات متباعدة عن بعضها البعض فى الزمان والمكان ، ولكن يربط بينها جميعـا رباط قوى هو تاريخ الاسـلام وحضارته .

(*) الناشر / عالم الكتب ، ٣٨ ش عبد الخالق ثروت ، القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٨٧ .

غير أن هذا التباعد فى الزمان والمكان الذى اتصف به صدور هذه الدراسات . جعل من الصعب أو المتعذر على كثير من الباحثين الرجوع اليها والافادة منها ، بل والعثور عليها ، حتى ما نشر منها ضمن أعمال المؤتمرات العلمية ، تم نشره تحت اشراف جهات حكومية أو شبه حكومية ، فكان نصيبه — شأن المطبوعات الحكومية فى كل زمان ومكان — أن يكدس فى المخازن ، تحت اشراف « أمين العهدة » ، وهذا بدوره لا يستطيع أن يتصرف فى نسخة منها الا بعد موافقة العديد من أرباب الامضاءات والتوقيعات .

ونظرا لحاجة الباحثين الماسة الى هـذه البحوث والدراسات العلمية للاستفادة منها فقد رأى استاذنا الفاضل أن يجمعها ويقوم بنشرها ، وتخير بصفة مبدئية هذه المجموعة التى نعرض لها اليوم فى هيئة مجلد ضخم متكامل ، سائلين الله العلى القدير أن يمكنه قريبا من نشر البقية فى جزئين تاليين .

وقد احتوى هذا السفر القيم على ثلاثة عشر بحثا . كل بحث منها يعبر عن رؤية جديدة ، وفكر جديد ، ومنهج جـديد لجانب يستحق الدراسة من جوانب التاريخ الاسلامى ، وهذه البحوث هى :

— مراجعات لكتابات بعض المستشرقين المحدثين عن الاسـلام وحضارته .
— أضواء جديدة على حركة الردة فى صدر الاسلام .
— الاسـلام والتعريب .
— البحر المتوسط شريان الثقافة الاسـلامية فى القرن الرابع الهجـرى .
— الحياة الاجتماعية فى المدينة الاسلامية .

— بعض أضواء جديدة على المؤرخ أحمـد بن على المقريزى وكتاباته .

— ابن عساكر والمجتمع الدمشقى فى عصره .

— المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية .

— المجتمع الشامى فى العصر العثمانى بين العصـور الوسطى والحـديثة .

— ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية .

— مدينة القدس فى عصر سلاطين المماليك .

— مكانة الاسلام فى برامج كليات الطب فى جامعاتنا .

— الطب الاسلامى فى الجامعات الأوربية فى صدر عصر النهضة .

وسنتحول فيما يلى أن نعرض لبعض هذه الموضوعات .

وبالنسبة للموضوع الأول وعنوانه « مراجعات لكتابات بعض المستشرقين المحدثين عن الاسلام وحضارته » ، فقد عرض فيه الباحث للبذور الأولى لحركة الاستشراق فى غرب أوربا ، وبواعثها الدينية ، والاقتصادية والفكرية ، ذلك أنه ظهر فى أوربا فى مرحلة معينة — منذ القرن الثالث عشر للميلاد فصاعدا — تياران متوازيان ، سارا جنبا الى جنب . أولهما تيار الاهتمام بتراث المسلمين فى شتى العلوم والدراسات ، وقد تبنى هذا التيار بصفة أساسية أهل الحركة الفكرية الذين وضعوا بذور النهضة الأوربية فى أواخر العصور الوسطى ، وعلى رأسهم رجال الجامعات ، معلمون ومتعلمون . فى حين كان التيار الثانى يعبر عن شعور الكراهية للاسلام وحضارته ، فتعمد تشويه صورته ، وصورة كل ما ارتبط به من حركات دينية ، وسياسية وفكرية . وقد تبنت هذا التيار الأخير وشجعته الكنيسة وبعض المنظمات الدينية التى ظهرت فى غرب أوربا فى أواخر العصور الوسطى . وتحت تأثير

هذين التيارين المتوازيين تمت حركة الاستشراق فى غرب أوربا • ثم ناقش الاستاذ الباحث أهم كتابات بعض المستشرقين المحدثين عن الاسلام وحضارته وفند كل المحاولات التى استهدفت تشويه صورة الاسلام . والانتقاص من أثره الحضارى والتاريخى •

وتناولت **الدراسة الثالثة** موضوعا من الموضوعات التى أثارت جدلا كبيرا فى التاريخ موضوع انتشار الاسلام من ناحية ، واللغة العربية من ناحية ثانية ، وما بين هاتين الظاهرتين من روابط • ولو كان الأمر مقتصرا على مجرد ظاهرتين من الظواهر العابرة فى التاريخ ، لما استحق كل هذا الجدل الطويل ، ولكنه يتخطى ذلك الى أن أكبر حضارة عرفها العالم أجمع فى العصور الوسطى ، قامت على أساس هاتين الظاهرتين ، مما أكسب الموضوع الأهمية والخطورة • وبعبارة أخرى فان الحضارة الاسلامية العربية — التى غذت العالم الغربى الحديث بكثير من أسباب نهضته — قامت ، مثلما يتضح من اسمها ، على أساس دعامتين هما العروبة والاسلام ، بحيث كانت اللغة العربية هى الأداة التى عبرت بها هذه القوة الحضارية عن نفسها ، فى حين كان الاسلام القوة الروحية التى اكسبتها شخصيتها ومثلها وفلسفتها ونظرتها الى الحياة •

وعالج **البحث الرابع** موضوع « البحر المتوسط شريان للثقافة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » باعتبار أن التفاعل الحضارى بين أجزاء المجتمع الاسلامى فى حوض البحر المتوسط بلغ ذروته ، وأن مصر قامت خلال هذا القرن بدور المركز العصبى المنظم للعلاقات الثقافية بين أجزاء ذلك المجتمع بعضها وبعض ••• وليس معنى ذلك ربط هذه الحقائق ربطا دقيقا محددا بالفترة الواقعة بين سنتى ٣٠٠ ، ٤٠٠ للهجرة أو ما يقابلها من التقويم الميلادى • فقد بدأت ثمار هذه الظواهر الحضارية تتعقد فى حوض البحر المتوسط قبل بداية القرن الرابع الهجرى بسنين ، واستمرت تؤتى أكلها بعد نهاية القرن الرابع بسنين أيضا ، كل ما فى الأمر هو أن القرن الرابع الهجرى بالذات شهد نضج

هذه الثمار فى ظل قيام الخلافة الأموية بالأندلس . والخلافة الفاطمية فى افريقية ومصر . واستقرار الامور للمسلمين . فى جزر صقلية والبليار واقريطش .

أما الدراسة الخاصة فقد عالجت موضوع « الحياة الاجتماعية فى المدينة الاسلامية » فعرضت لأهمية المدن الاسلامية ورقى الحياة الاجتماعية فيها مقارنة بما شهدته المدينة الأوربية فى العالم الغربى من ذبول ملحوظ ، وذلك بعد سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب سنة ٤٨٦ م . وقد تعرض الباحث للبناء الاجتماعى للمدينة الاسلامية فى العصور الوسطى ، وأركان الحياة الاجتماعية فيها . والمؤسسات العديدة التى زخرت بها . حيث كان يراعى دائما عند تأسيس مدينة اسلامية جديدة وفرة المرافق والمؤسسات العامة فيها ؛ كالحمامات والأسبلة والبيمارستانات والفنادق والوكالات والجوامع والمدارس ومكاتب الأيتام وغيرها .

وقد امتازت المدن الاسلامية فى العصور الوسطى بحياة اجتماعية متعددة الألوان . واسعة النشاط . متباينة المؤسسات والمنشآت . مما أضفى على الحياة داخل أسوار هذه المدن قدرا من الحيوية ، ليس له مثيل فى بقية أنحاء العالم المعاصر . ومن الواضح أنه مهما تنوعت الظروف التى أحاطت بشتى المدن الاسلامية وذلك تبعا لاختلاف جذورها الحضارية . قبل الاسلام . وتباين أوضاعها الجغرافية ... فان هناك قدرا كبيرا واحدا مشتركا بين مختلف هذه المدن . جعل بينها عنصرا واحدا من عناصر الوحدة ، استمد أصوله من روح الاسلام وقيمه وتقاليده من ناحية ، ومن الظروف والملابسات العامة التى أحاطت بتطور الحضارة الاسلامية على مر القرون . من ناحية أخرى .

وتطرقت الدراسة السابعة لموضوع « ابن عساكر والمجتمع الدمشقى فى عصره » لأن العصر الذى عاش فيه ابن عساكر وكتب

فيه تاريخه الخاص بتاريخ دمشق يمثل حلقة من أخطر حلقات تاريخ بلاد الشام على مر الأيام والعصـــور . ولذا ، فان كلمة كتبها مؤرخ ورع أمين صادق — مثل ابن عساكر — عاش فى ذلك العصر ، ورأى بعينيه ، وسمع بأذنيه ، وأحس بفؤاده ، ما لم يره أو يسمع به أو يحس بوقعه غيره — لابد أن يكون لها وزنها وأهميتها فى الكشف عن طبيعة ذلك العصر وأوضاعه .

واذا كان ابن عساكر قد استمد مكانته فى حياته من كونه محدثا وحافظا واماما من أئمة الحديث ، فانه استمد شهرته ومكانته بعد وفاته من كونه مؤرخا ومؤلفا فى علم التاريخ ، وصاحب أكبر موسوعة عرفها التاريخ الاسلامى فى تاريخ دمشق .

واستعرض البحث الثانى عشر « مكانة الاســلام فى برامج كليات الطب فى جامعاتنا » ، وذلك ليس بقصد تحويل كليات الطب ، فى جامعاتنا الى كليات للشريعة وأصول الدين أو ادخال العلوم الدينية — مثل الحديث والتفسير والفقه كمقررات رئيســية قائمة بذاتها ضمن برامج كليات الطب . ولكن ما يعنيه الاستاذ الباحث هو أن يلم طلاب الطب فى جامعاتنا بقدر من المعرفة عن روح الاسلام ومعنوياته وآدابه ونظرته الى علم الطب ، وأصول وآداب مزاولة مهنة الطب فى الاسلام ، وذلك كله فى ضوء دراســة تراجم بعض مشــاهير أطباء المسلمين ، لاتخاذهم قدوة حسنة فى حياتهم العامة والخاصة ، وفى حرصهم على مباشرة عملهم داخل اطار اسلامى واضح المعالم . وقدم أستاذنا عددا من المبادىء الخلقية الهامة المستقاة من روح الاسلام وتعاليمه من جهة ، ومن سير الأطباء فى العصر الذهبى للحضارة الاسلامية من جهة أخرى . لو استطعنا أن نلقنها لطلاب الطــب فى جامعاتنا وجعلهم يتشبعون ويؤمنون بها ، عن طريق مباشر أو غير مباشر ، فاننا نكون قد نجحنا فى ايجاد مكان للاسلام فى برامج كليات الطب فى بلادنا ،

وخلق جيــل جــديد من الأطباء يؤمنون بآداب المهنة الجليلة التى يزاولونها .

أما الدراســة الأخيرة فقد تعرضت لموضـوع « الطب الاســــلامى فى الجامعات الأوربية فى فجر عصر النهضة » وتناول فيه الاســـتاذ الباحث دور الطب الاسلامى فى جامعات ايطاليا وفرنسا وأسبانيا فى فجر عصر النهضة . ومنه يتضح كيف حرصت هذه الجامعات على تلقف معارف المسلمين فى الطب ، واحتضان هذه المعارف والافادة منها ، ثم تصديرها الى بقية الجامعات الأوربية الجديدة . التى تفرعت عنها واستقت منها نظمها ومناهجها . ويمكن القول أن الطب الاسلامى ساد غرب أوربا فى عصر النهضة ، واعتمدت عليه الجامعات الأوربية منذ نشأتها . ويعترف راشدال — وهو رغم تعصبه ضد أثر الحضـــارة الاسلامية يعتبر من خيرة من أرخوا لنشأة الجامعات الأوربية — يعترف بأنه « ما كاد يحـل القرن الرابع عشر حتى صارت السيادة للطــب الاسلامى فى كافة كليات الطب فى الجامعات الأوربية » .

وأخيرا ، حسب الطب الاسلامى أن بعض مؤلفات علماء المسلمين فيه — مثل كتاب القانون لابن سينا — ظلت مرجعا أساسيا فى الجامعات الأوربية حتى القرن التاسع عشر ، وأنه منذ القرن السادس عشر ظهرت له أكثر من خمس عشرة طبعة . وفى ذلك يقول أوازر « أن كتاب القانون لابن سينا استمر مرجعا أساسيا فى الطب فى العالم أجمع أطول من أى كتاب آخر » .

هذه عجالة عن بعض البحوث التى عالجها الاســـتاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى كتابه الأخير المشار اليه . والحق أن كل بحث منها يعتبر فتحا جديدا لأفق من آفاق تاريخ الاسلام وحضارته ، وهو الميــدان الذى ما زال فى حاجة الى مزيد من جهــود المؤرخين والباحثين .





دليـل الرســائل الجامعية

أولا : رسائل التاريخ الاسلامى(*)

١ – الحياة السياسية وبعض مظاهر الحضارة فى الموصل والجزيرة من بداية العصر العباسى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى

رسالة دكتوراه للباحثة/ يمنى رضوان أحمد رضوان

– يتناول هذا البحث الحياة السياسية وبعض مظاهر الحضارة فى الموصل والجزيرة من بداية العصر العباسى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى . ويتجلى فيه الحديث عن الموصل والجزيرة قبل قيام الخلافة العباسية ، وكيفية دخولهما فى حوزة العرب وسياسة الامويين فى توطيد سلطان خلافتهم بها ويعرض للاحوال الداخلية بالموصل والجزيرة من مستهل العصر العباسى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى والأوضاع السياسية فيهما خلال القرن الرابع الهجرى ، وجهود العباسيين فى صد غارات البيزنطيين عن الثغور الجزرية ومظاهر الحضارة فى الموصل والجزيرة .

– وقامت الباحثة بتقسيم البحث الى خمسة فصول :

* بدأت الباحثة دراستها بالحديث عن اقليم الموصل والجزيرة قبل قيام الخلافة العباسية وكيفية دخولهما فى حوزة العرب وسياسة الأمويين فى القضاء على الفتن التى ناهضتهم فى الموصل والجزيرة .

* كذلك تناولت الباحثة دراسة الأحوال الداخلية بالموصل والجزيرة من مستهل العصر العباسى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى فتعرضت لأثر ولاة العباسيين فى الموصل والجزيرة فى تلك الفترة والحركات المناوئة للعباسيين فى مدن الجزيرة التى كان معظمها من الخـوارج .

(*) اعداد هويدا عبد المنعم سالم ادريس .

* كما ركزت الباحثة اهتمامها على دراسة الأوضاع السياسية في الموصل والجزيرة خلال القرن الرابع الهجري فتحدثت عن علاقة الحمدانيين في الموصل بالعباسيين ، ووضحت موقف بني مروان وبني بويه من الحمدانيين . وكيف زال حكم الحمدانيين وخلفهم العقيليون .

* وعنيت الباحثة بدراسة مدى اهتمام العباسيين بتأمين منطقة الثغور وجهودهم في صد غارات البيزنطيين عن الثغور الجزرية .

* ومن الموضوعات التي تناولتها الباحثة دراسة مظاهر الحضارة في الموصل والجزيرة فتحدثت عن التنظيمات الادارية والحالة الاقتصادية ومظاهر تقدم العمران .

* وختمت الباحثة دراستها بأهم النتائج التي توصلت اليها .

٣ — الاباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية الى هجرة بني هلال الى بلاد المغرب
(٢٩٦ — ٤٤٢ هـ) (٩٠٩ — ١٠٥٨ م)

رسالة ماجستير للباحث/ مسعود مزهودي

— يتناول موضوع البحث « الاباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية الى هجرة بني هلال الى بلاد المغرب (٢٩٦ — ٤٤٢ هـ) (٩٩ — ١٠٥٨) » .

وترجع أهمية الموضوع لسببين : أولهما أن الاباضية هي الفرقة الثانية من الخوارج التي استطاع اتباعها أن يؤسسوا في بلاد المغرب دولة دامت قرابة قرن ونصف قرن من الزمن ، وثانيهما أن هذه الفرقة خلفت لنا تراثا فكريا قيما لا يزال معظمه محتاج الى دراسة .

— وقام الباحث بتقسيم موضوعه الى خمسة فصول وخاتمة :

* تحدث فى الفصل الأول عن انتقال الاباضية من تاهرت الى وارجلان بعد سقوط الدولة الرستمية ثم تطرق الى الانقسامات المذهبية التى حدثت فى وارجلان وأثرها على المجتمع الاباضى وأنهى الباحث هذا الفصل بالحديث عن هجرة الاباضية الى منطقة وادى ميزاب مع بداية القرن الخامس الهجرى .

* أما الفصل الثانى فخصصه الباحث لدراسة علاقات الاباضية مع دول المغرب فتحدث عن علاقتهم بالفاطميين . وبنى زيرى وبنى حماد . وبأخوانهم فى افريقية والمشرق .

* وخصص الباحث الفصل الثالث للحياة الاقتصادية فتناول أهمية وارجلان وسدراته الاقتصادية وتحدث عن الطرق التجارية فى المغرب الأوسط . ثم تحدث عن المبادلات التجارية بين مدن المغرب ووارجلان . وبين وارجلان وبلاد السودان .

وختم هذا الفصل بالحديث عن المستوى الاقتصادى الذى حققه نشاطهم التجارى .

* وفى الفصل الرابع قام الباحث بدراسة نشأة نظام العزابة . فتناول شروط العضوية فى مجلس العزابة . والآداب التى يجب أن يتصف بها الأعضاء . ومهام كل عضو . وأبرز الدور الذى لعبه هـذا النظام فى الحياة الاجتماعية .

* أما الفصل الخامس فقد خصصه الباحث للحياة الثقافية فدرس نظام التعليم عند الاباضية من حيث تصنيف التلاميذ والطلبة ، والمشرفين على التعليم وأوقات الدراسة . وسير حلقات التدريس . وطريقة الامتحانات . ثم تحدث عن علماء الاباضية ودورهم فى الحياة الثقافية .

* الخاتمة وتناولت أهم النتائج التى توصل اليها الباحث فى دراسته .

٣ — التطور الاقتصادى لولاية افريقية فى عهد الاغالبة
(١٨٤ هـ — ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ م — ٩٠٩ م)
رسالة ماجستير للطالب/ حسنى ابراهيم اسماعيل مبارك

— ترجع أهمية هذه الدراسة الى أنها تتناول موضوعا يهدف الى استجلاء مظاهر التطور الذى شهدته النواحى الاقتصادية فى أفريقية خلال عهد الأغالبة الذى استمر ما يزيد على قرن من الزمان .

— وقام الباحث بتقسيم دراسته الى أربعة فصول وخاتمة :

* تناول فى الفصل الأول الأحوال الداخلية فى افريقية فى عهد الأغالبة ، فتحدث عن قيام دولة الأغالبة ، والاحوال الداخلية فى افريقية وأبرز دور الأغالبة فى اقرار الأمن والاستقرار بهذا الاقليم ، وتعرض الباحث للجهاز الادارى فى عهدهم فوضح سياسة الأغالبة فى تنظيم أمور دولتهم الداخلية .

* وخصص الباحث الفصل الثانى لدراسة التنظيمات المالية فتحدث عن الموارد المالية ونظام انفاقها على مصالح الدولة ، كما وجه اهتمامه لدراسة الدواوين التى اختصت بالشئون المالية وحرص على توضيح دور الأغالبة فى تطور هذه الدواوين .

* وعنى الباحث فى الفصل الثالث بدراسة « الحالة الاقتصادية » فتحدث عن الثروة الزراعية ودور الأغالبة فى توفير مياه الرى وانماء المحاصيل الزراعية .

كما تناول دور الأغالبة فى تطور الصناعات المختلفة .
كذلك تناول الباحث النشاط التجارى فى عهد الأغالبة موضحا دور الأغالبة فى انعاش التجارة الخارجية والداخلية . وختم الباحث حديثه فى هذا الفصل بدراسة المعاملات المالية والتجارية فأبرز دور

الأغالبة فى اصدار عملة خالصة . وتحدث عن الصيرفة كوسيلة من وسائل المعاملات التجارية .

* وركز الباحث اهتمامه فى الفصل الرابع على دراسة أثر التطور الاقتصادى مع مجتمع الأغلبية فأشار الى الترف والبذخ اللذين ظهرا فى حياة الامراء وكبار رجال الدولة خلال هذه الفترة ، كما تحدث عن الغناء والموسيقى والاحتفال بالأعياد الدينية ، كما اهتم بالحديث عن الطعام واللباس .

وختم الباحث هذا الفصل بالتحدث عن أثر التطور الاقتصـــادى على ما استحدثه الأغالبة من مدن وغيرها من المنشآت الدينية والمدنيـــة .

* وأوجز فى الخاتمة ما انتهى اليه البحث من نتائج .

٤ — بنوكندة منذ ظهور الاسلام حتى أواخر القرن الأول الهجرى

رسالة ماجستير للباحث/ عطية طه عبد العزيز ابراهيم

تتناول هذه الدراسة بنوكندة منذ ظهور الاسلام حتى آخر القرن الأول الهجرى .

فقد قام بنو كندة بعد اعتناقهم للدين الاسلامى بدور هام فى التاريخ الاسلامى ، فقد علا شأنهم فى القرن الأول الهجرى ، باشتراكهم فى حركة الفتوحات الاسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين ، وبعد قيام الدولة الأموية وقف بنوكندة موقف المعارضة من هذه الدولة .

قام الباحث بتقسيم رسالته الى تمهيد وأربعة فصول :

— تناول الباحث فى التمهيد الحديث عن قبيلة كندة قبل الاسلام وبين

نسبه وموطنها وعلاقتها بالقبائل العربية المجاورة وديانتها قبــل الاسلام ، ثم دخولها فى الدين الاسلامى .

* وخصص الفصل الأول للتحدث عن بنى كندة فى عصر الراشدين فتعرض لاشتراك الأشعث بن قيس الكندى فى الفتح الاسلامى للعراق والشام أثناء خلافة عمر بن الخطاب وبلائه فى معـركة القادسية ونهاوند واليرموك ، ثم انضمامه الى جانب على بن أبى طالب فى نزاعه مع معاوية ، ثم تناول موقف الأشعث بن قيس من التحكيم والخوارج .

* وعنى الباحث فى الفصل الثانى بدراسة بنى كندة فى أوائل العهد الأموى ، فتحدث عن تزعم حجر بن عدى الكندى حركة الشيعه فى العراق فى عهد معاوية ، وأسباب ثورته على الأمويين ، وبين كيف قضى على حركته ، وما كان لذلك من أثر على الشيعة ثم شرح موقف محمد بن الأشعث بن قيس الكندى من حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى بالكوفة .

* وتناول فى الفصل الثالث الحديث عن تولية عبد الرحمن بن الأشعث زعامة بنى كندة ودوره فى الأحداث السياسية فى خلافة عبد الملك ابن مروان .

* ووجه الباحث اهتمامه فى الفصل الرابع الى دراسة نتائج حركة عبد الرحمن بن الأشعث فتتبع تطور سياسة الأمويين تجاه الموالى وبين كيف لقوا كثيرا من العسف والشدة على يد الحجاج بسبب اشتراكهم فى حركة ابن الأشعث ، وشرح كيف عاملهم عمر بن عبد العزيز معاملة تنطوى على العدل والانصاف .

وتعرض فى حديثه عن نتائج حركة ابن الأشعث الى انحياز فريق من الموالى الى الشيعة والخوارج فى أواخر القرن الأول الهجرى .

* وانهى الباحث دراسته بأهم النتائج التى توصل اليها من الدراسة .

ثانيا : رســـائل العصور الوسطى(*)

العلاقات التجارية بين فلورنسا وسلطنة المماليك في القرن الخامس عشر الميــلادى

رسالة ماجستير للباحث / رشـيد باقة

تحتوى الرسالة على مقدمة عن أهم مصادر البحث ، وخمسة فصول وخاتمة ، فضلا عن عدد من الملاحق وقائمة بالمصادر والمراجع .

تناول الفصل الأول بالدراسة موضوع النشاط التجارى لسلطنة المماليك فى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى ، فعرض لأهمية الطرق التجارية المؤدية الى مصر ابان تلك الفترة ، وانهيار نشاط التجار الكارمية وأثره على النشاط التجارى لسلطنة المماليك . ثم تناول سياسة الاحتكار التجارى التى اتبعها سلاطين المماليك ومدى انعكاسها على علاقتهم التجارية مع المدن الايطالية .

ودرس الفصل الثانى عوامل ازدهار النشاط التجارى فى فلورنسا ، فتناول أهمية الموقع الجغرافى لفلورنسا ، وظهور نظام القومون ، وأثره على ازدهار النشاط التجارى فى فلورنسا . وتناول أيضا الصناعة وأثرها على ازدهار هذا النشاط . بالاضافة الى دور كل من النقابات وطوائف الحرف ، والمصارف والشركات المصرفية فى انماء التجارة الفلورنسية .

وتناول الفصل الثالث بالدراسة موضوع العلاقات التجارية بين فلورنسا وسلطنة المماليك وتطورها فى القرن الخامس عشر الميلادى ، فعرض موقف فلورنسا من المنافسة التجارية الدولية فى الشرق قبيل القرن الخامس عشر الميلادى بصفة عامة ، وبين المدن الايطالية فى حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة خاصة . كما تناول بالتفصيل

(*) اعداد محمد نجيب زكى الوسيمى .

العلاقات التجارية بين فلورنسا وسلطنة المماليك فى القرن الخامس عشر الميلادى .

وتعرض الفصل الرابع لدراسة موضوع التنظيمات التجارية والمعاملات المالية بين فلورنسا وسلطنة المماليك . فتناول نظم الرحلات وطرق التوصل للتجارة الى الشرق ابان تلك الفترة واجراءات استقبال القوافل التجارية فى موانىء السلطنة المملوكية . كما درس ماهية صادرات فلورنسا لسلطنة المماليك ووارداتها . والضرائب والرسوم الجمركية فى موانىء السلطنة المملوكية والمعاملات التجارية والنظام النقدى .

أما الفصل الخامس والأخير فقد تناول بالدراسة موضوع حياة الجالية الفلورنسية فى موانىء وثغور مصر والشام . فعرض لبعض مظاهر حياة تلك الجالية فى موانىء السلطنة المملوكية . كما تطرق الى فندق فلورنسا فى الاسكندرية الى جانب نشاط قنصل فلورنسا وطبيعة عمله وعلاقته بالسلطات المحلية .سواء أكان ذلك فى المدن والموانىء أم فى القاهرة وكشف البحث عن علاقة فلورنسا بسلطنة المماليك فى القرن الخامس عشر الميلادى قد مرت بمرحلتين متميزتين : المرحلة الأولى . تبدأ من سنة ١٤٢٢ م . تاريخ وصول أول سفارة فلورنسية الى القاهرة حتى نهاية النصف الأول من القرن الخامس عشر . وقد تميزت هذه المرحلة بعدم الاستقرار والتذبذب . ولا يرجع ذلك الى خلافات بين فلورنسا وسلطنة المماليك بقدر ما يعود الى ظروف سياسية مرت بها فلورنسا ابان تلك الفترة . وهى نشوب الحرب بينها وبين دوقية ميلانو . لمدة عشر سنوات . كلفتها خسائر كبيرة . بالاضافة الى الاضطرابات الداخلية التى عصفت بمدينة فلورنسا ، بسبب استفحال الخلافات السياسية بين طبقة النبلاء وطبقة التجار والصناع . وكذلك

الانهيار الذى لحق بالحياة الاقتصادية من جراء تلك الحرب • أما المرحلة الثانية من تاريخ العلاقات التجارية بين فلورنسا وسلطنة المماليك ، خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، فقد تميزت بالاستقرار ، حيث استعادت فلورنسا نشاطها التجارى مع سلطنة المماليك بطريقة منتظمة ، خاصة فى عهد السلطان قايتباى والأمير نوريتز دى مديتشى . اذ حصلت الجالية الفلورنسية على جميع الحقوق والامتيازات التجارية والاجتماعية بموانئ السلطنة • وبرهنت الدراسة على أن علاقة فلورنسا بسلطنة المماليك فى القرن الخامس عشر الميلادى ، كانت صورة صادقة لما كان يجب أن تكون عليه أية علاقات بين دولة اسلامية وأخرى أوربية ، تسعى كل منها الى تحقيق مصلحتها الخاصة بعيدا عن الخلافات الدينية والتاريخية ، بدليل انه لم يحدث ، طيلة هذه الفترة ، أى فتور فى العلاقات بين الطرفين بسبب خلافات دينية أو غيرها •

وقد اعتمد البحث على العديد من المصادر العربية المعاصرة لتلك الفترة كالقلقشندى ، والمقريزى ، وابن حجر ، وابن تغرى بردى ، وابن اياس ، والسخاوى ، والعينى ، والسيوطى وغيرهم • واعتمد بصفة أساسية على المصادر الأجنبية التى حوت المراسيم والمعاهدات التجارية بين الطرفين ، وتقارير هيئة قناصل البحر التى تولت الاشراف على شئون التجارة البحرية فى فلورنسا فى النصف الأول من القرن الخامس عشر • بالاضافة الى كتب الرحالة والحجاج الأوربيين الذين زاروا مصر وبلاد الشام ابان تلك الفترة من العصور الوسطى •

ثالثا : رسـائل التاريخ الحديث(*)

الملكيات الزراعية الصغيرة وأثرها فى الريف المصرى
من ١٨٩١ الى ١٩٣٠

رسالة ماجستير للباحث/ يحيى محمد محمود أحمد

اهتم الباحث فى هذا البحث بالملكيات الزراعية الصـغيرة من ١٨٩١ الى ١٩٣٠ نظرا للاهميـة الاقتصادية والاجتماعية التى تمثلها تلك الطبقة • وحدد الباحث عام ١٨٩١ بداية لفترة الدراسة على اعتبار أن عام ١٨٩١ هو تاريخ استقرار الملكية الزراعية لصـغار الملاك كما اختار الباحث عام ١٩٣٠ نهاية لفترة البحث لأن هذا العام هو عام الكساد العالمى الكبير وما اذلك من تأثير كبير •

وقسم الباحث هذا البحث الى تمهيد وستة فصول :

ففى التمهيد ركز الباحث اهتمامه على نشأة الملكيات الزراعيه الصغيرة •

وتناول فى الفصل الأول التغير الاقتصادى أثره على الملكيات الصغيرة •

وعالج فى الفصل الثانى مصادر الائتمان وأثرها على الملكيات الزراعية الصـغيرة ودور البنك الزراعى المصرى كمؤسسة مصرفية أنشئت لتمويل صغار الملاك والجمعيات التعاونية الزراعية كمصـدر لتمويل صغار الملاك •

واشتمل الفصل الثالث على تفتت الملكيات الزراعية الصغيرة فبحث عوامل تفتتها والجهود الى بذلت لتثبيتها •

(*) اعداد سحر حنفى .

كما خصص الباحث الفصل الرابع لدراسة أثر الأزمات الاقتصادية على المجتمعات الزراعية وتمثلت تلك الأزمات فى أزمة عام ١٩٠٧ ثم الحرب العالمية الأولى والكساد العالمى الكبير .

أما الفصل الخامس فيتناول صغار الملاك الزراعيين وسوق العمل الزراعى فبحث علاقات الانتاج فى الريف المصرى ومدى تأثير تفتت الملكيات الصغيرة على العمالة فى الريف .

وتناول الفصل السادس صغار الملاك والمشاركة السياسية فيدرس صغار الملاك فى الحركة الوطنية ، وموقف النظام النيابى من هؤلاء الملاك ثم يعالج الدور الثورى لصغار الملاك المتمثل فى ثورة ١٩١٩ وموقف الاحزاب السياسية منهم .

وينتهى البحث بالخاتمة التى تتعرض لأهم النتائج التى توصل اليها الباحث .

رقم الايداع : ٨٨/٧٣١٧

الترقيم الدولى ٩ — ٠٢٦ — ٢٣٨ — ٩٧٧

المطبعـة الاســلامية الحديثة
٤٢ (أ) شارع دار السـعادة ــ حلمية الزيتون
ت : ٢٤٧٥٢٥٢





The Egyptian Historian

REFEREED HISTORICAL STUDIES & RESEARCHES

Fourth Issue July, 1989

All Correspondence to be directed to :

Porf. Dr. Hamed Zayan Ghanem, The Chief Editor, Cairo University, Faculty of Arts, A. R. E.



CAIRO UNIVERSITY
FACULTY OF ARTS



The Egyptian Historian

REFEREED HISTORICAL STUDIES & RESEARCHES

4

JULY
1989

ISSUED BY
HISTORY DEPARTMENT





جامعة القاهرة
كلية الآداب



المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

٤

يوليو ١٩٨٩

يصدرها قسم التاريخ

محتـوى العـدد

المراجعات وعرض الكتب :

دليل الرسائل الجامعية :